طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

المجالس العلمية السلطانية
على عهد الدولة العلوية الشريفة

تأليف
الأستاذة آسية الهاشمي البلغيثي

الجزء الأول

1416هـ-1996م

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن موضوع المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، يعتبر موضوعاً هاما، ومبحثا خصباً، جديرا بالتناول والدراسة الشمولية المتوسعة، ذلكم أنه يتعلق بموضوع طريف، ومبحث علمي شيق وممتع، يبرز الأهمية الكبيرة والمكانة الجليلة التي كانت - ولا تزال- لهذه المجالس العلمية السلطانية منذ شاء الله سبحانه وتعالى أن تتولى هذه الدولة العلوية المنيفة مقاليد الحكم بهذه المملكة المغربية العتيدة، وتواصل رسالتها الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية، والعمرانية والحضارية، وتثبت دعائم الدولة وتوطد أركانها، وتشيد صرح المغرب الشامخ، ودولته القوية الناهضة، وتنشر ألوية الأمن والاستقرار والطمأنينة، وتجمع شمل الأمة المغربية، وتصون وحدتها الترابية والوطنية، ربطاً للحاضر بالماضي، واستكمالاً لما وضعته الدول التي تعاقبت على حكم المغرب من أسس وركائز متينة، وشيدته وأرسته من معالم ومآثر جليلة، جعلت دولة المغرب ومملكته السعيدة دولة وأمة قائمة على هدي الإسلام، ونوره المبين، والاستمساك بعروته الوثقى، والاعتصام بحبله المتين.

ومن هذا المنطلق يأتي الحديث في هذا الكتاب عن المجالس العلمية السلطانية التي اكتست على عهد الدولة العلوية الشريفة طابعاً خاصا متميزاً، فكانت بحق مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والنهضة الفكرية المزدهرة التي عرفها وشهدها عهد هذه الدولة العلوية المنيفة، ومع كافة ملوكها المجاهدين الأبرار. كما تبرز تلك المجالس العلمية السلطانية مدى التقدير الكبير، والعناية الفائقة التي كان يوليها بصفة خاصة ملوك هذه الدولة للعلم والعلماء، وللعلوم الإسلامية وثقافتها الأصيلة، وتظهر ما كانوا يحظون به لدى هؤلاء الملوك العظام من إعزاز وإكرام، وإجلال واحترام.

ولا غرو في ذلك، فقد كان ملوك هذه الدولة علماء أتقياء، جمع الله لهم بين سياسة الدنيا ورعاية الدين، وبين الملك والعلم، والورع والصلاح والفقه المتين، فلم يكن عهد ملك من هؤلاء الملوك الأشراف يخلو من تقريب العلماء إليه ومن تكوين مجالس علمية خاصة لديه، وهي مجالس كان لها دور كبير، وأثر إيجابي عظيم في ازدهار المسيرة العلمية بهذا المغرب العزيز، لما كانت تقوم به تلك المجالس العلمية من دروس دينية على المستوى العالي الرفيع، وتصدره من فتاوى شرعية دقيقة، وفي مسائل دينية واجتماعية واقتصادية، وفي قضايا وطنية هامة، وفي مسائل العلاقات الخارجية بين المغرب والشرق العربي والبلاد الإسلامية، والدول الأجنبية، فكانت تلك المجالس العلمية السلطانية تتميز بطابعها العلمي والاستشاري في كل القضايا التي تهم البلاد، دينية كانت أو اجتماعية، وطنية أو دولية. وكان ملوك هذه الدولة يشاركون العلماء في تلك المجالس، بما آتاهم الله من علم وفقه في الدين، ويناقشونهم فيما يتناولونه ويطرح عليهم من مسائل، ويبدون رأيهم العلمي في المسائل التي تكون مثار خلاف ونقاش قوي بين العلماء، ويحاورون ويقنعون بالحجة والدليل، ويكتبون ويؤلفون، ويشجعون العلماء على الكتابة والتأليف وتحقيق التراث الإسلامي الأصيل، ويعملون على طبعه ونشره، ويجتهدون في اختيار هذا المنهج أو ذاك في التعليم والتلقين، وانتقاء المواضيع والمؤلفات التي ينبغي أن تكون محل دراسة وتدوين، وكتابة وتأليف، أو يؤلفونها ويكتبونها بأنفسهم لتكون نماذج تحتذى في الإنتاج العلمي المفيد، مما جعل عهد هذه الدولة العلوية الشريفة يتميز مع كافة ملوكها بحركة علمية دائبة، ونهضة ثقافية إسلامية متواصلة، ليبقى هذا المغرب المسلم الكريم بلد العلم والعلماء، وبلد الأصالة والفقه في الدين، والتشبث بفضائله وشرعه الحكيم.

وإذا كانت هذه المجالس العلمية السلطانية قد شهدت في عهد كافة ملوك الدولة العلوية الشريفة نشاطاً علميا متواصلاً وعطاء فكريا متجددا، حيث تعدد عملها الإسلامي، وتنوع نشاطها الديني، وعطاؤها العلمي، فإن هذه المجالس العلمية قد عرفت في عهد أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله، رعاية كبيرة، وعناية فائقة، واهتماماً خاصا، وفر لها تنظيماً جديداً، وفتح لها آفاقا واسعة لتتمكن من أداء رسالتها الإسلامية والقيام بأمانتها الدينية، ومهمتها الاجتماعية والحضارية، وتواكب العصر بما يقتضيه من اجتهادات واستنباطات فقهية لمستجدات الحياة وقضاياها الطارئة، وإيجاد الحلول في ضوء الشريعة الإسلامية الحكيمة السمحة.

وهكذا تتجلى هذه العناية والرعاية الكبيرة للعلم والعلماء في إحداث المجالس العلمية الإقليمية بعديد من مدن المملكة وحواضرها الكبرى، وفي الكراسي العلمية بمساجدها، وفي الدروس الحسنية الرمضانية التي تتوج تلك المجالس وتزينها، وتضفي عليها وعلى علمائها في تلك الحضرة الحسنية ومجلسها المنيف هالة من الجلال والوقار، والتي تعتبر بحق منبراً حرا للعلم والعلماء، ومظهراً لحرية الفكر الإسلامي السليم، وتبليغ رسالة الإسلام، وهدايته الربانية، مما جعلها قبلة الأنظار ومحط الاهتمام كلما حل شهر رمضان من كل عام، تستقطب وتستضيف صفوة من أفاضل العلماء والمشايخ، وتشد إليها جلة من أكابر الفقهاء والأساتذة الأعلام، ورجال العلم والفكر من مختلف البلاد الإسلامية وأنحاء المعمور.

ولأهمية موضوع المجالس العلمية السلطانية في عهد الدولة العلوية الشريفة، ولما كان لها من رسالة دينية، ودور بارز في النهضة العلمية المغربية المباركة، ولحاجته إلى جمع وتأليف من مختلف كتب التاريخ المغربي التي تناولت هذه الحقبة، والقيام بدراسته دراسة موسعة تبرز جوانبه المتعددة، وتكشف عما يتصل به من معلومات وفوائد قيمة، فقد يسر الله لذلك الأستاذة المحترمة آسية الهاشمي البلغيثي خريجة دار الحديث الحسنية، فأعدت هذه الدراسة الموسعة في الموضوع، وقدمتها رسالة جامعية نالت بها دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية من دار الحديث الحسنية.

وهكذا تناولت في مقدمتها إطلالة عن أهم المؤلفات التي أرخت لعهد الدولة العلوية الشريفة، وتوطئة تاريخية ومدخلاً للدراسة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى صلب الموضوع، وتناولته في أربعة أبواب، خصصت كل باب لفترة وعهد من عهود ملوك هذه الدولة العلوية، وما كان في عهد كل ملك من ملوكها المجاهدين الأبرار من مجالس علمية سلطانية، متنوعة الأعمال والأهداف النبيلة، مبتدئة بعهد التأسيس مع المولى محمد الأول، ثم المولى الرشيد، والمولى إسماعيل، وانتهاء في الباب الرابع الذي خصصته للحديث عن المجالس العلمية المنيفة في عهد الازدهار والنهضة الحسنية، عهد أمير المومنين جلالة الحسن الثاني حفظه الله وأدام له النصر والتمكين. وبذلك جاءت هذه الدراسة والرسالة الجامعية مستوعبة لجوانب هذا الموضوع الطريف الهام، مستجمعة لمناحيه العديدة مما يجده القارئ بتوسع وتفصيل في أبواب وفصول هذه الدراسة القيمة المفيدة.

وانطلاقاً من الرسالة الإسلامية والعلمية الدينية والحضارية التي تضطلع بها الوزارة، ومن اهتمامها بطبع أمهات كتب التراث الإسلامي، والدراسات الإسلامية والإنسانية المتنوعة، فإن الوزارة يسعدها أن تطبع هذه الرسالة الجامعية الهامة في بابها وموضوعها، لتكون في متناول الدارسين المهتمين والباحثين المختصين، وأن تتقدم بها أولا إلى السدة العالية بالله، وتسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل طبعها ونشرها في سجل الأعمال الصالحة، والمبرات الدائمة، والحسنات الخالدة، لمولانا أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وأن يقر الله عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه سمو الأمير المجيد مولاي رشيد، ويحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة. إنه سبحانه سميع مجيب.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على الهادي الأمين، سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين.

مما لا جدال فيه أنه يوجد تفاعل بين المناخ الثقافي والبيئة الفكرية لكل عصر من العصور، وبين النمو الاقتصادي والاجتماعي، والمستوى الحضاري لذلك العصر، مما ينعكس سلبا أو إيجابا على نشاط الطبقة المثقفة، وعطاءاتها وإبداعاتها في سائر المجالات : الثقافية، والفكرية على اختلاف تياراتها، واتجاهاتها، وشُعبها....

وقد كان القاضي الجرجاني(1) أول من أثار قضية تأثير البيئة على المبدع عموما، وانعكاسها على إبداعه خصوصا، وذلك في معرض حديثه عن النقد الأدبي في عصره حيث يقول : «وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك....»(2).

ولم تلبث الدراسات المعاصرة والحديثة أن تبنت هذه النظرية على أوسع نطاق، مستفيدة من الدراسات والأبحاث النفسية التي تؤكد هذه النظرية، وتكرسها.

وقد كانت نشأتي في بيئة أصيلة محافظة، تقدس كل ما يمت بصلة إلى العروبة والاسلام، وتحيطه بهالة من الحب والإكبار والإجلال المنقطعي النظير.

ذلك أن طفولتي المبكرة صادفت وعاصرت فترة الكفاح والنضال من أجل حرية المغرب واستقلاله الذي انطلق من أحضان الدعوة السلفية، والقومية العربية، في إطار البعث الإسلامي، والرجوع إلى تعاليم الكتاب والسنة، والاعتصام بحبلهما، والسير على نهجهما في جميع مجالات الحياة : الخاصة والعامة، وبالتالي على أساس توطيد أواصر الوحدة الفكرية والعلمية بين بلدان العالم العربي والإسلامي، كخطوة أولى على درب الوحدة العامة الشاملة، بدافع الحنين إلى الخلافة الاسلامية.

---

(1) أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للجرجاني، ص : 20

كما شغفت منذ الصغر بالقراءة والمطالعة، فكنت أقرأ بنهم كل ما تصل إليه يدي من كتب ودوريات وغيرها...

وكانت خزانة بيتنا ذات طابع ديني إسلامي، وكتبها مشبعة بروح ومناخ تلك الفترة، الثقافي والفكري وغيره. فكانت تثور ثائرتي، وتنتابني الغيرة على تراثنا الثقافي والفكري والحضاري كلما اطلعت على رأي مغرض، يطعن في قدسيته، أو يحاول الحط من قيمته العلمية والحضارية بالغمز واللمز، تلميحا أو تصريحا.

فقد كان تراثنا العربي والإسلامي ولا زال أثيرا لدي، ولطالما منَّيتُ النفس بالتفرغ لخدمته، والعمل على صقله وبلورته، لإزاحة ما علق به عبر العصور التاريخية المختلفة، من أدران الاسرائيليات، وترهات الدجالين، وسفاسف غلاة الفقهاء المتطرفين، مما لا يصدقه العقل السليم، ويأباه المنطق العلمي المجرد، ومنهجيته التجريبية، ولا يقوم حجة للاسلام ولا للمسلمين، بل إنه يعتبر ثغرات يتسرب منها أعداء الاسلام من المناوئين المغرضين الذين في قلوبهم مرض - بالشرق والغرب - والذين ينفثون السم في الدسم ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون**﴾(3) من الصهاينة والشعوبيين، والزنادقة، والصليبيين من المستشرقين والمستعمرين وغيرهم، للطعن في الشريعة الاسلامية السمحة، ومصادرها العتيدة، ورسولها المصطفى الأمين ﷺ.

وأحمد الله تعالى الذي هداني وهيأ لي سبل تحقيق أمنيتي الغالية، والوفاء بعهد قطعته على نفسي أمام الله ورسوله، ونذرت نفسي لتحقيقه وأنا ساجدة قانتة لائذة في رحاب بيت الله الحرام، ورحاب المسجد النبوي، الفيحاء، وأجوائهما العبقة بالنفحات القدسية، والتجليات الإلاهية، ألا وهو تجريد قلمي، وتسخير سائر مواهبي وإمكانياتي - المادية والمعنوية - وجعلها وقفا على خدمة الشريعة الاسلامية السمحة، والتراث الاسلامي الخالد، بالدعوة إلى الله، وإلى العمل بالكتاب والسنة، وبالتالي المساهمة في نشر وتحقيق آثارهما على ضوء المناهج العلمية الحديثة، وفي إطار الدراسة والبحث الأكاديمي البنَّاء الهادف، وعلى محك الحقائق والتجارب العلمية الناصعة،...

---

(3) سورة : الصف، الآية : 8

وانطلاقا من هذا المبدإ المقدس انتسبت إلى دار الحديث الحسنية العتيدة، وشمـرت فيها عن ساعد الجـد والاجتـهاد والمثابـرة حتى تخـرجت منها - بحمد الله - في طليعـة الناجحين، كخطوة أولى في سبيل الوفـاء بعهد الله تعـالى، والالتـزام بـالنـذر الـذي نذرتـه للـرحمن، وأشـهـدت عليـه اللـه ورسوله،...

وها أنا بصدد الخطوة الثانيـة على نفس الدرب المبارك الميمون، إذ أقدم - بإذن الله وعونه - رسالتي هـذه : «المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولـة العلوية الشريفـة» بعد تيـه امتد سنوات في مجال اختيـار الموضوع وتسجيله، حيث اضطررت مـرات عديدة للبدء من الصفـر، وبعد مجهودات مضنية في بحوث عديدة، قطعت في كل منها أشواطا بعيدة المدى لا يستهان بها، حـتى هيـأت لي العنـاية الإلهيـة الظـروف المواتيـة لإتمام هـذا البحث.

فقـد انتشلني من وهدة التيـه في مهـامه اختيـار موضـوع لبحثي رأيٌ سـديد لأستـاذي ومديـري المحترم الـدكتور الجليل السيـد محمد فـاروق النبهـان، الذي تفضل - مشكورا - فاختـار لي الأستاذة المشرفة، الـدكتورة المقتدرة السيـدة عصمت دندش، وأقنعها حتى قبلت - مشكورة - الإشراف على رسـالتي هذه. كما انتقيت مـوضـوعها القيم بتـوجيهها وإرشادهـا، كخطوة ثانية على نفس الدرب القويم.

ولم تلبث أن بددت مخاوفي، وحـررتني من رهبة الابتـداء جلسات نيرة مفيدة ممتعة مـع أستاذتي المحترمة الدكتورة الجليلـة عصمت دندش، التي ذللت أمامي كل الصعاب، وأزاحـت عن نفسي ما اعتراني من تردد وحيرة - مألوفة في مثل هذه المواقف - وكلفـة التعامل مع المخطـوطات والمصـادر العتيقة... بما أسدته لي من نصائح وتوجيهـات، وما أبدته لي من ملاحظات قيمة صائبة... مما اتخـذته علامـات مضيئة اهتـديت بهديهـا في السير على المنهجيـة القويمـة التي رسمتـها لي، وقـادتني فيها بكفـاءة واقتـدار.

فما هي إلا جلسـات معـدودة أقبلت فيهـا بكليتي على النهل والعلل من دررها الغـالية، حتى وجدتني قد جمعت أطـراف إرادتي، وتملكني الإعجاب والاعتزاز بموضوع بحـثي، والاقتـناع بأهميتـه وجدواه، وإذا بـي أتقـدم

في مـراحل دراسته وإعـداده بخطـوات راسـخة ثـابتة، في تجاوب وانسجـام تلقائي، بـاعث على الاستقراء والاستنتـاج المتأني الهادئ، والتحليل والتعليل المنطقي الدقيق، والمقارنة المطابقة البناءة الهادفة...

وبعد استكثاري واستبعادي الإلمام بجميع جـوانب الموضوع، والحصول على المادة الكافية لاستقصائه، وإيفائه حقه، وتغطيـة حاجيات جميع أبوابه وفصوله وعناصره منها، شعرت بضيق المقام عن تسجيل كل ما جمعته من مادة حول هذا الموضوع القيم الغني.

وما إن اتضحت أمامي الرؤيـا، وأصبحت على بينة من أمري، حتى ملأ جوانحي التفاؤُل والتطلع والطموح، إذ تيقنت من أنني أسير على درب الآمال العريضة ونهجها في خدمة تراثنا العربي الاسلامي التليد، نافضة عنه غبار العصور المتلاحقة، لأصوغ حلقة مشرقـة، تربط بين طريفه وتليده، وتصل بين ماضينا المجيد وحاضرنا الزاهر، وتحقن وجودنا الانساني بدماء جديدة شابة، تعطينا دفقاتها القدرة على مـواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين، وعلى مواكبة ركب النظام العالمي الجديد، ضمن أمم العالم المتمدن.

كـمـا تحـقـن أجيالنـا الصاعـدة بمـصل يعـود بها إلى أحـضـان تراثـها الخالـد، والتصالح مع ذاتيتهـا، والاعتزاز بهويتهـا، تاركـة التهافت والتهالك على فُـتات موائد التراث الغربي الهجين، وحضارته الغازية الخلابة الخادعة.

هذا ويمكن إجمال الأسباب العديدة التي حدت بي لاختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع المقترحة فيما يلي :

1 – إنه موضوع قيم وطريف، قمين بـالعناية والدرس والتمحيص، مما أكده ونبـه إليه كثير من أعيـان العلماء، وكبار الباحثين: كـالعلامـة ابراهيم الكتاني(4) – رحمه الله – الـذي دعا البـاحثين إلى تناول هـذا الموضوع في بحث جامعي قائلا(5) : «... وهو موضوع جدير بدراسة خاصة، في رسالة جامعية...»

---

(4) 1411هـ 1991م.

(5) مجلة البحث العلمي، ع :4و5، س : 2، ص :23،1385هـ1965م. الكتاب المغربي وقيمته، لابراهيم الكتاني.

كما نادى بنفس الدعوة وحض عليها، الأستاذ الجليل محمد المنوني بقوله(6): «هذا موضوع واسع، لا زال بحاجة إلى دراسة خاصة».

2 – رغبة مني في إغناء وإثراء الخزانة المغربية خاصة، والعربية الاسلامية عامة، حتى يكون بحثي هذا لبنة في صرحهما معا، وعساه يسد تلك الثغرة التي تعتريهما.

3 – تسليط الأضواء على فترة وضاءة في تاريخنا الأغر – عهد الدولة العلوية الشريفة – وإعطاؤها حقها من الدراسة والبحث، وإنصاف روادها من الملوك العلماء الذين سطروا عصور المغرب الذهبية، التي توالت فيها أيام العز والسؤدد، وسارت فيها الرياح بما تشتهيه سفننا، ولا سيما على الصعيد الفكري والعلمي والثقافي، مادامت العلوم والفنون مقياس حضارة الأمم، وتقدم الشعوب.

4 – لأن المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية الشريفة بصفة عامة، والدروس الحسنية الرمضانية منها بصفة خاصة، تعتبر علامة مضيئة على درب حضارتنا وثقافتنا، الحافل بالمفاخر والأمجاد، ومنعطفا مباركا ميمونا في سبيل الازدهار الفكري والعلمي والحضاري، وبالتالي التجديد والتحديث، والنهضة المغربيةالحديثة التي تقوم على الجمع بين الأصالة والمعاصرة في خط متواز، دون إفراط ولا تفريط، التزاما بمبدإ التوسط، وأمة الوسط التي يعمل جلالة الملك الحسن الثاني – أعز الله أمره – على تحقيقها في هذه الديار المغربية العزيزة.

5 – لأن هذه المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية واكبت وثبة من النهوض الحضاري المغربي، وسجلت إرهاصات للنهضة، العلمية الحديثة في ربوعنا الغالية، كرد فعل للتحديات المختلفة، من تكالب الصليبيين على الإسلام، وأطماع الغزاة المستعمرين في أراضينا وخيراتنا، وهجماتهم الضارية على سواحل البلاد ومراسيها، إضافة إلى اجترار مرارة غصة احتضارالإسلام على أعتاب غرناطة.

---

(6) مجلة دعوة الحق، ع : 9، س: 14، ص:1391،136هـ – 1971م. ملامح عن الحياة المغربية في رمضان، للاستاذ محمد المنوني.

وهكذا رجعت هذه المجالس أصداء دعوات الملوك العلويين المصلحين، الذين جاهروا وصدحوا بالدعوة للبعث والإحياء، ونادوا وحضوا على الاعتصام بحبل الكتاب والسنة، وحثوا على الاعتزاز بالذات وبالهوية العربية الاسلامية، من خلال تلك المجالس - بكيفية مباشرة أو غير مباشرة - بعثا للأمجاد، وحثا للهمم، وإعلاء لروح الأمة ومعنوياتها...

6 - لأن رواد هذه المجالس من الملوك العلويين - وخاصة العلماء منهم - واكبوا ركب النهضة المغربية، وعملوا على تكريس عواملها، ونشر أسبابها، ولا سيما المولى محمد الرابع، والمولى الحسن الأول، والمولى عبد الحفيظ، وسيدي محمد الخامس طيب الله ثراه.

وقد أينعت هذه النهضة، وأثمرت وآتت أُكلها على عهد أعلم علماء هؤلاء الملوك، وواسطة عقدهم، وجوهرة تاجهم، فخر المغرب وراعيه، أمير المؤمنين، الحسن الثاني دام له النصر والتمكين.

كما واكب هؤلاء الملوك العلماء وعاصروا الصحوة الاسلامية التي بدت طلائعها مع ظهور الحركة السلفية، التي هيمنت على الحركة الوطنية والإصلاحية بصفة عامة، فكانت أعمال المجالس السلطانية - طيلة الفترة المذكورة - منها وإليها، وبالتالي فقد كان رواد هذه الحركة وقادتها هم أقطاب وأعلام وشيوخ علماء هذه المجالس العتيدة النيرة.

7 - إظهار صورة مشرقة للحياة الفكرية والعلمية عبر العصر العلوي الزاهر، التي كرست أمجاد المغرب، ومهدت لنهضته المباركة على امتداد ما ينيف على ثلاثة قرون ونصف.

8 - تتبع نشاط هذه المجالس على جميع المستويات والأصعدة - بالداخل والخارج - وتحديد أبعادها وأهدافها، وجرد آثارها ونتائج أعمالها - المباشرة وغير المباشرة - وحصر أنواعها، ورصد تطورها عبر العصور، ولا سيما على عهد عظماء الملوك العلماء، وعلى رأسهم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

9 - إبراز التيارات الفكرية والمذهبية التي عرفها عهد الدولة العلوية، والتي طبعت مجالسها العلمية، والأهداف الدينية والعلمية التي حققتها من خلال هذه المجالس، سواء المباشرة منها أو غير المباشرة.

10 – التأكيد على أن هذه المجالس كانت ولا زالت منبرا حرا عاليا للدعوة الاسلامية، والوجه المشرق الآخر لساحات ميادين الجهاد في سبيل الله، وحماية حدود الوطن واستقلاله وصيانة وحدته الترابية، حيث يتداخل العلم والجهاد، ويلتقي ويتماسك العلماء والمجاهدون، وحيث يتبارى ويتنافس العلماء – على امتداد أبعاد وخلفيات هذه المجالس– تارة بالسيف والسنان، وأخرى بالقلم واللسان وسحر البيان، ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ (7)

ولا يفوتني قبل الختام أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والامتنان لثلة من جهابذة كبار العلماء الأجلاء الكرام، – من أساتذتي البررة وغيرهم – الذين لجأت إليهم لاستلهام آرائهم السديدة، والاستنارة بتوجيهاتهم القيمة، والاقتباس من نورهم الساطع، والاهتداء بهديهم الرشيد... والذين أبت عليهم أريحيتهم العلمية الفياضة السمحة إلا أن يخصصوا لي من وقتهم الثمين جلسات قيمة ممتعة، جادوا علي خلالها من بحورهم الزاخرة، ومن ينابيعهم الزلالة الفوارة التي لا ينضب معينها، وزودوني بمصادر ومراجع قيمة نادرة – مخطوطة ومطبوعة – وبمنهجيتهم القويمة الرشيدة... مما اتخذته معالم وعلامات مضيئة على منعطفات مراحل هذا البحث، وسرت على هديها وهداها في دراستي وتصنيفي.

فجزاهم الله عني خير الجزاء، وما توفيقي إلا بالله.

وأخص من هؤلاء الأئمة والشيوخ العلماء السادة :

– مستشار صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الأستاذ الكبير السيد أحمد بنسودة

– العلامة الكبير، ومؤرخ المملكة الشهير، الأستاذ الجليل، عبد الوهاب بنمنصور.

– العلامة البحاثة، الدكتور المبجل، محمد بن شريفة.

– أستاذي الكبير، العلامة الإسلامي الشهير، وشاعر الإنسانية العظيم الدكتور المبرز، عمر بهاء الدين الأميري – رحمه الله – .

---

(7) سورة : المطففين، الآية : 16

– العلامة الشهير، الشيخ إبراهيم الكتاني – تغمده الله برحمته – .

– أستاذي الجليل، والمؤلف المشهور الأستاذ محمد المنوني.

– العالم الجليل، الأستاذ المحترم، رضوان بنشقرون،

– السيد الفاضل محمد عوام،

حقق الله الآمال حتى نرى تراثنا الإسلامي الخالد مرآة صافية صادقة، تعكس ماضينا التليد، وتمثل حاضرنا العتيد، وتبشر بمستقبلنا الزاهر، وحتى يكون علماؤنا، ورواد مجالسنا العلمية المختلفة، في طليعة العاملين على صقل تراثنا الثقافي والحضاري وبلورته، حتى يتبوأ المكانة اللائقة به بين تراث أمم الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها.

وما ذلك على الله، وعلى هممهم العالية بعزيز.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾ (8)، صدق الله العظيم.

---

(8) سورة التوبة، الآية : 105.

إطلالة على أهم المصادر ومؤلفيها



إطلالة على أهم المصادر ومؤلفيها :

لعل أهم العقبات التي واجهتني خلال الدراسة والبحث لهذا الموضوع، ازدواجية أرضيته، فهي دينية-تاريخية في آن واحد.

كما أن المصادر المغربية القديمة في جملتها -ولا سيما المخطوطة منها- لم تكتب بمنهجية علمية أكاديمية، وتفتقر إلى الفهرسة. وبالتالي لم أجد بها عن المجالس العلمية السلطانية، عبر عصور الدولة العلوية الشريفة- عند استقرائي لها- سوى نتف متفرقة هنا وهناك، لا تتعدى بضعة أسطر أو الفقرة الواحدة، ونادرا ما تتعدى الصفحة أو الصفحتين.

ذلك أن الكلام عن هذه المجالس، غالبا ما يأتي ضمنيا عند الحديث عن اهتمام هذه الدولة العلوية أو ملوكها بالمجال العلمي بصفة خاصة، والديني بصفة عامة.

والواقع أن المصادر المغربية عن الدولة العلوية الشريفة قليلة، مما أكده ليفي بروقنصال، في كتابه:«مؤرخوا الشرفاء»، كما ذكره الأستاذ محمد المنوني، في كتابه : «المصادر العربية لتاريخ المغرب».

فلم تؤلف التواريخ المفصلة عن هذه الدولة إلا بعد أكثر من قرن على قيامها، وبالضبط ابتداء من عهد المولى اسماعيل(1) ثم إنها في جملتها ليست دقيقة، بل مجرد سرد لأخبار وارتسامات عن عهد كل سلطان من سلاطين هذه الدولة المنيفة، واستعراض لما جد فيه من أحداث...

لكنها -على علاتها- تعتبر ذات أهمية، باعتبارها أولية، وكمنطلق لكتابة تاريخ المغرب عموما، وتاريخ الدولة العلوية خصوصا (2).

أما المراجع -سواء المغربية منها أو الشرقية- فهي نادرة، وجلها مجرد كتب مدرسية، لا تتعمق في الدراسة والبحث، ولا تستقصي الأسباب والمسببات بالتحليل والتعليل، ولا تحاول تحديد الأبعاد والأهداف للأحداث المختلفة، وخاصة تلك التي طبعت في عهد الحماية.

---

(1) مجلة المناهل، ع: 36، س: 4، ص، 148-149، 1407هـ 1987م، مكانة المصادر الأجنبية إلى جانب الحوليات المغربية في تاريخ الدولة العلوية، لمحمد زنيبر.

(2) المصدر السابق، ص : 149

أما المؤلفات الأجنبية للإستعماريين من الفرنسيين والاسبانيين فهي ذات أهمية، لكنها مغرضة، ولها أبعاد وأهداف استعمارية، تجعلها تنفث السم في الدسم...

زيادة على انعدام التفاعل والتكامل في النشاط الثقافي بين المناطق المغربية -المقسمة بين الاستعماريين : الفرنسي والاسباني، ثم الدولي- وبالتالي على صعيد المجالس العلمية وعلمائها وأعمالها وآثارها... للحواجز التي أقامها الاستعمار بينها، فعزلها عن بعضها روحيا ولغويا،...

لكن هذه المصادر والمراجع الأجنبية على علاتها تتمم معلوماتنا وتصححها أحيانا، ونجد في طليعتها المجموعة الكبيرة لربائد التاريخ المغربي، التي جمعت بإشراف الكولونيل «دوكاستري» في مجلدات ضخمة، قد يفوق عددها ثلاثين مجلدا، وتتناول عهد الدولة السعدية، وأوائل عهد الدولة العلوية الشريفة، إلى وفاة المولى إسماعيل (3).

وإذا كانت هذه المصادر والمراجع الأجنبية مغرضة أحيانا، ومتحاملة أخرى-إذ كانت دور النشر ترفض نشر أي تأليف لا يشوه الاسلام، ولايتحامل على المسلمين- فإنها لا تخلو من إيجابيات، على المؤلف والمؤرخ البارع أن يسلها منها "كما تسل الشعرة من العجين"، معتمدا على حاسته، النقدية، وعلى محك النقد والبحث العلمي المجرد النزيه...

وهذا ينطبق على بعض المصادر المغربية، البعيدة غالبا عن الموضوعية العلمية، المشحونة بالمغالاة والمبالغات، سواء في المواقف والأحداث السلبية أو الإيجابية(4)

وهذه نبذة عن أشهر المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن الدولة العلوية، وأهم مؤلفاتهم في هذا الباب.

- لويس شينيه : LOUIS CHENEZ (5)

---

(3) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص:149 1407 هـ 1987 م مكانة المصادر الأجنبية إلى جانب الحوليات في تاريخ الدولة العلوية، لمحمد زنيبر

(4) المصدر السابق، ص : 152 - 153.

(5) المصدر نفسه ص : 154 - 176 لويس شينيه قنصل فرنسا بالمغرب، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب.

ولد سنة 1722م، واشتهر بخبرته عن الديار الاسلامية شرقا وغربا، وبمؤلفاته الكثيرة عنها.

وقد عين سنة 1767م بالمغرب ضمن حاشية الكونت ذي برونيون، السفير فوق العادة، الذي كلفه بإرساء الصلات القنصلية بين المغرب وفرنسا، في إطار معاهدة للسلم والصداقة المبرمة بينهما.

وأقام بالمغرب حوالي خمس عشرة سنة. من 1767م إلى 1782م، انقطع خلالها من 1773م– 1775م، ثم عين قائما بالأعمال، ومؤهلا لمقابلة السلطان، حيث أقام بآسفي، والصويرة، والرباط، فطنجة التي نقل إليها إجباريا.

ولم يلبث السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن طالب باستبداله بمن هو أقل تصلبا وأكثر تأدبا في مخاطبة الملوك منه، فغادر المغرب إلى وطنه، بعد أن قضى سنة بطنجة منبوذا من السلطان.

واستقر بباريس حيث أكب على التأليف –بعد أن يئس من تحسين وضعيته الديبلوماسية– حيث ألف كتاب «أبحاث في تاريخ الموريين، وعن تاريخ إمبراطورية مراكش» الذي صدر سنة 1787م في ثلاثة مجلدات.

ويعتبر ما كتبه لويس شينيه عن المغرب رصيدا وثائقيا مهما، إلا أنه يجب التحفظ والحذر من أحكامه العدائية المغرضة.

كما يعتبر الباب الرابع من كتابه المذكور أهم أبوابه، حيث ضمنه معلومات عن العهد العلوي الأول، من قيام الدولة إلى تاريخ صدور الكتاب الذي يعتبر مرجعا أساسيا في تاريخ المغرب، مثل كتاب الحسن بن محمد الوزان، وكتاب مارمول، ورحلتي الضابطين الأنجليزيين: ويندوس، وبريشوتب، خلال القرن الثامن عشر وكابييردي سينلإال في مقالتين، سنة 1929م (6).

– شارل بينز : CHARL BENZ

وهو الذي نشر سنة 1943م محاضر القنصلية الفرنسية بالرباط، في عهد لويس شينيه (7).

---

(6) مجلة المناهل،ع : 36، س: 4، ص:166 – 167 لويس شينيه ممثل فرنسا بالمغرب بين 1767–1782م، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب.

(7) نفس المجلة السابقة، ص : 167.

- بيير كَريون : PIERRE GRION

وقد كتب أطروحة لنيل الدكتورة في موضوع : القرصنة المغربية في القرن الثامن عشر(8) تحت عنوان :«سيدي محمد بن عبد الله، ونهاية القرصنة بالمغرب» وذلك سنة 1951م.

ولبييركريون هذا كتاب في مجلدين : جمع فيه مراسلات ومذكرات وتقارير القنصل لويس شينييه. تحت عنوان :«مراسلات القنصل لويس شينييه، 1767-1782م، وطبعت طبعة أنيقة سنة 1970م.

وهناك تناقضات سافرة بين مراسلات ومذكرات وتقارير لويس شينييه سنة 1772، التي حققها بييركريون، وبين نفس المراسلات والمذكرات والتقارير لسنوات : 1779،1780و 1781م.(9)

وهي تفضح تدليسه ودجله، وأسلوبه المغرض الاستعماري الصليبي، الذي ينسج على منواله الكتاب الأوربيون عن العالم الإسلامي بأسره، لا عن المغرب فحسب.

- جاك كايي : JACK CAHIER :

في كتابه الكبير حول تاريخ الرباط قبل الحماية.

ومن المؤلفات الاسبانية في تاريخ المغرب على عهد الدولة العلوية :

1- كتاب تاريخ المغرب لمانويل كاستيانوس : MANUEL KASTIANOS(10)

الذي عاش بمدينة طنجة أيام السلطان المولى الحسن الأول، واطلع على حياة المغرب الداخلية، وعلاقاته الخارجية، لكنه كقسيس يخضع لعاطفته الدينية المتعصبة ضد الاسلام.

صدرت طبعته الأولى: «وصف تاريخي للمغرب، ونبذة موجزة عن الدولة الحاكمة» 1878م، ثم صدرت الطبعة الثانية مع تعليقات وتنقيحات. ثم الثالثة بعنوان «تاريخ المغرب» Historia de Maruecos في طنجة، بعناية البعثة الكاثوليكية الإسبانية 1989م.

---

(8) نفس المصدر و نفس ص.

(9) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص: 168 لويس شينيه، قنصلا ومؤرخا، لابراهيم بوطالب..

(10) مجلة المناهل،ع : 36، س: 4ذو الحجة 1407هـ يوليوز 1987م، من المؤلفات الإسبانية عن المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد العربي الخطابي، ص : 24 - 29.

وهـو ثـاني تأليف أجنبي حـول تاريخ المغـرب، بعـد مـؤلفـه القسيس الفرنسي ليـون كودار «وصف المغرب وتـاريخه » الذي طبع ببـاريس سنة 1867 م.

Discriptio et Histoire du Maroc , Paris 1867 Léon Godard

2- كتاب: «المغـرب في النصف الأول من القرن الثـامن عشر»، للمؤرخ الاسباني المعاصر رامو لوريد ديات «الحياة الداخلية السياسية والاجتماعية والدينية، في أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله 1757- 1790م (11)

(Ramou Lourido Diaz

Maruecos en la seguonda mitad del siglo XIII Vida interna : politica social religiousa du rante el sultanado de sidi Muhammed B. Abd-Allah 1757) وربما كان سيخص سياسته الخارجية بكتـاب آخر هو :«تعليمات كارلوس الثالـث لمبعوثه لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله».(12)

3- وهناك مؤلفـات لأوربيين معاصرين للسلطان سيدي محمـد بن عبد الله، كتبوا مـؤلفات في حياة المولى محمد بن عبد الله، أو بعـد وفاته، وكلهم عاشـوا في المغرب مدة من الزمن لكنهـم لم يكتبـوا تاريخا كامـلا للمغرب وهم :

أ- بيديـدي مورلإيل : البحـار الفرنسي، الـذي وقع أسيرا بالمغـرب بعد الغزو الفرنسي الفاشل للعرائش سنة 1765

Bidéde Maurville

Relation de l'affaire de Larache Amsterdam

وقد ترجمته دوقة ذي كثير الفرنسية، التي كانت تقطن العرائش إلى الفرنسية، وطبع 1940م بالعرائش (13)

ب- كتاب جورج هوست : GEORG HOST

المستخدم في شركة دانماركية تتاجر في مرسى آسفي وسلا، يقتصر فيه على «معلومات على مراكش وفاس» خلال سنة 1760 - 1768 م.

---

(11) نفس المصدر ص : 29 - 30

(12) مجلة المنـاهل،ع : 36، س: 4ذو الحجة 1407هـ يوليوز 1987م، من المؤلفات الإسبـانية على المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد العربي الخطابي، ص : 30.

(13) نفس المصدر ص :31.

جـ – كتاب آخر لنفس المؤلف : «تاريخ سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله» ويشمل معلومات عن حياته، وعلاقاته التجارية بالداخل والخارج(14).

4 – وأشهر المؤلفات الأوربية عن المغرب لويس شينيه الذي طبع بباريس 1787م وكان شينيه قنصلا لفرنسا في المغرب بين 1767 و1787م، حيث اطلع على خبايا السياسة المغربية. والجزء الثالث منه في تاريخ المغرب، وخصص الباب الخامس لعهد المولى محمد بن عبد الله، لكنه لم يتناوله بكامله، لانتقاله من المغرب أوائل سنة 1782م، وأصدر كتابه هذا بعد خمس سنوات من مغادرته للمغرب، وقبل وفاة السلطان بقليل.

Louis chémier "Recherches Histiriques sur les maurs et histoire de Lempire du Maroc . Paris 1787 (15) .

5 – وآخر الأوربيين المعاصرين للسلطان سيدي محمد بن عبد الله الذين كتبوا عن المغرب، الإنجليزيان : وليام لامبريير وجاميس جيراي جاكسون.(16)

أ – الأول كان طبيبا استدعاه سيدي محمد بن عبد الله إلى المغرب لمعالجة ولده من مرض في عينيه، وبقي في المغرب ما ينيف على ستة أشهر سجل خلالها انطباعاته عنه في كتاب «رحلة من جبل طارق إلى طنجة وسلا وموغادور، ثم إلى مراكش عبر جبال الأطلس».

ب – أما جراي جاكسون فهو تاجر إنجليزي، دخل إلى المغرب في نفس الوقت الذي دخله الطبيب وليام لامبريير، ومكث فيه إلى 1806م، وألف كتاب «نبذة عن الامبراطورية المغربية » ورغم أفكاره المسبقة عن المغرب كغيره من الأوربيين، أظهر تفهما وتعاطفا أكثر منهم جميعا، لكنه لم يتطرق إلى السياسة المغربية. ومن مؤلفات الأوربيين من أهل القرنين التاسع عشر والعشرين نذكر رامون نوريد :

---

(14) نفس المصدر ص :32.

(15) نفس المصدر ص : 32 – 33.

(16) مجلة المناهل المذكورة، ص: 33 – 34

أ – كتاب «وصف المغرب وتاريخه » للفرنسي ليون كودار.

ب – كتاب «تاريخ المغرب» لمانويل كاستيانوس

جـ – كتاب «تقاييد حول تاريخ المغرب» لكاتوباس ديل كاستيو بمدريد 1913م(17).

(6) Lanovas del caslliałos amorites para la Hisloir de ....

د– كتاب تاريخ المغرب، د خ بيكر، مدريد 1915م.

e j . Brker "Mistoria de Maruecos Madrid 1915

هـ– سياسة كارلوس الثالث ل ب. رودرگس كاصادو، مدريد 1946م

V Rudriguez casado "Politica Marroqui de Carlos III Madrid 1946

– والصداقة بين سيدي محمد وكارلوس الثالث لطورا فيرير وهو بحث نشر في مجلة «ثمودة» ع : 4، 1956ص : 213–228

D.Torra Ferrer "La Amistad entre Mulay Muhammed Y Carlos III Segui Gonzales Salmous, Tamida : 4, (1956) pp . 213)22 (18) .

أما المؤرخون المغاربة الذين كتبوا عن الدولة العلوية الشريفة، وأرخوا لملوكها (19) فأغلبهم كانوا ذوي صلة مكينة بملوكها، ومن كبار موظفيهم المسؤولين، حيث كانوا جزءا من جهاز الحكم والدولة، وقليل هم الذين أرخوا لها كهواة، وبدافع الرغبة في الدراسة والبحث، وتقصي الحقائق، أو لمجرد الإعجاب والتقدير، أو عكس ذلك، سلبا وإيجابا.

والواقع أن قرب جل المؤرخين من ملوك هذه الدولة، أتاح لهم التقاط الأخبار، ومعرفة الأسرار، والاطلاع على المحادثات والمراسلات الهامة، سواء في الدواوين، أو في دهاليز الربائد (20).

ويعتبر جلالة الملك محمد الخامس –طيب الله ثراه– أول ملك أحدث منصب مؤرخ المملكة بقصره العامر، بصفة رسمية قانونية، ليقوم بكتابة التاريخ الحديث للدولة بمنهجية علمية.

---

(17) المصدر السابق، ص: 34 – 35

(18) المصدر السابق، ص: 35

(19) مجلة المناهل،ع : 36، س: 4، ص 17، 1407هـ 1987م، مؤرخ الدولة... لعبد الوهاب بنمنصور

(20) المصدرالسابق ص:18.

وفي هذا الصدد أمر بجمع الوثائق التاريخية، وتنظيمها، وتبويبها، وجعلها رهن إشارة الباحثين، حماية لهم من اللجوء إلى الوثائق الأجنبية المغرضة.

كما أسس رحمه الله المطبعة الملكية، لإحياء التراث العلمي والتاريخي المغربي (21).

وحرص أمير المؤمنين الحسن الثاني -أبقاه الله- على تشجيع البحث والتأليف التاريخي (22)، والعمل على نشر الآثار التاريخية وغيرها للمغرب، عبر العصور كلها، دون ما أي ميز أوتفريق.

وفي هذا الإطار أنشأ حفظه الله مديرية للوثائق الملكية، ووسع مجال المطبعة الملكية وآفاقها، وجمع الكتب من سائر قصوره بمختلف أنحاء المملكة في المكتبة الحسنية الملكية، وفتحها في وجه الباحثين من الداخل والخارج، تحصينا لتراث المغرب وتاريخه من الضياع، أو التزييف أو التصحيف...

كما أن ثقافة جلالته الواسعة، وديمقراطيته الاسلامية، أتاحت للمؤرخين أن يسجلوا الحقائق الناصعة بحرية وتجرد، وأمانة ونزاهة(23).

تأليف المغاربة حول الدولة العلوية وتاريخها :

كان التعريف بالأسرة العلوية الشريفة - قبل مبايعتها بالملك- يتم عرضا ضمن مؤلفات المغاربة، كإبراهيم بن هلال في مناسكه، أو من خلال شجرة نسبهم -التي جاؤوا بها من الحجاز- كما لدى أحمد بن يحيى العلمي(24)، أو من خلال تراجم رجالها، كما نجد عند ابن القاضي المكناسي(25) في الجذوة والدرة وغيرهما(26)، أو بالكلام عنهم ضمن أشراف

---

(21) المصدر الأول، ص: 20 - 21.

(22) المصدر السابق، ص: 21 - 22

(23) المصدر السابق، ص: 22

(24) 903 هـ-1497 م، الأنوار الحسنية والسنية، لأحمد العلوي ص: 14.

(25) 1001هـ- 1592م، المصدر السابق، وص.

(26) م. 1025هـ- 1616م، المصدر السابق، وص.

المغرب، كما عند أبي حامد العربي الفاسي(27) في مرآة المحاسن ، وعند ابن عمه أبي زيد الفاسي في ابتهاج القلوب (28).

وبعد بيعتهم بالملك في شخص المولى الشريف بن علي وأبنائه كثر التأليف حول نسبهم شعرا ونثرا، حيث نظم نسبهم الشريف كل من : القادري، والبوسعيدي، وعبد الله بن طاهر، وولده عبد الهادي وغيرهم، وأهم هذه المنظومات :

- أرجوزة هاشم بن أحمد بن رحال، في القرن الحادي عشر.

أما التاريخ لدولتهم فلم يبدأ إلا في عهد المولى إسماعيل، حيث ألفت كتب عن دولتهم، وأهمها :

- كتاب «الدُّرُّ السَّنِيُّ » لعبد السلام بن الطيب القادري (29)
- كتاب «الأنوار الحسنية أو السنية» لأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري (30).
- كتاب ابي عبد الله محمد الصغير بن محمد بن عبد الله اليفراني المراكشي(31).
- كتاب نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري (32).
- كتاب الشجرة الشماء، لمحمد الزكي بن هاشم العلوي (33).
- كتاب الأشراف لمحمد الطالب بن الحاج (34).
- كتب أبي القاسم الزياني (35).
- كتاب الجيش العرمرم، لابن عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس (36).

---

(27) م. الإتحاف لابن زيدان، ص : 238.

(28) م. 1252هـ – 1642م، المصدر الأول، وص.

(29) م. الأنوار الحسنية أو السنية لأحمد العلوي، ص : 14..

(30) م. 1110هـ، المصدر السابق، وص.

(31) م، 1101هـ، المصدر السابق، وص

(32) م. 1187 هـ، كتاب الأنوار الحسنية أوالسنية، لأحمد العلوي، ص: 14.

(33) م. 1270 هـ المصدر السابق، وص

(34) م. 1274 هـ المصدر السابق، وص.

(35) م. 1274 هـ المصدر السابق، وص.

(36) م. 1294 هـ المصدر السابق، وص.

- كتاب الدررالفاخرة لإدريس بن أحمد الفضلي (37).
وغير هؤلاء من النسابين والمؤرخين (38).
والواقع أنه في عهد الدولـة العلوية ازدهر التأليف في التراجم (39) للأسر الشريفـة، ورجـال العلم وغيرهم، في حين تضـاءل الاهتمام بـالتأليف في التاريخ.
ذلك أنه أثنـاء الهجمات الصليبية الشرسـةعلى شواطئنـا، ظهر على رأس الحملات المغربية المضادة لها رجال تصدوا لقيـادة الجهاد وعرفوا بالتقوى والصـلاح، كما قادوا الحركـة الفكريـة والروحيـة، وكان على رأسهم كبـار العلماء والصلحاء والشرفاء.
ونجد في طليعة كتب التراجم التي ألفت في هذا العهد :
- دوحة الناشر، لابن عسكر.
- معاجم الأعلام لابن القاضي.
ويمكن إرجاع سبب ذلك -زيادة على ما تقدم- إلى العزلة التي فرضتها على المغرب ظـروفه الداخلية والخارجيـة، وخاصة منذ القـرن السابع عشر حيث تقـوقع على نفسـه، وجعل نصب عينيـه صـد العـدوان الخارجي، الصليبي وغيره، وحفظ كيـانه وحمايـة حدوده، وبـالتـالي صيانـة حريتـه واستقلاله ووحدة ترابه من الأتراك في الشرق، ومن الصليبيين المتربصين في الشمال والغرب.
أما التأليف في التاريخ فتأخر بالمغرب للأسباب المذكورة، ثم لأن العلماء كانوا يستنكفون (40) عن الكتابة في التاريخ واللغة والأدب والمنطق والفلسفة والتصوف، ويقبلون على التأليف في علوم القرآن من: تفسير وحديث، وسيرة وفقه، وقراءات وأصول...
وسنتناول بشيء من التفصيل أشهـر المؤرخين المغاربة، وأهم مـؤلفاتهم حول الدولة العلوية الشريفة.

---

(37) م. 1316 هـ، المصدر السابق، وص.
(38) المصدر السابق، وص.
(39) «مؤرخو الشرفـاء» ليفي بروفنصال، ص : 53، تعريب الخلادي ط : الـرباط 1977م و مجلة المناهل ع : 36 ص : 243-245، 1407 هـ، 1987م. كتب التراجم لأحمد بوكاري.
(40) كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة ج 1، ص : 11-12 ط : 2.

1- أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري (41) :

يعتبر كتاب الأنوار الحسنية - المشهور بالأنوار السنية- لأحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري أول كتاب ألف عن الدولة العلوية.

وقد ألفه مؤلفه بإشارة من ابن عمه السيد عبد الواحد بن عثمان من أعيان العائلة العلوية، وقدمه هدية للمولى إسماعيل(42).

وعنه أخذ جميع المؤرخين للدولة العلوية كاليفراني في روضة التعريف، وأبو القاسم الزياني في كتبه، والمشرفي في الحلل البهية، والناصري في الاستقصا، وابن زيدان في الإتحاف وغيره، وجميع مؤرخي الدولة العلوية بدون استثناء (43).

ويؤخذ عليهم جميعا أنهم انتحلوا مجهوده واجتهاداته دون أن يذكروا ذلك أو يعترفوا به (44).

ولعل الذي شجعهم على ذلك هو اختفاء النسخة الوحيدة للكتاب خلال الغزو الفرنسي لتافيلالت.

وظل الكتاب بخزانة السيد يوسف أصدا الذي كان يظن أنه من تأليف المولى علي الشريف -إلى سنة 1946م، حيث اتصل السيد يوسف أصدا هذا صدفة بالمحقق السيد عبد الكريم الفيلالي، وحكى له عن الكتاب، ذاكرا أنه وقع بيده زمن الحرب الأهلية بتافيلالت قبل ربع قرن من سنة 1946م.

وبعد ثلاث عشرة سنة من هذا اللقاء طلب المحقق السيد عبد الكريم الفيلالي من مالك الكتاب المذكور السيد يوسف اصدا أن يسلمه الكتاب ليحققه وينشره.

لكن مالك الكتاب تذمر من طلبه، وادعى له أنه سلمه لولي العهد -إذ ذاك- الأمير مولاي الحسن. غير أنه تراجع عن موقفه هذا تلقائيا -وبعد أن اطمأن للمحقق، واقتنع بأهدافه- فأرسل الكتاب إليه مع ولده الكولونيل محمد اصدا في شهر دجنبر سنة 1966م.

---

(41) م. 1101هـ - 1689م.

(42) الأنوار السنية أو الحسنية، لأحمد العلوي، ص : 19 وكان من أسباب إنشاء المولى إسماعيل لديوان الأشراف سنة 1123هـ كما جاء في المصدر السابق ص :14.

(43) مقدمة الأنوار الحسنية ص : 4.

(44) المصدر السابق و ص

وقام السيد عبد الكريم الفيلالي بتحقيقه بمنهجية علمية وتبويب مفصل، وفهرسة دقيقة، مما استحسنه جلالة الملك محمد الخامس (45) -طيب الله ثراه- ونشر سنة 1966م.

2- أبـو عبـد الله محمـد الصغير بن الحا ج محمـد بن عبـد اللـه اليفراني النجار المراكشي السوسي :

ولد بمراكش سنة 1080 (46)هـ، و درس بها ثم بالقرويين في فاس،(47) وألف كتبا تاريخية مهمة (48)وهي :

كتاب نزهة الحادي بأخبارملوك القرن الحادي، وهو ذيل لكتاب الأنيس المطرب لإبن أبي زرع، ولكتاب روضة النسرين لابن الأحمر وبه أتم تاريخ الدول المغربية إلى عصره.

وذكر اليفراني في مـؤخرة هذا الكتاب أنه ألفــه بطلب من الولي الصالح، أبي عبد الله محمـد الصالح، بن الولي الصالح سيـدي محمد المعطي، حفيد أبي عبد الله محمد الشرقي، وفي ذلك قال اليفراني :

" تم تكـرر الطلب إلي، وأكـد في جمع ذلـك التأليف علي، من لا أستطيع مقابلة أمره بالإهمال، ولا أقدر أن أسجل على بينة غرضه إلا بالأعمال، وهو عين الأعيان، الـولي الصالح أبـو عبد الله محمـد الصالح بن الـولي الصالح سيدي محمد المعطي... "

- كتاب روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل.
- كتـاب صفـوة من انتشر من علماء القـرن الحادي عشر، وهـو تتمـة وتكملة لكتابه نزهة الحادي، ولتراجم الدوحة.
- كتاب «درة الحجال في التعريف بسبعة رجال».

واهتم في مؤلفاته بالمجالات الاقتصادية والاجتماعية أكثر من السياسية والعسكريـة، مستهدفا الابتعاد عن كـل توجيه أو ضغط، كما في كتابـه هذا

---

(45) الأنوار الحسنية أو السنية لأحمد ص : 8-11.

(46) النزهة لليفراني ص : 310، وذكر ليي بروﻹنصال أنه ولد سنة 1090هـ.

(47) مقدمة تحقيق المسلك السهل للعمري ص : 60.

(48) مجلة المناهل،ع :36، س: 4، ص: 404 مخطوط درر الحجال لليفراني، للحسين حلاب.

-درة الحجال. وأمثـاله - الذي يـؤرخ للجانب الـديني والاجتماعي للمغرب والملابسات التي أفرزته، وانعكاس ذلك على الأوضاع في البلاد.

كما اهتم فيها بالترجمة للأعلام ومذاهبهم، وطرقهم الصوفية وتأثيرهم في أحداث عصورهم. لكنه لم يكمل هذا الكتاب ولم يذكر من الرجال السبعة سوى إثنين : القاضي عياض، ويوسف بن علي (49).

وحسب ليفي بروفنصال (50) فإن اليفراني ألف كتابه درة الحجال سنة 1137هـ، التي ألف فيها كتابــه الصفوة -كما قال سليمان الحوات، والراجح أنه ألفه بين 1134 و 1137هـ.

وقد قسم هذا الكتاب إلى مقدمة وسبعة أسماط، لكن جل فصول المقدمة ناقصة : أو لم تكتب أصلا، ولم يكتب منه إلا سمطين من الأسماط السبعة التي خطط لها.

ولعله ألفــه بأمر من السلطـان المولى إسماعيل، في إطار محاربتـه للبدع وأصحابها الدجالين والمشعوذين، وعلى رأسهـم أرباب الزوايا، وذلك بعد أن أفتى العلماء بعدم صحة زيارة سبعة رجال للنبي (ص) (51).

والواقع أن معاناة المؤرخ اليفراني، وأحداث حياته الخاصة، انعكست على مؤلفاته وأسلوبه فيها.

ذلك أنه لما عاد إلى مراكش بعد دراسته بفاس، وتصدى للتفسير، وشرح صحيح البخاري، اتهم بالزنـدقة والجهل من طرف علماء مراكش (52) مما سجلـه الوسط الفكـري -إذ ذاك- في إطار المواجهـة بين الفقهاء المتـزمتين، والفقهاء المتحررين المجددين، المتأثرين بالمتصوفة، والذين لا يخشون في الله لومة لائم.

وهذا ماتجلى في مؤلفاته، ولا سيما في النزهة، والمسلك السهل.

---

(49) مجلة المناهل،ع :36، س: 4، ص: 404 -406، . وصلت نسخة من الكتـاب بخط المؤلف، وعلق عليها المنوني في كتـابه المصادر العربيـة بتاريخ المغرب، ج:1 ص:70 رقم الكتـاب : 425، ط : الرباط 1983م.

(50) مؤرخوا الشرفاء ص: 90.

(51) المصدر الأول ص: 415-417.

(52) «النزهة» لليفراني، ص : 310.

لكن الأزمة المذكورة أثـرت على اتجاهه وفكره بصفة عـامة فيما بعد، إذ تقرب من الفقهـاء وبالتـالي من السلطة، وابتعـد عن المتصوفـة، وتجلى هذا التحول بوضـوح في كتابه روضة التعـريف سنة 1133هـ، الذي مـدح فيه المولى إسماعيل، وأعلن فيه أنه ألفه لرد جميـل الدولة الإسماعيلية، وبإيعاز من الوزيـر أحمد بلغازي، الذي أثنـى عليه في نفس الكتاب، ووصفـه بمعز العلماء والصالحين(53).

لذلك تردد في نشر الكتاب المذكـور ثلاث عشرة سنة، ولم ينشره إلا سنة 1146هـ. والحقيقة أن اليفراني عاش أزمتين متتاليتين :

– الأزمة الأولى : مع الفقهاء، أيام المولى إسماعيل، وطالت تسع سنوات، من 1130هـ، إلى 1139هـ.

– والأزمـة الثانيـة : أيام عهـد الاضطراب، الـذي امتد من وفـاة المولى إسماعيل إلى بيعة سيدي محمد بن عبد الله. وهي أزمة عامة تناولت جميع مجالات الحيـاة، وعانى منهـا مع جميع العلماء والمثقفين، وانعكس تأثيرهـا على كتاباته أثناءها (54)

وقد عـد عبد الله كنـون اليفراني ضمن المؤرخين (55)، لأنه رغم إلمامه بـالأدب واللغـة ومجالات أخـرى، وتأليفه فيهـا كلهـا، مكن لنفسـه بكتبـه التاريخية التي نبغ فيها، ولاسيما :

– كتابه «الظل الوريف » الذي ألفه سنة 1133هـ – 1721م.

– وكتابه «درة الحجال في التعريف بسبعـة رجال، الصلحاء المشهورين بمراكش » سنة 1128 – 1137هـ.

– وكتاب «المغرب في أخبار المغرب »، وهو في التاريخ العام للمغرب.

– وكتاب «نزهة الحادي» في تاريخ الـدولتين السعدية والعلوية إلى وفاة المولى إسماعيل.

– وكتاب «صفوة من انتشر» : وهو معجم لتراجم صلحاء القرن الحادي عشر، الذي ألفه سنة 1137 هـ– 1725م.

---

(53) مجلة المناهل،ع :36، س: 4، ص: 211–212، وروضة التعريف لليفراني، ص : 7.

(54) المصدر السابق ص: 213–215.

(55) المصدر السابق، ص: 115، والنبوغ المغربي، ج : 1، ص : 298، لعبد الله كنون.

كما خصص محمد العمري حيزا مهما لترجمة اليفراني، في مقدمة تحقيقه «للمسلك السهل» لليفراني، وهي رسالته التي تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا. (56)

ومنهجيته تقوم على الموضوعية العلمية، وتقصي الأخبار، واعتماد أمهات المصادر الموثقة، وتوثيق الأخبار والأحداث بذكر مصادرها، وتتبع الحقائق بالنقد المجرد النزيه.

3 - الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي -صاحب مخطوط: «زهر الأكم» :

إذا رجعنا للبيبليوغرافيا الخاصة بمؤرخي الدولة العلوية، كمؤرخي الشرفاء، لليفي بروفنصال (57)، ودليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام ابن عبد القادر بنسودة، نجد أن من جملة مؤرخي الدولة العلوية، الذين ظلوا مجهولين للباحثين -إذ لم يذكروا في المؤلفين المذكورين- الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي، صاحب مخطوط «زهر الأكم (58) » وهو غير «زهر الأكم» لأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، كما يقول الضعيف(59).

و«زهر الأكم» هذا مخطوط خاص بتاريخ الدولة العلوية (60). من دخول الشرفاء العلويين إلى سجلماسة، ومبايعتهم بالملك، إلى سنة 1153هـ.

وهو جزء من كتاب ضاع جله، ولم يبق منه إلا هذا الجزء (61) ويعد من المصادر الأساسية للضعيف الرباطي في تاريخه، وهو مكتوب بخط

---

(56) المصدر الأول ص : 206 - 211

(57) تعريب عبد القادر الخلادي بالرباط، 1977م.

(58) تاريخ الضعيف الرباطي، م. خ. ع بالرباط، رقم د 758، ص : 1، وتاريخ الضعيف تحقيق أحمد العماري، ص : 6 ط الرباط 1986. وحسب ما جاء في الورقة الأولى من المخطوط. بخط الضعيف الرباطي : ناسخة.

(59) المصدر السابق وص.

(60) مجلة المناهل، ع: 36، س4، ص311-324، 1407هـ 1987م، من نوادر المخطوطات «زهر الأكم» لحسن الصادقي، حسب الورقة الأخيرة من المخطوط.

(61) مخطوط زهر الأكم، ص : 2.

ناسخه الضعيف الرباطي، وبه تفاصيل مهمة موضوعية، وجاء بمعلومات انفرد بإيرادها(62).

وعاش المؤلف أيام المولى عبد الله (63)، وكان مولده بمنطقة الريف وراء وادي درعة، حيث درس أولا، ثم درس بفاس ومكناس، وعمل بالبلاط العلوي.

وقد صنفه الضعيف الرباطي مع المؤرخين الفقهاء، لتنوع ثقافته واطلاعه على كتب المشرق، إذ حج والتقى بعلماء المشرق، ويحتمل أن يكون ذلك في ركاب أم السلطان المولى عبد الله، الملكة خناثة بنت بكار، سنة 1143هـ.

وانتهى الضعيف الرباطي من نسخه في 10 جمادى الأولى،سنة 1200هـ، بعد أن وثق معلوماته، وذكر مصادره للأحداث التي لم يعاصرها، ومن ثم جاءت أهمية كتابه (64).

4- أبو القاسم الزياني :

هو مؤرخ الدولة العلوية، الملقب بذي الوزارتين. هاجر الزياني مع أسرته إلى الحجاز سنة 1169هـ- 1755م، وعاد إلى المغرب بعد أن استفاد من إقامته بمصر سنة 1171هـ، فوجد جل زملائه قد التحقوا بخدمة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فلحق بهم رغم معارضة والده في ذلك.

وكان جده على النسابة إماما في بلاط المولى إسماعيل، لكنه لم يشتغل بالسياسة، كما كان ملما بالقراءات العشر بشهادة تلميذه أبي علي الحسن ابن مسعود اليوسي (65).

وتقلب الزياني في المناصب السياسية والإدارية السامية، حيث تولى الكتابة والسفارة والوزارة والقيادة...

---

(62) المصادر العربية للمنوني، ص : 216.

(63) مخطوط زهر الأكم، ص : 88.

(64) مجلة المناهل،ع :36، س: 4، ص:323-324، 1407هـ- 1987م، من نوادر المخطوطات "زهر الأكم "مخطوط فريد في تاريخ الدولة العلوية، لحسن الصادقي.

(65) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 25و12 تحقيق الفيلالي .

لكنه امتحن في عهد كل من سيدي محمد بن عبد الله، والمولى سليمان والمولى اليزيد (66).

وقد أكب الزياني على التأليف، وخاصة أيام عزلته 1225-1249هـ، 1809-1834م، حيث ألف جل كتبه بالزاوية العيساوية بحي سيدي بولغيث بفاس (67)، وتوفي بعزلته أيام المولى عبد الرحمن، بعد أن عاصر وخدم أربعة ملوك.

والذي شجعه على التأليف، اعتماده فيه على مخلفات جده علي النسابة والإمام، وكان اهتمام الزياني بها أولا بحثا عن نسب جده (68)، إذ وجد أنه رفع نسبهم إلى كنعان بن نوح عليه السلام، مما حفزه للبحث والتنقيب في وثائقه، وتقييداته (69).

وتعتبر كتبه عن الدوله العلوية من أوثق وأهم المصادر التاريخية في هذا الباب، لمعايشته للأحداث عن كثب، ولخبرته (70) وتجاربه الطويلة في مجال المسؤوليات الجسيمة، وعلى أعلى المستويات. ويمتاز تاريخه بتحليل الأحداث، واستخراج خلفياتها وأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستلهام ظروفها وملابساتها، وذكر المنشآت الحضارية والاصلاحات الاجتماعية -كاليفراني قبله- كما يبدي رأيه في الأحداث بالتعليق والمقارنة أحيانا.

وتأليفه ينم على الوفاء والأمانة، إذ لم يؤلف تملقا للدولة، ولا تكسبا لتحقيق أهداف مادية ودنيوية خاصة (71).

ومنهجيته في البحث لا تبعد كثيرا عن المناهج الحديثة في كتابة التاريخ إلا من حيث البعد الزماني والمكاني للأشخاص (72). كما تمتاز كتبه -وخاصة المتعلقة بالدولة العلوية- بالدقة والضبط. فقد ذكر مصادر

---

(66) دعوة الحق، ع: 3، س: 13فبراير ومارس 1970

(67) المصدر الأول ص: 24 – 28.

(68) المصدر السابق ص: 27.

(69) المصدر السابق ص : 58.

(70) الترجمان المغرب، ص : 25، ط : باريس 1886م.

(71) الترجمانة الكبرى، ص : 40، تحقيق الفيلالي.

(72) المصدر السابق ص: 30.

الترجمان في أوله، وأخذ ما يتعلق بملوك الدولة العلوية الأولين في كل من الترجمان المغرب والبستان الظريف من نزهة الحادي لليفراني، أما بقية الأحداث فقد عايشها عن كثب لوظائفه السياسية وغيرها السامية بالبلاط، التي تولاها بالداخل والخارج(73) كما اعتمد في تأليفه على الوثائق الرسمية بالخزانات الملكية، وقد اعترف بذلك في الترجمان، مما جعل هوداس يعتد بكتبه، ويعتبرها مصادر موثوقة، وجعل ليفي بروفنصال يعتبره على رأس مؤرخي الدولة العلوية حتى نهاية القرن التاسع عشر، مؤكدا نقلهم عنه وانتحالهم كتبه (74).

ويمكن اعتبارالفصول المتعلقة بالدولة العلوية من كتابه الترجمان، تكملة للعمل الذي بدأه اليفراني في نزهة الحادي، حيث اقتفى أثره في ذلك، كما يمكن اعتبار هذه الفصول تلخيصا لما توسع فيه عنها في كتابه البستان الظريف، مما أكده الزياني بنفسه (75) .

وكتابه الترجمانة الكبرى، كتاب مهم، ربط فيه بين الجانب السياسي والتاريخي، وطرح فيه قضايا ثقافية وفكرية، ومساجلات عقائدية، في إطار المذاهب الاسلامية، والطرق الصوفية، والعلاقات بين الأديان، وعقد المقارنات بينها...

كما أن هذا الكتاب هو عبارة عن فهرسة ورحلة، في إطار جغرافي، وله طابع الموسوعات، وعنوانه الكامل : «الترجمانة الكبرى من الأمصار والمدن والقرى، والقفار والبحار والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار، وما يؤكد ذلك من التفسير والآثار، ونوازل الفقه، وشواهد الأشعار».

ولم يكمل الزياني الفصل المتعلق بالدولة العلوية من كتابه «الترجمانة الكبرى» إلا بعد وفاة المولى سليمان، إذ وصل به إلى سنة 1228هـ –

---

(73) المصدر السابق، ص : 40

(74) مقدمة الترجمان للزياني، ص: 4 ط: هوداس و مؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال 136، ترجمة الخلادي، ط 1977م.

(75) الترجمان المغرب ص: 4–5 ط: هوداس، ومؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال ص: 121 تعريب الخلادي، ط : 1977م

1813م(76)، في حين ذكر الزياني أنه عرض هذا الفصل من الترجمانة الكبرى على المولى سليمان فاستحسنة وشجعه شفويا وكتابيا على إتمامه.

ولما أتمه الزياني أهداه إلى المولى سليمان، عربونا على الولاء والوفاء بالجميل، إذ جل ما ألفه الزياني منه كان باقتراحه ورعايته ونفقته (77).

وقد ذكر الزياني في هذا الكتاب كثيرا من كتبه التاريخية (78) وغيرها، وأهمها كتابه «رسالة السلوك فيما يجب على الملوك».

ورغم صغر حجم هذا الكتاب، يعتبر ذا ميزة في كتابة التاريخ، بجمعه بين الحكمة والسياسة، وقانون الأخلاق، وقواعد السلوك، وجعله في جزئين :

- الأول : يشتمل على المقدمة وعشرين بابا.
- الثاني: يضم الخاتمة التي خصصها لسفارته بتركيا (79).

ويؤخذ على الزياني ادعاءه أنه لم يجد مؤلفا وضع قبله حول الدولة العلوية «إذ لم أجد في هذه الدولة العلوية تأليفا...(80)»، في حين أنه ألف حول تاريخ الدولة العلوية قبله المؤرخ السيد أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري(81) كتابه «الأنوار الحسنية أوالسنية» (82).

كما ألف قبله في تاريخ هذه الدولة محمد الصغير اليفراني كتابه «روضة التعريف» المأخوذ في جملته من كتاب الأنوار الحسنية أو السنية «المذكور(83)، كما يؤخذ عليه مغالاته في بعض أحكامه، واندفاعه فيما لا يقره العقل السليم، وضعف ملكته الشعرية.

وقد عاتبه نقيب الأشراف، السيد سليمان الحوات -شاعر البلاط العلوي- على عدم اطلاعه على مؤلفاته في الدولة العلوية، فوجهها الزياني

---

(76) وتوفي المولى سليمان 1231-1816 حسب الترجمان المخطوط ص: 8. ومؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال، 117، تعريب عبد القادر الخلادي، ط 1977م.

(77) الترجمانة الكبرى، للزياني،ص : 4، تحقيق الفيلالي، ط: هوداس.

(78) المصدر السابق ص : 413.

(79) مجلة المناهل،ع :36، س: 4، ص: 262 - 263، 1407هـ- 1987م، أبو القاسم الزياني مؤرخ الدولة العلوية، وكتابة "رسالة السلوك فيما يجب على الملوك "، محمد عبد العزيز الدباغ.

(80) الترجمانة الكبرى للزياني ص: 40 تحقيق الفيلالي، ط: هوداس.

(81) م. 1101هـ.

(82) نشر سنة 1966م .

(83) نشرته المطبعة الملكية 1966م.

إليه بتمامها، ومعها رسالة ودية إخوانية بليغة، فاجابه سليمان الحوات برسالة تقريظ وتنويه بمؤلفاته وبشخصه (84).

والرسالتان تعتبران نموذجا لما يجب أن تكون عليه علاقة المثقفين فيما بينهم.

كما قرظ مؤلفاته كبار علماء ومفكرى عصره.

وعاش أبو القاسم الزياني ما ينيف على مائة عام 1147-1249هـ، وواصل الكتابة والتأليف إلى آخر يوم من حياته الحافلة بالمسؤوليات والمهمات الجسيمة في جميع مجالات الحياة : السياسية والثقافية والعلمية والأدبية، مما يؤكد عظمته وإيمانه بقيمة القلم وأهمية دوره.

5- أبو عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس:

ولد بمراكش 1211هـ، 1796م، وعينه المولى سليمان كاتبا ثم وزيرا له، لكنه فقد وزارته بوفاة المولى سليمان 1238 هـ - 1822 م، وتوفي سنة 1294هـ - 1877م.

ألف كتابه في تاريخ الدولة العلوية «الجيش العرمرم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي الشريف السجلماسي » (85). تناول فيه الدولة العلوية منذ نشأتها، إلى سنة 1282 هـ - 1865م، في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن.

واسم الكاتب يبين طريقة الكتاب في تناول التاريخ. وقد سجل في هذا الكتاب ملاحظات مهمة عن تطور نظام الحكم الملكي في المغرب على عهد الدولة العلوية، ووظائفه السياسية والإدارية وغيرها، ومعلومات مهمة عن كبار المسؤولين في البلاط العلوي، كالوزير أبي العباس أحمد اليحمدي، والوزير العربي قادوس، والوزير محمد بن ادريس، والوزير الطيب بن اليمني...

---

(84) الترجمانة الكبرى للزياني، تحقيق الفيلالي، ص: 44 ط : هوداس.

(85) ذكره بروكلمان في ملحقته، ج : 2، ص : 880، وطبع على الحجر بفاس 1336هـ - 1918م، وذكره الناصري في الإستقصاء، و ابن زيدان في النهضة العلمية وغيرها.

والجزء الأول من هـذا الكتاب يمتد مـن نشأة الدولـة العلويـة، إلى عهد المولى سليمان 1204- 1238هـ، لكنه أخذه عن الزياني في البستان (86)، كما سطا على صفحات كاملة من كتب الزياني، دون أن يذكر ذلك (87).

أما في الجزء الثاني من كتابه فإن أكنسوس يستعرض أشعاره وأمداحه في الملوك والأمراءوالوزراء , التي تؤكد لنا أنـه شاعر أكثر منه مؤرخ، عكس الزياني الذي هو مؤرخ أكثر منه شاعر.

وتاريخيا خصص هـذا الجزء للمولى عبد الرحمن، وولـده محمد الرابع، وأبدع فيه أكثر لمعايشته للأحداث (88).

لكن أكنسوس المؤرخ يتأخـر كثيرا عن الزياني، لأنـه يتملق في تاريخه، فيداهن ويتلون حسب الظروف.

فقـد أثنى على أبي القاسم الـزياني في حيـاته رغبـة ورهبة، ولما مـات الزياني سخر منه، ووصفه بالجهل، نـاسيا ولاءه له أيام وزارته، بل إنه لم يتورع عن رميـه بالكفر، لتنـديده بالصـالحين، ورفضه الإنتساب للـزوايا، والإنسياق وراء شعوذة ودجل الطرقيين، في الوقت الذي كان فيه أكنسوس من دهاقنة الطريقة التيجانية(89)

ولم يحرز كتـاب أكنسوس على تقـديـر العلماء والمؤرخين في عصره ولا بعـده، لأنهم أخـذوا عليـه تنقيصه من شـأن سلاطين الـدولـة الإدريسيـة الشريفة، تملقاوتزلفا للدولة الحاكمة، وتحامله على فاس التي سجن بها على عهـد المولى سليمان، وأخطـاءه في فهارس كتبـه التاريخية(90)، كما نقموا عليه ادعاءه أن كل مؤرخي الدولة العلوية قبله لم يبلغوا شأوه في الموضـوع، وتحاملـه عليهم، وخاصـة على أبي القاسم الـزياني الـذي ادعى أن كتابـه البستان نسخة لما كتبه ابن الحاج في الموضـوع، مما لم يثبت على الزياني،

---

(86) مؤرخوا شرفاء لبيي برولإنصال ص : 141 تعريب عبد القادر الخلادي ط : هوداس : 1977م.

(87) المصدر السابق، ص : 135.

(88) مؤرخوا شرفاء لبيي بروفنصال ص : 142 تعريب عبد القادر الخلادي ط : هوداس : 1977م..

(89) «مؤرخـوا شرفـاء» لليفي بروفنـصال : 136، تعـريب عـبد القادر الخلادي بـالرباط 1977م. ط. هوداس.

(90) دليل مـؤرخ المغـرب الأقصى، ج : 1، ص : 152 رقـم: 364 لابن سـودة، ونفـس المـصـدر ج : 2،ص: 422 رقم 1940 لابن سودة.

في حين ثبت أن أكنســـوس نقل عن الـــزيـاني، وانتحل جهـــوده، حتى إن مقدمتـه، عبارة عن ملخص لكتاب الزيـاني في الترجمان المغرب(91)، وعدم استقصائه لأحداث مهمة، كحرب تطوان سنة 1860م.

ويقول ليفي بـروفنصـال في هذا الصدد : "ينبغي لدارس تـاريخ القرن التاسع عشر بـالمغرب، إذا أراد الرجـوع إلى كتابة – أكنسـوس – أن يكون حذرا، لأن انتحالـه بدون حياء لكثير مما تضمنته كتب اليفـراني والزياني، كاف ليجعلنا غير مطمئنين إليه (92)، خاصة وأنه لم يذكر ذلك في التوثيق، وبالتالي تحامل عليهما، متهما إياهما بما ارتكبه هو".

ومع ذلك يعتبر كتابـه «الجيش العرمـرم» ذا أهمية خـاصة فيما يتعلق بعصر كل من المولى عبد الرحمن بن هشام، وولده محمد الرابع.

وقد تكلم عنه بروكلمان في ملحقه (93).

6 – محمد الضُّـعَـيِّـف الرباطي :

أبو عبد الله محمـد بن المرابط عبد السلام بن أحمد بن محمد الضعيف الرباطي.

عاصر أبا القاسم الزياني، فقـد ولد بالرباط سنة 1165هـ 1751م، يؤرخ تاريخه للدولة العلوية منذ نشـأتها إلى عهد المولى سليمان، ولم يعنون كتابه الوحيد "تاريخ الضعيف، أو تاريخ الدولة السعيدة".

وابتدأ هذا الكتاب بعوامل انهيار الـدولة السعيدة، والأحداث التي تزامنت مع قيام الـدولة العلويـة، كهدم الزاوية الـدلائية، متتبعا في شكل حـوليات أحـداث عهد كل سلطـان من سلاطـين هـــذه الدولـة، معـددا مناقـــب كل منهم.

ويمتاز أسلوبه بالشجاعـة والصراحة، إذ وجه انتقادات صريحة وعنيفة لبعض كبار المســؤولين في جهاز الدولة، كما ذكـر أحداثا دقيقة وحسـاسة سكت عنها غيره، أو لملمها بإيجاز وتمويه ....

---

(91) المصدر الأول، ص : 121.

(92) المصدر السابق، ص : 145.

(93) ج : 2، ص : 880، طبع على الحجر بفاس ، سنة 1336هـ.

وذكر كثير من الباحثين أن كتابه ما هو إلا نسخة موسعة لكتاب الحاج محمد المسناوي مورينو الرباطي الأندلسي الأصل . ويعاب عليه أن بعض أخباره غير موثقة ويصعب التأكد من صحتها، كما أن لغته ركيكة، وأسلوبه سهل، زيادة على تضمينه للأمداح النبوية حشوا، ودون مناسبة.

والواقع أ ن المؤرخ محمد الضعيف الرباطي، نقل جل كتابه التاريخي من كتاب "زهر الاكم (94) للمؤرخ الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي، بل إنه غالبا ما نقل عنه حرفيا أو لفظيا، وحتى صيغة العناوين نقلها كما هي، دونما أي تعديل ولا تغيير يذكر.

والذي يؤخذ عليه أنه لم يشر إلى ذلك، مما يعتبر انتحالا وسطوا مذموما.

وقد اعتمد في كتابه على تسلسل الأحداث الهامة حسب السنوات، وتعاقب الملوك، بدل الوحدات الموضوعية، كما استقصى الأحداث بدقة، مبرزا دور القيادات والجماهير الشعبية في صنع الأحداث، وتحرير الموانئ والشواطئ، جاعلا الدور الطلائعي للفقهاء.

وتطرق في كتابه إلى قضايا اقتصادية هامة، كالاحتكارات الأجنبية ودورها في انهيار الاقتصاد الوطني، مبديا اهتماما خاصا بالطبقة المسحوقة، ليعطي صورة عن البيروقراطية والفساد الاداري، ولا سيما على الصعيد الاقليمي .

والغريب أن الناصري ومن جاء بعده من المؤرخين لم يطلعوا عليه، ولم يأخذوا منه.

الدر المنضد الفاخر، فيما لأبناء المولى علي الشريف من المحاسن والمفاخر(95):

ونسبه ابن سودة في كتابه « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » إلى أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الكيلاني، الشهير بالكردودي (96)

(94) مجلة المناهل، عين : 36، س : 4، ص: 311 – 324، 1407هـ– 1987م،من نوادر المخطوطات "زهر الأكم "...، لحسن الصادقي .

(95) دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج : 1، ص: 148.

(96) المولود 1216هـ –1801م، و م . 1268هـ –1851م، المصدر السابق و ص.

ويحتوي على حوالي خمس عشرة كراسة (97)، ويؤرخ للدولة العلوية الشريفة إلى عهد مولاي الحسن الأول، لكنه غير تام . وقد ألف حوالي سنة 1266هـ -1851م، حيث استقى مصادره من كتب الزياني، ونزهة الحادي لليفراني، ونشر المثاني للقادري، ولم يذكر فيه أكنسوس، ولا اتخذ كتابه مصدرا له .

واستهله بالحديث عن نسب الدولة العلوية، ثم عن مؤسس هذه الدولة المولى الشريف بن علي، وجاء بتراجم لأهم رجالات هذه الدولة حسب وفياتهم إلى عصره، مسجلا أحداث عهودهم، ووفيات كل عصر على حدة، حتى ترجم لمولاى إسماعيل بن الشريف .

7- أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي :

كان أبو محمد الغالي بن المكي بن سليمان من أبرز كتاب بلاط المولى الحسن الأول، ورافقه في تنقلاته عبر الأقاليم .

وترك مؤلفات عديدة (98)، وآثارا شعرية ونثرية سجل فيها عدة أحداث من مشاهداته، ومحاوراته مع أنداده من رجال الدولة، ووزرائها وعلمائها، مما تزخر به مؤلفاته ورسائله، وكناشاته...

ونظم قصيدة في تاريخ الدولة العلوية، تناول نشأتها ومراحل حكمها، وتسلسل الأحداث عبر العصور، وتعاقب الملوك، والظروف والملابسات التي طبعت أعمال كل واحد منهم، وتحكمت في مسار عهودهم.

والقصيدة تنم عن اطلاعه الواسع في مجال التاريخ، وسجل فيها أسباب وعوامل النهضة المغربية الحديثة التي وطد صرحها، وأرسى دعائمها مولاي الحسن الأول (99) .

وتتميز هذه القصيدة بجرس موسيقي ينتظمها من أولها إلى آخرها، مما يدل على إلمامه بالموسيقى .

---

(97) م.خ.ع بالرباط، رقم :1554 .

(98) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص: 199-200، 1407هـ- 1987م، المؤرخ المشرفي في كتابه «الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية»، لعبد القادر زمامة .

(99) المصدر السابق، و ص

وقد ضمنها كتاب «المعرب المبين» لابن زاكور، الذي استلهمه بأتمه، مستعرضا فيه شيوخه من كبار العلماء الذين كانوا -إذ ذاك- قادة للنهضة الفكرية .

أما أسلوبها، فهو أسلوب عصره بالشرق والغرب، الذي تطغى عليه المحسنات البديعية والتصنيع، ولعله تأثر بأسلوب لسان الدين ابن الخطيب، وخاصة في كتابه «رقم الحلل في نظم الدولة» (100) .

وقد نالت قصيدته إعجاب علماء وأدباء عصره، حتى تولى شرحها أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الذي ألف عدة كتب علمية وأدبية، طبع بعضها، وظل بعضها الآخر مخطوطا . كما ترك آثارا شعرية أهمها : قصيدة «إيقاظ أهل الغفلة والمنام» (101) .

وسمى المشرفي هذا الشرح «بالحلل البهية في ملوك الدولة العلوية »، وضمنه معلومات تاريخية وأدبية ولغوية عامة، زيادة على الموضوع الرئيسي الذي هو تاريخ الدولة العلوية .

وقد برهن في كل ذلك على اطلاع واسع، وثقافة متينة، مما جعل شرحه هذا وثيقة تاريخية وسياسية، ونصوصا شعرية ونثرية، كما صور في هذا الشرح الحالة الفكرية والثقافية والعلمية والعمرانية لكل عصر من عصور هذه الدولة العتيدة (102) .

وتوفي المولى الحسن الأول، وعاش المشرفي بعده إلى سنة 1334هـ-1915م، فأضاف أحداث هذه السنوات التي عاشها بعده، زيادة على القصيدة التي شرحها، وأضاف إليها تعليقات خاصة، ونصائح وانتقادات(103)...

وكتاب الحلل البهية، ذكره ليفي بروفنصال في كتابه «مؤرخو الشرفاء» بإشارة عابرة، ولم يذكر اسم مؤلفه المشرفي، وقال بأن قسما منه ترجم إلى اللغة الفرنسية .

---

(100) المصدر السابق، ص : 201 .

(101) نفس المصدر ص : 202 .

(102) مجلة المناهل المذكورة، ص : 202-203 .

(103) المصدر السابق ص : 204

وظهرت هـذه الترجمة إلى الفرنسيـة سنة 1906م، وهو لا زال على قيـد الحياة (104) .

لكن النسخة الخطية للحلل البهية غير تامة (105) .

8- ابن الطيب الشرقي :

أبـو عبد اللـه محمد بن الطيـب بن محمد بن مـوسى الشرقي(106) **الصميلي الفاسي** (1110–1170هـ) .

ولد ونشأ وتعلم بفاس، ونبغ في علوم اللغة والأدب، ثم رحل إلى المشرق سنة 1143هـ، إثر الاضطرابات التي عرفها المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل

وجـــاور في الحرمين الشريفين حيث أكـب على التعليم والتأليـف حتى ناهزت مؤلفـاته ستين كتابا وبحثا، منها تراجم الـرجال، وفهارس، ورحلة تصور الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب، خلال القرن الثاني عشر الهجري، والثامن عشر الميلادي، وكلهـا ذات قيمة تاريخية، وبها اعتبر مؤرخا للدولة العلوية(107) .

وكتابه «**الأفق المشرق بتراجم من لقينـاه بـالمشرق**» ألفه عن الحياة الثقافية والفكرية بالمشرق خلال القرنين المذكورين الهجري والميلادي.

ورغم أن هذا الكتـاب لم يصل إلينا فقـد وصلنا جل مافيـه بكيفية غير مباشرة مـن خلال كتـــبه : «الرحلـة الحجـــازيـة»، و«إرســال الأسانيـد»، و«في عيون المواريد»(108).

أما كتــابـه «**الأنـــيــس المـطــرب فيمـــن لقـيـتـــه مـن أدبـاء المـغـرب**» فيوافق في تسميته كتاب معـاصره، أبي عبد الله محمد بن الطيب العلمي(109)، غير أن كتـاب ابن الطيب العلمي طبع، أما كتـاب ابن الشرقي

---

(104) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص: 204–205، 1407هـ – 1987م، المؤرخ المشرفي في كتابه الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، لعبد القادر زمامة .

(105) نفس المصدر، ص: 202 .

(106) قبيلة اشراقة بنواحي فاس

(107) المصدر الأول، ص : 116، لابن الطيب الشرقي مؤرخا لعبد العلي الودغيري .

(108) المصدر السابق، ص : 117.

(109) م. 1137هـ، ودفين مصر، المصدر السابق، ص: 118.

فضاع . لكن ذكره في ترجمته القاضي أبو الفتح بن الحاج في جملة مؤلفات ابن الشرقي .

ومن مؤلفاته ذات الصبغة التاريخية: «**قرار العين بإقرار الأثر بعد ذهاب العين**» وخصصه للتعريف بشيوخه وأسانيده في روايته للعلوم، وهو فهرسته الكبرى لكنه لم يصل إلينا .

- «**أرسال الأسانيد**»، وهو الفهرسة الصغرى، أتمه بمكة المكرمة، سنة 1144هـ.
- «**في عيون الموارد**»، وخصصه لمسلسلاته الحديثية، التي بلغت تسعة وعشرين مسلسلا (110).
- «**الرحلة الحجازية**»، وهي عبارة عن مذكراته ويومياته عن رحلته للحج بين 1139–1140هـ . بيد أنه صرح في عيون الموارد (111) بأنه ألف رحلتين، ضاعت الأولى منه في عودته من الحج (112)، فكتب الرحلة الثانية بعد عودته (113).

9- أبو العلاء إدريس :

كاتب الوزير محمد بن ادريس العمراوي، في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام (114).

ترك كتابه التاريخي «**الابتسام عن دولة ابن هشام**»، وهو مخطوط، ذكره عبد السلام بن سودة في الجزء الأول من كتابه «**دليل مؤرخ المغرب الأقصى**»، وعنوانه الكامل «**الابتسام عن دولة ابن هشام، وديوان العبر، في أخبار أهل القرن الثالث عشر**» (115).

---

(110) مجلة المناهل، ع: 36، س:4، ص: 119–123، 1407هـ–1987م، ابن الطيب الشرقي مؤرخا، لعبد العلي الودغيري

(111) المسلسل الأربعين بالشعراء، المصدر السابق و ص 125 – 127.

(112) الرحلة لـ 3–4 و لـ 114، المصدر السابق، و ص: 125–127.

(113) الرحلة لـ 4، المصدر السابق، ص : 125–127.

(114) مجلة المناهل، ع : 36، س: 4، ص: 91، 1407هـ–1987م، مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، لعبد الهادي التازي .

(115) المصدر السابق، و ص .

ويؤرخ فيه للمولى سليمان، بحيث ابتدأه من حيث توقف عبد الرحمن ابن زيدان النقيب في كتابه «إتحاف أعلام الناس»(116)، واقتصر على تسجيل ما عاصره وعايشه من أحداث عصره (117) .

لكن هذا المؤلف اختفى دون أن يقدم نفسه ولا كتابه، وربما كان ذلك منه خوفا ورهبة بعد نكبة رئيسه الوزير محمد بن ادريس العمراوي، أو لعل الموت فاجأه قبل تنقيح كتابه، وإعداده ونسخه ...

10- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري :

أشهر مؤرخ للدولة العلوية قبل الحماية: هو أحمد بن خالد الناصري، وجده الأعلى هو الشيخ محمد الشهير بابن ناصر الدرعي، مؤسس الزاوية «الناصرية بالمغرب» (118) .

ولد سنة 1205هـ، ونال شهرته بفضل كتابه الاستقصا الذي جمع فيه شتات تاريخ المغرب، مضيفا إلى ما جاء من كتب الزياني، أحداث ما يناهز قرنا من الزمان .

وقد استهله ببيان فضل علم التاريخ، ثم جاء بفذلكة عن السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، ثم جاء بتعريف لأصول البربر، ومنه انتقل إلى فتح الشمال الإفريقي وعصر الولاة به، ثم استعرض الدول التي حكمت المغرب على التوالي إلى الدولة العلوية الشريفة حتى توقف عند عهد المولى الحسن الأول سنة 1311هـ، إذ لم يلبث أن توفي بعد ذلك بقليل، سنة 1315هـ .

وضمن مصادره التاريخية التي نقل عنها نجد كتبا تاريخية وجغرافية وبعض الرحلات .

فقد نقل عن كل من أبي حيان الأندلسي، وابن خلدون، وابن حزم، وابن خلكان، والبكري، وابن الأثير، وابن الخطيب، وأبي سالم العياشي، واليفراني، وأكنسوس، والزياني، وغيرهم كثير.

---

(116) المصدر السابق، و ص .

(117) كما أكد في المقدمة .

(118) طلعت المشتري في النسب الجعفري للناصري، مؤلف الاستقصاء ط . فاس 1320هـ .

وهـو يختم أخبـار كل دولـة من الـدول التي حكمت المغـرب بأحـداث جديدة، لم تذكر في المصادر التي نقـل منها، كالسنوات العجاف من الجفاف والزلازل، ووفيات الشخصيات البارزة، ولا سيما في المجال العلمي والإداري، والعمران وغير ذلك .

ويتدخل خلال السياق من حين لآخر ليبدي رأيه، أو لينتقد ما يراه خطأ أو بهتانا، ويدافع عن آرائه بالحجـة والبرهان، مما ينم عن عقليته ومبادئه، وآرائه واتجاهاته الشخصية .

ويؤخذ عليه في كتابه الاستقصا أنه جمع حرفي لروايات عدة مؤرخين في الموضوع الواحد، وبأسلوبهم وصيغتهم ....

لكنه يغني البـاحث عن الرجـوع إلى مصـادر قـديمة نـادرة، في حين أنه سهل المنال، ومتوفر في متناول الجميع .

كما يفتقر إلى معلومـات عـن الـدور الديبلومـاسـي الوطنـي والأجنبـي في الأحـــداث، ودور انشقـــاق الإمـــارات المحليـة التـي سـاهمت في اتجاه الأحداث .

ذلـــك أنـــه اكتـــفـى بالمشهـــور مـــن هـــذه الإمـــارات، وبالتي عـاصر أحداثها.

وفي هذا الصـــدد يعاب عليه تهافـت الأحداث، وهلهلة ربطـه فيما بينها، واضطـراب في توزيعـه للفصـول، مما يـوحي بعـدم مـراجعته لها، وعـدم تنقيحها .

لكـــن هـذا لا يطعـــن في قيمة الكتـاب التاريخيـة، وفي دوره في خدمـة البحث والـدراسـة التـاريخيـة، وبـالتـالي الباحثـــين والـدارسين، ولا سيما المؤرخين .

ويمتاز هـذا الكتاب بـالشجاعة الأدبيـة في نقد سيـاسةعصره وأحـداثه، وبروحه الوطنية الصادقة، وغيرته على دينه وقوميته ووطنيته ...

وقد ألف قبل كتابه الاستقصا كتابه :

- « **كشـف العريـن عـن لـيوث بني مرين** »، اعتمـد في تأليفـه على وثائق الخزانـات الرسميـة، التي قدمها لـه باشا مـدينة الجديـدة محمـد الجراري، كما استعـــان بالشـــيوخ المسنيـــن من معاصريـــه، وببعض

القنــاصل، وكـذا ببعض المراجـع الأجنبــية البرتغاليـــة، والأنجليـزيـــة، والإسبانــية (119) مما لم يظهر أثره في الاستقصا إلا نادرا ولماما .

وقـد اشتغـل بالتدريس، وكان ورعـا تقـيا، شــديدا على أهل البدع. مما طفى وبرز في مؤلفاته، وخاصة في " الإستقصا " و في "تعظيم المنة" .

وحاربــه أرباب الطـوائف والطرق، فلم يتراجـع ولم ينالوا منــه، لحسن قصده، وخلوص نيته .

وله مؤلفات عديدة ومتنوعة تدل على تنوع ثقافته . كما تقلب في وظائف رسمية عديدة بالمراسي وغيرهـا، لكنه خلال ذلك كان يشتغل بالعلم والبحث والتأليف، ونظم الشعر .

وفي آخـر حيـاتــه انقطع عن مخالطـة النـاس، ورفض الـوظـائف التي عــرضت عليه، وانكب على الـدراسة والبحـــث والتأليف بتفرغ، إلى أن تـوفي سنة 1315هـ(120) .

11 –عبد الرحمن بن زيدان (121) :

هو الفقيه الأديب المؤرخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن علي بن عبد الملك بن زيـدان بن السلطان الشـهير المولى اسماعيل العلوي الحسني .

ولد بقصر المحنشة أحد القصور الملكية بمكناس عام 1290هـ، ونشأ بها وتـرعـرع، حيث تلقى القـرآن على والده وعمـه عبـد القـادر، كما تلقى على فقهـائها وعلمائهـا مبـاديً الدين واللغـــة والأدب، ثـــم قصد فـاس لإتمام دراسته بجامعة القرويين، شأنه في ذلك شأن جميـع الطلبة في بلدان المغرب العربي والصحراء يومـئذ، إذ لم يكن يؤبه بعـلم عالم في تـلـك البلـدان إلا إذا كـان من الذين درســوا بالقـرويين، وأخذوا العلـــم عن شـيوخ فـــاس المبرزين .

---

(119) حسب ما ذكره نجــلاه في مقدمة ط دار الكتاب بالدار البيضــاء، والاستقصا، للناصري، ج :1، ص:9–27 حيث ترجمته كلها وشعره .

(120) له ترجمة مطولة بالاستقصا للناصري، ج : 1، ص :9–27 .

(121) مقدمة كتاب «العز والصولة»، لابن زيدان، ج:1، ص:أ–ط .

وتضم قائمة مشيخته أكبر علماء المغرب وأسيرهم ذكرا في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، كشيوخ الجماعة : أحمد بن الجيلالي الأمغاري (122)، وأحمد بن الخياط الزكاري (123)، ومحمد بن قاسم القادري (124)، وعبد الله الفضيلي العلوي، والعلامة الأديب أحمد بن المامون البلغيثي (125)، والمحدث المؤرخ محمد بن جعفر الكتاني(126)، والفقيه العلامة محمد بن عبد السلام كنون (127)، والفقيه النوازلي المهدي ابن محمد الوزاني (128)، كما تتحلى تلك المشيخة بأشهر علماء مكناس في ذلك الوقت، مثل الفقيه العلامة التهامي السوسي المدعو الحداد (129) شيخ السلطان عبد الحفيظ، والقاضي محمد بن أحمد السوسي (130)، والمؤرخ الحسن بن اليزيد العلوي (131) والفقيه الطيب بن العناية بنونة (132) وسواهم .

ورجع ابن زيدان من فاس إلى مسقط رأسه حوالي عام 1315هـ ممتلئ الوطاب أدبا وعلما، وأسند السلطان إليه نقابة الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، وسنه لا يعدو الخامسة والعشرين، وهي خطة جليلة، لها من الأهمية والاعتبار يومئذ مالها، فأضاف إلى جاهه التليد جاها طريفا صيره من أولي الحل والعقد على صغر سنه، على أن نفسه الطموح كانت تواقة إلى المزيد من العلم، ومعاينة المخترعات العجيبة التي تفتق عنها الفكر البشري في أعقاب القرن التاسع عشر، والوقوف على آثار النهضة العلمية والحضارية للشرق العربي التي كان الحجاج يحكون أخبارها بإعجاب ممزوج بحذر

---

(122) توفي عام 1352.
(123) توفي عام 1341
(124) توفي عام 1331
(125) توفي عام 1348 .
(126) توفي عام 1345.
(127) توفي عام 1328
(128) توفي عام 1342
(129) توفي عام 1336.
(130) توفي عام 1369
(131) توفي عام 1371
(132) توفي عام 1325.

ممزوج بإعجاب، ولكن الأحوال السيئة التي كان المغرب يتخبط فيها أيام السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ حالت دون تحقيق أمنيته، فلم يتيسر له أن يسافر إلى الشرق إلا سنة (1331هـ - 1913م)، فزار مصر والشام والحجاز، واجتمع برجال العلم والدين فيها وفاوضهم، وسمع منهم، وروى عنهم، وفي طليعة الذين أخذ عنهم في هذه الرحلة -وهي أولى رحلتيه إلى الشرق- الشيخ بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي المعروف بالمغربي شيخ دار الحديث . والشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية، والشيخ محمد السفرجلاني الشامي، وشهاب الدين البرزنجي المدني، والشيخ محمد حمدان التونسي القسنطيني المدني، والشيخ عبد الستار الصديقي الهندي وأضرابهم .

ولما عاد إلى وطنه أصبح من رجالات المجتمع، وصار منزله مقصدا للرائح والغادي، وأكب على جمع الكتب والوثائق والتدريس والمحاضرة، والتأليف، وشغف بالتاريخ الإسلامي وتاريخ المغرب على الخصوص، وتاريخ الدولة العلوية على الأخص حتى أصبح مرجعا فيه، واختار حرية نفسه والاشتغال بالعلم والأدب، فلم يقبل من الوظائف العديدة الكبيرة التي عرضت عليه إلا وظيفة نائب مدير الأكاديمية العسكرية بمكناس، وهي أشبه ما تكون بوظيفة شرفية . واستمر على ذلك إلى أن قضى نحبه بمكناس ظهر يوم السبت 21 ذي الحجة عام 1365هـ الموافق 16 نونبر سنة 1946م، وشيعت جنازته إلى ضريح جده اسماعيل في محفل رهيب مشى فيه سكان مكناس وأعيان الدولة، وعلى رأسهم جلالة الملك الحسن الثاني الذي كان يومئذ وليا للعهد، نيابة عن والده العظيم جلالة الملك محمد الخامس سقى الله أيامه، وطيب مثواه .

وقد أنشأ خزانة كتبه الحافلة الثمينة التي جمع فيها من "الظهائر الملوكية، والمكاتب الوزارية، ودفاتر الأمناء والنظار، والوثائق العتيقة الأثرية"، زيادة على الكتب والدواوين ما لا يوجد في غيرها"، "وبذل في الحصول عليها كل نفيس وغال، ووالى الأسفار، وسامر الأسفار، نابذا وراءه ظهريا حب الرئاسة، واقتناء الدور، وتشييد القصور، وشراء البلادات، وغرس الجنات، غير مفكر فيما يخلف للبنين والبنات" .

ومع أن ابن زيدان كان من المبرزين في الفقه والأدب وعلوم اللغة فإن ميله إلى التاريخ -وتاريخ الدولة العلوية على الخصوص- كان أشد وأغلب، وقد بدا عليه هذا الميل وهو في عنفوان شبابه، ولازمه حتى آخر رمق من حياته، ولهذا نجد أكثر الكتب التي ألفها متعلقا بالدولة العلوية، مثل :

1) «**إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس**»، المطبوعة منه خمسة أجزاء من ثمانية، وهو إلى أن يكون تاريخا للدولة العلوية أقرب منه إلى أن يكون تاريخا لمكناس .

2) و«**الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**»، المطبوع بالرباط عام (1356هـ - 1937م) .

3) و«**العز والصولة في معالم نظم الدولة**»، موضوعه نظام القصر الملكي والإدارة المغربية على عهد العلويين .

4) و«**المناهج السوية في مآثر الدولة العلوية**»، في مجلدين ضخمين، ألفه بطلب من المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، ليدرس في أقسام التعليم العالي بجامعة القرويين.

5) و«**النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية**»، في مجلد ضخم.

6) و«**العقود الزبرجدية في الرحلة السلطانية المحمدية**»، وهو وصف رحلة جلالة الملك محمد الخامس إلى الأقاليم الجنوبية سنة (1360هـ - 1941م) .

7) و«**العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدول الأجنبية**»، في ثلاثة أسفار .

8) و«**المنزع اللطيف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف**»، في مجلد.

9) و«**جني الأزهار ونور البهار في تاريخ الجيش النظامي**»، الذي ألفه السلطان اسماعيل من العبيد المعروفين بعبيد البخاري

10) و«**اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب اليوسفي**» في جزئين، **ورحلته للحجاز**، **وفهرسة شيوخه**، **وديوان شعره**، وسواها من الكتب والرسائل والمحاضرات في مختلف الفنون الدينية والسياسية والأدبية والتاريخية .

وكتاب (العز والصولة) من أهم هذه المؤلفات وأكبرها فائدة وأجدرها أن تصبح مرجعا رئيسيا للمؤرخين والسياسين والإداريين لمدة طويلة. ذلك أنه لا يطرق موضوعا من المواضيع التي طرقها في كتبه الأخرى أو التي ألف

الكتابة فيها علماء المغرب في القرون الأخيرة، فهو لا يؤرخ لملك ولا دولة، ولا يترجم لفرد ولا طبقة ولا أسرة، ولا يعرف بناحية ولا مدينة ولا قرية، بل هو وصف للأنظمة والأعراف الإدارية التي كان معمولا بها في الدولة المغربية حتى مطلع هذا القرن، وبيان لأحوال السلاطين وعاداتهم المتبعة داخل قصورهم. فهومن حيث الموضوع أشبه بالكتب المؤلفة حديثا في فن البروتوكول والقانون الإداري، وإن اختلف عنها ترتيبا واتجاها وأسلوبا.

وقد كانت نقطة البداية في تأليفه أن معهد الدراسات المغربية العليا(133) اقترح عليه أن يلقي محاضرة بمناسبة انعقاد موتمره الثاني بفاس عام (1351هـ - 1933م)، فاختار نظام الدولة العلوية عموما وآثارها بفاس على الخصوص، نظرا لاجتماع المؤتمر بها . ثم بدا له أن يفصل الموضوعين أحدهما عن الآخر، فزاد في موضوعه آثار العلويين بفاس، ونشره على حدة في كتاب سماه **"الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة"** . أما نظام الدولة فقد جعل تلك المحاضرة أساسه، ثم شرع يتوسع فيه، ويزيد في أبوابه مستعينا بما في خزانته العظيمة من الظهائر والمكاتيب والمعاهدات والكنانيش، جاعلا إياها المحور الذي تدور عليه أبواب الكتاب وفصوله حتى توفر كما يقول "على كثير من الأجزاء، وأحاط بما لم يحط به مؤلف قديم أو حديث".

ويحدثنا المؤلف في مقدمة الكتاب عن الأسباب التي حفزته إلى اختيار موضوعه فيقول :

"اخترته لغربته وجدته وطرافته، وجدارته بالبحث وأهميته، وهو موضوع مع شدة الحاجة إليه قد أغفله المؤرخون والكتاب، فما رفعوا عنه القناع ولا وضعوا النقاب، ولا كشفوا عن حقيقته الحجاب، حتى توهم الأغمار والأغرار أنه لم تكن لدولة المغرب نظم مقررة، ولا قواعد محررة، ولا طرق في الحكم والإدارة معروفة، ولا مناهج في تدبير الملك مألوفة".

وقد سلك المؤلف في ترتيب الكتاب طرقا، ولم يراع وحدة الموضوع ولا مابين المواضيع من تناسب وتجانس، كما أنه لم يفرق بين نظم الدولة

---

(133) كلية الاداب والعلوم .

العـامـة، وعـادات القصر الخاصة، فبينما تجده يتحـدث عن نظـام البيعـة وأشغال السلطان أيام الأسبـوع إذا بك تجده يتحدث عن كيفية صنع الخل وتقطير الزهـر والورد بدار المخزن، وبينما تجده يتكلم عن العـادات المتبعة في الجنـائز والتوارث داخل القصر، إذا بـه يتكلم عن النظـام المالي والحربي، ليعود بعد ذلك فيتكلم عن العادات المألوفة في العقيقة والختان . ولا ريب أن الذي دعـاه إلى هذه الفوضى الموضوعيـة هو عدم حصـــره أولا للمواضيع التي يريـد الكـتابة فيها، لأنــه كان يحـــرر الفصول حسب وقوع الـوثائق المستند عليها بين يديه، سواء كـانت مما يهم الدولة أو يعني السلاطين، ثم يتبع الفصل بـالفصل حسب تحـــريره، غير آبـه بـــما قـد يأتي بعـده من الفـصـول الـتي لـها ارتـبـاط مـوضـــوعـي، وليـس لـها بـه اتصـــال في الـترتيـب .

ولو امتـد العمر بابن زيـدان لظل الكتاب يتسـع -كماً وكيفًـا- إلى ما لا نهاية لـه، فقد بقي يواصل العنايـة به إلى آخر رمق من حياتـه، مع أنه أتم تحرير النسخة الأولى منــه وتنقيحها بعد عشاء يـوم الثلاثاء 15 ذي القعدة عام 1353هـ (19 يبراير 1935م) .

أما أسلوب (العز والصولة) فأسلوب عليه مسحة من القديم وإن كنا لا نعدم بين ثنـاياه فصولا عليها جـدة الحديث ونصاعته، ويكثر فيـه في كلتا الحالتين استعمال الألفاظ والتراكيب العامية المغربية . والطريقة المتبعة لدى المؤلف هي أنه يجعل من الوثيقة أو الوثـائق التاريخية منوالا ينسج عليه : يعنـونها أولا، ثم يصدرهـا بمقدمـــة تطـول في بعضها وتقصر في بعضـهـا الآخر، ثم يـوردها استشهادا واستدلالا، غير مهتم بما قـد يكون في بعضـها من الطـــول والتكـــــرار الـذي يمله المطالـــع قطعـا، سيمـــا في القـــضـايا التافهـة.

ومن خـلال كل فصل نحس بغيرة الرجل الـدينية، وعصبيتـه لدولتـه، وعواطفه المتأججة بـالمحبة لوطنه، وتوجيهه للشبـاب المغربي وتحذيره إياه من العبودية الروحية والفكـــرية التي كـان الاستعمـاريون يومـئذ جادين في نصب حبالاتها له .

12) عبد الوهاب بن منصور :

مؤرخ المملكة، مدير الوثائق الملكية، عضو ديوان جلالة الملك، محافظ ضريح محمد الخامس .

ولد عبد الوهاب بن منصور بفاس سنة 1920م، حيث تلقى دراسته بمدارسها الحرة، وبجامعة القرويين التي حصل بها على شهادة العالمية سنة 1961م في العلوم الأدبية والقانونية .

شارك منذ صغره في الحركة الوطنية، واعتقل وسجن أثناء المظاهرات الوطنية، سنة 1936م، وعمره ست عشرة سنة . ويعتبر أصغر سجين سياسي حكم عليه بالمغرب .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، غادر المغرب إلى الجزائر، ومنها إلى فرنسا فبلجيكا، وعمل مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فعين مديرا في مدارسها، وكتب في جرائدها .

بعد عودة جلالة المغفور له محمد الخامس من المنفى، عاد إلى المغرب، فعمل أستاذا بمدارس محمد الخامس بالرباط، ومدرسة النهضة بسلا –وهما من المدارس التي أقامها الوطنيون إبان عهد الحماية الفرنسية، وساهموا في تشييدها بأموالهم، بتوجيه من الملك المرحوم محمد الخامس – ثم عين نائبا لمدير الإذاعة والتلفزة .

وفي سنة 1957م استدعاه الملك المغفور له محمد الخامس ليعمل كعضو في ديوانه الملكي، فكان رئيسا لقسمه السياسي، فضلا عن أعمال إنشائية ومكتباتية كان يشرف عليها في الخزائن الملكية .

وبعد تولية جلالة الملك الحسن الثاني، عينه مؤرخا للمملكة، ثم رئيسا للديوان الملكي، ثم مديرا للشؤون السياسية بوزارة الداخلية سنة 1963م، فمديرا عاما للإذاعة والتلفزيون سنة 1965م قبل أن يعيده إلى الديوان الملكي سنة 1967م ليشغل فيه منصب مكلف بمهمة، بالإضافة إلى مهمتي: محافظ الضريح ومؤرخ المملكة، وفي سنة 1975م أضيفت إلى هذه المهام مسؤولية مديرية الوثائق الملكية.

–يعتبر عضوا مؤسسا لأكاديمية المملكة المغربية بمرسوم يخص الراتب والتعويضات المادية .

من مؤلفاته المطبوعة :

- البدائع – 1938 .
- تعقيبات ... حول السياسة الاستعمارية بشمال إفريقيا –1938م.
- المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس –1365هـ .
- أبو القاسم القالي – 1370هـ .
- الأردن : ملك وشعب –1960م .
- قبائل المغرب –1968م .
- الحسن الثاني – حياته وجهاده ومنجزاته –1369هـ .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في باريس – 1970م .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان –1976م.
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في نواديبو –1970م .
- كشف أسماء الأسر المغربية – 1972م (طبعة ثانية سنة 1977م) .
- حفريات صحراوية –1976م.
- الوثائق – 1976م (صدر منها 8 أجزاء) .
- عرائس التهاني – 1977م .
- أعلام المغرب العربي – 1979م (صدر منه 5 أجزاء) .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في نيروبي وجدة ومكة –1981م.
- الحسبة – 1982 .
- مع جلالة الملك الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان – 1983م.
- ملف الصحراء المغربية أمام منظمة الوحدة الإفريقية – 1984م.
- ملف الصحراء المغربية أمام منظمة الأمم المتحدة –1984م.
- مشكلة الحماية القنصلية – 1985م.
- الرحلة الملكية الحسنية إلى المملكة المتحدة البريطانية – 1987م.
- التحف السنية بالرحلة الملكية الحسنية، إلى العاصمة الجزائرية – 1988م.

من الكتب المطبوعة بتحقيقه :

– تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات – 1960م.

– العز والصولة في معالم نظم الدولة – 1961م.

– عروسة المسائل عما لبني وطاس من الفضائل – 1963م.

– روضة النسرين في تاريخ بني مرين (لاسماعيل بن الأحمر) – 1963م.

– روضة التعريف بمفاخر المولى إسماعيل بن الشريف (تأليف محمد اليفراني) – 1963م .

– نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك (لعبد العزيز الملزوزي) – 1963م.

– التحفة السنية للحضرة الحسنية، للمملكة الاصبنيولية (لمحمد الكردودي) – 1963م.

– إلى ولدي المامون (للسلطان مولاي اسماعيل) – 1967م.

– جنى زهرة الآس، في بناء مدينة فاس (لعلي الجزنائي) – 1967م.

– الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون (تأليف محمد بنغازي) – 1964م.

– أخبار المهدي بن تومرت (لأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق) – 1971م.

– المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب (لأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق) – 1971م.

– مثلى الطريقة في ذم الوثيقة (لمحمد بن الخطيب السلماني = لسان الدين) – 1972م.

– بيوتات فاس الكبرى (لإسماعيل بن الأحمر) – 1972م.

– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (تأليف علي بن أبي زرع) – 1973م.

– الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (تأليف علي بن أبي زرع) – 1973م.

- الإعلام، بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (تأليف العباس بن إبراهيم السملالي) – 1974م (عشرة أجزاء) .

- اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سَنِيِّ الآثار (تأليف أبي القاسم الأنصاري) – 1983م.

- بلغة الأمنية ومقتصد اللبيب عمن كان بسبتة في عهد الدولة الإدريسية من مدرس وأستاذ وطبيب (لمؤلف مجهول) – 1984م) .

ويشرف السيد عبد الوهاب بن منصور منذ سنة 1956م على إصدار حوليات (انبعاث أمة) التي بلغ عدد ما صدر منها 38 سِفْراً كبيرا .



استهلال تاريخي

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على الهادي الأمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد كان المغرب عبر العصور – وبحكم موقعه الجغرافي – ممرا دوليا، وملتقى الحضارات الإنسانية. مما طبع شخصيته بطابع خاص يتسم بالتقدم والتطور السريع.

ورغم حرص البربر (1) على حريتهم واستقلالهم، المهددين دائما بالغزاة الطامعين – بحكم موقعهم الإستراتيجي المذكور – فقد دخلوا في الإسلام عن طواعية واختيار، وسلموا عنان زمامهم للعرب المسلمين عموما، ولآل البيت النبوي الشريف خصوصا. وهي معادلة تحير الباحثين الأجانب، ويقفون أمامها عاجزين عن حل رموزها، وبالتالي حاقدين حاسدين، ساخطين سخطا يطفو في كتاباتهم المغرضة، ولاسيما كتابات المستشرقين، وخاصة الإسرائليين منهم (2)

والحقيقة التي يجهلونها، بل يتجاهلونها هي أن العرب الفاتحين عاملوا البربر بتسامح خاص، مراعاة لآبائهم وتمسكهم بحريتهم واعتزازهم باستقلالهم، فاعتبروا أن بلادهم فتحت صلحا لا عنوة (3)، كما اكتفوا ببسط سيادتهم الرمزية على كافة الشمال الإفريقي، وبالتالى فقد احتفظ البربر بأراضيهم، وتم إعفاؤهم من الضرائب المختلفة، ومعاملتهم باحترام واعتزاز، لذلك دخلوا في دين الله أفواجا، وما لبثوا أن تبنوا الدعوة الإسلامية وانطلقوا لنشرها في أصقاع أوربا شمالا، وأرجاء إفريقيا جنوبا.

كما اعتصموا باللغة العربية – باعتبارها لغة القرآن الكريم – والثقافة والحضارة الإسلامية التي اندمجوا في زمرتها بعصامية والتزام....

وهذه السيادة العربية على المغرب هي التي فتحت أبوابه في وجه المعارضين للسلطة بالمشرق، فتوافدوا إليه زرافات ووحدانا، كمهجر وملجأ أمين.

---

(1) سكان المغرب الأصليون.

(2) كماركوليوت، وبروكلمان، والكونت هافري، وكاسترو ورامباور...

(3) « الأدب المغربي المعاصر»، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص : 9، ط : الأولى، مكتبة الدراسات الأدبية، رقم 84.

وكان على رأس هؤلاء الوافدين إليه المولى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب – أخو محمد النفس الزكية – الذي أتى إلى المغرب الأقصى، ونزل بوليلي – مرورا بطنجة– وذلك سنة 172هـ.

ولما علمت القبائل االبربرية بنسبه الشريف، ومدى قربه إلى جده المصطفى الأمين أجمعت على مبايعته، والتفاني في خدمة دولته.

ولما قتله العباسيون غدرا، بايعت ولده إدريس الثاني سنة 188هـ، وصارت في ركابه وهو يوحد ويعرب المغرب، ويوطد دعائم الاسلام في ربوعه، ويؤسس عاصمته مدينة فاس، التي صارت تنافس أشهر عواصم المشرق والأندلس، كبغداد ودمشق والقاهرة وإشبيلية وغيرها.

وظل المغرب الأقصى في عهد الأدارسة يتراوح بين مد وجزر في مراوغة الأمويين في الأندلس والعبيديين في إفريقية، حتى قامت الدولة المرابطية سنة 427–541هـ التي قادت الجهاد في سبيل الدعوة الإسلامية والوحدة الوطنية. ولم يلبث يوسف بن تاشفين أن أسس عاصمته مراكش، وشمل حكمه المغرب الأوسط والأندلس التي عمل على توطيد أركان الإسلام في ربوعها أربعة قرون أخرى، وبالتالي عمل على ترسيخ دعائم المذهب المالكي ونشره بالمغرب على أوسع نطاق (4)، غورا ونجدا.

وسرعان ما قامت على أنقاضها الدولة الموحدية على أساس ديني (5) عقائدي، بقيادة محمد المهدي بن تومرت، الذي انتهز فرصة تدهور قوة الدولة المرابطية التي أنهكتها محاربة النصارى(6).

وصارت على عهد خليفته عبد المومن بن علي وأولاده من أعظم الدول التي حكمت المغرب وأقواها على الإطلاق، إذ امتد نفوذها إلى تخوم مصر، مما أحدث توازنات سياسية جديدة على الصعيدين : العربي والإسلامي، وبالتالي على الصعيد العالمي –إذ ذاك– حتى كان الصليبيون يقدرونها حق قدرها، ويحسبون لوجودها ألف حساب، وحتى استعان صلاح الدين

(4) «الأدب المغربي المعاصر»، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص : 10، ط:1، والترجمانة الكبرى للزياني ص: 60.

(5) الترجمانة الكبرى للزياني، ص : 69–72 حيث رأى ابن خلدون في هذه الدولة، وص : 74–81، حيث اعترض عليه الزياني في ذلك.

(6) المصدر الأول، ص : 10.

الأيوبي بأسطولها في حروبه الطاحنة مع الصليبيين، وحتى أصبحت الدول الغربية القوية قاطبة تخطب ودها (7).

لكن تشدد هذه الدولة في مبادئها، وكذا تناقضاتها المذهبية، عجلت بانهيارها رغم قوتها وامتداد نفوذها واتساع حضارتها ذات الطابع الأندلسي من حيث : الفكر، والثقافة والعمران،....

وكانت الدولة الموحدية بتناقضاتها تحمل عوامل انهيارها وانقراضها من الداخل. فلم تلبث أن خلفتها –على حكم المغرب– الدولة المرينية التي قامت بزعامة أبناء قبيلة زناتة، الذين حافظوا على استقلالهم عن الموحدين، واكتفوا بالمساهمة إلى جانبهم في محاربة النصارى بالأندلس. ومن ثَمَّ تفطنوا إلى نقط ضعفهم، وتعرفوا على عوراتهم، فثاروا عليهم بفاس وانتزعوا منهم مقاليد الحكم، واستولوا على حكم البلاد كدولة جديدة (8).

وقد تفانى المرينيون في العمل على توحيد البلاد وواظبوا على الجهاد في الأندلس، وأسس أبو يعقوب المريني فاس الجديد واتخذها عاصمة لدولته. لكن الظروف الدولية والإقليمية لم تكن تعمل لصالحهم، مما عجل بزوال دولتهم وانهيارها.

فقد كانت دولة قشتالة النصرانية بالأندلس في عنفوان شبابها، كما أن دولتهم كانت تفتقر إلى الأساس الديني الذي كان يشكل العمود الفقري للدولة الإسلامية – آنئذ – والذي كان من شأنه استقطاب الأنصار والأتباع، ومؤازرة الأمة لهم والتفافها حولهم.

وهكذا دالت دولتهم وزالت، رغم إشعاعها الديني والثقافي والحضاري والعمراني....

فقد تقلص ظلها وتفرقت شذر مدر، فاستقلت عنها الأقاليم النائية بتتابع، فأصبحت الدولة منقسمة إلى طوائف متصارعة، تتنازع البقاء والسلطة إلى أن قضى عليها نهائيا محمد الشيخ الوطاسي، الذي بويع سنة 869هـ وأسس الدولة الوطاسية سنة 869–957هـ.

---

(7) المصدر السابق ص : 11.

(8) الأدب المغربي المعاصر فتحي حسن المصري ص: 12 الترجمانة الكبرى للزياني ص : 104.

لكنه عجز عن استيعاب جميع مناطق نفوذ الدولة المرينية، فاكتفى ببسط سيادته عل القسم الشمالي من البلاد. (9)

أما القسم الجنوبي للبلاد فقامت به الدولة السعدية سنة 916 – 1065هـ، بزعامة أحمد الأعرج السعدي الذي بويع بمراكش سنة 922،(10) والذي توسل بالجهاد ضد النصارى الإسبان والبرتغال، معتمدا على تأييد الزاوية الجزولية(11).

ذلك أن المغاربة تفطنوا لضعف الحكومة القائمة هنا وهناك فتعلقوا بأرباب الزوايا، والطرق الصوفية التي تصدت للتحالف الصليبي بين الإسبانيين والبرتغاليين الذي كان يستهدف الإستيلاء على الثغور والقلاع المغربية، منتهزا ضعف السلطة المركزية بالمغرب.

لكن أرباب الزوايا لم يلبثوا بدورهم أن تصارعوا وتقاتلوا فيما بينهم على السلطة والحكم (12).

وهكذا انهارت الدولة السعدية تحت وطأة حدة الصراع على الحكم بين أبناء المنصور الذهبي السعدي، الذين تحاربوا فيما بينهم، مستعينين تارة بالأجانب وطورا برؤساء القبائل الطامعين في السلطة، المتربصين بهم الدوائر للانقضاض على الحكم، وخاصة بعد ثورة محمد الشيخ المامون الولد البكر لأحمد المنصور الذهبي، وولي عهده، وخليفته بفاس (13) – الذي سجنه والده. لكنه لم يبت في شأن ولاية العهد (14) قبل موته سنة 1012هـ – 1603م، فتقاسم البلاد رؤساء النواحي الذين استبدوا بالسلطة، فعم الاضطراب، وسادت الفوضى، لاسيما لما تجرأ ولده محمد الشيخ المامون المذكور على تسليم مدينة العرائش للإسبان(15)، مقابل مساعدته على ردع

(9) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص:150، والأدب المغربي المعاصر، ص: 12، ط:1.
(10) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج : 3، ص: 17.
(11) المصدر الأول، ص : 12.
(12) «الزاوية الدلائية»، لمحمد حجي، ص : 20.
(13) المصدر السابق، ص : 19.
(14) سنة 1019 هـ – 1610م.
(15) الزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص : 20 – 21.

إخوتـه المنافسين لـه على الملك. فثار ضـده الشعب كله، وتعقبـه حتى قتل بمدينة تطوان، سنة 1022هـ (16).

وما إن انتثر عقد الدولة السعدية، وذهب ريحها في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، وأواسـط القرن السابع عشر الميـلادي، حتى تجددت أطماع الدول الأوربيـة المجاورةفي السـواحل المغربيـة، لانقسام البـلاد بين رؤسـاء النواحي المستبـدين بالسلطة، والـذين أصبحوا يشكلون دويـلات، وإمارات مستقلة عن الدولة السعدية، بمثابة ملوك الطوائف بالأندلس.

وطـالت هذه الـوضعية زهـاء أربعين سنة، امتـدت من موت السلطـان زيـدان السعدي، سنـة 1036هـ، إلى قيام الـدولة العلـويـة الشريفة سنـة 1041هـ(17).

وأهم وأشهر هؤلاء الرؤساء والثوار المستبدين بالحكم :

1- أهل الدلاء : (1061-1079) (18)

2- المجاهد العياشي (19)

3- أبو زكرياء الحاحي (20)

4- أبو حسون السملالي (21)

5- ابن أبي محلي (22)

---

(16) «البذور الضاوية»، لسليمان الحوات، ورقة:5/6، والزاوية الدلائية لمحمد حجي ص:28.

(17) تاريخ بيعة المولى الشريف.

(18) البذور الضاوية، لسليمان الحوات، ورقة : 5 أو الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 28-41.

(19) الزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 154، ودعوة الحق، ع: 2، س: 3، 1379هـ-1959م، ص: 27، وهو محمد بن أحمد المالكي الزياني العياشي من العرب الهلالية بالمغرب.

(20) يحيى بن عبد اللـه بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي. الـزاوية الدلائيـة لمحمد حجي، ص: 21 و 146-148، ودعوة الحق المذكورة، و ص.

(21) إيليغ قديما وحديثا، للمختار السوسي، ص: 103-106، والاستقصا، ج: 6، ص: 178، و ج : 7، ص: 41، وزهر الأكم، ص: 8-9.

(22) محاضرات اليوسي، ص: 19، والزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 143.

قيام الدولة العلوية :

كان من نتائج تصارع الإمارات المستبدة بالأقاليم أن تعطلت التجارة الداخلية والخارجية، لقيام الحواجز بين هذه الإمارات، وللمضاربة بين الأجانب، وتلاعبهم بين الأمراء، ولتفشي التهريب، وخاصة للأسلحة والذهب، والنحاس والذخيرة، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد المغربي بصفة عامة.

وتطلع المغرب إلى منقذ من هذه الأخطار السياسية والاقتصادية وغيرها المحدقة به، منقذ يجمع الكلمة ويوحد الصفوف، ويتغلب على الصعاب، فاتجهت الأنظار إلى المولى الشريف بن علي.

المولى الشريف بن علي العلوي (23)

من أبرز حفدة المولى علي الشريف بن علي العلوي، جد الأشراف العلويين بسجلماسة، الذي تفطن لاتجاه الأنظار نحو أسرته(24) الشريفة، فاتخذ المبادرة، وبايعته سجلماسة سنة 1041هـ، وضربت عليه الطبول لاشتهاره – هو خاصة، وأسرته عامة – بالفضيلة والدين، والجهاد في سبيل الله، فقد كان وجيها في سجلماسة، وفي بلاد المغرب كافة، مقصودا في الملمات والمعضلات(25).

وما إن بويع المولى الشريف بن علي، حتى ناصبه العداء جميع الثوار المتطلعين للملك، كبني الزبير أهل تابوعصامت، فاستنصر عليهم بأبي حسون السملالي، واستنجدوا بالدلائيين سنة 1043هـ، الذين حرضوا أبا حسون السملالي على المولى الشريف، فلم يلبث أن تنكر له، وسجنه بقلعة إيليغ بسوس، فبايعت سجلماسة ولده المولى محمد الأول (26)، الذي افتدى

---

(23) الروضة السليمانية، للزياني، ورقة: 48، ونشر المثاني، للقادري، ج:2، ص:88، والزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 154–161 ط: 2، ولد سنة 977هـ.

(24) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 24، كان يشيع تنبؤ الإمام محمد بن محمد بن عبد الله بن علي ابن الطاهر الحسني بأن الملك سيكون في أبنائه ويعمل على تحقيقها، كما كان ولده محمد الأول يستدل بالجفر على ذلك وراج كل ذلك في أيامهما معا.

(25) نشر المثاني، للقادري، ج:2، ص: 144.

(26) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 27 و12، ودعوة الحق، ع:2 و3، سنة : 2، 1399هـ–1979م، ص: 6، معارك وانتصارات بقيادة العرش العلوي المجيد، لأحمد رمزي، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 52، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 59.

أباه بمبلغ كبير، سنة 1051هـ، بتدخل من الدلائيين الذين ذكروا أبا حسون السملالي بنسب المولى الشريف وقرابته من رسول الله (ص)، فرق له، وحسن ظروف سجنه أولا، فجعله في شبه إقامة إجبارية محروسة بسوس، وأعطاه جارية(27) هي أم ولديه : المولى إسماعيل، وأخيه المهدي.

وبعد تجديد البيعة للمولى محمد بن الشريف سنة 1051هـ، في سجلماسة، أكلت الغيرة قلب محمد الحاج الدلائي، فزحف على تافيلالت بجيش جرار من البربر، سنة 1056هـ-1646م، فالتقى الجمعان في وقعة القاعة (28)، حيث انتصر الدلائيون واستباحوا سجلماسة ثلاثة أيام، ثم صالحوا المولى محمد بن الشريف على اقتسام مناطق النفوذ (29)، بحيث لم يتركوا للمولى محمد بن الشريف سوى الأقاليم الصحراوية، ما دون جبل العياشي، واحتفظوا فيها بخمس مناطق استراتيجية لهم، وبها مصالحهم الحيوية.

لكن ما إن انصرف محمد الحاج الدلائي من الصحراء حتى استعاد المولى محمد بن الشريف تلك المراكز (30)، فانتقض الصلح بينهما، مما انتهى بالقضاء على الزاوية الدلائية أيام المولى الرشيد، بعد معركة بطن الرمان -كما سيأتي-.

أصل الدولة العلوية الشريفة :

تنتسب الأسرة العلوية الشريفة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشرفها لانزاع في صراحته (31)، ولاخلاف في صحته عند جميع المغاربة، يقول الشيخ أبو علي اليوسي : «إن شرفها مقطوع به، فهو بصحته كالشمس

---

(27) تاريخ الضعيف الرباطي أو تاريخ الدولة السعيدة ط:1، 1406هـ-1986م.

(28) الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 172.

(29) البذور الضاوية، لسليمان الحوات، ص:239، والاستقصا، للناصري، ج: 7 ص:17، والزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص: 159.

(30) واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو الزياني، م.خ.ع بالرباط ودعوة الحق، ع: 258، ص: 19-20، س: 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد ابن شريفة.

(31) كتاب الشيخ النسابة الشريف أبي عبد الله الأزورقاني.

الضاحية». وقال أحمد العلوي في الأنوار السنية : «وعمود نسبه لم يزل محفوظا عدده عند نسبته، موصولا نسبه فيما بينهم (32)»، ويقول الشيخ النسابة الشريف أبو عبد الله الأزورقاني ذاكرا نسبهم في كتابه (33): «ومن نسب السيد محمد النفس الزكية بينبوع النخل: السيد محمد، والسيد الحسن، ابنا عبد الله بن محمد بن أبي عرفة، وكان أصل سلفه بالينبوع هو وأجداده، لأن جدهم مولانا علي بن أبي طالب، كان النبي (ص) أقطعه إياه فبقيت فيه سلالته. وأول من دخل بلاد الغرب من أجداده الحسن بن قاسم.»

الحسن بن قاسم المعروف بالداخل :

ويمكن إرجاع أصل هذه الدولة بالمغرب إلى الحسن الداخل (34) ابن قاسم (35)، الذي جاء إلى المغرب أيام يعقوب بن عبد الحق المريني، سنة 664 هـ - 1301م، في الستين من عمره، فأقبل عليه أهل سجلماسة حتى تنازعوا مدفنه بعد موته، ثم مسحوا سجلماسة، ودفنوه وسطها.

وكان قدومه إلى المغرب (36) بدعوة من أهله تبركا به، ورغبة منهم في تكوين دولة شريفة، تجتمع عليها كلمة المغاربة، وبتطوع منه لأجل الإصلاح والدعوة إلى الله، والذود عن حرمات الإسلام (37)، وكذا للعمل على

---

(32) نشر المثاني للقادري، ج: 1، ص : 30، والترجمان المعرب للزياني ص : 4-5، ط: هوداس.

(33) ونجد نحو هذا عن نسبهم في : التقاط الدرر للقادري، ص: 87-88 وفي فهرس الفهارس، ج: 1 ص:296-300، والزاوية الدلائية، لمحمد حجي، ص: 78 والدر السني، لعبد السلام لقادري، ص: 51-52 ط: الحجرية .

(34) نشر المثاني للقادري، ج : 1، ص : 30.

(35) نسبه بنزهة الحادي للإفراني، ص: 287 -293 ونظمه محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني، والقصيدة لجد المؤلف وهي في ج :1، ص: 30، وفي البستان الظريف للزياني ص: 3، والحلل البهية للمشرفي، ص: 58-59 والروضة السليمانية، للزياني، ص: 48 والحياة الأدبية لمحمد الأخضر، ص : 66.

(36) قدم مع حجاج سجلماسة، بطلب من شيخ الركب الفيلالي، أبو ابراهيم العمري النسب، وجاءه به أولاد المتراري - الذين صاهروه - وأولاد البشيري، وأولاد ابن عقلة.

(37) نزهة الحادي، للافراني، ص : 58-59 و 191.

استرجاع حقوق آل البيت في الخلافة، ورد اعتبارهم بتأسيس دولتهم (38)، وبالتالي لتطهير البلاد من الغزاة النصارى، ومن المغامرين....

وكان رجلا صالحا ناسكا، مشاركا في العلوم، وخاصة في علم البيان(39). وقد عمل هو وأولاده وأحفاده إلى جانب المغاربة على امتداد نحو أربعة قرون حتى حققوا هذه الرغبة الملحة، والأهداف المشتركة لصالح البلاد والعباد.

والحقيقة التي لا غبار عليها أن الأسرة العلوية الشريفة قامت بدور تاريخي بناء هادف، قبل أن تصل إلى مقاليد الحكم في المغرب، وتتولى فيه أمر الملك وحق الخلافة، بما يناهز ثلاثة قرون.

لقد طارت شهرة هذه الأسرة في الآفاق بفضل العلماء والفقهاء والمثقفين من أبنائها الذين اشتغلوا بالعلم والتعليم منذ العصر المريني.

فقد كان جدهم الحسن الداخل مشاركا في العلوم، وخاصة علم البيان -كما مربنا-، بل هناك رواية بأنه هو الذي أدخله إلى المغرب (40).

أما المولى علي الشريف فقد اشتهر علمه، وظهر فضله،.... واكتفى بالعلم عن الملك قائلا: «يكفيني قصب العلم» (41).

وكانت لولده يوسف خزائن عديدة للكتب، كما كان حفيده الحسن بن يوسف يحفظ المدونة، وصحيح البخاري، إلى تضلعه في جل العلوم (42).

وفي العصر السعدي اشتهر عبد الواحد بن أحمد الشريف، قاضي مراكش ونقيبها، الذي كان من كتاب القصر، وحاشية المنصور، وله عدة مؤلفات وصل منها: حواشي على المكودي والمرادي، وتوفي سنة1009هـ (43).

---

(38) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج :3، ص :17.

(39) هناك رواية بأنه أول من أدخل علم البيان إلى المغرب.

(40) الأنوار الحسنية، لأحمد العلوي، ص: 12.

(41) البستان الظريف، للزياني، ص :21، والاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 8-9، والأنوار الحسنية، للعلوي، ص: 28-29.

(42) المصدر السابق ص: 21.

(43) الأنوار الحسنية، لأحمد العلوي، ص: 12.

كما اشتهر الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن طاهر، الذي يعتبر مدرسة متحركة، تخرج منها تلاميذ أصبحوا روادا للحركة العلمية بالمغرب، وعلى رأسهم محمد بن عبد الهادي، وأبو بكر النطفي، وأبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، وأحمد بن علي البوسعيدي، ومحمد بن سعيد السوسي -صاحب المقنع- والعربي الفاسي، صاحب مرآة المحاسن (44).

أما في عهد الدولة العلوية فإن نبغاء هذه الأسرة لا يحصون عددا في مختلف المجالات العلمية (45).

كما كانت هذه الأسرة بعد توليها الملك تحرص على تدريب أبنائها على فنون القتال، فترسلهم صغارا إلى ميادين الحروب والمواقع، للتدريب العملي التطبيقي (46).

المولى علي الشريف :

كان المولى علي الشريف رجلا معروفا بالصلاح والتقوى، مجاب الدعوة، كثير الأوقاف والصدقات، قسم أوقاته بين الحج والجهاد بإفريقيا والأندلس، حيث رغب الأندلسيون في مبايعته، فأبى زهدا وورعا (47). قال الزياني في ذلك: «... وممن عظم العلم، واكتفى به عن الملك، وزهد فيه، مولاي علي الشريف جد الأشراف العلويين، فإنه كان يتوجه للغزو بجزيرة الأندلس المرة بعد المرة، واشتهر علمه، وظهر فضله، وراوده أهل الأندلس على ملكها، فزهد فيه وقال : «يكفيني قصب العلم» (48).

وقد ضرب المولى علي الشريف (49) أروع الأمثال في التضحية ونكران الذات، في سبيل تحقيق تلك الأهداف المشتركة للمغاربة والأسرة العلوية الشريفة، التي ظلت على امتداد ثلاثة قرون ونصف القرن، القاسم المشترَك الذي جعلهما بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا، وذلك بتطوعه

---

(44) المصدر السابق، ص: 12-13.

(45) المصدر السابق، ص: 13، والدرالسني، للقادري.

(46) البستان الظريف، للزياني، م.خ، م بالرباط، رقم 142.

(47) نزهة الحادي، للإفراني، ص: 294-295.

(48) البستان الظريف، للزياني، ص: 21

(49) دفين سجلماسة.

للجهاد، لإنقاذ الإسلام من مخالب الكنيسة الصليبية، بطلب من علماء المغرب والأندلس الذين راسلوه في الموضوع شعرا ونثرا (50).

ومن أولاد المولى علي الشريف السيد عبد الواحد، المكنى بأبي الغيث، وهو جد الأشراف البلغيثيين، كني بذلك لكثرة الغيث الذي نزل يوم ولادته، بعد جفاف شديد طويل (51).

وهكذا كانت رسالة الأسرة العلوية الشريفة بسجلماسة -قبل بيعتها- روحية وتربوية صرفة، وكان حلولها بالمغرب يمنا وبركة، وخيرا عليها وعلى المغاربة دينا ودنيا.

كما أن قيام الدولة العلوية في فترة حاسمة من تاريخ المغرب، وهي فترة تفكك الدولة السعدية وانهيارها -كما مربنا- حيث مست الحاجة إلى قيام دولة بديلة، إذ كانت كل جهة تستقل بأميرها (52)، وأدى تصارع القوى المتواجدة والمتصارعة إلى الخراب والدمار، وكانت كلها ذات طابع ديني تتوسل بالدين، وتتخذه مطية للوصول إلى السلطة والملك (53).

ولقد واجهت هذه الدولة تحديات خطيرة في طور نشأتها، وهي أصعب الأطوار في حياة المغرب عبر تاريخه وعلى جميع المستويات والأصعدة.

فعلى الصعيد الداخلي، كان المغرب يعاني التمزق والانحلال، والتفرقة والانقسام، وتكالب المغرضين ذوي الأطماع السياسية، من الوصوليين والمغامرين، مما هدد الوحدة الوطنية، وبالتالي السيادة المغربية.

وعلى الصعيد الخارجي، وافق قيامها النهضة الأوربية الحديثة، وبالتالي نشأة المطامع الاستعمارية والغارات الصليبية على السواحل المغربية، المتطلعة والمتحفزة لغزو الداخل، منتهزة عزلة المغرب الخارجية.

---

(50) الدرر البهية، للفضيلي، ص: 84-85، ونزهة الحادي للافراني، ص: 294-295، والاستقصاء، للناصري، ج: 7، ص:9، والأنوار السنية، لأحمد العلوي، ص:29، ودعوة الحق ع: 255، س: 1406هـ-1986م، ص:86-87، ناديت بتحرير القدس، لعلي بن الشريف العلوي.

(51) الاستقصا، ج:7، ص:11.

(52) البستان الظريف، للزياني، ص : 7.

(53) نزهة الحادي،م. خ.ع ورقة 163 - 171، ورسائل اليوسي ج : 1، ص: 32، ط : دار الثقافة بالدار البيضاء، والزاوية الدلائية لمحمد حجي.

كما تزامنت نشأة هذه الدولة ومبايعتها مع فترة المد الاستعماري في العالم العربي والإسلامي، شرقا وغربا، مما انعكس على المغاربة كعرب مسلمين سلبا، فهددهم في عقر دارهم، بالويل والثبور.

وكانت البنية الإقتصادية بالمغرب – إذ ذاك – فلاحية محضة، والعلاقة التجارية للمغرب ضيقة ومحدودة للغاية. أما دينيا فكان الإسلام يستقطب المغاربة عن بكرة أبيهم : دينيا واجتماعيا وثقافيا وحضاريا....

لكن الدولة العلوية الشريفة استطاعت تخطي جميع هذه العقبات، والتغلب على كل الصعاب بكفاءة وأمانة، واقتدار، وفي مدة قياسية وجيزة، مع حفاظها على الذاتية المغربية والكيان السياسي والقومي والديني واللغوي.... وبالتالي على العقيدة الإسلامية للأمة.

فقد التزمت الدولة العلوية أن تعمل –بتطوع وعصامية– على تصحيح الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما تعهدت بتحقيق المطالب الوطنية الرئيسية، للرأي العام المغربي، وفي طليعتها الوحدة الوطنية وتحرير الشواطئ والموانئ، وتجديد البناء الاجتماعي للمغرب، في ظل الأمن والاستقرار المادي والمعنوي، وفي إطار عقد اجتماعي غير مكتوب.

وهكذا انطلقت هذه الدولة من سجلماسة بالجنوب حيث تمت بيعتها(54)، وسارت على نهج قويم لتحقيق الأهداف الوطنية، كحركة سياسية، واستطاعت بذكاء توظيف تلك السلبيات لخدمة أهدافها، التي صهرتها بمهارة في بوتقة الأهداف الوطنية والقومية والإديولوجية للأمة المغربية. بعد أن توصلت إلى الحكم، ودعمت حركتها السياسية والعسكرية بالشرف النبوي، والانتساب إلى آل البيت، وهي ميزة متجذرة في عقلية ووجدان المجتمع المغربي الأصيل برمته.

لقد كان انطلاق هذه الدولة على جميع الواجهات والجبهات والأصعدة: أفقيا وعموديا، فعملت أولا على توطيد دعائمها كدولة، بنشر الاستقرار والأمن الداخلي ورفع المظالم، –التي بلغت بالسملاليين إلى حد فرض

---

(54) التقاط الدرر، ص :177– 178

الضرائب على الظل في الصيف، وعلى الشمس في الشتاء - فأخمدت الفتنة الداخلية، وقضت على الثورات لدعاة التفرقة، وحققت الوحدة الوطنية المنشودة.

كما عملت على تحرير الشواطئ والموانئ المغربية من الاحتلال الإنجليزي، والإسباني، والبرتغالي، إذ أعلنت التعبئة العامة للجهاد، وقاد ملوكها الحملات والجيوش بأنفسهم ضد الغزاة الطامعين المغيرين، حتى حررت الشواطئ المغربية وحققت استقلال البلاد ووحدتها، وأعادت لها هيبتها بالداخل والخارج. وفي هذا الصدد شملت حملات الوحدة الصحراء المغربية، التي وصلت جيوش حركتها المباركة إلى وادي نون بالصحراء الغربية(55) سنة 1665م، وإلى ماسة والساقية الحمراء وتيست سنة 1789م. ولما عاد الجيش سنة 1642م، ترك فيالق منه رهن إشارة رؤساء قبائلها، بعد أن عين السلطان الشيوخ، ورجال السلطة بجميع أنحائها، على يد الباشوات بأقاليمها. وقد تجددت هذه العملية في عهد المولى محمد بن عبد الله والحسن الأول الذي أرسل أسطوله لرد التدخل الأجنبي في الصحراء، ولما حاولت إسبانيا احتلال الشواطئ الصحراوية في مطلع القرن السابع عشر فشلت عسكريا، فاستأذن كارلوس الثالث سيدي محمد بن عبد الله في إقامة مراكز لإسبانيا بالصحراء، لكنه رفض بإصرار.

ولقد كرر المحاولة كارلوس الرابع مع المولى سليمان، فامتنع بقوة وإباء.

وفي القرن التاسع عشر عادت إسبانيا لتطلب الإذن بمجرد حق الصيد في المياه المغربية الصحراوية فرفض المغرب. مما يؤكد أن المغرب لم يتنازل لإسبانيا عن صحرائه قط، كما تؤكد هذه الحقيقة معاهدة تطوان، سنة 1860م.

وقد تم احتلالها دون موافقة المغرب، لأن المولى عبد الحفيظ رفض مجرد التوقيع على إنشاء معمل للصيد والتصبير بها، فأحرى احتلالها.

---

(55) دعوة الحق، ع : 2 و3، 1399هـ-1979م، ص : 126 - 128، «كفاح الملوك العلويين من أجل الوحدة»، لعثمان بن خضراء .

وقد حرر جلالة محمد الخامس طيب الله ثـراه طرفاية، كما حرر جلالة الحسن الثـاني نصره الله سيـدي إفني، ثم الصحـراء الغربيـة، بما في ذلك الساقية الحمراء ووادي الذهب (56) بفضل المسيرة الخضراء المظفرة.

وقد جعـل ملوك الـدولة العلـوية العـرش المغربي رمـزا للاستمـرارية السياسيـة والحضاريـة، باعتبـار وحـدة السلطتـين : الدينيـة والدنيـوية في الإسـلام الـذي جعلـوا منـه نبراسا وهـاجـا يهتـدون بهديـه، ويأتمون بدستوره : الكتاب والسنـة، في السراء والضراء، في السر والعلانية، مما حقق النهضة العلميـة والثقافية بمساعـدة الطبقة المثقفة التي كانـوا دائما روادها وطليعتها.

فقد واكب العلماء والفقهاء والشعراء والمفكرون حركتهم المباركة وساروا في ركابهم، حيث نظموا وخطبوا في المحافل العامة، والأندية الخاصة، منادين وداعين للجهـاد، وأفتوا بأنـه فرض عين على كل مسلم ومسلمـة (57) كما أرخوا لهذه الانتفاضة الميمونـة، فسجلوا أبرز أحداث هذه الفترة، مستلهمين المواقف والبطـولات الخالـدة لـزعمائها الأفـذاذ، التي اعتبروهـا مثـلا أعلى ونموذجا يحتذى.

وهكذا قامت الدولة العلـوية على أساس ديني إسلامي وعلى مذهب أهل السنة والجماعة، فلم تكن لها عصبية قبلية ولا سياسية، مما طبع سياستها الداخلية والخارجية، وتجلى واضحا في تشريعاتها، وإدارتها وأحكامها... مع التزامها المطلق بالتوازن الدقيق بين السلطتين : الدينية والدنيوية.

ذلك أن قيام هذه الدولة في حد ذاتـه يعتبر رد فعل للتحديات السياسية والاقتصـادية والحضـاريـة للعـالم المسيحي والأوربي، استجـابة لظـروف تاريخية جعلـت المغاربة يستشعرون قـداسة وحيوية المحـافظة على الكيان الديني والقومي والحضاري للمغرب ضد الخطر الصليبي الذي يتهدده، بل إن قيامها جـاء تجسيدا للإرادة الشعبية للأمـة المغربية، وبلورة لمشـاعرها العميقة. وبـالتالي فقد كـان تطورا فكريا وسيـاسيا واجتماعيا وحضـاريا،

---

(56) المؤرخ دولا ستابيل.

(57) أهم كتـاب ألف في هـذا الصدد في هـذه الفترة :كتـاب :" فلك السعادة، الـدائر بفضل الجهـاد والشهادة" للفقيه محمد المدعو عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني.

انعكست آثاره على العقليـة المغربية الأصيلـة ليشكل بعثا وإحيـاء للأمجاد، وتحولا وتغييرا ماديـا وروحيا نحـو الأفضل لبناء أسس معـادلة جـديدة، تتجاوب مع الأهداف والمصـالح العليا للدولة الممثلـة للمجتمع وللرأي العام الوطني للأمة أحسن تمثيل، والتي استوعبت المتغيرات والتناقضات المختلفة بـالداخل والخارج، واستطـاعت أن تصوغهـا في نص ديني سياسي، وتيـار اجتماعي، وتحول اقتصادي متوازيين متداخلين، ممـا تحول تلقائيا إلى عقد اجتماعي غير مكتـوب بين الدولـة والشعب، لتلبيـة الحاجة الملحـة للوحـدة وحمايـة تخوم البلاد، وطـرد الغـزاة، ولتحقيق الاستقـرار الذي يستـوعب التنمية العـامة الشـاملة والعـادلة، والكفيل بتحقيقهـا، وكذا لتلبيـة الحاجة لاختيارات دولية، تتفق مع هذه الأهداف التي تشكلت منها. ذلك النص الذي صـاغتـه الدولـة، وكتبتـه مع الشعب المغـربي بالعـرق والدمـوع والـدم لجميـع الشرائح الاجتماعية المختلفـة، فأصبح عقدا موثقـا مقدسا ولا زال. وكما تمثله البيعات المختلفة المكتوبة لملوك هذه الدولة.

وهكذا نجد أن مناهج الدولة العلوية، وبرنامجها وأسلوبها لم يكن خاليا من منهجية وعقلانية -بالنسبة للعصر طبعا-، ولا أدل على ذلك من قدرتها على التحرر من عقدة التبعية للزوايـا، وارتكازها على قوة، أساسها الاعتماد على النفس، والثقة في العمل الذاتي، والبطولة الشخصية الرائدة.

وقد امتـازت الدولـة العلوية على الـدولة السعديـة في تصورهـا لمفهوم الدولة، حيث استطاعت الدولة (العلـوية)، أن تتجه بسياستها نحو التصور الحديث للـدولـة، الـذي يقتضي فصـل السلط، وتحديـد الاختصـاصـات والمسؤوليات، وتركيز مظاهر السيادة وتقديس رموزها، وجعل الدولة دائما في مـوقع الحكـم بيـن سائـر الفئـات بعيـدا عن العصبيـة القبليـة والإقليمـية الضيقة.

ذلك أن الـزوايا التي مهـدت الحكم للسعـديين وصـاغت لهم برنـامجه المحدد، وجعلت من محمد القـائم السعدي أميرا للجهاد، ثم أميرا للمؤمنين، جعلت الدولة السعـدية تحت وصايتها، التي سرعـان ما أصبحت قيدا لها، ونقطـة ضعف لم تلبث أن فجـرت السلطة المركـزيـة، فتنـاثرت هيـاكلهـا وتفرقت رموزها شذر مدر، وأيدي سبإ.

هذه الـزوايا ناهضت قيـام الدولة العلويـة في بداية أمـرها، وعملت على إضعافهـا وتقليص نفوذهـا. بدليل مـوقف أبي دميعة السمـلالي من المولى الشريف، ثم موقف الدلائيين منه، ومن ولده المولى محمد الأول، عملا بمبدإ تنازع البقاء، باعتبار أن العلويين أنفسهم انطلقوا من زاوية جدهم المولى علي الشريف (58).

وباختصار فإن معظم الزوايا وقفت موقفا مناهضا لقيام الدولة العلوية، نظـرا للتطور في اتجاه الـزوايـا ومبـادئها وأهـدافهـا، وبـالتالي في عقليتهـا وسلوكهـا، نتيجة لتجربتهـا مع الدولة السعـدية التي ما إن وطـدت دعائم سلطتهـا على أكتاف الـزوايا حتى تضـايق ملـوكها من التـزاماتهم إزاءهـا، وعملوا على التخلص من وصايتها وقيدهـا، وذلك مما جعل أصحاب الزوايا والطرقيين يتوقون للسلطـة، ويتطلعون إلى الحكم، ويتصارعون من أجلهما إبان الـدولة السعـدية، بعد أن كـانوا يستنكفون من السيـاسة، ويلتـزمون بـالتصـوف والانصراف عن الـدنيـا والاتجاه إلى اللـه والاكتفـاء بنصيحـة المسلمين، ومسـاعـدتهم وقت الفتن والمحـن بأعمال البر والاحسـان الماديـة والمعنوية.

لذلك فقـد فقدت الـزوايا مكـانتها لـدى الخاصة والعـامة في تلك الفترة، لانغماسـها في الصراعات السياسية فيما بينهـا، فأصبحت عامل تفرقة، ولم يعد إنقاذ المغرب ممكنا على يدها، ولا مرجوا منها.

وهذا التحول للـزوايا الذي عرفه القـرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي تؤكده الأحداث ميدانيا، حيث نجد أن جل أمراء عهد الطوائف من أرباب الزوايا ورؤسا ئها. كما تؤكـده المراسلات، سواء منها التي كانت بين أرباب الـزوايا من جهة أو التي كانت بينهم وبين الملـوك السعديين من جهة أخرى (59).

ولذلك كـان رد فعل الملوك العلويين واضحـا ومباشرا، فعاملـوا بدورهم أربـاب الزوايـا بالمثل، ووقفـوا منهم مـوقف الحزم والحيطة. كلما لاحظـوا خروج الزوايا وأصحابها عن مجال نشاطها المشروع المنحصر في نشر العلم، وفي المجال الديني والـروحي والاجتماعي، كأعمال البر والإحسان... بل إنهم

---

(58) مجلة المنـاهل، ع: 36، س: 4، 1407-1987م ص: 141-143، المصـادر الأجنبية إلى جـانب الحوليات المغربية في تاريخ الدولة العلوية، مقالة لمحمد زنيبر.

(59) الجيش العرمرم لأكنسوس.

جعلوا أصحاب الزوايا دائما بين خيارين لا ثالث لهما : موالاة الدولة والتعاون معها على نشر الأمن، وتوحيد البلاد، وتحقيق برامجها في جميع مجالات الحياة، أو المعاملة بالمثل، والوقوف في وجههم بالحزم والصرامة. لكنهم استثنوا من ذلك الزاوية الناصرية بتامكروت، لموقفها المعتدل الموالي للدولة، وهو موقف معقول ومقبول، حتى لا تشكل الزوايا دولة داخل الدولة، وبالتالي حتى لا يتطلع أصحابها لمنازعة الدولة السلطة والبقاء، لقوله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾.(60)

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الأسرة العلوية قامت بحركة إصلاح وتجديد وتطوير للدولة المغربية (61) ومفهومها، وبالتالي بحركة إحياء وبعث لأمجاد ونظم الدولة الإسلامية الأصيلة، مما يتجلى واضحا في احتفاظ ملوكها بلقب أمير المؤمنين، وقيامهم بالتزامات ومسؤوليات هذا اللقب، باعتباره من التقاليد الإسلامية الراسخة (62).

فقد جعلوا أنظمة الدولة في إطار مبادئ الأخوة الإسلامية، وعلى أساس من العدالة الاجتماعية، توطيدا لدعائم الاستقلال والسيادة والاستقرار والوحدة، باعتبارهما التربة الخصبة، والأرضية الصلبة لكل إصلاح وإقلاع...

ذلك أن موقع المغرب الجغرافي، جعله عبر العصور قاعدة استراتيجية، وقلعة منيعة لمواجهة الأخطار المحدقة بالإسلام، وصد مطامع الغزاة والمغامرين... وهذا الموقع الاستراتيجي الهام، هو الذي جعله منطلقا للفتح الإسلامي نحو أوربا، وإفريقيا السوداء، كما جعله الوريث الشرعي الوحيد للحضارة العربية الإسلامية الأندلسية، التي يطفح بمظاهرها وتراثها في سائر مجالات الحياة.

---

(60) سورة الأنبياء، الآية : 22.

(61) دعوة الحق، ع:4، س:12، 1383–1969، ص:153 مقالة لعبد اللطيف خالص.

(62) دعوة الحق، ع: 246، س: 1405–1985، ص:8–9، لقب أمير المؤمنين والدولة العلوية، للشيخ المكي الناصري.

المولى محمد الأول – المولى الرشيد – المولى إسماعيل

(1050 – 1139هـ) – (1640 – 1727)

المولى محمد بن الشريف(63) (1050 – 1075) – (1640–1658):

بايعت سجلماسة الأسرة العلوية في شخص المولى محمد الأول مرتين(64)، وقام بأعباء الملك خير قيام، لكن التاريخ لم ينصفه، إذ غطت على أخبار أعماله الجليلة أحداث عهد الطوائف المفزعة، فمر عليه المؤرخون مر الكرام، بينما مآثره تتطلب مجلدا ضخما (65).

ذلك أنه يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العلوية الشريفة، ونستشف حنكته السياسية من رسائله، وخاصة من رسالته إلى محمد الحاج الدلائي(66).

كما أنه لم يعتمد على مؤهلاته المعنوية، ولم يغتر بإرهاصات الجفريات التي تنبأت له بذلك، بل اعتمد على بطولته وفروسيته الميدانية الذاتية، فهو كما وصفته رسالة أهل الدلاء «... مولانا محمد بن مولانا الشريف، عقاب أشهب، على قنة كل عقبة، لايقنعه عد المال دون حسم الرقبة" (67).

وظل يعمل على توطيد دعائم دولته بالشمال الشرقي والصحراء الشرقية، لكن حدث تنافر بينه وبين أخيه المولى الرشيد، الذي كان في زمرة أتباعه وأنصاره، وساءت العلاقة بينهما بعد وفاة والدهما المولى الشريف، فهام المولى الرشيد على وجهه.

---

(63) البستان الظريف، للزياني، ص:21، ونشر المثاني، للقادري، ج:1، ص:377، ودعوة الحق،ع: 258، 1406–1986، ص: 19–20. ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد بن شريفة.

(64) بويع بعد اختطاف والده المولى الشريف من طرف أبي حسون السملالي بودميعة سنة 1647م، ثم لما افتدى أباه وتنازل له عن الملك، سنة 1050هـ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة والده سنة 1069هـ. الحلل البهية للمشرقي، ص: 48–49.

(65) روضة التعريف للأفراني.

(66) مخطوط الرسائل، ودعوة الحق، ع: 258، 1406–1986، ص: 19–20، ملامح من شخصية محمد الأول، للدكتور محمد بن شريفة، ونص الرسالة بتاريخ الضعيف الرباطي، ص:15.

(67) نص الرسالة عند القادري في نشر المثاني، ونزهة الأفراني، ص: 302.

ولما قتل المولى الرشيد الطاغية ابن مشعل، واستولى على أمواله، طالبه أخوه المولى محمد بتلك الأموال، فرفض المولى الرشيد، وأعلن الثورة على أخيه، وجهز جيشا لمواجهته بتلك الأموال، فتحاربا، وكان النصر حليفا للمولى محمد الأول في المعركة الأولى، أما في المعركة الثانية فقتل المولى محمد الأول بأول رصاصة في بداية المعركة، سنة 1075هـ - 1664م، ودفن بدار ابن مشعل، ثم نقل إلى بني يزناسن بأمر من المولى الرشيد (68).

المولى الرشيد (69) : (1075 - 1082)هـ - (1664-1672)م :

استولى المولى الرشيد على جيوش أخيه المولى محمد، بعد مقتله سنة 1075هـ - 1664م، وفتح سجلماسة(70) -التي بايعت محمد الصغير بن محمد الأول- ودخلها سنة 1079هـ، وأصلح أمرها، وأعاد تنظيمها إداريا وعسكريا، وظل يتفقدها دائما، ثم انطلق يفتح الأقاليم، وتأتيه وفودها مبايعة طائعة، طوعا أو كرها، ولم يلبث أن فتح فاس (71) سنة 1076هـ- 1666م، حيث تمت مبايعته، فأكرم العلماء والطلبة الذين أعجبوا بشخصيته العربية، وتشبثه بالتقاليد الإسلامية (72).

وهكذا حقق المولى الرشيد الوحدة الوطنية المنشودة (73) في وقت قياسي، لايتعدى سبع سنوات، بعد التمزق الذي عانى منه المغرب أزيد من ستين سنة، على يد الزعامات الطائفية المتناحرة، التي قضى عليها تباعا

---

(68) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات، ج: 3، ص:23، والنزهة للأفراني، ص:499، والجيش لأكنسوس، ص: 57، والاستقصاء للناصري، ج: 7، ص: 30-31، وتاريخ الضعيف الرباطي: ص: 37-38و41 والروضة السليمانية للزياني، ص:53.

(69) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 11-23، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 48 والروضة السليمانية للزياني، ورقة: 53-56، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 102، وتاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 63، وتاريخ الضعيف الرباطي، ص: 53.ولد بسجلماسة سنة 1040هـ- 1630م م.

(70) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 102و 168، والمغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 24. سجلماسة كانت تسمى تافيلالت بداية الدولة العلوية.

(71) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 27.

(72) المصدر السابق، ج: 3،ص: 27.

(73) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 98-100.

كالـدلائيين، والشبانيين، والسملاليين وغيرهم. وأجمعت الأمة عليـه، وبويع البيعة العامة سنة 1077هـ (74).

فقـد غـزا الزاويـة الدلائـيــة، وقـضـى عليهـا سنة 1079هـ ـ 1668م. بعد انتصاره على أهلها في وقعة بطن الرمان (75). وحاول ولد المولى محمد الأول القيام مقام والده بسجلماسة، لكن الأمر لم يتم له أمام عمه الرشيد.

وظل مـوقفـه حازمـا وصـارمـا تجاه بعض الـزوايا وشيـوخ الطـرق الصوفيـة الذين نـاهضوا قيام الـدولة العلويـة، احترازا من تطلعهم للحكم، وتطاولهم عليه.(76)

وما إن استتب لـه الأمر، ودانت له البـلاد ووحد أجزاءهـا وعمها الأمن والرخـاء، حتى وجه عنايتـه لتحريـر الأجزاء المغتصبة من البـلاد، فهاجم الإنجليز بطنجة سنة 1082هـ – 1672 بعد أن حصن الرباط وسلا بقلعتين عظيمتين، حيث قضى على الـــوجـود الإنجليـزي بـــالشمال، كما عمل على تنشيط الجهاد البحري (77).

ورغم حـذره من الـدول الأجنبيـة فقد شرع في العمل على مـد جســور التعاون التجاري (78) معها.

وكان حليما رغم ظـروفه الحرجة، وعـرف المغرب على أيامـه الاستقرار والرخاء والازدهار الاقتصادي. وضرب العملـة الرشيدية سنة 1081هـ(79)، كما اهتم بالعمران، فبنى قنطرة وادي سبو سنة 1080هـ(80).

---

(74) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 47–57، والاستقصا للناصري، ج: 7 ص:37.

(75) كتاب الضعيف الرباطي، ص: 45–48.

(76) دعـوة الحق، ع: 6، س: 7، 1385–1964، ص: 17 الصوفيـة وطرقهـا في الاسلام لعبـد الله الجراري، وصفوة من انتشر للأفراني، وفتح الرحمن في مناقب سيدي علي بن عبد الرحمن.

(77) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج: 3، ص: 30، وتاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج:1 ص:97، والحلل البهية، للمشرقي، ص: 102–103.

(78) مجلة المناهل، ع: 36، س: 1407،4هـ–1987م، ص:150–151، مكانة المصـادر الأجنبية، لمحمد زنيبر.

(79) الاستقصا للناصري، ج: 7 ص: 39.

(80) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 11–23.

لكنه توفي في عز شبابه وعطائه، وفي أوج انتصاراته ومجده السياسي والعسكري وغيره. إذ جمح به فرسه، فالتطم رأسه بشجرة فتهشم ومات لحينه بمراكش سنة 1082هـ، ودفن بها، ثم نقل جثمانه إلى ضريح سيدي علي بن حرزهم بفاس، حسب وصيته(81) وقال وهو يحتضر : «سبحانك يا من لا يزال ملكه، عبدك الرشيد زال ملكه»(82).

المولى الرشيد وموقفه من اليهودي ابن مشعل :

من الإنصاف للمولى الرشيد أن نقف وقفة إعجاب و تقدير وامتنان أمام جل أعماله العظيمة، وأبعدها أثرا وفضلا على الإسلام والمسلمين عامة، وعلى المغرب وتاريخه خاصة، بأن نخصص بعض الصفحات لموقفه الرشيد من ابن مشعل، ونسلط فيه الأضواء على حقيقة هذه القضية التي تضاربت حولها آراء الباحثين والمؤرخين، ودخلت عالم الأسطورة والميثيولوجيا من بابها الواسع.

فقد أنقذ البلاد والعباد من براثن الصهيونية العالمية التي كانت قد بدأت نسج شباكها حول المغرب، بواسطة صنيعتها وعميلها ابن مشعل (83).

وقد عامل الملوك المغاربة عموما والعلويون خصوصا اليهود المغاربة بتسامح كبير(84) وعلى قدم المساواة مع المغاربة المسلمين، فاتخذوا منهم الوزراء والأمناء والمستشارين، وخاصة في السفارات مع الخارج، والتجارة الخارجية ولم يتعرضوا لأي اضطهاد إلا إذا تجاوزوا حدودهم، ونسوا أنهم من أهل الذمة (85).

---

(81) الحلل البهية للمشرفي، ص: 10.

(82) المصدر السابق، ص: 105-106.

(83) دعوة الحق، ع:4، س، 7، 1383-1964، ص: 20، حضارة المغرب في عهد الرومان، مقالة لإبراهيم حركات.

(84) الحركة الفكرية بالمغرب، لمحمد حجي، ج: 1، ص: 267-280.

(85) الحرية الفكرية بالمغرب، لمحمد حجي، ج: 1 ص: 267-280.

وقد أبطرتهم النعمة فطمع بعض الإقطاعيين الإسرائليين في الدعوة لأنفسهم كهارون بن مشعل (86) في قصبته قرب تازة، حيث جعل من تلك القصبة وكرا لمؤامرته اليهودية الدنيئة، منتهزا الفوضى والاضطراب التي تعم البلاد وتعصف بهياكل الدولة، مسخرا في ذلك ماله وجاهه وسمعته التي اكتسبها من وراء التظاهر بمساعدة الناس، ومواساة الضعفاء منهم (87).

وقد تفطن المولى الرشيد لأهداف هذا الجاسوس الخطير، وشعر بشره المستطير، المحدق بالمغرب (88)وبدولته الفتية التي كانت لا زالت تزعزعها أطماع أمراء الطوائف المنافسين، وتهددها أطماع أصحاب الزوايا (89).

وكانت لهذا اليهودي "جولة على المسلمين، وتطاول على الدين، واستهزاء به" – كما يقول الأفرلني (90)–، ووافق كل ذلك وفاة المولى الشريف بن علي، وفرار المولى الرشيد خوفا من أخيه المولى محمد الأول، فقصد قلعة بن مشعل (91) ذي الأموال الطائلة، والذخائر النفيسة للتأكد من أمره، في زمرة من الطلبة المثقفين الواعين (92)، وبعد أن تأكد من جبروته وطغيانه وبالتالي من خيانته وخطره، قرر القضاء عليه شخصيا، والإطاحة في نفس الوقت به وبمؤامرته الماكرة، في مهدها، باعتباره يمثل آمال اليهودية.

وهكذا عمل المولى الرشيد مع أنصاره وحاشيته من زملائه الطلبة على إثارة الرأي العام ضد اليهودي ابن مشعل، وتوعية الناس بأخطائه وأخطاره، ثم احتال في التقرب إليه، حتى تمكن منه فقتله.

---

(86) دعوة الحق، ع: 9، س:2، 1376هـ–1959م، ص:31، الدولة العلوية وإقطاعية ابن مشعل، مقالة لعبد الهادي التازي.

(87) المصدر ونفس الصفحة.

(88) دعوة الحق، ع:1، س، 21، 1400هـ–1980م، ص:20، إمارة ابن مشعل، مقالة لمحمد بن تاويت التطواني، ونزهة الحادي للأفراني،ص: 301.

(89) المصدر ونفس الصفحة.

(90) نزهة الحادي، ص:301.

(91) المصدر ونفس الصفحة، ومجلة المناهل ع: 36، س: 4، ص: 144–146، 1407هـ–1987م، مكانة المصادر الأجنبية، مقالة لمحمد زنيبر.

(92) الواقع أنه انتهز فراره للقيام بجولة استطلاعية يختبر خلالها عن كثب أقوى أعدائه، ويطلع على أسرارهم، وعوراتهم، كالدلائيين وابن مشعل.

وكان قتله لارتكابه جريمة الخيانة العظمى، لذلك صادر أمواله وذخائره، واستولى عليها (93).

وكافأ الطلبة أنصاره وزملاءه بعد بيعته، فجعل منهم رجال دولته وبطانته، كما شيد لسائر الطلبة أقساما داخلية ملحقة بالمدارس في المدن والقرى كالقرويين والمدرسة الرشيدية وغيرهما. وسن لهم حفلة بل مؤتمرا ومحفلا، تجلى في حفل سلطان الطلبة، خلال عطلة الربيع السنوية، ونظمها على شكل مهرجان سلطان الطلبة، إحياء لذكرى ملحمته الخالدة(94) مع ابن مشعل.

المولى إسماعيل (95) : (1082–1139هـ – 1672–1727م)

بويع بفاس بعد وفاة أخيه الرشيد سنة 1082هـ، وهو في السادسة والعشرين من عمره، فقام بالأمر خير قيام، واتخذ مكناسة عاصمة له.

وكان فارسا عميق الإيمان، يتسم بالزهد والطموح ،ذا حزم وصرامة، خاصة مع من يحاول الإخلال بالأمن العام، وذلك لكثرة المؤامرات التي طوقته، حتى من أقرب الناس إليه (96)، لكن صرامته وشدته لم تصل الحد الذي صورته به المصادر الأجنبية الموروثة، لوقوفه بالمرصاد في وجه المبشرين المسيحيين، والغزاة الأوربيين، والتي اعتمدت على مذكرات المستشرقين المغرضين، والأسرى الأوربيين(97).

والواقع أنه كان حليما رفيقا بالضعفاء والأسرى، جبارا مع الطغاة، كما كان ورعا تقيا، كثير الصوم والصلاة والذكر (98)...

---

(93) الاستقصا، ج:7، ص: 29–43.

(94) دعوة الحق ع: 9، س:2، 1376–1959، ص:31 الدولة العلوية وإقطاعية ابن مشعل، مقالة لعبد الهادي التازي.

(95) الاستقصا، ج:7، ص: 32 و 114 وترجمته بنشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 285–292، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص:29–34و40–52، والحلل البهية للمشرفي،ص: 106و158

(96) الاستقصا للناصري، ج:7، ص: 8 الاستقصا، ج:7، ص:89.

(97) إتحاف أعلام الناس، لعبد الرحمن بن زيدان، ج:2،ص:51، ط: 1 س:1348هـ–1950م.

(98) دعوة الحق، ع:2و3،س: 20، 1399هـ–1979م، ص: 141، المولى إسماعيل بن الشريف مقالة عبد الله العمراني، ومجلة المناهل،ع: 36، س: 4، 1407–1987، ص: 155–156 مكانة المصادر الأجنبية لمحمد زنيبر.

وقد قام بأعمال جليلة في جميع مجالات الحياة ومرافقها على الصعيدين الداخلي والخارجي، مستهدفا تجديد صرح الدولة، وتطويرها كلها، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربـوعها، فأضفى عليها هالة من الرهبـة والمهابة بين المواطنين والأجانب (99)، بمساعـدة وزيره الأديب الكـاتب أحمد محمد اليحمدي.

كما استرجع عدة ثغور، وحـررها من يد النصارى، وفتح المهـدية التي انتزعها من الإسبان سنة 1092هـ (100)، وفتح طنجة وحررها من الإنجليز الذين اضطـرهم للفرار منها بحـرا سنة 1095هـ،(101)، كما حرر العـرائش سنة 1101هـ، فنـزع المغاربة النعـال السود التي اتخذوها منـذ اغتصابها، وحرر أصيلا سنة 1102هـ(102)، واسترجع الصحـراء وبلاد السـودان إلى حظيرة الوطن حيث بلغ فيها مالم يبلغه المنصور الذهبي السعدي.

وحاول تحريـر سبتة ومليليـة سنة 1106هـ-1693م، كما أنشأ جيـش العبيد(103) الذي بلغ عدده مائة وخمسين ألفا، وجعل المؤطرين والمسيريـن له ضبـاطا مغاربـة تكونـوا في أوربا (104)، كما أنشأ جيش الـودايـة من القبائل.

واهتم بعلاقات المغرب الخارجيـة أيما اهتمام، حفاظا على سمعة المغرب بالخارج، وصيانة لمصالحه الحيـوية مع الدول الأجنبية (105)، فقد خطبت هذه الدول وده، وأرسلت إليـه وفودها محملة بـالهدايا من الشرق والغرب،

---

(99) تاريخ الضعيف الرباطي،ص: 78.

(100) مجلـة البحث العلمي، ع:4و5، س:2، 1384-1965،ص :280-305، مكانة المصـادر الأجنبية لمحمد زنيبر.

(101) الاستقصا، ج:7، ص: 67.

(102) صارت إلى الأنجليـز من البرتغال، نشر المثـاني، للقادري، ج:3 ص: 49-50، والنبوغ المغربي لكتون، ج: 1، ص: 270، وتاريخ الضعيف، ص: 78، والنزهة، ص: 306، والاستقصا، ج:7 ص:67 والاتحاف ج: 2، ص: 73-74، الاستقصا، ج:7، ص: 77.

(103) الاستقصا، ج:7، ص: 56-57 (سيأتي تفصيل ذلك).

(104) الحلل البهيـــة للمشرفي، ص: 117-123و دعـــوة الحق، ع: 4، س:4 1380-1961، ص:53 العلاقات الديبلوماسية في عهد الدولة العلوية لأحمد البشيري.

(105) الاستقصا، ج:7، ص: 56-57 (سيأتي تفصيل ذلك) .

رغبة ورهبة كتركيا وفرنسا سنة 1100هـ(106)، وسعت إنجلترا في تحسين علاقتها معـه فاستعاضت طنجة بجبل طارق إرضـاء له سنة 1705م(107)، ورغبة منها في أن يوقع معها معاهدة للسلام سنة 1133هـ (108).

وبلغت علاقته الودية مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر درجة عالية حتى شاع أنه قد خطب إليه الأميرة دي كنتي(109). ذلك أن المولى إسماعيل بعث سفارات عديدة إليـه في فرنسا، واستقبلها رسميا(110). كما تم بينهما اللقاء سنة 1682م (111).

وجاءته سفارة إنجليـزية من جورج الأول سنة 1714م(112)، وفي إطار هذه العـلاقات الطيبة، تبـادل رسائل ديوانيـة وإخوانية مع ملـوك أوروبا، حـول التجـارة والسيـاسـة وغيرهـا، وتبـادل الأسرى، ورسـائل الـدعـوة للإسلام(113).

واحتفظ للعثمانيين بعـلاقة متميـزة، فالتـزم الحدود التي رسموهـا مع أسلافه بين المغرب والجزائر (114).

---

(106) تاريخ الضعيف، ص: 70، والاستقصا، ج: 7،ص: 59.

(107) دعـوة الحـق، ع: 4، س: 10، 1386–1967، ص: 75، بـين إنجلتـرا والدولـة العلويـة لمحمد ابن تاويت التطواني.

(108) الحلل البهية للمشرفي، ص :150–168، ونشر المثاني،للقادري ج:2،ص:252.

(109) نفى ذلك اطـلاقـا عبـد الـرحمان بن زيـدان،المؤرخ الـرسمي للدولـة العلـويـة، المغـرب عبر التاريخ،لحركات، ج:3،ص60.

(110) دعوة الحق، ع:4، س:4، 1380هـ–1961م، ص:53 العلاقات الدبلومـاسية المغربية، على عهد الدولة العلوية، لأحمد البشيري، وكان على رأس وفد السفارة المغربية إلى فرنسا الحاج محمد تميم التطواني.

(111) مجلة البحث العلمي،ع4و5، س:2، 1384–1965، ص: 282، مكانة المصـادر الأجنبية، لمحمد زنيبر.

(112) وعنها ألف جون وين رحلته "رحلة مكناس".

(113) مجلة البحث العلمي،ع: 4،س: 2، 1384–1965، ص:286–299 مكانة المصادر الأجنبية، لمحمد زنيبر، والاتحاف،لابن زيدان،ج:2،ص:51، ونصوص هذه الـرسائل نشرها عبد اللـه العمراني بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نوفمبر – دجنبر 1947م.

(114) الاستقصا للناصري، ج:7، ص: 59–60، ومجلة البحـث العلمي، ع: 4، س:5 1384–1965، ص: 299–300، أي جعل الحدود على وادي تافنة.

وفي المجال الاقتصادي، أصدر ظهيرا بإلغاء المكوس (115) في جميع أنحاء مملكته سنة 1107هـ (116).

وتجلى ورعه وتقواه في أروع صورة، حين تورع عن تعيين ولي للعهد من أولاده (117)، وترك الأمر شورى للمسلمين حتى يقدموا عليهم من يرتضونه لذلك، على كثرة أولاده (118) الذين كان عددهم يناهز خمسمائة من الذكور، ومثلهم من الإناث (119).

وسار المولى إسماعيل على سنن أسلافه من الملوك بالنسبة لأرباب الزوايا، وشيوخ الطرق الصوفية حيث وقف منهم موقفا واضحا وحازما، احترازا من تطلعهم للملك والسلطة.(120).

وخلد المولى إسماعيل اسمه وعصره، وبالتالي الدولة العلوية الشريفة بالمآثر العمرانية العظيمة التي تنافس الدهر البقاء، ولاسيما المساجد والمدارس (121) وخاصة، بمدينة مكناس. كما وسع ضريحي الإمامين إدريس الأكبر والأصغر(122) وزاد فيهما من كل ناحية (123).

وطالت حياته، إذ حكم سبعة وخمسين سنة، حتى اعتقد بعض العامة أنه لن يموت (124). لكن البقاء لله وحده،

---

(115) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج: 1، ص:87.

(116) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 73.

(117) الحياة الفكرية لمحمد الأخضر،ص: 72-74.

(118) الاستقصا للناصري، ج:7، ص: 97.

(119) المصدر السابق، ص: 89.

(120) الروضة السليمانية للزياني، ورقة:70، والاستقصا للناصري، ج:7، ص: 100.

(121) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 99.

(122) الاستقصا للناصري، ج:7، ص:98، ونشر المثاني للقادري ج: 3، ص:240، والدرر الفاخرة لابن زيدان،ص: 41-42.

(123) البستان الظريف للزياني، ورقة: 69، والروضة السليمانية، للزياني ورقة : 69.

(124) البستان الظريف للزياني، ص: 44، والروضة السليمانية، للزياني ورقة : 69-68 .

فقد توفي رحمه الله بمكناس سنة 1039هـ، ودفن بضريح الشيخ المجذوب(125).

عهد الاضطراب (1139–1171هـ 1727–1757م)

ما إن توفي المولى إسماعيل حتى دخلت البلاد في عهد من الاضطراب والفوضى لهيمنة الجيش واستبداد قيادته بالحكم، وتآمرها على الأمراء وتلاعبها بتنصيبهم. فتنافس الأمراء على الملك وتصارعوا على السلطة، ونسفوا كل ما شيده والدهم المولى إسماعيل العظيم من أمجاد (126).

فانعدم الأمن والنظام، وتفككت هياكل الدولة : السياسية و الإدارية، والاقتصادية و العسكرية وغيرها، وقد صور لنا الزياني ذلك قائلا: " كان حال هذا العسكر مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل، مثل حال الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسي " (127).

وامتدت هذه الفترة الحالكة فاستمرت ثلاثين سنة من 1139هـ – 1727م، إلى 1171هـ–1757م، وتعاقب على سدة الحكم فيها سبعة أمراء(128)، منهم من بويع وعزل مرات عديدة بتآمر من جيش عبيد البخاري غالبا وجيش القبائل من المغافرة والودايا أحيانا. وكان الجيشان يتنازعان السلطة بدورهما، ويتصارعان ويتحاربان من أجلها، متخذين من الأمراء وضعفهم وسيلة تمنحهم صفة الشرعية، وتضفي على أعمالهم الصبغة القانونية.

وقد انعكست الأحوال والأحداث الداخلية المزرية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، إذ نهب بيت المال، وارتفعت الأسعار، وعم الغلاء، وتفاحش، فركدت حركة التجارة الداخلية (129)، وبالتالي اضطربت الأحوال،

---

(125) نشر المثاني للقادري، ج: 3،ص:240 و290–292، والاستقصا للناصري، ج:7، ص: 99، والروضة السليمانية، للزياني ورقة : 70، والحلل البهية للمشرفي، ص:148

(126) تاريخ الضعيف الرباطي، ص:103–162.

(127) الروضة السليمانية، للزياني ورقة: 70.

(128) تولى خلالها أولاده الآتية أسماؤهم : المولى أحمد الذهبي، والمولى عبد الملك، والمولى عبد الله، والمولى علي الأعرج، والمولى محمد بن عربية، والمولى المستضي والمولى زين العابدين، الاستقصا للناصري، ج : 7، ص: 59.

(129) البستان الظريف للزياني، ص:47، والحياة الأدبية لمحمد الأخضر، ص:269.

واختل حبل الأمن والاستقرار، فعمت البلبلة والفوضى والفساد، وساد الظلم والنهب والهوان، مما هدد بالانهيار والزوال.

أما على الصعيد الخارجي فقد أصبح المغرب يعيش في عزلة خارجية(130).

المولى عبد الله :(1141- 1171هـ - 1729 - 1757 م) :

كان أبرز ملوك هذه الفترة الدقيقة الصعبة المولى عبد الله، الذي بويع وعزل مرات عديدة، وأخيرا "اجتمعت كلمة أهل المغرب على طاعته" (131)، وكانت بيعته الأولى سنة 1141هـ حيث جاء من تافيلالت (132).

قال أكنسوس عن أهمية المولى عبد الله في هذه الفترة الحرجة بالنسبة لغيره من إخوته الأمراء : "والحق الذي لا شك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة المولى عبد الله، فإنما هو ثائر عليه لا إمامة له، وإنما يكون خبره مسوقا من جملة أخبار المولى عبد الله (133).

وقد حاول المولى عبد الله رأب الصدع، واسترجاع أمجاد أبيه، فقام بمبادرات على الصعيدين الداخلي والخارجي، لكن اتسع الخرق على الراقع(134)، ومع ذلك فقد كان له الفضل في التمهيد للفترة المشرقة التالية، التي بددت دياجي هذه الفترة الحالكة المتأزمة، التي تخبط المغاربة في ويلاتها أكثر من ربع قرن (135).

فعلى المستوى الداخلي عمل على إخماد الثورات والفتن ونشر الأمن والاستقرار، وقمع القبائل والجيوش المتمردة، والعبيد الآبقة المتنطعة، معتمدا

---

(130) مجلة المناهل، ع: 36، س:4، ص: 29-31، 1407-1987، والمغرب في منتصف القرن: 18، للمؤرخ الإسباني: رامون لوريد ديات، الباب الأول، س:1757-1790، والبستان الظريف للزياني ورقة: 46.

(131) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 158.

(132) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 299-300.

(133) الاستقصا للناصري،ج:7، ص: 193.

(134) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 43.

(135) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 53.

على أخواله المغافرة، وعلى مساندة أمه اخناثة بنت بكَار التي كان لها وزن سياسي، وتأثير على الجميع طيلة حياتها.

كما حاول تحرير مدينة سبتة، سنة 1732م (136).

وشيد آثارا عمرانية خالدة (137)، أهمها : إتمام بناء جامع المولى إسماعيل (138).

أما على الصعيد الخارجي، فقد عمل على تنشيط العلاقات الديبلوماسية الراكدة شرقا وغربا، ولا سيما مع الحجاز، وإنجلترا، وهولندة، مما أدى لاحتكارهما تجارة المغرب الخارجية -إذ ذاك- (139) كما تبادل الهدايا مع سلطان الحرمين الشريفين (140).

وتوفي رحمه الله سنة 1171هـ (141)، بدار الدبيبغ بفاس الجديد، ودفن بمقابر الشرفاء (142).

سيدي محمد بن عبد الله - المولى اليزيد - المولى سليمان (1171- 1238هـ ــ 1757-1822م) :

سيدي محمد بن عبد الله(143) : (1171-1204هـ / 1757-1790م)

بويع بمراكش، ثم جاءته بيعة فاس سنة 1175هـ بإجماع أهل الحل والعقد (144)، فالتفت حوله الأمة لكفاءته التي برهن

---

(136) دعوة الحق، ع: 5، س: 2، 1379-1960، ص: 44-45، سبتة في تاريخ المغرب القديم والحديث لعبد اللطيف الخطيب.

(137) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 43.

(138) الاتحاف الوجيز، للدكالي، ص: 48.

(139) الجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 132، والاستقصا للناصري، ج:7،ص: 167-187.

(140) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص:335.

(141) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 60، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(142) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 158.

(143) ترجمته بالترجمانة الكبرى، للزياني،ص: 82 - 99، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 55-58.

(144) المصدر السابق، ونفس الصفحة، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 158 -159.

عليهـــا منـــذ خلافتـــه عـــن والـــده بمراكـــش وآسفـــي، بعلمه واجتهـاده وحسن سيرته (145).

تولى في ظـروف صعبة حرجـة، بعد عهـد الاضطراب مباشرة، فكـان له الفضل في الخروج بـالبلاد إلى عهـد مشرق يمثل أوج الازدهار : السيـاسي، والعسكري، والاقتصادي، والثقافي...

فقد وحـد المغرب من جديد، واسترجع الثغـور وحصن الشواطئ، فقمع جشع الـدول الاستعمارية، وطمعهـا في خيرات المغـرب، فهـابته وصـارت تخطب وده.

كما اجتث رواسب عهـــد الاضطـراب، وقضى على جميع الانحـــرافـات والتطلعات الشخصية والقبلية، مما أعاد للعرش العلوي هيبته، وجدد معالم الدولة على أساس تـوطيد كيان البلاد وتوفير أسباب الـرفاهية والاستقرار والعدالـة ونشر العلم بالمدن والقـرى. فكان رائدا للمغـرب، وباعثـا لنهضته العلميـة والإصلاحيـة والفكريـة الشاملـة، فاستحق لقب "سلطـان العلماء وعالم السلاطين".

فقد اسـترجع السواحـل المغتصبة، وفتح البريجة سنة 1183هـ– 1769م، وأخرج النصارى منها وهدمها.

وبنى وأسس مدينـة الصويـرة، مستهدفا أبطـال حصن وميناء أَكـادير الذي كان بيد الثوار.

واهتم بالصحراء المغـربية فجدد ولاية شيوخ قبائلهـا بواد نون، وأدرار، وتاكانت، وماسة، والساقية الحمراء وتيشيت (146).

---

(145) تـاريخ الضعيف الـربـاطي، م. خ.ع، رقم : 660، والملك المصلح سيـدي محمد بن عبـد الله، للعبادي، ص:59–63، والحياة الأدبيـة لمحمد الأخضر،ص:270–271 ودعـوة الحق، ع: 234، ص: 15، 1404 – 1984، دعوة لإحياء الذكرى 200 لوفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لأبي بكـر القـادري. والمغـرب عبر التـاريخ، لإبـراهيم حـركـات، ص:87.والجيش العـرمرم لأكنسوس، ورقة 106، ونشر المثاني، للقادري، ج: 1، ص: 123.

(146) دعوة الحق، ع:2و3، س: 20، ص: 126، 1399–1979، كفاح العلويين من أجل الوحدة، لعثمان ابن خضراء والترجمانة الكبرى، للزياني،ص:19 وما بعدها.

أمـــا على الصعيـد الخارجي فكـــانت سيـــاستـه تقـــوم على محورين متوازيين(147) : الاتجاه العثماني والإسلامي من جهة، والاتجاه الغربي من جهة أخرى (148)، وجعلها تخضع للمصالـح الإسلامية (149)، التي كانت نصب عينيه في جميع علاقاته الخارجية.

وفي ذلك ألف الألماني بابا نكيو كتابا يتهـم فيه محمد الثالث بالاستبداد والتعصب، انتقاما منه لتحالفه الملتزم مع الدولة العثمانية (150).

وبـموازاة هذه السياسة الإسلامية الرشيدة جـدد علاقاته الديبلوماسية مع الدول الأوربيـة، في مسلسل يستهدف استرجاع مكـانة المغرب الـدولية وهيبته برا وبحرا، وخـاصة بعد أن فرض عليها كلها ضريبـة المرور بالمياه الإقليمية للمغرب. ولم تلبث الولايات المتحدة أن راسلته تخطب وده وتطلب إقامة معـاهدة الصداقة والتجارة مع المغـرب. كما راسله رئيسـها -إذ ذاك- جورج واشنطن، مشيدا بـالعلاقات الودية المتـازة بين الدولتين، مما جعل المولى محمـد بن عبـد اللـه في طليعـة الملوك والـدول المعترفين بـالفـدراليـة الأمريكية (151).

ولم يلبث أن عقد معهـا المعاهدة المطلوبـة سنة 1786م(152)، مما جعلها تفكر في إقامة نصب تذكاري له وسط عاصمتها(153) -كما جاء في رسالة جورج واشنطن المذكورة -.

---

(147) دعوة الحق ع:234، ص: 1404،36-1984، دعوة لإحيـاء ذكرى وفاة السلطان محمـد بن عبد الله،لأبي بكر القادري، ومجلة المناهل

(148) م.المناهل، ع:36، س:4، ص: 177، 1407-1987، لويس شينييـه قنصلا ومؤرخـا لإبراهيم بوطالب، والترجمانـة الكبرى للزياني، ص:19-23، والإتحاف، لابن زيـدان، ج:3، ص: 172، والأعلام، ج: 5، ص: 159-160و185و134.

(149) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله، للحسن العبادي ص:75.

(150) دعوة الحق،ع: 5،ص: 76، 1386، مقالة لعبـد الله كنون والملك المصلح سيدي محمـد بن عبد الله للعبادي ص:76، والنبوغ المغربي لكنون، ج:1،ص:272 والحلل البهية للمشرفي، ص: 160، وتاريخ الضعيف، ص:193.

(151) في الأدب المغربي المعاصر لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 13.

(152) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3،ص: 117.

(153) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله للعبادي، ص: 75.

واستمرارا لمسيرة البعث والتجديد التي رسمها لدولته، وتطبيقا لبرنامجه الإصلاحي الشامل، استأنف علاقته مع إنجلترا وتبادل معها المصالح(154)، لكن هذه العلاقة مع إنجلترا تكدرت لاعترافه بالدولة الأمريكية الناشئة رغم أن علاقة المغرب الديبلوماسية مع إنجلترا ترجع إلى سنة 1760.

ومسيرة السلام الخارجي هذه دفعته لتوقيع معاهدات مع كل من ملك السويد وملك الدانمارك كريستيان السابع، وملك إنجلترا جورج الثاني، وكذا مع البرتغال بعد أن أرسلت وفودها بهذا الصدد. لكنه رفض طلب الملك الإسباني كارلوس الثالث المتعلق بالنزول في قلعة سانتاكروز بالشواطئ الصحراوية الغربية (155).

ولمكانته الدولية اعترف في عهده بالكيان المغربي لسبتة ومليلية وبضمان صيانته تاريخيا. بمقتضى المادة 17 من معاهدته مع إسبانيا، السلمية والتجارية، وكذا بمقتضى المعاهدة المبرمة بينهما في مكناس سنة 1799م(156).

واعتمادا على مكانته المذكورة عقد اتفاقية مع لويس السادس عشر ملك فرنسا، تتعلق بإلغاء الرق بين المسلمين والمسيحيين سنة 1777م (157)، مما يعتبر سبقا في سياسة المغرب الدولية.

وقد استفاد من الأحداث العالمية الكبرى لعصره التي عَجَمَتْ عُودَه، وحنكته، وأنضجت تجاربه السياسية، كالثورة الفرنسية، واستقلال أمريكا، واحتلال إنجلترا لكندا (158)...

لكل ذلك اهتم به الكتاب الأوربيون، حيث ألف لويس شينيه، قنصل فرنسا بالمغرب، كتابا حول تاريخ المغرب، من خلال مراسلاته

---

(154) دعوة الحق، ع:8،س:15، ص: 74، 1393-1973، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(155) دعوة الحق، ع:2و3،س:20، ص: 1399،127-1979 نضال العلويين من أجل الوحدة لعثمان بنخضراء.

(156) دعوة الحق، ع:5،س:2، ص: 45-46، 1379-1960، سبتة في تاريخ المغرب القديم والحديث، لعبد اللطيف الخطيب.

(157) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص: 113.

(158) المصدر السابق، ص: 87.

الديبلوماسية، تضمن وثائق هـامة عن عهد المولى محمد الثالث، وذلك سنة 1767-1782م (159).

وعزز سياسته الداخلية والخارجية الحكيمة بمحاربة البدع، وأصحابها، والقضاء على المشعوذين والدجالين(160).

وبموازاة ذلك وضع مؤلفات تستهدف التحرر من الجمود والرجعية على جميع المستويات الفكرية وغيرها.

كما نظم القضاء، وجدد مسطرته، حيث استصدر ظهائر دورية عديدة، تستهدف إصلاحـه، وخاصـة بالمحاكـم الشـرعـية، كما تستهـدف تذكيـر القضـاة بواجـبهـم وتـوصـي بالأيتـام والضعـفاء، تحقيـقا للعدالـة التامـة.

وتتويجا لسيـاسته المتكـاملة، وبموازاة منهجيتـه وبرامجه الإصـلاحية المختلفة، اهتم بالعمران (161). فقد خلد عهـده ببناء مدن : الصـويـرة سنة 1178هـ وفضالة والمحمدية، وبتجديد مدينة أنفا (162). كما شيد ما يناهز ستين مؤسسة، من مساجد ومدارس وغيرها (163).

وتوفي، رحمه الله، في طريقه إلى الرباط(164) سنة 1204هـ-1790م(165)، ودفن به (166).

ولم يعهد لأحـد، بعد أن أشـهد العلماء على خلع ولـده اليزيـد من ولاية العهد سنة 1203 (167).

---

(159) م. المناهل، ع: 36، س: 4، ص:156، 1407-1987، لويس شينيه قنصلا ومـؤرخا، لإبراهيم بوطالب، ونفس المصدر، ص: 260-161 أبو القاسم الزياني.

(160) الاستقصا للناصري،ج: 8،ص: 59.

(161) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 56-58.

(162) تـاريخ الحضـارة المغربيـة لابن عبـد اللـه، ص: 84، ونشر المثـاني، للقـادري، ج: 4، ص: 128-130و160.

(163) الاستقصا للناصري، ج:8، ص: 59.

(164) العز والصولة لابن زيدان، ج: 1،ص: 156-157.

(165) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 24.

(166) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(167) تاريخ الـضُّـعَـيِّـف، ص: 197.

المولى اليزيد(168) : (1204-1206هـ ــ 1790-1792م)

بويع بعد وفاة والده بتطوان(169) سنة 1204هـ، إذ اعتبر العلماء أن توجه أبيه إليه في ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش، حيث كان لائذا ومعتصما -يعتبر عفوا عنه، وتراجعا منه في عزله عن ولاية العهد، لولا أنه مات في طريقه إليه.

فما إن تمت له البيعة، حتى قضى على جميع خصومه من عمال وولاة أبيه، ونكب اليهود، ونهب أحياءهم في أهم المدن، وأمر بطرد النصارى والرهبان من المغرب (170)، وجمع قناصل الدول الأجنبية في طنجة، وهددهم بالحرب إذا لم تف دولهم بالتزاماتها لأبيه، وتجدد المعاهدات معه(171).

ورغم قصر مدة حكمه، قام بأعمال تدل على كفاءته ومصداقيته، وعلى أنه لو طالت مدته لحقق المعجزات.

فقد حاول تحرير مدينة سبتة سنة 1790(172)، لكن إسبانيا شجعت الثوار ضده، لإثارة الفتنة الداخلية (173)، تلافيا لقيام دولة قوية بالمغرب على يده.

وقد انتقم المولى اليزيد من إسبانيا بقتل عاملها على سبتة الذي زاره للتفاوض، بأن قطع رأسه (174)، وذلك سنة 1206هـ. فأثارت إسبانيا أخاه المولى هشام ضده (175)، وساعدته ماديا ومعنويا سنة 1206هـ، فانهزم أخوه المولى هشام أمامه، لكن اليزيد جرح في تلك المعركة جروحا بليغة خطيرة.

---

(168) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 197-201و237، والاستقصا للناصري، ج: 8، : 56، والروضة السليمانية للزياني،،ورقة: 143-144.

(169) تاريخ الضعيف، ص: 201.

(170) الاتحاف لابن زيدان، ج: 3، 3: 306، وتاريخ الضعيف، ص: 119.

(171) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج:3، ص: 122.

(172) دعوة الحق، ع: 5، س:2، ص: 45، 1379-1960، سبتة في تاريخ المغرب لعبد اللطيف الخطيب.

(173) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 223-226.

(174) تاريخ الضعيف، ص: 228.

(175) المصدر السابق، ص: 229.

أما هشام فانقسم أتباعه بينه وبين أخيه سلامة، الذي أمر بقطع رأس الوزير واعزيز، فسعى هذا الأخير بنفوذه القوي، وتجربته الطويلة، في إسناد الملك إلى المولى سليمان، حيث اتفق على ذلك مع العلماء، ومن بيده الحل والعقد بالعواصم الكبرى. فتمت بيعة المولى سليمان في مكناس سنة 1206 (176).

وتوفي المولى اليزيد متأثرا بجروحه سنة 1206هـ، وأوصى أن يدفن بمولاي إدريس زرهون، لكنه دفن في مقبرة الملوك السعديين (177).

المولى سليمان (178) : 1206-1238هـ - 1792-1822م)

بويع المولى سليمان بفاس، بإجماع أهل الحل والعقد من العلماء ورجال السلطة سنة 1206هـ (179)، واشترط عليهم ألا يقاتل (180) أبدا.

وكان مؤمنا تقيا مستقيما، بارا بوالده، يميل إلى الحلم والعدل، محبوبا من رعيته، ميمون الطلعة. فعمت في أيامه العافية والأمن والرخاء، لاعتماده الديمقراطية الإسلامية في أسلوب حكمه (181)، حتى اعتبره المؤرخون المغاربة والأجانب من أحسن ملوك الدولة العلوية، كهوفر الذي قال :«إنه من أحسن ملوك دولة الشرفاء» (182).

فقد عمل بمجرد بيعته على إخماد الفتن الداخلية، وقضى على جميع المنافسين له، سواء من إخوته أو من الثوار الخارجين عليه، حتى لم يبق له

---

(176) المصدر السابق، ص: 242- 244، والاستقصا، للناصري، ج:8، ص: 86، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 67-72.

(177) تاريخ الضعيف، ص: 273.

(178) ترجمته بالترجمانة الكبرى للزياني، ص: 24و55.

(179) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 131.

(180) تاريخ الضعيف، ص: 245.

(181) النبوغ المغربي لكنون، ج: 1، ص: 172.

(182) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج: 3، ص: 173

منــازع في الملــك سنة1212هــ(183)، فدانــت له الصحــراء، ووجدة، والشرق سنة 1222هــ، وتادلا والبربر 1223هــ، وبلاد الــريف سنة 1225هــ، وكانت أشد الثورات عليه فتنة البربر (184).

لكن يؤخذ على المولى سليمان اهتمامه بالمجــال الديني والثقافي والفكري، على حســاب بقيــة المجــالات الأخــرى. فقــد أوقف الجهــاد البحــري، وحل الأسطول المغربي، وفرق قطعــه على كل من الجزائر وطرابلس – ليبيا– وما بقي منهــا أنــزل عنهــا المدافع، وحــولها للتجـــارة المدنيــة، وذلك سنـــة 1233هــ–1817م. في حين أن أسطولــه كان أمتن وأقــوى من أسطول كل من تونس والجزائر، بشهادة مانويل المؤرخ الإسباني المشهور (185).

والواقــع أنه فعل ذلك اضطــرارا تحت ضغط الدول الكبرى ومــؤامراتها، لتضايقها من عمليات الأسطول المغربي العتيدة(186)، ولتحركات الأساطيل الأجنبية العملاقــة –إذ ذاك– (187)، فقد نشطــت حركــة الأسطول المغربي في عهده حتى تضايق منه الأجانب، وتآمروا ضده (188).

وقد عمل على توطيــد دعائم الاستقرار، بسياسته الاقتصاديــة الناجحة، القائمة على العدالة الاجتماعية، والرفق بالرعية، وفي هذا الصدد أصدر أمره، بمنع تجارة طابة والكيف، وأمر بإحراقهما في كل المدن، وشكل لجنة وطنية أسند إليها مهمة تتبع المخالفين ومعاقبتهم (189).

---

(183) تاريخ الضعيف، ص: 324–353، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 95 (ثار عليه أخوه هشام، وسلامــة، وأهم الثــوار الخارجين عليه : محمد بــن عبد الســلام الخمسي المعروف بــزيطان، وسيدي هاشم، من أولاد سيدي أحمد أو موسى، وولد أمهاوش).

(184) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 115.

(185) المصدر السابق ص: 133.

(186) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ص: 11 وكتاب الجزائر، لأحمد تــوفيق المدني، ص: 42، ط: 1، تقرر إلغاء القرصنة في مؤتمر إيكس، سنة 1234هــ– 1818م.

(187) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3: ص:165.

(188) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 399 والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 170.

(189) تاريخ الضعيف، ص: 386.

أما على الصعيد الخارجي، فقد تفطن المولى سليمان لخطر الدول الغربية على المغرب، وأطماعها الجشعة في أرضه وخيراته، فمنع التجارة معها(190)، ولم يستجب لمحاولاتها جَــرَّه إلى أحلافها، صداً للمـد الأوربي الزاحف على الشمال الإفـريقــي، ولــلاستعمار العسكـــري والسيـاسي(191)، وتحسبـا للتطورات التي عرفتها الساحة الدولية إذ ذاك.

لكن سياسته الحذرة اتجهت بالمغرب إلى نوع من العزلة الدولية، كما أن تنافس الــدول الاستعمارية على جره إلى بـراثنها أثار ضده تهمــة الانغلاق، ممــا حاول المولى سليمان التخلص منــه، وتفكيكــه بسلسلة من الإجــراءات الدبلوماسية:

فقد بعث وفدا دبلوماسيا إلى فــرنسا بهدية إلى نابليون الأول مهنئا إياه بتتــــويجه إمبراطـــورا على فــرنســــا، ممـــا أدى إلى تنشيط التجـــارة بين البلدين(192).

كما عمل على تنشيط علاقــاته مع بقيــة الدول، رغبة منــه في كسر طوق العزلة عن المغــرب، فجاءته هدايا كل من الســويد والدانمارك (193)، وعقد معاهــدة مع إسبانيا للســلام، وذلك سنة 1212هــ (194)، كما عقد معــاهدة للصداقة والسلام مع أمريكــا، بواسطة إنجلترا في شخص حاكم جبل طارق الذي كان وسيطا بين السلطان وسائر الأجانب بالمراسي كلها.

---

(190) الاستقصا للناصري، ج: 4، ص: 154، ط: المصرية.

(191) الأدب المعاصر، لعبد الحميد يونس، وفتحي حسن المصري، ص: 13.

(192) المغــرب عبر التاريخ، لحركــات، ج: 3، ص: 166، وتــاريخ الضعيف، ص: 342-343، ودعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص:74، 74، 1393-1973، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(193) تاريخ الضعيف، ص: 307-308.

(194) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 106.

وفي سنة 1227هـ– 1805م، وفد عليه أهل تلمسان ببيعتهم من طرف ابن الشريف مع العربي الدرقاوي (195) فرفضها، وحاول الإصلاح بين الباي ورعيته (196)، فقد أكرم وفادة المبايعين منهم ورتب لهم العطاء، وردهم إلى بلدهم، بعد أن طلب لهم الأمان من الباي، فقبله وعفا عنهم(197).

ولما طلب منه ملك إسبانيا كارلوس الثالث النزول بقلعة "سانتا كروز" على شواطئ الصحراء الغربية، رفض، مكرسا موقف والده سيدي محمد بن عبد الله من نفس الطلب، ولم يأذن له إلا في الصيد بالمياه الإقليمية المغربية المواجهة لجزر الخالدات (198).

وفي إطار تمتين العلاقات الودية مع الدول العربية والإسلامية، تزوج المولى سليمان بنت كبير عرب الحنانشة سيف النصر بطرابلس(199)، وكانت أختها زوجة للمولى اليزيد.

لكن بعد وقعة "ظيان" المشؤومة سنة 1235 (200)، تقلصت هيبة المولى سليمان، وبالتالي هيبة الدولة، إذ عمت الفتنة، ورفعت إليه الشكاوي من كل ناحية.

وبعد فتن وحروب انتصر المولى سليمان، لكنه صفح عن كل من شارك في الفتن، وأحسن إليهم قائلا :"لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين" (201)، وعاد إلى مراكش بعد

---

(195) تاريخ الضعيف، ص: 339، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 109–111، وهذه هي البيعة الثانية، وكانت الأولى س:1220هـ، وهي تعبير عن رفض للترك، وتطلع لوحدة المغرب العربي.

(196) المغرب عبر التاريخ، لإبراهيم حركات، ج:3، ص: 141.

(197) هذه البيعة الثانيه كانت لأهل تلمسان ومستغانم، والبليدة ووهران، بينما كانت الأولى لأهل تلمسان فقط، وقد انفرد الضعيف بذكر البيعة الثانية.

(198) دعوة الحق ع: 2و3، س: 20، ص: 127–128، 1399–1679، نضال العلويين من أجل الوحدة، لعثمان بن خضراء.

(199) تاريخ الضعيف، ص: 361.

(200) الاستقصا، للناصري،ج:8، ص:137.

(201) المصدر السابق ص: 157–158.

أن استخلف على فاس ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام(202) سنة 1237هـ.

وقد اهتم بالصحراء أيما اهتمام، وأراد أن يطبق فيها نوعا من اللامركزية الإدارية تحت السيادة المغربية الكاملة، لكن سكان الصحراء رفضوا ذلك، وأبوا إلا التشبث المطلق بالاستمرارية في الإندماج الكلي تحت المركزية العامة للدولة، تمسكا بالبيعة الشرعية والوحدة الوطنية، وذلك سنة 1211هـ ـ 1796م (203).

كما حاول تطبيق نفس الفكرة في إقليم توات، لكن ذلك لم يحصل.(204)

وتحقيقا للأمن الداخلي، وسيرا على مسلك الملوك العلويين من أجداده حارب البدع والشعوذة، واتخذ من أرباب الزوايا موقفا حازما واضحا، يهدف إلى حثهم على التزام العمل بالكتاب والسنة، والقيام بنشاطهم الديني والعلمي على أساس ذلك، بعيدا عن كل تشويش أو طمع في الحكم، حفاظاً على وحدة البلاد وأمنها واستقرارها.

أما ما جاء في كتاب : (كشف الحجاب) في هذا الموضوع فأمر لا يصدقه العقل السليم، والمنطق الحصيف، خاصة عن المولى سليمان، العالم الكبير، والصوفي ا لجليل.

---

(202) الحلل البهية للمشرفي، ص: 185–193 وتاريخ الضعيف، ص: 392–391.

(203) المغرب عبر التاريخ، ج: 3، ص: 173.

(204) دعوة الحق، ع:234، ص :27، 1404 – 1984، العرش العلوي أقدم العروش، لعبد العزيز بن عبد الله، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص:161، وكشف الحجاب، للسكيرج ص: 495 –496، ورسائل اليوسي إلى المولى إسماعيل، نصها في كتاب رسائل اليوسي للحسن بن مسعود اليوسي، ص: 73–74، وبالدر المنضد، ورقة : 218، والمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 83، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ص:78، والاستقصا للناصري، ج : 7 ص: 82 والتيارات السياسية لحركات، ص 115–117.

والحقيقة التي لاغبار عليها أن المولى سليمان بعد الأحداث المروعة الأخيرة زهد في الحياة والسلطة، وأخذ يفكر في التنازل عن الملك لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، ولما مرض مرض موته، جدد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام، وبعثه على عجل إلى فاس، حيث كان المولى عبد الرحمن خليفة عنه بها (205).

وتوفي رحمه الله سنة 1238هـ(206) ودفن بضريح جده المولى علي الشريف بمراكش.

المولى عبد الرحمن - المولى محمد الرابع - المولى الحسن الأول

(1238 -1311هـ = 1822 - 1894م)

المولى عبد الرحمن بن هشام (207) :

(1238 -1276هـ = 1822 - 1859م)

تولى بعهد من عمه المولى سليمان سنة 1238هـ - 1822م، وبويع بإجماع أهل الحل والعقد في الدولة.

اتسم بالتقوى والصلاح، واشتهر بالاستقامة والجدية والمصداقية والالتزام في أمور الدين والدنيا، فنبضت بحبه القلوب ولهجت بالثناء عليه الألسنة منذ صغره، فقر به عمه المولى سليمان وضمه إلى أولاده،فبرهن عن جدارته وقمانته، خاصة لما بعثه إلى الحج رفقة أولاده. فولاه الصويرة أولا اختبارا وابتلاء له، ووجده عند حسن الظن به، ولم يلبث أن استخلفه بفاس،

---

(205) نص العهد بالاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66، وفي مخطوط عقد الجمان للزياني، ص: 17، وهو مؤرخ في 4 ربيع الأول 1238هـ، 28 نونبر 1822م.

(206) المغرب عبر التاريخ لحركات، ج: 3، ص: 173.

(207) الحلل البهية للمشرفي، ص: 202-216، والدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 82-88.

حيث تجلت أهليته للخلافة والملك، وتحمل مقاليد المسؤولية ومواقع صنع القرار.

وكان عهده عهد يمن وبركة ورفاهية ورخاء وخصب وازدهار، كما كان متورعا عن سفك الدماء (208) حليما، بارا بأسرته، وخاصة أبناء عمه سليمان (209)، اعترافا بفضله عليه، وإكراما لذكراه (210)، وبرورا بنذره وقسمه يوم بيعته أمام أكنسوس "والله لايرون مني إلا الخير ".

ويعتبر عهده بداية عهد جديد في تاريخ المغرب، ومنعطفا هاما، مما فرض عليه العمل على جبهات عديدة، وفي سباق مع الزمن والأحداث.

وقد أعطى الأولوية للمشاكل الداخلية فقضى على ثورة إبراهيم يسمور اليزدكي بصحراء تافيلالت سنة 1271هـ(211)، ثم استأصل ثورة الودايا، فنكب القواد والأعوان المتمردين.

وعلى الصعيد الاقتصادي حاول تدعيم الاقتصاد المغربي فأحدث المكوس على الجلد والبهائم، سنة 1266هـ، كما أمر بحصر السكة سنة 1268هـ (212)، ونظم الجزية المأخوذة من أهل الذمة (213)، ووكل عماله بذلك، وحظهم على حسن معاملتهم.

وقام بأعمال جليلة في مقاومة التحديات الأجنبية، وأطماع المستعمرين الأوربيين عسكريا وسياسيا.

---

(208) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 78-79.
(209) المصدر السابق والجزء، ص: 8.
(210) المصدر السابق و ج، و ص.
211) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 67-68، والحياة الأدبية للأخضر، ص: 390.
(212) نص رسالته في الموضوع، في الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 67-68.
(213) الابتسام عن دولة ابن هشام، لأبي العلاء إدريس، ص: 108.

فقد زار الموانئ المغربية بمجرد بيعته، وأصدر أوامره ببعث نشاط الأسطول المغربي سنة 1243هـ - 1827م، فقام بصولات وجولات على السواحل المغربية.

وحبكا لخيوط المؤامرة الأوربية علقت الدول الأوربية اعترافها بالمولى عبد الرحمن، بعد بيعته بإقبار الأسطول المغربي، وبعد أخذ ورد، اتفق على تعويضه ببناء أبراج بميناء الرباط (214) سنة 1246هـ.

ويعتبر نافخ روح النهضة المغربية، وموطد صرح الدولة، بدت فيها بوادر الضعف والانحدار -كما قال أكنسوس- (215).

وقد زاد في مرانة سياسته الخارجية بعد احتلال فرنسا للجزائر، إذ وقف وقفة تأمل مع نفسه -للنقد الذاتي-، فوجد أن العزلة والتقوقع على النفس مصدر الداء، ووافق ذاك ظهور الدعوة لحركة إصلاحية سلفية تتناول جميع مجالات الحياة (216) فكان نشاط هذه الحركة مقدمة لركب النهضة المغربية الحديثة.

وتقدمت إليه إسبانيا بطلبها التقليدي المتوارث بالنزول بقلعة "سانتا كروز" على شواطئ الصحراء الغربية، فأجابها بالجواب المغربي التقليدي وبصيغة أجداده -كل مرة- وهي الرفض، لكنه سمح لها بحق الصيد في تلك الشواطئ، وإقامة معمل لتصبير السمك فقط، مما أكدته معاهدة تطوان سنة 1860م (217).

---

(214) فبنيت : برج الشراط، وبرج السقالة، وبرج الدار، وبرج القصبة.

(215) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 10.

(216) دعوة الحق، ع: 8، س: 9، ص: 7، 1386هـ-1966م، عبقرية الإسلام في المغرب، لحسن السائح، ودعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 74، 1393-1973 بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني، والمغرب قبل الحماية لعبد الرحيم سلامة، ص: 35، والابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلاء إدريس، ص: 106.

(217) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 127، 1399هـ-1979م، نظال العلويين من أجل الوحدة، لعثمان بن خضراء.

وبعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1245هـ- 1830م، قام بأمر الجهاد فيها الحاج عبد القادر محيي الدين، وتوصل المولى عبد الرحمن برسائل من أهل تلمسان ووهران، يبايعونه فيها، ويطلبون إليه الإنضواء تحت لوائه. وجاءته وفود كل من وهران وتلمسان في هذا الشأن سنة 1246هـ(218)، فقبل بيعتهم بعد استفتاء العلماء، وولى عليهم ابن عمه المولى علي بن سليمان، وأرسل معه الهيئة الإدارية، وكتائب من الجيش، وأوصاهم خيرا بالجميع(219)، لكن الحملة فشلت لسوء تصرف بعض عناصر الجيش. فعادت سنة 1246هـ، وعاقب المولى عبد الرحمن القائد المسؤول عن الأخطاء والنهب (220)، وعناصر الفساد التي أدت إلى فشل الحملة.

كما أحسن وفادة المهاجرين الجزائريين، فأوصى عماله وولاته بحسن استقبالهم والبرور بهم، ومساعدتهم ماديا ومعنويا (221).

ولم تلبث فرنسا أن اشتبكت مع المغرب مباشرة بعد موقعة "إيسلي" سنة 1260هـ - 1844م التي أسفرت عن انهزام المغرب هزيمة مؤلمة، واحتلت فرنسا على إثرها مدينة وجدة، وأرغمت المغرب على توقيع معاهدة طنجة(222)، وفرضت عليه حل الأسطول المغربي نهائيا ومصادرته(223).

---

(218) الحلل البهية للمشرفي، ص: 202-206و 209

(219) نص الوصية بالاستقصا، ج: 9، ص: 31.

(220) المصدر السابق و ج، ص: 32، والاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 41-44، ودعوة الحق ع: 4و5، س: 1،ص: 39، 1377هـ - 1957م، والسلطان عبد الرحمن، والأمير عبد القادر، لعبد القادر القادري.

(221) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص:196، والاستقصا للناصري، ج: 9،ص: 61-62. قال مانويل في ذلك "أن الفرنسيين انسحبوا لنفاذ ذخيرتهم، وخافوا إن لم يذهبوا طوعا أن يذهبوا كرها".

(222) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 204، ونص المعاهدة بنفس المصدر،ص: 204-207 و222.

(223) الاستبصار، مذكرة الطاهر بن محمد بن عبد السلام الأوديي أحد أعضاء البعثة الحسنية.

وترجع هـزيمة المغرب في مـوقعة إيسلي -رغم كثـرة جنده- إلى ضعف تنظيم جيشه، وعدم أخذه بالنظم والمخططات العسكرية الحديثة (224).

وكانت هذه الهزيمـة المادية والمعنوية وبـالا على الاقتصاد المغربي(225) بصفة خاصــة، إذ كانت بداية للغزو التجاري الأوربي بـالمغرب، والمشاريع الاقتصادية الضخمة فيه مع امتيـازات خيالية تعفيها من الضرائب، فتهافت الأوربيون على الأسـواق المغربية، وتصارعـوا على النفوذ التجاري بـالمغرب وبالتالي على التهام المغرب وخيراته(226).

وقام المولى عبـد الرحمن بمحاولات لإصلاح الجيش وتجهيـزه وتنظيمه على نمط الجيش التركي إذ ذاك (227)، تحت رئاسة ولده وولي عهده المولى محمد بن عبد الرحمن (228).

ورغم مشاغلـه العديدة والأحداث المهـولة، فقد خصص جزءا هـاما من عنايته للصحـراء المغربية، التي نظم أحوالها في رسـالة سنة 1245هـ، وأكد فيها أن سكان الصحـراء جزء لا يتجزء من مجموع الشعـب المغربي وأمته الواحدة (229).

كما وجه رسالة أخرى إلى أهل الصحراء يطمئنهم فيها ويؤكد لهم أنهم من رعاياه، وأن بلادهم جزء مهم من القطر المغربي العتيد (230).

---

(224) كتاب الجزائر للمدني، ص: 53، وجريدة المغرب، ع: 346،س : 3.

(225) الاستقصا، للنـاصري، ج: 4، ص: 198، ط: المصرية، والإتحاف الـوجيز للـدكالي، م. خ. ع.- بالرباط.

(226) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، لكنون، ص: 18.

(227) الإتحاف لابن زيـدان، ج: 5، ص: 238-239 و77، والعز والصـولة لابـن زيدان، ج: 2، ص: 214-215، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني،ص: 76و الاستقصا، للناصري، ج: 4، ص:222، ط: المصرية.

(228) الإتحاف لابن زيـــدان، ج: 3، ص:567وج:5،ص:155، وفـــواصل الجمان،ص: 88، والجيش لأكنسوس، ج: 2، ص: 80.

(229) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 64.

(230) المصدر السابق و ج و ص.

ولم يخرج عن مسلك الملـــوك العلـــويين في مـــوقف الحذر والحزم من الزوايا وشيوخها، وحثهم على التزامهم العمل بالكتاب والسنة، بعيدا عن كل طمع وتشويش(231).

وخلد عصره بـــآثـــار معمارية وحضاريـــة وغيرها (232) من مساجد، وأضرحة، ومارستانات، ومنارات، وقصبات، وبساتين وغيرها (233).

وعهد بالملك بعده لولده محمد الـرابع، الذي كان شريكا له في ملكه طيلة حياته(234).

وتوفي رحمه الله بمكناس سنة 1276هـ-1859م (235).

المولى محمد بن عبد الرحمن (236) (1276-1290هـ / 1859-1873م)

تولى الملك بعهد مـن أبيه سنة 1276هـ- 1859م. وبويع مـن طرف أهل الحل والعقد وهو بسلا، في طريقـه إلى أبيه، بعد أن بلغه خبر احتضاره، ثم جاءته بيعة الأقاليم إلى مكناس، فأكرم وفودها (237).

وكان أقـرب إخوتـه إلى أبيه، لبروره ونجـابته واقتـداره، كما كان يتسم بالتقوى والصلاح، والعلم، والتزام حدود الشريعة الإسلامية(238)، والاهتمام بالجهاد في سبيل الله.

---

(231) الأدب المغربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 13-14، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ص: 22.

(232) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 82-88.

(233) الاستقصا، للناصري، ج:7، ص: 79-80.

(234) المصدر السابق و ج، ص: 80.

(235) الاستقصـا، للنـاصري، ج:7، ص: 76-77، والمغـرب عبر التـــاريخ، لحركـات، ج: 3، ص: 228-229، والجيش العرمرم لأكنسوس، ورقة : 277.

(236) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 89-91.

(237) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 80-81.

(238) الحلل البهيـة للمشرقي، ص: 223-233 و المغـرب عبر التاريخ، لحركـات، ج: 3، ص: 231، والاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 84-87.

فقد دربه والده على المسؤولية منذ صغره، من قيادة الجيوش، وتسيير دوالب الدولة، وتحمل المسؤوليات الجسام... ثم استخلفه على مراكش، ولم يلبث أن أشركه في ملكه، إذ كانا يتناوبان الإقامة في الأقاليم والعواصم الكبرى: فاس ومراكش ومكناس.

وتابع سياسة والده فعمل على إتمام المشاريع التي بدأها على جميع المستويات والأصعدة، سواء في إطار الإصلاح الداخلي، أو في تجديد وتحديث هياكل الدولة وأطرها، أو في تطوير إدارتها وتنظيم جيشها وتجهيزه. كما تصدى للتدخل الأجنبي، مما لقي تجاوبا واستحسانا، على الصعيد الداخلي، وعلى مستوى العالم العربي والإسلامي.

لكنه تُوِّج على إيقاع مدافع حرب تطوان، فقد رفض المولى محمد الرابع مطالب إسبانيا المجحفة والمخلة بكرامة الإنسان المغربي، فأعلنت إسبانيا الحرب على المغرب سنة 1276هـ-1860م(239)، ولم تلبث أن احتلت مارتيل ثم تطوان(240)، فكانت الهزيمة المؤلمة التي أثرت على المغرب وأضعفت قوته وهيبته، فتطاول النصارى عليه.(241).

وبدأت مفاوضات الصلح بعد عشرين يوما بوساطة من إنجلترا(242)، والتي انتهت بالصلح مقابل فدية مالية أرهقت ميزانية الدولة بالديون الأجنبية.

---

(239) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 234-235، والاستقصا للناصري، ج:9، ص: 85-86.

(240) الاستقصا، للناصري، ج: 9،ص : 91-92و94-95.

(241) الاستقصا، للناصري، ج: 9 ص: 87، وعاب ابن خلدون طريقة أهل المغرب في الحرب التي تقوم على المطاردة بالكر والفر.

(242) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 243-247، ودعوة الحق، ع: 42، س: 10، ص: 75-76، 1386-1967، بين إنجلترا والدولة العلوية لمحمد بن تاويت التطواني.

وزاد الطين بِـلَّـةً معضلة الحمايات، والإمتيازات الأجنبية، وتعسف القنصليات، وتَبَنِّي إنجلترا مصالح اليهود المغاربة (243). كما استورد الأجانب الخمور دون ضرائب، وعملوا على تربية الخنازير، وفتحوا مواخير للبغاء (244) مما يعتبر مسا بسيادة البلاد، وانتهاكا لحرماتها، ومساً بالقضاء المغربي، والمقدسات الإسلامية....

كما قامت ثورات محلية بتحريض من الأجانب، أهمها : ثورة عبد الرحمن بن سليمان، وثورة الرحامنة، واضطرابات الأطلس، وثورة الجيلالي الروكي الذي ادعى الخوارق والمعجزات والكرامات إلى أن قتل سنة 1278هـ، وعلق رأسه بجامع الفناء.

وشعر المغرب بضعفه العسكري –خاصة بعد هزيمة حرب تطوان سنة 1270هـ–1860م– لقلة التنظيم والتجهيز الحديث، وللتفوق التقني والتنظيمي للغرب.

وساهم العلماء والأدباء في الدعوة للإصلاح والتجديد، ولاسيما للجيش والمجال العسكري بصفة عامة، في مؤلفات خاصة (245). فقدمت للمولى محمد الرابع مذكرات ومشاريع في كيفية تنظيم الجيش. وبعث بعثات دراسية لتكوين أطر الدولة إلى مصر والدولة العثمانية، ولاسيما في المجال العسكري، كما جدد الجهاز العسكري والعتاد الحربي، ورمم المنشآت العسكرية، مستهدفا تنظيم الجيش على غرار الجيوش العربية والتركية.

---

(243) الإستقصا، للناصري ج: 9، ص: 108 ونص رسالة السلطان في الموضوع، ص: 109–110، ونص الظهير، ص: 113–115.

(244) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 247–252، والإستقصا، للناصري ج: 9، ص: 112–113، وأحاديث عن الأدب المغربي لكنون، ص: 19–20.

(245) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله،ج:2،ص64 والتيارات السياسية لحركات،ص129، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص:80، والاتحاف لابن زيدان، ج:3، ص:169، والاستقصاء للناصري، ج:4، ص222، ط المصرية، ومجلة دارالنيابة، ع: 17، س: 5، ص:14، 1988، وبها رسالة وجهها محمد الرابع إلى مسؤول مغربي في شأنهم.

وفي هذا الصدد جدد برج مدينة طنجة ومنارها (246)، وكان يتعاون في مجال الإصلاحات المختلفة مع الدول العربية والإسلامية، التي لا تلقى معارضة من طرف العلماء والرأي العام المغربي.

وفي سبيل النهوض بالمجال الاقتصادي و الاجتماعي، قام بسلسلة من الإجراءات الإصلاحية الهامة التي لولا المؤامرات الأجنبية وفساد حاشيته وبطانته -التي كانت تعمل لتحقيق مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العليا للبلاد - لتغير اتجاه المغرب، وموقعه الدولي، ومكانته الحضارية والدولية، وخاصة في عهد المولى الحسن الأول كما سيأتي.

وفي إطار الإقلاع الإقتصادي، أمر بضرب الدرهم الشرعي، مستهدفا ضبط السكة به، وأصدر منشورا يمنع سواه (247).

فعم الرخاء، وظهرت آثار النعم ومظاهر الحضارة الغربية، وخاصة بالعواصم الكبرى (248).

وفي إطار اهتمامه بالصحراء المغربية، احتفظ لأهلها بالإعفاء من الضرائب، بل كان يساعد أهلها بمنح وهبات من بيت المال، يوزعها على أسرها المعوزة.

ولم يكن اهتمامه بالمجال الدبلوماسي والخارجي يقل عن اهتمامه بالمجال الداخلي. فقد قام في هذا المجال بنشاط مكثف يستهدف

---

(246) الجيش العرمرم، لاكنسوس، ج:2، ص: 81 والاستقصا للناصري ج: 4، ص:224، ط: المصرية، والإتحاف لابن زيدان ج: 3، ص:565، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني،ج:1 ص:101 والمغرب عبر العصور، لحركات، ج: 3، ص:254.

(247) الاستقصاء، للناصري ج: 9، ص: 120-121، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص:115و 154-155 ونص المنشور بالاستقصاء، ج: 9، ص: 120-121.

(248) الاستقصاء، للناصري ج:4، ص: 124، ط: المصرية.

الخروج بالمغرب من عزلته، وتلميع سمعته بالخارج، رأبا للصدع، واستدراكا للأخطاء (249).

لذلك سوى بين المسلمين واليهود المغاربة في الحقوق والواجبات، وشجع الدول الأجنبية على التعاون مع العالم العربي والإسلامي، وتعيين سفراء لها لديهم.

كما طور التجارة الخارجية، وعمل على ازدهارها، فشارك في معرض باريس الثاني، استجابة لدعوة نابليون الثالث سنة 1285 هـ-1867م(250)، وعقد معاهدات تجارية مع دول أوروبية كثيرة، متخذا طنجة مقاما خاصا بالسفراء الأوربيين (251).

وحاول استغلال صراع هذه الدول -إذ ذاك-، خاصة بين بسمارك ونابليون الثالث، والإنجليز والإسبان، وتوظيفه لصالح المغرب وقضاياه المختلفة (252).

كما أرسل بعثات للدراسة وتكوين أطر عسكرية مغربية بأروبا سنة 1870م، من ضباط وتقنيين وإداريين. وذلك بكل من بلجيكا وإيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية.

وترك آثارا عمرانية (253) تخلد اسمه، وتشهد بعظمته، بعضها يرجع لأيام خلافته عن والده بمراكش، وبعضها الآخر أيام ملكه.

---

(249) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج:2، ص :64.

(250) الإستقصا، للناصري ج: 9، ص:120-121ومظاهر يقظة المغرب للمنوني ص: 109-111.

(251) الحياة الأدبية، للأخضر، ص: 391-392.

(252) دعوة الحق، ع : 4، س : 10، ص: 135-138، 1386-1967م، أبو النصر المولى اسماعيل، لعبد الله العمراني. وكتاب السلطان مولاي محمد الرابع مؤرخ في 22ربيع الأول سنة 1282هـ ونصه بالاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 117-118.

(253) الدرر الفاخرة لابن زيدان ص: 90.

تــوفي رحمه اللــه بمــراكش، إثــر تنــاولــه لــدواء مسهل سنــة 1290هـ–1873م(254)، ودفن بضريح جده المولى علي الشريف (255).

المـولى الحـســن الأول (256) : (1290–1311 ـ 1873–1894م)

بايعه أهل الحل والعقد بـوصية من والده سنة 1290هـ–1783م، فاغتبط الناس بـولايته وتيمنوا ببيعتـه، بعد أن كان خليفـة لوالـده بمراكش، حيث ظهرت كفاءته وجدارته.

وافتتح عهده بتأليف قلـوب الدول الأوربية، والفاتكـان، ومحاولة كسب ودها، فأرسل هدايا لعواصمهـا، وبادرت لتهنئته بالملك. ولم يلبث أن حاور إنجلترا وأمريكـا حول إلغاء الحمايـات والإمتيازات الأجنبية المفـروضة على المغرب، كما بعث رسالة مع وفد خاص إلى البابا ليون الثالث عشر (257).

وقد عمل على تحديث الدولة بتكويـن الأطر وبعث البعثات الدراسية إلى الخارج في المجالات العلمية والتقنية، فكان عهـده عهد تجديد ونهضة(258). ورغم المخاطر التي كانت تهدده بـالداخل والخارج. فقد أبلى البلاء الحسن، وقضى أيام ملكـه على صهوة جـواده، في التصدي لتحديـات وأطماع أوربا الصليبية، وبـالتالي في مصارعـة جمود ورجعية المحـافظين والتقليديين من رجال دولته.

ومــارس الحكم شخصيـا ومبـاشرة، فطـوَّر إدارتـه في إطـار الشريعـة الإسلاميـة السمحة، فأعفى حملة القـرآن من التكاليف كلهـا، وشمل حفظة الشيخ خليل بالعطايا والمنح، ورفع درجة العلماء والنبلاء.

---

(254) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 255.

(255) الاستقصا، للناصري، ج:9، ص: 124 .

(256) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 97–104.

(257) دعوة الحق، ع: 4س: 10، ص: 76–77، 1386هـ–1967م بين إنجلترا والدولة العلـوية، لمحمد ابن تاويت التطواني.

(258) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 165.

وفي عهده برزت مظاهر الحضارة الغربية في المجتمع المغربي، وخاصة بين الطبقة الغنية المترفة والمثقفة.

وسار على نهج والده، فتابع تنظيم الإدارة، وتوطيد دعائم الدولة، وإصلاح هياكلها، وتعديل سياستها الخارجية وتنمية اقتصادها، وضبط عملتها، وصيانة حدودها ونشر الأمن والإستقرار في ربوعها (259).

وفي سنة 1303هـ، قام باسترجاع مرسى طرفاية، وعوض الإنجليز عن خسائرهم بها (260).

كما عقد معاهدة للصلح مع إسبانيا بعد معاركها مع قبيلة زناتة، على أن يدفع لها ديات القتلى (261) الإسبان.

وفي عهده خرج نواب الأسبان من مراسي المغرب سنة1303هـ، بعد أن ظلوا بها عشرين سنة، لاستيفاء المبلغ الذي وقع عليه الصلح بعد حرب تطوان (262) سنة 1860 م.

وقد أصدر السكة الحسنية تدعيما للإقتصاد الوطني (263)، وأنشأ مصرفا للدولة لمواجهة التحديات الإقتصادية، ومنَعَ القروض الأجنبية كلها.

كما أسقط المكوس على الأبواب والأسواق(264) بعد أن كان فرضها ردعا للمتنطعين.

---

(259) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص:129-133، وبه كتاب أهل فاس للسلطان في هذا الشأن، والمصدر السابق ج،ص:134-135، وبه كتاب السلطان إلى الأمصار في شأنه، وهو مؤرخ في 20ذي القعدة 1290هـ، والمصدر السابق و ج، ص: 132، وبه كتاب السلطان المولى الحسن الأول إلى الأمصار، وهو بتاريخ 4 ربيع الثاني سنة1291.

(260) المصدر السابق، وج، ص: 143-144.

(261) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، ص: 128، 1399-1979م نضال العلويين من أجل الوحدة لعثمان بن خضراء.

(262) المصدر السابق و ج، ص:205-206، ومجلة المناهل، ع: 36س: 4، ص: 325-333، 1407هـ-1978م.

(263) المصدر السابق و ج، ص:177، والمبلغ هو 20مليون ريال إسباني.

(264) الإتحاف لابن زيدان،ج: 2،ص: 431-433، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني ص: 116-117.

وأنشأ المطبعة بفاس سنة 1885م (265)، كما أنشأ المعامل (266) للسكر، والقطن، وغير ذلك، ونظم البريد سنة 1310هـ-1892م(267) والجبايات(268) وعمل على تطوير العلاقات الخارجية بالمغرب، فأحدث منصب النائب السلطاني بطنجة، للحوار مع سفراء الدول الأجنبية ونوابها.

وفاوض الدول الأجنبية على تعديل الحمايات الشخصية (269)، وحل مشكل الجمعيات اليهودية في أوربا التي قامت بتدخلات لصالح اليهود المغاربة -على أساس أحكام الشريعة الإسلامية(270).

كما قام بإعادة تنظيم الجيش سنة 1870-1894م، بتعاون مع تركيا وتونس والجزائر من الدول الإسلامية، وبلجيكا، وإيطاليا والولايات المتحدة، من الدول الغربية (271)، حتى عرف عهده بعهد الإصلاحات العسكرية. وحاول إحياء الأسطول المغربي، فاشترى قطعا حربية، وأوصى بصنع الأخرى (272) كما أنشأ معملا للسلاح والذخيرة (273) سنة 1308هـ وافتتحه في مهرجان كبير (274).

---

(265) الاستقصا للناصري،ج: 9، ص:179-181 وبه نص رسالته إلى عامل سلا في الموضوع، وهي بتاريخ 9شعبان 1303هـ.

(266) فاس قبل الحماية، ص: 98.

(267) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج:1 ص: 107-108.

(268) المصدر السابق وج،ص: 123.

(269) المصدر السابق و ج،ص:132.

(270) الإتحاف لابن زيدان ج:2 ص:279-280و301و311-312، وكتاب مركز الأجانب في مراكش، لمحمد بن عبود ص: 36-37.

(271) الاستقصا للناصري،ج: 9، ص:227-228 والإتحاف لابن زيدان ج:2 ص:298و301-316.

(272) الاستقصا للناصري،ج: 9، ص:206-207والإتحاف لابن زيدان ج:2 ص:495-494، ومظاهر يقظة المغرب المنوني ج: 1ص: 84-83.

(273) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج:1، ص: 87، وزهرة الأفنان، ج:2، ص: 304.

(274) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 100 والاتحاف لابن زيدان، ج:2، ص: 488-499، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص:99-100.

وفي هذا الصدد أصلح الأبراج وشيد أخرى، وحصن الشواطئ والمراسي(275) وحرم التبغ (276).

وأبرم معاهدة للسلام والتعاون التجاري مع الدول الأوربية تحدد ضرائبهم سنة 1298هـ (277)، لكنهم طالبوا بتخفيضها سنة 1303هـ، فاستفتى المولى الحسن الأول الشعب فوافقه أهل الحل والعقد على ذلك(278).

وأرسل سفارات إلى كل من فرنسا وبريطانيا، وإيطاليا وبلجيكا برآسة الطاهر الزبدي، فعاد الوفد منها سنة 1293هـ (279).

وفي سنة 1294هـ، جاءه سفراء فرنسا وإسبانيا والبرتغال في شأن إنشاء المواصلات المختلفة والبريد بالمغرب (280)، كما أرسل هو سفارات أخرى إلى إسبانيا سنة 1284هـ (281).

وجاءت معاهدة مدريد لتسوي جميع المشاكل السياسية والتجارية وغيرها مع الخارج (282)، على حساب مصالح المغرب (283).

---

(275) البستان الجامع للسباعي، م.خ.ع. بالرباط رقم 1346، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج: 1، ص: 99.

(276) المصدر الأول،ص: 107-108، والتحفة السنية للكردودي، ص: 25-29، والسلوة، ج: 3، ص: 232. الاستقصا، للناصري، ج:4، ص:234. ط: المصرية، والعز والصولة، لابن زيدان ج : 2، ص: 197-202، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص:284-285.

(277) المصدر السابق ص: 284-286.

(278) الاستقصا للناصري ج: 9، ص: 174.

(279) المصدر السابق وج، ص: 182ونص كتاب الاستفتاء، ص: 182-184 من نفس المصدر.

(280) الاستقصا للناصري ج: 9، ص: 151، وعن هذه الرحلة كتب كاتب الوفد إدريس الجعيدي رحلته «تحفة الأخبار».

(281) الاستقصا للناصري ج: 9، ص: 162.

(282) المصدر السابق و ج، ص: 164.

(283) تاريخ المغرب، ج: 2، ص: 152.

وتجلى اهتمامه بالصحراء المغربية في إرسال أسطوله لصد المستعمرين الغزاة، كما وصل برا إلى حدود شنكيط والساقية الحمراء (284)، في حملة ترأسها بنفسه، لتفقد أحوالها، وتنظيم شؤونها.

وأرسل إليه أهل توات يؤكدون بيعتهم وولاءهم، فخيرهم بين أن ينتخبوا عاملا منهم، أو أن ينضموا إلى عمالة تافيلالت – ووجدة، فاختاروا عاملهم وظلوا تحت سلطته وحكمه (285).

وترك آثارا عمرانية لا يحصيها عد (286)، وخاصة بفاس التي شيد بها القصور، والمنتزهات سنة 1293هـ(287).

وتوفي –رحمه الله– سنة 1311هـ – 1894م، بتازة، ونقل إلى الرباط حيث دفن بضريح جده سيدي محمد بن عبد الله (288).

مولاي عبد العزيز – مولاى عبد الحفيظ – مولاي يوسف

(1311–1346هـ ـ 1894–1927م).

المولى عبد العزيز(289) (1311–1325هـ ـ 1894–1907م)

تولى بعد وفاة والده سنة 1311هـ–1894م، بوصية منه ساعة احتضاره، وبتدبير من الحاجب باحماد، الذي سمى نفسه بالوزير الأول والوصي على العرش، فاستولى على الحكم باسم المولى عبد العزيز، الذي كان صبيا

(284) المغرب قبل الحماية، ص: 59–60، والأدب المغربي المعاصر، ص: 14، والدول هي: المغرب بريطانيا فرنسا ألمانيا بلجيكا، الدنمارك، إسبانيا، السويد هولندا إيطاليا، البرتغال و النمسا.

(285) دعوة الحق ع: 4،س: 10ص: 76–77، 1386هـ–1967م بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني، والاستقصا للناصري ج: 9، ص: 150–151

(286) تاريخ الحضارة المغربية لابن عبد الله، ج:2، ص: 65.

(287) الدرر الفاخرة لابن زيدان : 97–104.

(288) الاستقصا للناصري ج: 9، ص: 159–160، والمصدر السابق وج، ص: 206–207، والحلل البهية للمشرفي، ص: 240–267.

(289) الحلل البهية للمشرفي، ص: 367–372.

في الثالثة عشرة من عمره (290). لكن باحماد توفي بعد خمس سنوات فقط من توليته، فظل المولى عبد العزيز في مواجهة أحداث جسيمة، وأخطار محدقة، من جراء تصارع الوزراء وأطماع الأوربيين المتنافسين على المغرب، مما عجز عن مواجهته وحده. زيادة على كثرة الثورات والفتن الداخلية بتحريض وتدبير من الأجانب الأوربيين(291) الطامعين في خيرات المغرب، كثورة الجيلالي بن ادريس الزرهوني الملقب بالروكي، وثورة أحمد الريسوني، الذي صار مجاهدا ضد الاستعمار.

هذا زيادة على مأساة الواحات، وأحداث الحدود المغربية الشرقية، ثم الجنوبية.

وزاد الطين بلة، إصرار الدول الأوربية على إدخال إصلاحاتها إلى المغرب حسب مصالحها ومخططاتها، وشروطها، ثم القروض الأجنبية المفروضة على المغرب أيضا، والاتفاقيات الثنائية وغيرها، بين الدول الأوربية المتآمرة، السرية منها والعلنية...

وكان أخطر هذه الأحداث احتلال وجدة والدار البيضاء من طرف الغزاة المستعمرين، وثورة المولى عبد الحفيظ ومبايعته بمراكش (292).

ورغم كل هذه الأحداث والمشاكل فقد قام المولى عبد العزيز بمحاولات جبارة لإنقاذ الموقف على جميع الجبهات والأصعدة.

فقد شملت إصلاحاته الجهاز الإداري، فنظم الجبايات والمواصلات، وخاصة بالبادية(293)، واهتم بالدفاع (294)، حيث كون مجلسا وزاريا

---

(290) المسألة المغربية، لمحمد خير فارس، ص: 165، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 5، المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص: 287-288و 290-291.

(291) اللسان المعرب، م.خ.م بالرباط، رقم : 97، ج: 1، والفكر السامي، ج: 4، ص: 205، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 290-291، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 302.

(292) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج: 2،ص: 9.

(293) المسألة المغربية، ص: 120، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني،ج: 2، ص: 69.

(294) المسألة المغربية، ص: 120، ومظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج:2، ص: 69-70.

ينعقد يوميا لمتابعة ما يستجد من القضايا الهامة (295) وطور أعمال البلديات كتنظيف المدن، وتفقد السجون (296).

كما قدمت للمولى عبد العزيز بدوره مشاريع إصلاحات مغربية صميمة، تؤكد يقظة المغرب في مطلع القرن العشرين، وشعور المغاربة بالأخطار المحدقة بهم، والتعامل مع السلطان في محاولة لإنقاذ البلاد.

لذلك استطاع استرجاع رأس طرفاية بالتفاوض مع الأنجليز ومقابل تعويض سنة 1313هـ، (297)، كما استقبل وفدا إنجليزيا برئاسة أرنور نيكلسون سنة 1896م(298)، ولما زار إدوارد السابع الأنجليزي جبل طارق سنة 1321هـ، أرسل المولى عبد العزيز وفدا لتهنئته.

وقد كرس المولى عبد العزيز جزء من اهتمامه للصحراء المغربية، فقد أرسل لجنة إلى شنكيط لتفقد أحوالها وإصلاح شؤونها، وتسليم ظهائر التعيين لكبار المسؤولين بها وتنصيبهم بكل من السمارة، والساقية الحمراء، وقد اجتمعت هذه اللجنة بالشيخ ماء العينين.

كما استنجدت قبائل شنكيط بالمولى عبد العزيز، لما وصلت الجيوش الفرنسية إلى حدودها بعين صالح، سنة 1217هـ، فنادى المولى عبد العزيز للجهاد لصدها، كما قدم احتجاجا رسميا بواسطة سفيره الدائم بطنجة الطريس.

وتضامنت توات مع أهل الصحراء تحت لواء السلطان المولى عبد العزيز، فساهمت في الحملة ماديا وميدانيا، لكن بعد معارك

---

(295) الحلل البهية للمشرفي، ومظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج:2، ص: 63-64، وفواصل الجمان لفريط، ص: 95.

(296) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ج:2، ص: 118-124، والتيارات لحركات، ص: 129.

(297) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 77-84،1386-1967، بين انجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني.

(298) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 287-291، ودعوة الحق، ع: 4،س: 10،ص: 77-78، 1386-1967، بين إنجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني

عنيفة ودفاع مستميت استولى الفرنسيون على كورارة سنة 1900م، ثم على توات سنة 1901م.

ورغم محاولات المولى عبد العزيز الجبارة على جميع المستويات والأصعدة، اتسع الخرق على الراقع، بانهيار الاقتصاد المغربي، واستفحال الديون الأجنبية، وهي الثغرة المالية التي أحدثها الأجانب عمدا، ليتسربوا من خلالها، كما فعلوا في مصر.

وقد حاول المولى عبد العزيز مدافعة الأجانب بعضهم ببعض، ولما أعياه الأمر، طلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء، الذي ضمن فيه اعتراف الدول المشاركة فيه بكيان الدولة المغربية، واستقلال المغرب ووحدته، الترابية(299).

وكان طلب المولى عبد العزيز لعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1325هـ-1905م، مرفوقا بوجهة نظر الدولة المغربية (300)، مؤكدا على أن تحضره الدول التي وقعت على اتفاقية مدريد لدراسة الإصلاحات المقترحة وتحديد ميزانية لإنجازها (301).

وعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1323هـ-1906م، ونشر نصه سنة 1907م، بعد أن وقعته الدول الإثنى عشر الموقعة على اتفاقية مدريد(302).

وما إن تم توقيع عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء حتى عمت انتفاضة شعبية عارمة، نتيجة لليقظة والوعي السياسي، وذلك بزعامة النخبة المثقفة المغربية، التي فجرت الشعور الوطني ضد السياسة الاستعمارية، والسخط على المولى عبد العزيز، والمطالبة بعزله في عرائض تحمل مئات التوقيعات،

---

(299) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 1، ص: 125، وفي الأدب المغربي المعاصر ص: 14.

(300) الحلل البهية للمشرفي، ص: 367-372، والمسألة المغربية ص: 270-271.

(301) الدولة العربية المتحدة، ج: 2، ص: 272.

(302) المسألة المغربية ص: 351-374، و409، ومقدمة تعريب ميثاق الجزيرة الخضراء، للترجمان الطاهر بن محمد بن الحاج الأوديي، كراسة : 14.

ممـــا اضطـره للتنـــازل عن العـرش سنـــة 1326هـ–1908م، والاستقـرار بطنجة(303).

وترك آثارا عمرانية عديدة (304) بين بناء وتجديد وإصلاح (305).

وكـان تنازلـه عن العرش سنـة 1326هـ–1908م، حيث استقـر بمدينـة طنجة.

المولى عبد الحفيظ (306) : **(1325–1330هـ - 1907–1912م).**

بويع على إثر انتفاضة شعبية عارمـة ضد أخيه المولى عبد العزيز، الذي وقع معاهدة الجزيرة الخضراء، سنة 1323هـ–1906م. وكانت بيعته بمراكش، حيث كان خليفـة عن أخيه عبـد العزيز، منـذ سنة 1314هـ–1896م، وحيث أعلن رفضه لسياسة أخيه، وبالتالي ثورته عليه.

وتمت بيعته سنة 1325هـ–1907م، فتنازل لـه المولى عبد العزيـز، حقنا لدماء المسلمين، وحفاظا على الاستقرار، سنة 1326هـ–1908م (307).

لكن وثيقة البيعـة الحفيظية قيدت بيعته بشروط تعتبر أســاسا، وشرطا لصحتها، وجعلت بيعته مـرهونة بتنفيذه لها. وكـانت هذه الشروط باقتراح من الشيخ محمد عبد الكبير الكتاني (308) التي تبناها الرأي العام المغربي وممثلوه، الذين وقعوا البيعة الحفيظية (309).

---

(303) لحظات للشنكيطي، ص: 96–197، والمغرب قبل الحماية، ص: 64–65، والمسألة المغربية ص: 259–271، ومظاهريقظـة المغرب، للمنوني، ج: 2، ص: 189، والاستبصـار لـلايي، ص: 97، والعلائق السيـاسية للـدولة العلـوية، لابـن زيدان، ص: 58، وجريـدة صحراء المغـرب، ع: 71–72، ص: 5–6.

(304) بدليل ما هو مكتوب على الجبص ببهوها.

(305) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 109–115.

(306) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 117.

(307) المصدر السابق و ص.

(308) ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص: 200–201 المصدر الأول .

(309) مظاهر يقظـة المغرب للمنوني، ج: 2، ص: 349–353، ونص البيعة الحفيظيـة بنفس المصدر، ص : 354–358.

وكـان على رأس هــذه الشروط : تنظيم الجيش وتجهيــزه على أحـدث طراز(310)، وإنشــاء وزارة خاصــة بــه، ممــا أكده مشروع دستـور العهـد الحفيظي سنة 1908م، ومشروع بنسعيد وغيرهـا من المشاريع الدستـورية التي تؤكد طموح المغاربة للملكية الدستورية(311).

وعجز المولى عبـد الحفيظ عن الوفاء بعهوده، وعن تنفيـذ شروط بيعته تحت وطأة الضغـوط الأجنبية عليــه، إذ علقت الدول الأوربيــة اعترافها بــه بشروط أخرى مناقضة لشروط بيعته، وأصبح محاصرا في قصره من طرفها بين نارين (312). وأهم شروطها لـلاعتراف به : إلغاؤه للجهاد حفـاظا على أرواح جالياتها وجنودها، واعترافه بديون أخيه عبد العزيز لها.

وبعد مماطلــة وأخذ ورد، قبل شروطها، فاعترفت ببيعتـه وعرشه. لكن الشعب ثـار بـالمدن والقرى، ولم تلبـث مكناس أن خلعتـه، وبـايعت المولى اليـزيـد. فتقدم الجيش الأجنبي –بـاسم المولى عبـد الحفيظ– للقضــاء على الثورات التي انـدلعت في كل مكان، وكـان مصير أفراده القتل والموت جـوعا وعطشا، ومرضا، للمقاطعة الشعبية العامة له (313).

وكان توقيع المولى عبد الحفيظ لمعـاهدة الحماية يوم 30 مارس، 1912م، موافق 11ربيع الثاني، 1330هــ، في العاشرة صباحا بقصر فاس (314).

ونتيجـــة للضغط الكبير والغضب العــــارم على المولى عبـــد الحفيظ، والاصطـدامــات الـداميــة مع الأجـانـب نقـل الفرنسيـون عاصمة المغرب إلى الرباط.

---

(310) التيارات، لحركات، ص: 129.

(311) الدستور الأول اقترحـه الحاج علي زنيبر من سلا، والثاني للشيخ عبد الكـريم مراد السوري، والثالث يجهل صاحبه.

(312) المغرب قبل الحماية ص: 66.

(313) المغرب قبل الحماية، ص: 66.

(314) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 348.

وفي الرباط اضطر المولى عبد الحفيظ للتنازل عن العرش لصالح أخيه المولى يوسف (315)، في 6 يونيه 1912م.

وانتقل إلى الرباط، ثم إلى طنجة (316)، ففرنسا حيث استقر.

وتجلى رد الفعل للشعب المغربي في المقاومة المسلحة، والجهاد في جميع الأقاليم والنواحي ضد الاستعمار، مما استمر إلى سنة 1933م (317)، حيث انطلق الكفاح والنضال السياسي (318).

ويعترف ميكيل مرتين بأن "إسبانيا وجدت نفسها أمام شعب منظم، له حضارته الخاصة، ويمتاز – رغم تخلف تطويره– بحب الحرية والأرض والوطنية" (319).

أما على الصعيد المحلي الداخلي، فكانت أهم الثورات، ثورة "بوحمارة"، الذي تعاون مع الأجانب –كما مر بنا–

فقد قبضته عامة الشعب، في زاوية مولاي عمران سنة 1327هـ، 1909م، وأدخل إلى فاس داخل قفص، حيث قتل رميا بالرصاص، وأحرقت جثته.

---

(315) المغرب قبل الحماية، ص: 66–67، ونص معاهدة الحماية بنفس المصدر، ص: 67–69، المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3 ص: 345–347، وهذا النص للحماية هو ترجمه للنص الذي أورده محمد الباقر الكتاني، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3 ص:340 .

(316) المغرب قبل الحماية، ص:66، وكان الجهاد والمقاومة المسلحة بزعامات وطنية كهبة الله ماء العينين، والأمير محمد عبد الكريم الخطابي، وموحى أحمو الزياني، وغيرهم من الأبطال الذين أذكت انتصاراتهم الاعتزاز بالذات والشعور الوطني، وبعثت الآمال في الاستقلال والوحدة.

(317) في الأدب المغربي المعاصر، ص: 15–16.

(318) الاستعمار الاسباني بالمغرب، لميكل مرتين، ترجمة عبد العزيز الأديي، ص: 6–9.

(319) المصدر السابق، وص .

وقضى الجيش الفرنسي على بقية الثورات كثورة مكناس، حيث أرغم المولى اليزيد على التنازل عن العرش، كما أرغم ثوار الأطلس على بيعة المولى يوسف (320)

وفي فرنسا أمعنوا في مضايقته انتقاما منه لتعنته معهم (321). وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي بوك يوتان (322) "لقد فرضنا المعاهدة على السلطان فرضا (323)".

ومن أعماله الهامة على الصعيد الداخلي : امتناعه عن الموافقة على احتلال إفني ونواحيها من طرف إسبانيا، لكنها احتلتها رغم رفضه باتفاق مع فرنسا.

وواصل دفاعه المستميت عن الصحراء المغربية، حتى سقطت في يد فرنسا، بدسائس الأحلاف بين الدول الإستعمارية الغربية (324).

وفي إطار تنظيم وتطوير الجيش، استدعى ضباطا أتراكا ووصلوا إلى فاس سنة 1327هـ - 1909م، لكنه أجبر على صرفهم، كما عمل على تنظيم وإصلاح القضاء والفتوى الشرعية، وحدد عدد المؤهلين لها من العلماء.

---

(320) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج:3، ص: 341، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 169-171، 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش، ومجلة السلام، ع: 4 شهر يناير 1934م، مقالة لمحمد داود، ومجلة دار النيابة، س: 5، ع: 17، ص: 33، 1988، وتاريخ المغرب في القرن العشرين، لروم لاندو، ص: 108، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 171 وبعدها 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش.

(321) دعوة الحق، ع: 246،ص: 172-173، 1405هـ-1985م، أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس، لمحمد العربي الشاوش، واعتمادا على رسالته الإخوانية بخطه إلى صديقه العلامة أحمد الرهوني.

(322) في كتابه مأساة المغرب.

(323) المصدر الأول، ص: 173.

(324) تاريخ الحضارة المغربية، لابن عبد الله، ج: 2، ص: 65.

وأدخل تعديلات جذرية على بروتوكول التشريفات الملكية، وطورها. فهو أول من أنشأ الوسام العلوي بمراتبه، وأول من تقلد الوسام الأجنبي من الملوك العلويين، وأول من نزع -العمامة والجلابة- وهو جالس على العرش جلوسا رسميا- واكتفى بلبسهما في الجمع والأعياد(325).

وفي المجال الاقتصادي رفض شروط القروض الفرنسية المجحفة - رغم أزمة الخزينة المغربية - واشترط للمصادقة عليها انسحاب القوات الفرنسية من الشاوية والمغرب الشرقي. وتعويض الضباط الفرنسيين المدربين للمغاربة، بضباط أتراك.

كما رفض وقاوم احتلال اسبانيا لشمال المغرب، بمقتضى اتفاقية بينها وبين فرنسا سنة 1904م، (326)، فقد وجه احتجاجا إلى السفارة الإسبانية بطنجة، مطالبا بجلاء إسبانيا عما احتلته من أرض المغرب (327).

وترك آثارا عمرانية ضخمة في مختلف المرافق الحيوية (328). وتوفي بفرنسا سنة 1356هـ- 1937م، ودفن بضريح سيدي محمد بن عبد الله بالرباط، إلى جوار أخيه المولى يوسف، الذي توفي قبله.

واهتم محمد الخامس طيب الله ثراه بجنازة عمه أيما اهتمام، وخاصة في الأيام الثلاثة الأولى (329).

---

(325) مجلة دار النيابة،ع: 17، س:5،ص: 33، 1988، والدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 125.
(326) مجلة دار النيابة، ع: 17، س: 5، ص: 49، 1988م.
(327) المصدر السابق، ص: 50-51، وذلك في 18 شتنبر 1909م.
(328) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 123-125.
(329) المصدر السابق، ص: 117-119.

المولى يوسف : (330) (1330-1346هـ- 1912-1927م)

بويع بالرباط بتوصية من أخيه السلطان المتنازل عن العرش باختياره، رفضا للحماية -المولى عبد الحفيظ سنة 1330هـ-1912م، بمحضر أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء، والأعيان والوجهاء، ثم بويع بفاس ومكناس، بعد أيام قلائل.

وما إن تمت بيعته حتى أصدر بلاغا بذلك إلى جميع أنحاء المملكة، تبعا لسنة أسلافه الميامين (331).

وكان طيبا لين الجانب، ورعا تقيا، متواضعا لله... وقام بأعمال جليلة، حسب ماتسمح به ظروفه كملك تحت الحجر والحماية.

فقد حارب البدع، وخاصة في الأفراح والمناسبات الاجتماعية المختلفة، فأصدر ظهيرا بذلك (332).

وعمل على إصلاح المحاكم، وتصحيح الأحكام، (333)، واختيار المفتين.

ومن آثاره العمرانية: تجديد عدد من المساجد والمدارس، والأضرحة، والأقواس، وغيرها (334).

وتوفي إلى رحمة الله سنة 1346هـ-1927م، ودفن بضريح جده المولى عبد الله بن المولى إسماعيل.

---

(330) ترجمته بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 126-127.

(331) المصدر السابق، وص، وبه نص الكتاب الموجه إلى الأقاليم.

(332) نص الظهير بالمصدر السابق، ص: 130-133.

(333) دعوة الحق، ع: 4، س: 12، ص: 160-166، 1388هـ-1969م، مقالة للتهامي الراجي الهاشمي.

(334) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 138.

سيدي محمد بن يوسف (335) (1346–1381هـ - 1927–1961م)

بويع بفاس بعد وفاة والده المولى يوسف، سنة 1346هـ–1927م، وراسل عمال الأقاليم بذلك (336).

ورغم صغر سنه، والوجود الاستعماري الذي كان يكبل عرشه ببنود معاهدة الحماية فقد استطاع جلالته أن ينفخ في الشعب روح الكفاح والنضال، وأن يهيئه لتحمل مسؤولية الحرية والاستقلال، فعمل على صعيدين متوازيين :

فمن جهة عمل على تكوين أطر دولته المستقلة، وبناء أسس هياكلها، وبنياتها التحتية، وتشكيل شرائحها الاجتماعية لبنة لبنة، وعلى المدى البعيد، حتى لا يتفطن الاستعمار لمراميه وأهدافه، وينسف قواعده.

ومن جهة أخرى عمل –على رأس الحركة الوطنية– على إذكاء الوعي الوطني والقومي والديني، وتوحيد الأهداف الوطنية، وتحديدها للمواطنين، في أحضان الحركة السلفية، وبعيدا عن الزوايا، التي سار جلها في ركاب الاستعمار طيلة مرحلة الحماية الحالكة.

وفي هذا الصدد أسس جمعية الكشافة المغربية، وجعل ولي عهده –إذ ذاك– المولى الحسن رئيسا لها، وسماها باسمه، وأصدر مرسوما وزاريا بذلك، ولم يلبث أن نصّبه وليا للعهد، ووجه إليه نصيحة قيمة، نشرها بوسائل الإعلام المختلفة (337).

كما أسس جمعية للنشر والترجمة، وجمعية للوكلاء الشرعيين، ونظم امتحان الباكالوريا، بالمدارس الثانوية، وخصص منحا للدراسة العليا بالخارج، وخاصة بفرنسا.

---

(335) ترجمته بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 139–217.

(336) المصدر السابق، ص: 139–140، ونص الرسالة بنفس المصدر، ص: 140–141.

(337) نص النصيحة بالمصدر السابق، ص: 194–195، ودعوة الحق ع: 8، س: 12، ص: 15–21، وصية والد صالح إلى ابن بار.

ومن جهة أخرى فقد أحيى سنة أسلافه بركوب الخيل قبل الشروق، وألغى هدايا الولاة للسلطان في الأعياد، ترفعا وعفة، كما أحيى صلاة الاستسقاء.

واستجابة لطلب الهيئات السياسية الوطنية، اتخذ جلالته ذكرى جلوسه على العرش عيدا وطنيا رسميا، وأصدر قرارا وزاريا بذلك(338)، فتبارى الشعب في الاحتفال به، تعبيرا عن تأييده وحبه له، متخذا منه مناسبة لإسماع صوته، والمطالبة بحقوقه الوطنية الثابتة، وتعزيزا للسيادة الوطنية، والمركز الدولي للمغرب.

كما عمل على نشر التعليم بالمدن والقرى، وبدأ بالأمراء والأميرات من أبنائه، فكانوا روادا للنهضة العلمية الحديثة المباركة بالمغرب.

وعلى الجبهة الموازية، خاض النضال والكفاح والجهاد على رأس شعبه ضد الاستعمار بضراوة، فكان قائدا ورائدا لشعبه في معاركه، وكان هنالك تناسق وتلازم بين عمل الحركة الوطنية والقصر الملكي في جميع المواقف والإجراءات، كالظهير البربري(339) الذي صدر سنة 1930م، وهو نفسه الظهير البربري الذي صدر سنة 1914م، وإنما أدخلت عليه تعديلات طفيفة(340).

---

(338) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 145.

(339) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 217-226، ودعوة الحق، ع: 234، ص: 41، 1404هـ-1984م، الاحتفال بعيد العرش، لأحمد معنينو، وبها نص القرار الوزاري، ومجلة المناهل، العدد: 36، س: 4، ص: 435، وتاريخ العالم المعاصر، لعبد الله العمراني، ص: 131-132، ط: 1، ومنشور عمالة إقليم تطوان في الذكرى الفضية لتربع جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه الكرام، لمحمد العربي الشاوش، ص: 75-78 بعنوان: قصة عيد العرش بتطوان، ودعوة الحق، ع: 200، ص: 61، 1981، فكرة الاحتفال بعيد العرش انبثقت من صميم الشعب المغربي، لأبي بكر القادري.

(340) (حاضر العالم الاسلامي) للوثروب ستودارد الأمريكي، ودعجاج نويهض، المجلد الثاني، ص: 330-331، البطون العلوية بشمال إفريقيا، لشكيب أرسلان.

وكان هــذا الظهير يستهدف تقسيــم المغاربة، وعـزل البربر عــن سكان المدن، من حيث التعليم واللغــة والتشريــع والأحكــام، وبــالتــالي عــزلهم عن الإسلام. لذلك قــاومه الشعب المغربي عربا وبربــرا، بقيادة محمد الخامس، وساعدتــه معنويا أجواء الثــورة الريفية التي كانت تحفــزه للثورة، وطلائع الحركة السلفيــة التي كانت تنير سبيله، وتبارك ثــورته، (341) في أحضان العلم والمعرفة والحرية بمساعدة ومناصرة العالم العربي والإسلامي.

كما كــان محمــد الخامس –رحمه اللــه وطيب ثــراه– على رأس النخبــة الوطنية المثقفة التي قدمت وثيقة المطالبة بالإستقلال سنة 1944م.

وإذا كانت السلطات الإستعماريــة قد اضطهدت رجال الحركــة الوطنية بالسجن والنفي والتعذيب، ومحاربــة التعليم الحر ومصادرته (342)، فإنها ضايقت محمد الخامس في قصره، وأخذت تحيك خيوط المؤامرة للإطاحة به منذ ذلك التاريخ.

فقد منعته سنة 1934م من أداء الصلاة بالقرويين، لما تأكد لها أنه هَــيَّــأ قضية البرنامج الاصلاحي الذي قدمته الكتلة الوطنية للإقامة العامة، والذي يعتبر منعطفــا في تاريخ الحركــة الوطنيــة، ونقطــة تحول لها من المقاومــة المسلحة، إلى النضال السياسي جهارة.

لذلك بادرت الإقــامة العامة إلى حل الكتلــة الوطنية –التي تعمل بتنسيق مع الملك محمد الخامس، وحسب تعليماته وتــوجيهاته– سنة 1937م، لكنها خرجت للوجود من جديــد باسم الحزب الوطني، الذي احتج على السلطات الاستعمارية التي صــادرت الحريات العامة، وقمعت الــوطنيين، واستأثرت بخــيرات البلاد ومياه الــري، وتوزيعها بمكــناس. فبــادرت الإقامــة العامة

---

(341) كان المقيم العام إذ ذاك بالمغــرب هو لوسيان سان وكان يراسل الفاتكــان خفية، لأن الفاتكان وعده بمبــالغ باهضة لبناء مــدارس وكنائس ومستشفيات تبشيريــة، إذا قضى على الإسلام بشمال إفريقيا، ومنعه من التمركز ببلاد البربر.

(342) قصة النهضة، لأبي بكر القادري، ص: 19–21.

إلى حل الحزب الوطني بدوره سنة 1937م، وأمعنت في تتبع قادته وامتحانهم بالسجن والنفي والتشريد. لكنه لم يلبث أن خرج للساحة السياسية من جديد باسم حزب الاستقلال، مطالبا بالاستقلال التام، سنة 1944م وبإلغاء عقد الحماية، معلنا تشبثه بالنظام الملكي القائم، وولاءه للملك محمد الخامس -الذي كان يعمل تحت إمرته ورئاسته-.

واغتاظت السلطات الاستعمارية من هذا الالتحام والتفاهم والتعاون بين الملك والحركة الوطنية والنخبة المثقفة، وبالتالي بين الشعب المغربي وملكه، فبدأت المعركة بين الإقامة العامة والقصر الملكي.

فقد منعت زيارة محمد الخامس إلى مدينة طنجة سنة 1947م(343).

ولما رأت تصميمه على القيام بها عملت على عرقلتها بكل الوسائل، كافتعالها لأحداث مدينة الدار البيضاء، واشتراطها عليه الإشادة في خطبته -خلال رحلته- بفرنسا وأعمالها الحضارية بالمغرب... لكنه قام برحلته غير عابئٍ بمؤامراتها، وعبر في خطبه عن تشبثه بالعروبة والاسلام، وتطلع المغرب للانخراط في الجامعة العربية، وتمسكه بسيادته ووحدته الترابية.

لقد وقف محمد الخامس طيب الله ثراه مواقف بطولية خالدة، سجلها له تاريخ المغرب في سجل الخالدين بمداد الفخر والاعتزاز، وأهمها :

أنه كان لا يترك فرصة ولا مناسبة دون أن يذكر بقضية بلاده العادلة، التي كانت هاجسه الأول والأخير.

فلقد ألقى كلمة ببلدية باريز (344) أيام معرضها الإستعماري في حفلة أقامها المارشال اليوطي، ذكرهم فيها بأن المغرب دولة ذات كيان مستقل، وشكر فرنسا على إصلاحاتها، موضحا أهمية المصالح المتبادلة بين

---

(343) قصة النهضة، لأبي بكر القادري، ص: 39، وتاريخ العالم المعاصر، لعبد الله العمراني، ص: 329، ط: 1.

(344) نص الكلمة بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 143-144.

البلدين، وخـاصة فيما يتعلق بعمالنـا وطلبتنا هنالك وبـالجالية الفـرنسية بالمغـرب.

وفي مؤتمر أنفا سنة 1943م، حاول استثمار مسـاهمة المغرب في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، فطالب فرنسا بإنجاز وعودها للمغرب.

وكـرر ذلك في المهـرجـان العسكـري الذي أقيـم بالعاصمة الفـرنسية سنة 1370هـ–1945م، والذي حضره بصفته رئيـس دولة مساهمة في الحرب العالميـة الثانيـة برجـالها، وشاركت في صنع النصر وتحقيقـه، حيث حاول توظيف ذلك في خـدمة القضيـة المغربية المصيريـة، فطالب فرنسـا بالـوفاء بعهودها للمغرب، كما كرر ذلك في زيارته لتونس سنة 1368هـ–1949م، ثم قام برحلاتـه المكوكية المتتابعة إلى فرنسـا في هذا الصدد. ذلك أنه وقف إلى جـانب فرنسـا الحرة، ورفض تطبيق قـوانين وتعليمات حكومـة فيشي على اليهـود المغـاربة، وسمـح بإنـزال جيـوش الحلفـاء في الشـواطئ المغـربية سنة 1942م.

وقدر الجنرال دوكـول مواقف (345) محمد الخامس –طيب اللـه ثراه– النبيلة حق قدرها، وعبر عن شكره وامتنانه له ولشعبه.

ولما زار محمد الخامـس فرنسا بعـد توقـف الحرب العالميـة مباشرة، سنة 1945م، استقبله دوكول استقبالا عظيما، وقلـده وسام الحرية، وأطلق عليه لقب (رفيق التحرير)، تقديرا لمساهمته، ومساهمة شعبه مساهمة فعالة في تحرير فرنسا وانتصارها.

ولما زار دوكـول المغرب سنـة 1953م، أكد شكـره وامتنانـه للملك محمد الخامس، وللشعب المغربي، وأعرب عن استعداده لرد الجميل إليهما، معترفا بالروح الوطنيـة والنضالية العالية التي يتمتع بها جلالـة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه.

---

(345) المقاوم عدد : 18 يونيه سنة 1940م

وكانت زيارته لطنجة سنة 1947م، حدا فاصلا بين عهد البناء والتأسيس السري الصامت، وبين عهد الكفاح والنضال جهارة. كما كانت منعطفا على طريق المواجهة الصارمة للاستعمار وأذنابه.

وفي هذه الزيارة الميمونة قدم أبناءه وبناته روادا وقادة للشباب والشابات، ومثلا أعلى ونموذجا يحتذى في الدعوة والعمل من أجل الحرية والإستقلال، حيث خطب كل من ولي العهد المولى الحسن، والأميرة الجليلة للا عائشة قائدة النهضة النسوية -إذ ذاك- بمختلف اللغات، فكان بذلك رائدا لتحرير المرأة المغربية دون منازع.

وفي خطابه بطنجة، أكد تطلع الأمة المغربية للحرية والإستقلال، ورغبتها العارمة في الإنضمام إلى الجامعة العربية، والإندماج في الوحدة الإسلامية.

ولما استدعاه رئيس جمهورية فرنسا لزيارتها سنة 1950م(346)، رغبة في تحسين العلاقات وتلطيف الأجواء بين البلدين، تمسك بحق المغرب في السيادة والحياة الحرة الكريمة، وقدم مطالب دولته في مذكرة رسمية إلى الحكومة الفرنسية التي أجابت عنها في نفس السنة 1950م، مقترحة إصلاحات وتعديلات جزئية، في إطار معاهدة الحماية .

ولما رأت أن ذلك لم يستجب لطموحاته رفعت إليه مذكرة جوابية ثانية معدلة وناسخة للأولى، تقترح فيها تعديل عقد الحماية بنوع من الإستقلال الذاتي المحدود، مما رفضه جملة وتفصيلا.

فبدأت الإقامة العامة تحيك الدسائس، وتعمل في الخفاء للتخلص من محمد الخامس نهائيا، بعد أن تأكد لها خطره على الوجود الفرنسي بالمغرب.

فقد عمل على رأس الحركة الوطنية على رفع القضية المغربية إلى هيئة الأمم المتحدة بمساعدة الجامعة العربية سنة 1952م، فأصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارا باختصاصها، ولم يلبث المغرب -بقيادة ملكه- أن تقدم إليها

---

(346) تاريخ العالم المعاصر لعبد الله العمراني ص : 329، ط : 1

بطلب إنهاء عهد الحماية منددا باضطهاد فرنسا للشعب المغربي وملكه، مدينا سياستها الإستعمارية المنافية لعقد الجزيرة الخضراء، مما أكده في خطاب عيد العرش سنة 1952م، حيث دحض ادعاء فرنسا بأن القضية المغربية قضية داخلية، وعمل على تقديمها أمام محكمة العدل الدولية بلاهاي، على يد التجار الأمريكيين سنة 1952م.

وتأكدت السلطات الإستعمارية أن استمرار الحماية بالمغرب مرهون بخلع محمد الخامس عن عرشه، فجمدت العلاقة معه، واستغلت تظاهر العمال بالدار البيضاء، احتجاجا على قتل الزعيم العمالي التونسي فرحات حشاد، فواجهتهم بهمجية وقمع شديد، وكلفت باشا مراكش التهامي الكلاوي بجمع توقيعات عمال وولاة الجنوب على عريضة تطالب بخلع محمد الخامس عن عرشه (347).

وسار بعض شيوخ الزوايا في ركاب الإستعمار الذي دفع بهم لذلك الموقف الخاطئ، وتقدم المقيم العام إلى جلالة محمد الخامس، وطلب منه التنازل عن العرش، ولما رفض، أعلن المقيم العام خلعه، ونفاه إلى جزيرة كورسيكا، ثم إلى جزيرة مدغشقر، حيث تم ترحيله يوم 20 غشت 1953م، مفضلا النفي والإبعاد على عرش وهمي، في يد المستعمر الغاشم.

وسرعان ما نصبت السلطات الإستعمارية مكانه على العرش أحد أعمامه محمد بن عرفة، وهو شيخ تجاوز التسعين من عمره، حتى يوقع لها جميع مشاريعها ومخططاتها الجهنمية ضد سيادة المغرب ومصالح شعبه وإرادة ملكه، ولم تلبث أن حلت جميع الأحزاب السياسية، وصادرت جرائدها(348).

---

(347) دعوة الحق ع : 2 و 3، س : 20، ص : 129 – 133، 1399هـ – 1979 م.

(348) في الأدب العربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص : 17– 23.

وكان نفي محمد الخامس أول مسمار دق في نعش الوجود الفرنسي بالمغرب أو بداية النهاية لعهد الحماية المشؤوم. إذ تأجج الكفاح الوطني، فاندلعت ثورة وطنية عارمة بقيادة الحركة الوطنية، رغم غياب رؤسائها بالمنافي والسجون.

فقد حمل الشعب مشعل الثورة، ولم يلبث جيش التحرير الوطني أن عزز صفوف المقاومين، ووطد دعائم الثورة الشعبية العامة التي أبت ألا تتوقف إلا بعودة الملك محمد الخامس إلى عرشه، وإلغاء عقد الحماية البغيض، ولم ترض بهذين الشرطين بديلا.

وأمام إصرار الشعب المغربي - قمة وقاعدة - على الإستقلال والوحدة رضخت فرنسا للأمر الواقع، فجلست للتفاوض مع ممثلي الشعب المغربي. وبعد أخذ ورد، اعترفت - على مضض- باستقلال المغرب، ووحدة ترابه، فعاد محمد الخامس إلى وطنه وعرشه ظافرا منتصرا حاملا وثيقة الإستقلال، الذي بشر به شعبه الوفي في مهرجان وطني عظيم، ووسط أفراح صاخبة، كللت ثورة الملك والشعب المقدسة الظافرة، وكانت عودته الميمونة، في 16 نوفمبر 1955م وتوقيع وثيقة الاستقلال، في 2 مارس 1956م(349).

وترفع -رحمه الله وقدس روحه- عن عقاب الخونة، عملا بسنة جده المصطفى الكريم، وقال لهم قولته المشهورة : "إذهبوا فأنتم الطلقاء" إذ لم يتابع أو يعاتب منهم أحدا.

ويعتبر محمد الخامس طيب الله ثراه زعيما ومحررا لإفريقيا بأسرها(350)، فقد ساند استقلال الجزائر سياسيا وعسكريا (351)، وعمل

---

(349) دعوة الحق ع : 246، ص : 15 - 17، 1405هـ - 1985م، رمز الأصالة والتجديد، لعبد العزيز ابن عبد الله.

(350) دعوة الحق، ع: 2 و3، س: 20، ص: 129-133، 1399هـ-1979م .

(351) في خطاب ألقاه في أكتوبر 1960م، بمناسبة يوم التضامن مع الشعب الجزائري .

على إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية، وعقد أول مؤتمر لها بالدار البيضاء سنة 1960م حيث وضع الميثاق الإفريقي.

وما إن انتهت الإحتفالات بالإستقلال والحرية والوحدة حتى شمر رفقة ولي عهده مولاي الحسن، وعلى رأس شعبه الوفي، لخوض الجهاد الأكبر ضد مخلفات الإستعمار : الجهل والفقر والمرض، ولبناء هياكل الدولة المغربية الجديدة، على أساس التنمية الشاملة، والديمقراطية الحقة، والعدالة الإجتماعية (352)....

وكرس جهوده لإقامة أسس النظام الملكي الدستوري، فوضع أول دستور للبلاد، وعرضه على شعبه للإستفتاء، وشكل أول حكومة وطنية ائتلافية على أساس تعدد الأحزاب، وأنشأ هياكل الدولة الإقتصادية وغيرها، ومؤسساتها : الإجتماعية والثقافية وغيرها، ودشن الإصلاح الزراعي، ودعمه ببعض السدود، كما أنشأ السلك الدبلوماسي.

وعين جملة من السفراء بأهم العواصم العالمية، وأحدث جيشا حديثا منظما على أحدث طراز، وجهزه ودربه، وأسند رئاسته لولي عهده، مولاي الحسن(353).

وشيد آثارا عمرانية لا تحصى بمختلف المدن والنواحي المغربية من مساجد ومدارس، ومارستانات وجمعيات خيرية وأسوار وسقايات عمومية، ومنارات وحصون ومستشفيات وزوايا وأضرحة، وأسواق وطرق... وذلك بين إنشاء وتجديد وتوسيع...

ولبى داعي ربه قدس الله روحه في 10 رمضان 1381هـ موافق 26 فبراير 1961 م، فأجمعت الأمة على تنفيذ إرادته ووصيته، وبايعت ولي عهده، جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

---

(352) في الأدب العربي المعاصر، لعبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري، ص: 17–23 .

(353) دعوة الحق، ع: 246، ص: 15–17، 1405هـ–1985م، رمز الأصالة والتجديد لعبد العزيز بن عبد الله .

مولانا أمير المؤمنين الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.

أجمعت الأمة على بيعته تنفيذا لعهد ووصية والده المقدس، محمد الخامس طيب الله ثراه في 10 ومضان 1381هـ، موافق 26 فبراير 1961م.

وكان عند حسن الظن به، فحقق معجزات على جميع المستويات والأصعدة، إذ منذ أن قلده الله أمر هذه الأمة، وهو يعمل بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل، بفضل عبقريته الخلاقة، والتزامه بالعهد الذي قطعه على نفسه لشعبه أمام قبر والده الطاهر، يوم بيعته وتنصيبه ملكا على عرش أسلافه المنعمين (354).

لقد جعل مصلحة الوطن العليا نصب عينيه، وفوق كل اعتبار، وسعى لتحقيقها بالنفس والنفيس، ومهما كلفه الثمن، حتى أصبح مثلا أعلى ونموذجا يحتذى في التضحية ونكران الذات، فجاء عهده حافلا بالبطولات والأمجاد، زاخرا بجلائل الأعمال، وقام بسلسة من المسيرات الناجحة، والملاحم البطولية الموفقة الخارقة، مستهدفا تحقيق حياة أفضل، ومستقبل أسعد لشعبه ووطنه وأمته، سائرا على نهج سلفه الصالح، من الخلفاء والملوك العظماء، وسنة خير البرية، جده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه مآثر ومنجزات عهده الزاهر الفريدة القيمة، مناقب ومكاسب حية ناطقة وشاهدة بعظمته وفضله...

ومما يلفت النظر، ويدعو للتقدير والإعجاب، الإستجابة الشعبية العفوية لنداءاته، التي تنطلق من رسوخ المشروعية، ودولة القانون ببلادنا، ومن متانة وعمق الآصرة التي تربط بين العرش والشعب، على أساس من الكفاح والنضال المشترك، في ثورة الملك والشعب.

---

(354) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، 1389هـ–1979م، ص: 23، خطاب جلالته أمام قبر والده المنعم، محمد الخامس، بعد دفنه مباشرة.

فقد كان الساعد الأيمن لوالده محمد الخامس طيب الله ثراه، ونجد بصماته واضحة على سياسة والده المنعم، وخاض إلى جانبه جميع المعارك والمواقف المصيرية الخالدة، وخاصة بعد إنهاء دراسته.

فكان خطابه في طنجة سنة 1947م – وهو ولي للعهد– معززا لخطاب والده، إذ لخص أهداف النهضة المغربية وتطلعاتها في : الإسلام، العروبة، الإستقلال، الوحدة، العلم، العمل، الإتحاد. ولازال يعمل لتحقيق هذه الأهداف وخدمتها (355).

وحين وضع والده المنعم أسس الدولة المغربية المستقلة الفتية. كان ولده وولي عهده هو الخبير المخطط، والمستشار المدبر، ولا سيما في تأسيس الجيش المغربي الذي أسند إليه رئاسة أركان حربه العامة، وقيادته العليا، كما كلفه بتأليف أول حكومة وطنية ائتلافية.

وشارك في معارك التحرير أيام والده المنعم، فقاد الحملة لتحرير جزء مهم من التراب الوطني المغربي في فجر الإستقلال سنة 1956م (356).

ذلك أنه تحفظ –بمعية والده– حين توقيع وثيقة الإستقلال فيما يتعلق بالأجزاء المغتصبة غير المحررة، وسجل حقه الكامل في تحريرها، واسترجاعها إلى حظيرة الوطن.

وهكذا واصل الكفاح والنضال إلى جانب والده، فحرر طرفاية سنة 1958م(357)، بعد معارك توجت بمفاوضات مضنية مع إسبانيا.

---

(355) دعوة الحق، ع: 255، ص: 7–9، 1406هـ–1986م، العبقرية الحسنية المبكرة، أمير الأطلس، طارق الجديد، للشيخ المكي الناصري.

(356) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213–215، 1401هـ– 1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، للدكتور أمال جلال.

(357) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

كما حـرر سيـدي إيفني (358) سنة 1959م، بعد مفاوضـات سياسية عسيرة خاضـها بتـوكيل من والده بذكاء ومهـارة شـهدت بهما الأعداء حتى سمته الصحف الفـرنسية -إذ ذاك- "بعـدو فرنسـا الأول". وهو اعتراف ضمني منها بصرامة موقفه الوطني ضد نظام الحماية، في حين كانت تطلق على والده اسم "الرجل الخطير".

ولا غـرو، فقـد دربـه والـده على المسـؤوليـات الكبرى والخطيرة تحت مراقبتـه، وقلده منـاصب ساميـة ومهمات جليلة، فكللـت جميعها بـالنجاح والتوفيق والسداد...

وما إن تسلم زمام هـذه الأمة ومقاليد أمورهـا، حتى اهتم ووطد العزم على إتمام الوحدة الترابية، وجميع المشاريع التي وضع مخططاتها مع والده المنعم -الـذي لم يمهله أجلـه-، حتى يجني شعبه ثمار غـرسهما المشترك، وثورتهما الخالدة.

فقد قاد شعبه في معارك الحدود (359) الظافرة، التي كان بطلها المغوار ومحقق انتصاراتها الباهرة المشهورة، كما قـاده في معارك التحرير والوحدة سياسيا وعسكريا، توطيدا لدعائم السيادة المغربية.

واستطاع بحنكتـه السياسيـة، ومهارتـه الحربية، أن يتجـاوز بالمغـرب الأخطـار التي كانت تتهـدده في مطلع عهـد الحرية والإستقـلال. فقد كـان مسرحا للتنـاقضات الاقتصـادية والاجتماعية والسيـاسية وغيرهـا، وتنخر كيانـه رواسب عهـد الاستعمار البغـيض (360) من جهــل وفقر ومـرض وغــير ذلك...

وقـام الجيش الملكي تحت قيادتـه الـرشيدة بحمايـة الـوحدة الترابيـة والحدود التـاريخيـة، فبنى الجدار الأمنـي على امتـداد الحدود بـالصحـراء المغربية المسترجعة، كخط دفاع مقدس لا تنتهك حرمتـه.

---

(358) و (359) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(360) كتاب التحدي فصل "روح الدستور"، وخطاب جلالته يوم 23-10-1975، والمصدر السابق، ص: 14، العرش والاستمرارية، لمحمد الكتاني.

وتـــوج انتصاراتـه العسكريـــة والسيـاسيـة فـي معـــارك التحـــرير والوحدة -التي خاضها على رأس شعبه الـوفي كرائـد وقائـد محنك ملهم- توجها بمعجـزة العصـر، المسيـرة الخضـــراء المظـفرة (361)، واســترجاع الصحراء المغـــربيـة الغـــربيـة، بما فيهـا إقليـم وادي الذهـب، والســاقية الحمـراء، تتميــما وتدعـيمـا للـوحـــدة الوطـنيـة الـمـــنشودة، فكانـت فتحـا مبـــينا ونصرا عـــزيـزاً، باعتـــبارها قـمـــة شامخـة في التعامـــل الـدولـــي.

لقد أدهــش العالم بـدهائه السيـاسي، ومواقفـه البطوليـة الفذة، وعنصر المبادرة، الذي طبـع تعامله مع هذه القضيـــة المغربية الحيويـة والرئيسية، ســواء مع إسبانيـا، أو بالمحافـــل الدوليـــة، على صعيـد كـل مـن هيئـــة الأمـم المتحدة، ومحكمــة العدل الدولية التي أكـدت حق المغرب في صحرائه، واعترفت أنها جزء لا يتجزأ من التراب المغربي تاريخيا وسياسيا واجتماعيا، ولغـويا ودينيـا وقانـــونيـا وحضـــاريا(362)... فقـــد أصـــدرت رأيـــها الإستشاري الذي يـؤكد وجـود روابط البيعة بين سكان الصحـراء الغربية والمغرب.

ذلك لأن جلالته زود محكمـة العدل الدولية -ومن خـلالها الرأي العام العالمي- بملف متكـامل، من الوثـائق والرسوم، التي كـانت بمثابـة شـهود إثبات لمغربيـة الصحراء (363).

كما أرسل بعثـات الود والصـداقة إلى أقطـار العـالم، للتعريف بأحقيـة القضية المغـربية، ومـراحلها وعمقهـا وأبعادهـا... حاملة لملف متكـامل من الوثائق والخرائط الشاهـدة بعدالة القضية المغربية، ممـا جعل هذه الأقطار

---

(361) و (362) دعـوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ- 1981م، الحسن الثاني مـوحد البلاد، وصانع الأمجاد، لأستاذ أمال جلال.

(363) دعوة الحق، ع: 234، ص: 26، 1404هـ-1984م، العرش المغربي أقدم العروش لعبد العزيز بن عبد الله، والتبيان في تخطيط البلدان، ص: 402 أي قبل الحماية.

تتعاطف مع المغرب في قضيته العادلة، لما رفعها إلى محكمة العدل الدولية(364).

وما إن نطقت محكمة العدل الدولية بحكمها العادل، وأدلت برأيها الاستشاري المذكور، حتى قرر جلالته دخول الصحراء -أرض الآباء والأجداد-، في موكب سلام، وبمسيرة خضراء، أيدتها جميع دول العالم، وباركتها الدول الشقيقة والصديقة، التي شاركتنا زحفنا المقدس الباهر سنة 1975م.

وامتثلت إسبانيا لقرار محكمة العدل الدولية بلاهاي، واستجابت لرغبة سكان الصحراء، ومطالب المغرب العادلة، فارتفعت الراية المغربية في سماء الصحراء، ورفرفت على ربوعها الطاهرة، واصلة بين أمجادنا التليدة، وعصرنا الزاهر، سنة 1975م.

وهب أبناء الصحراء البررة لتأكيد وطنيتهم، وولائهم للعرش العلوي المجيد، وتجديد بيعتهم للعاهل العظيم (365)، فحطموا بذلك الحدود الوهمية الاستعمارية.

وانسحبت موريتانيا من ملف الصحراء وقضيتها، مؤكدة أن المغرب هو صاحب الحق الوحيد في الصحراء الغربية كلها، وذلك سنة 1979م، فكان عيدا وطنيا مشهودا، حضرته وفود الأقاليم الصحراوية، التي جاءت مبايعة معاهِدة.

وأقيمت حفلة الولاء يوم عيد العرش المجيد بالداخلة سنة 1980م.

ووفى جلالته بنذره، فزار مدينة العيون ونواحيها سنة 1985م، واعتبر استقباله بها من طرف رعاياه الصحراويين استفتاءا شعبيا رائعا، وتجديدا وتأكيدا للبيعة والولاء تلقائيا وعفويا، وتطوعا والتزاما....

(364) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، ص: 128، 1389هـ-1979م، الافتتاحية.

(365) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، ص: 128، 1389هـ-1979م، الافتتاحية.

وما إن تأكدت مغربية الصحراء، حتى انكب جلالته على إعداد البرامج والمشاريع والمخططات البناءة الهادفة، التي تقوم على أساس من البحث العلمي، والدراسات النظرية والميدانية العلمية والتقنية، التي من شأنها تحقيق النهوض بالصحراء، وتنميتها، وإلحاقها بركب الأمة المغربية في جميع مجالات الحياة، وميادينها ومرافقها، حتى أصبحت بين عشية وضحاها، جنة خضراء فيحاء، يتفيأ المغاربة عامة -والصحراويون منهم خاصة- ظلالها الوارفة.

والتزاما من جلالته بالشرعية الدولية، واستجابة لاقتراح بعض قادة الدول الشقيقة والصديقة للمغرب، طرح جلالته على قمة منظمة الوحدة الإفريقية بنيروبي سنة 1981م، مبدأ إجراء استفتاء تأكيدي في الصحراء الغربية المسترجعة، لتأكيد مغربيتها الحقة، وطي ملفها بكيفية عادلة وبصورة سلمية نهائية.

وعلى رأس المسيرات التي أحكم مخططاتها، وقاد شعبه على دربها، وفي معاركها الضارية، مسيرة التنمية الإقتصادية، فهو بطل معركة المليون هكتار، ومشاريع الإصلاح الفلاحي، واستصلاح الأراضي، وتشجيرها، والتجهيزات المائية، ومشاريع الري التقنية الحديثة (366)، والتوزيع العادل للأراضي الزراعية المسترجعة، وإنشاء تعاونيات للإستفادة الجماعية من وسائل الإنتاج.

وفي هذا الصدد قرر جلالته إلغاء الضريبة الفلاحية، وضريبة الترتيب....

وفي إطار تقوية الاقتصاد الوطني اهتم بالتصنيع الحديث، بترشيد وتشجيع الصناعة التقليدية (367)، وأرسى قواعد جمعياتها الفتية، كما اهتم بتطوير التقنيات المعدنية والبترولية وتنمية الثروة الفوسفاتية، وزرع المركبات الصناعية، وتشجيع التنقيب عن النفط والمعادن كلها.

---

(366) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ-1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، للدكتور أمال جلال.

(367) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1401هـ-1981م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، لأمل جلال.

وفي هذا الصـــدد حقق الـلامركزيــة، وطور الجهـوية، وشجـع المبادرات الحرة في إطار الخوصصة، المتوازنة مع القطاع العام، دون إفراط ولا تفريط، مستهدفـا الازدهار الاقتصادي المتكامل والمتـزن، بتنمية وتطوير إمكـانيات البلاد وتطويعها، حتى تلبي حاجيـات البلاد الملحة، وتوظيف موارد المغرب الطبيعية والبشريـة وغيرها في خدمـة الاستثمارات والمقاولات(368)، وبالتالي تنظيم المبادلات التجـارية الخارجيـة، باتفـاقيات ومعـاهدات عـادلة، تخدم القانون الدولي العام، وتدعم العلاقات الدولية التجارية وغيرها بصفة عامة، وتوظف رؤوس الأموال الأجنبية في بلادنا، زيادة على تعبيد الطرق، وتطوير المواصلات والبريد....

وبـذلك عمل على تطويـر الاقتصـاد الوطني، وتنميـة الموارد والمداخيل، وبالتالي على رفع الـدخل الفردي والقوى الشرائية للمـواطن المغربي، محققا التعادلية والعدالة الاجتماعيـة الإسلامية، التي ترفع مستوى الفقير دون أن تفقـر الغني، والتي تعتمـد على التأميم الجزئي للمصـانع وغيرهـا من المؤسسـات الكبرى، والقطـاعات الاقتصـاديـة المختلفـة، واشتراك العمال في الأرباح في مصانع القطاع العام، تحقيقا للثـورة الصناعية، والتنمية الشاملة والعادلة، في جميع ميادين ومجالات الحياة(369).

وفي هذا الصدد أحيى نظام الحسبة، وطوره بما يتلاءم مع روح العصر، وعمل على تشييد دور لسكنى الضعفاء، في إطار محاربة دور الصفيح.

وهكـذا خـاض معـارك التقـدم الاجتماعي الهادئ لتحقيق العـدالـة الاجتماعيـة، التي تقوم على محاربـة مخلفات الاستعمار ورواسبـه، وجعل الشغل والمدرسة والمسكـن والعلاج... حقا مكتسبـا لجميع المواطنين، والعمل على إيجاد جميع التـوازنـات الاجتماعيـة، لتحقيق مجتمع إسـلامي عـربي،

(368) المصدر السابق، ص: 224–225، مسيرة تلو مسيرة لتحقيق الأفضل لعثمان بن خضراء.

(369) دعـوة الحق، ع: 255، ص: 54–55، 1406هـ–1986م، فـي رحـاب السياســة الحسنيــة، لآمال جلال، و دعـوة الحـق، ع: 246، ص: 171–172، 1401هـ–1981م، فلسفـة الحكم عند الحسن الثاني، لعثمان بن خضراء.

يعيش في أحضـــان الشريعــة الإسلاميــة السمحــة (370)، وفي ظل مبـــادئ الإسلام ومكارمه المتوارثة وقيمه ومثله العليا، مجتمع تحكمه نوازع الخير، وتسوده الفضيلة والمشروعية.

لقد جدد معالم الإسلام بالديار المغـربية، في إطار سياسة تعليمية تقوم على التعريب والمغـربة، وإجبـارية التعليم ومجانيتـه، وتكوين الأطـر العليا العلمية والتقنيــة والدينيــة وغيرها، في ظـلال مسيرة الإيمان، وبين أحضـان القـرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، إعلاء وارتقاء بالفكر المغربي، حتى يغمر إشعاعه البـلاد والعباد، تحصينا للكيان المغربي في مواجهــة التحديات الإيديولـوجية الضالة الـدخيلة المتطرفة يمينهـا ويسارها (371)، بما فيهـا الطرق الصوفية المنحرفة.

وذلك بتضمين البرامج والمناهج التعليمية غذاء روحيا إسلاميا وإنسانيا، من شأنه تنشئــة وجدان الأجيال المغـربية الصــاعدة على الاعتزاز بــالذات، وبماضينا الحضاري المجيد، والتمسك بالحرية، والاعتصام بالإيمان، والعمل في إطــار من التســامح والتعــاون الإنساني العــالمي، وبــالتــالي من التنسيق والتوفيق بين الأصـــالة العربية الإسلامـــية للمغرب، ومتطلبات العصر. وفي نطــاق التلازم والتــوازن بين المجالــين الاجتـــماعي والاقتصادي، وكــذا بين التكوين والتشغيــل.

وفي هذا الصـــدد جعل التكوين العلمي والتقني للطاقات الشــابة، يخضـع لحاجيات البلاد في المجالات : العلمية والتقنية وغيرها، مما ساعد على المغربة والتعريب.

---

(370) النص في طليعة الدستور المغربي دائما على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة ومصدر لكل تشريع وتخطيط.

(371) خطاب وزيـر الأوقاف، أحمد رمـزي في مؤتمر وزراء خـارجية الـدول الإسلاميـة، استعدادا للاحتفال بمطلع القرن 15هـ، الذي انعقد بمكة المكرمة..

ودعم كل ذلك بمشاريع الإنعاش الوطني ذات الطابع الاجتماعي، التي دعمت الأمن والاستقرار والسلام الداخلي، كما دعم العدالة الاجتماعية بالعدالة القانونية التي تقوم على استقلال القضاء، وتوحيده وتعريبه ومغربة أطره، وتنظيمه على أحدث طراز.

كما أنشأ التجهيزات المائية، توفيرا للماء الصالح للشرب، وللطاقة الكهربائية....

وعمل على ترشيد الحياة السياسية في إطار مسلسل ديمقراطي دستوري، مستهدفا تدعيم المشروعية في إطار دولة القانون، وحقوق الإنسان، في ركب مسيرة الشورى والديمقراطية الإسلامية، مما تعزز أكثر ببنود الدستور الجديد لسنة 1993م (372) الذي يستجيب لحاجيات عهد تجديد الدولة، وتدعيم كيانها، وتوطيد دعائم هياكلها، ومؤسساتها، مما جسم تجاربنا وبلور اختياراتنا بالإنتخابات التشريعية المباشرة وغير المباشرة، مستهدفا من كل ذلك تطوير قنوات وهياكل الحوار الديمقراطي، بعد دستور1972م، الذي مهد به لكل ذلك.

فقد عمل جلالته جاهدا، حتى جعل النظام المغربي ملكية دستورية ديمقراطية، تقوم على تعدد الأحزاب السياسية، والنقابات، والهيئات، والغرف المهنية وغيرها، بحيث أصبح البرلمان يمثلها كلها.

أما فلسفة جلالته في الحكم، فتقوم على النهضة الاقتصادية والاجتماعية، المنبثقة عن الاشتراكية الإسلامية المغربية، التي تعمل لإيجاد الثروة والموارد، وتوزيعها بعدالة، وهذه النهضة تكرس العمل للتجديد والتطوير والإبداع الدائم اللامتناهي، باعتبارها فلسفة وليست معركة.

---

(372) دعوة الحق، ع: 246، ص: 15–18، 1405هـ–1985م، رمز الأصالة والتجديد، لعبد العزيز بن عبد الله.

وفي هذا الصدد جدد في الدساتير المتوالية المبادئ العامة للمملكة المغربية، التي يجب أن يلتزم بها المواطنون المغاربة قاطبة، ويحترمونها ويذودون عن حرمتها بالتصدي لكل من حاول العبث بها، أو الاعتداء على قداستها....

وتوج جهوده الجبارة على الجبهة العربية بمساهمته الفعالة في حرب يونيه 1967م (373)، بإرسال وحدات من القوات المسلحة الملكية للدفاع عن حوزة العروبة والإسلام، وحماية أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بالقدس المقدس الشريف.

وتأكيدا لسياسته العربية الرشيدة وتكريسا لمواقفه الملتزمة إزاء الوحدة العربية كرئيس دولة منتمية للجامعة العربية، شارك في حرب رمضان أو حرب أكتوبر (374) على الجبهتين المصرية بسيناء، والسورية بالجولان والقنيطرة مشاركة مشرفة للمغرب ولجميع المغاربة، سجلها تاريخ الوحدة العربية بفخر واعتزاز، وذلك سنة 1973م.

والتزاما بالقضايا العربية، وعلى رأسها أم القضايا العربية كلها، القضية الفلسطينية، يعمل جاهدا للتعريف بهذه القضية، ويتولى الدفاع عنها بالمحافل الدولية أمام الرأي العام العالمي والدولي، وبموازاة ذلك يعمل على تنقية الأجواء العربية من رواسب الضغائن والأحقاد الشخصية والإقليمية الضيقة.

وجاء اختيار جلالته على رأس لجنة القدس سنة 1979م(375)، وتجديد هذا الاختيار كلما انعقد مؤتمر القمة للملوك ورؤساء الدول الإسلامية، وبالتالي رئاسته المتتالية لمؤتمرات القمة العربية والاسلامية والمغاربية، تتويجا لجهوده المذكورة، واعترافا بعبقريته وحنكته

---

(373) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213-215، 1405هـ-1985م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، لأمال جلال.

(374) المصدر السابق والصفحة.

(375) دعوة الحق، ع: 232، ص: 9-10، 1404هـ-1984م، المغرب والقضية الفلسطينية في ضوء أعمال لجنة القدس، لقاسم الزهيري.

السياسية. وبفضله وأريحيته الأصيلة العـريقة، فأصبح المغرب قبلة العرب والمسلميـــن لـدراستـــه قضـــايـــاهم، وحــــل مشاكلهـــم، واسترجـــاع حقوقهـم(376)....

فقد قـام على رأس لجنة القـدس بأعمال بناءة هـادفة، كـانت لها نتائج إيجابية، أهمها : موقف البابا مـن قضية القدس بالأمم المتحدة سنة 1980م، واستقبـاله للـوفـد الفلسطيني بحـاضرة الفـاتكان سنـة 1983م، والتطـور الإيجابي للسيـاسة الفـرنسيـة خاصـة، والغـربية عـامـة لصالح القضيـة الفلسطينية، وبـالتالي مواقف فرنسـا، ومواقف المجموعة الأوربيـة كلها من هذه القضيـة، وصدور قـــرار مجلـس الأمن رقم 418 بشأن ضم القـدس سنة 1980م، الـذي يشجب في قـراره هـذا مصادقـة إسرائيل على القـانـون الأسـاسي حـول القـدس بأشـد العبـارات، وقـرر عـدم الاعتراف بـه، ولا بـــالإجـــراءات التي اتخذتها إسرائيـل لتغيير طـــابع القـــدس، ووضعهـــا القانوني(377)، وطلب مجلس الأمن من الدول التي أقامت سفاراتها بالقدس سحبهـا وإغـلاقهـا، كما أصـدر مجلس الأمن قـرارا آخـر رقم 465، حول المستوطنات الإسرائيليــة، وقرارا آخر رقم 476، حول الممارســات الإسرائيلية بالضفة الغربية، وقطاع غزة حين احتلالهما لهما (378).

ويعتبر جلالتـه في طليعة رواد وحدة المغـرب العربي، والـذين عملوا على تحقيقها وإخـراجها إلى حيز الـواقع والتطبيق منذ 1958م، باعتبارها خطوة حاسمة نحو الوحدة العربية الشـاملة (379).

---

(376) دعوة الحق، ع: 255، ص: 10-11، 1406هـ-1986م، ربع قرن في خدمة الإسلام، لعبد الوهاب ابن منصور.

(377) دعـوة الحق، ع: 232، ص: 13-15، المغـرب وقضية فلسطين في ضـوء أعمال لجنة القـدس، لقاسم الزهيري.

(378) المصدر السابق ص: 15.

(379) دعـوة الحق، ع: 255، ص: 32-35، 1406هـ-1986م، الحسن الثاني في أوج الـديبلومـاسية العالمية، لعبد الهادي التازي.

وكـان جــلالتــه على رأس المؤسسـين الأوائل لمؤتمر القمــة الإســلامي الأول(380)، الـذي كـان فـاتحة عهـد جديـد، زاخـر بـالمؤتمرات والنـدوات واللقاءات التي وطدت دعائم الوحـدة الإسلامية، ورفعت صرحها، وأسمعت صــوتها عـالميـا ودوليـا، انطـلاقــا من منبرهـا العتيـد – منظمــة المؤتمر الإسلامي– الذي أصبح منبرا رسميا للعالم الإسلامي بأسره، من أقصاه إلى أقصاه يقام له ويقعد، ويحسب له ألف حساب وحساب.

وتوج جلالتـه مسيرته الإسلامية بالـرسالة (381) التي وجهها لـلأمة الإســلامية في مطلع القـرن الخامس عشر الهجـري، التي شرح فيهـا مزايـا الإســلام وفضلـه على الإنســانيـة جمعـاء، والتي تعتبر تجسيـدا لفلسفتـه وسياستـه الرشيدة، الـداعية للأمة الـوسط... مما يتجلى واضحا في أقـواله وأفعـاله، ولا غـــرو فهـو سليـــل الأمجـاد الإســلامية والـدوحة النبـــوية الوارفة.

وكـان جلالتــه في طليعـة الملوك والـرؤســاء المسلمين والعرب، الـداعين لمساعدة أفغانستان، والدفاع عن قضيتها العادلة.

وفي إطار المســـيرة الإسلاميــة حقـق النصـــر لوطنـه وأمتـــه ودينـه، فسطع نجمـــه في سمــاء الـــعالم الإســلامي الذي انتخبـه لـرئاسة لجنـة القـدس، وإنقـاذ المسجـد الأقصـــــى والقـدس الشريف من بـراثين وأدران الصهيـونيـة البشعـة الجشعة، بـاعتبـاره خير من يتكلم بـاسم العـروبـة والإســلام، ويقـــود العمل لتـوطيـد صرح التضــامن الإســلامي وتحقيقـه ميدانيا.

أما على الصعيد الإفـريقي، فقام بأعمال جليلة، مســاهمة منه في تحرير القارة السمراء.

---

(380) دعوة الحق، ع: 246، ص: 213–215، 1405هـ–1985م، الحسن الثاني موحد البلاد، وصانع الأمجاد، لآمال جلال.

(381) المصدر السابق والصفحة.

فقد كـان وراء تأسيس كتلـة الدار البيضــاء لاستكمال تحرير إفـريقيا، ورائد المؤتمر الإفريقي الذي انبثق عنه ما عرف -إذ ذاك- "بروح الرباط".

ورغم تنـاقضـات العصر على المستـوى الدولي، وانهيـار الكتلة الشرقيـة وقيام النظـام العالمي الجديد، وما أفـرزته هذه الفترة الانتقاليـة من أحداث متضاربـة، فقد استطـاع جلالته أن يقيم لبـلاده سياسة خـارجية متـزنة، جعلت المغرب يتمتع بسمعة طيبة، وفرضت احترامه على دول العالم كبيرها وصغيرها، شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا.

كـما جعــلت منــه أحد أقطـــاب الســياسة الدوليـة، يسعـــى لتوطيـد دعائـم الأمـن والسلم العالمــي، ممـا خـوله اعتــلاء منابر المحــافل الـدولية للدفــاع عن القـضايا المغربيـــة خاصـة، والعــربية والإسلاميـــة والدوليـة عامــة.

ولا غـرو، فجلالتــه أول من أعـــطى لعـــدم الانحيــاز أبعاده الحقيقيـة ببلغراد في مطلع عهده كملك للبلاد سنة 1961م.

كما كان أول مـن اقترح إنشاء قوة دوليـة لحفظ السلام العـالمي، تعمل على تطبيق قـرارات الأمم المتحـدة ومجلس الأمن الدولي بـالقـوة إذا اقتضى الأمـر ذلك، وأول من دعا إلى نـزع السلاح، وتحويل ميـزانيته إلى مشــاريع للتنمية العالميـة، لمحــاربة أعـداء الإنسانيـة الكـبار: الفقر والجهل، والمرض، في سائر أنحاء العالم.

وجـاهر جـلالته بـالحق الفلسطيني المهضوم، وبـوجوب قبـول الصين كعضـــو بهيئـة الأمــم المتحـدة، وبحـق الجـزائر في الإستقلال والحرية....

واعتلى بقضية القدس منبر حاضرة الفاتيكان، حيث أجرى حوارا شجاعا على مستوى القمة مع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، لأول مرة في تاريخ الأديان، سنة 1980م، باعتبار جلالته رئيس لجنة القدس، مما عرف بقضية القـدس الشريف، وبالقضيــة الفلسطينيــة عمـوما. وذلك على أعلى مستـوى

عالمي وديني، مما تناقلته وكالات الأنباء العالمية، وأحدث دويا إعلاميا هائلا(382)، كان له ترديد وترجيع، وخاصة بعد أن رد البابا المذكور الزيارة لجلالته وزار المغرب.

وبعد الفاتكان، قام بمساعي مماثلة لدى عواصم دول العالم الكبرى، حيث عقد ندوات واستجوابات صحفية وإذاعية وغيرها، وألقى كلمات ورفع رسائل بنفس الهدف، وفي نفس الإطار، مما أكسبه مكانة مرموقة لدى هذه العواصم كلها.

فبفضل شخصيته الفذة الملتزمة وسياسته الحكيمة الرشيدة، أصبح للمغرب دور في مجال السياسة الدولية.

وحرصا منه على المصالح الحيوية للمغرب، تطلع للإنخراط في السوق الأوربية المشتركة، فزار مركزه، واتصل بأقطابه، شارحا وجهة نظره، وأبعادها وأهدافها... مما مهد لاحتضان المغرب توقيع معاهدة "الكاط".

كما مد جسور الصداقة المغربية الأمريكية عبر المحيط الأطلسي، استمرارا لمبادرة جده المولى محمد الثالث، الذي كان في طليعة المعترفين باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1777م.

ولم يلبث جلالته أن اعتلى منبر هيئة الأمم المتحدة باسم الأمة العربية والإسلامية، مدافعا عن القضية العربية الرئيسية، القضية الفلسطينية، نيابة عن اللجنة السباعية المنبثقة عن قمة فاس، سنة 1982م (383).

---

(382) دعوة الحق، ع: 255، ص: 37-40، 1406هـ-1986م، الحسن الثاني والديبلوماسية الدولية، لعبد الهادي التازي.

(383) المصدر السابق والصفحة.

وتتـوالى مسـيراتـه المظفـرة على جميع الـواجهـات والجبهـات بـالـداخل والخارج، أفقيـا وعموديـا، ممـا يلفت أنظـار أمم العـالم، وينتزع إعجـابها وتقديرها، ويفرض عليها احترام المغرب وتقدير ملكه وخطاب وده، والسعي للتعاون معـه في جميع المجالات، وبالتالي يـزيد المغاربة حبـا وولاء لعاهلهم المفدى، وتعلقا بـأهداب عرشه المجيـد، وطاعة وامتثالا لتعليماتـه بانضباط والتزام عن طواعية واختيـار وإخلاص ووفاء.

مدخل :
اهتمام المسلمين
بحلقات العلم



اهتمام المسلمين بحلقات العلم

المجالس العلمية قبل الإسلام :

إذا نحن بحثنا عن أصل هذه المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، وأردنا معرفة مصادرها الزمانية والمكانية، حتى نتخذها أرضية لهذا الموضوع القيم المتشعب، فإنه يجب علينا أن نرجع خطوات واسعة إلى الوراء، وأن نتوغل في أعماق التاريخ، وأغوار ما قبل الإسلام، باعتبار أن الحضارة الإنسانية، والتراث البشري إرث مشترك لجميع الأمم والشعوب، ولايحق لأحد أن يدعيهما لنفسه، أو يستأثر بملكيتهما المشاعة والمشتركة.

وإذا كانت هذه المجالس تطورت اليوم إلى ما يعقد دوريا من المؤتمرات، والندوات، والموائد المستديرة، وما إلى ذلك من اللقاءات العلمية والأدبية والتقنية وغيرها، فإنها في الواقع قد تطورت عبر العصور، واختلفت باختلاف الأمم والشعوب، من حيث مظاهرها وشكلها، ومضمونها، وبالتالي من حيث مبادئها وأهدافها ووظائفها....

وهي في أصلها تعود إلى الأسواق العلمية والأدبية القديمة قدم الفكر الإنساني على وجه البسيطة.

فقد كان الهنود يقيمون سوقا من هذا القبيل في هردوار، على ضفاف نهر الكنج سنويا. ويعتبر من أكبر أسواق العالم -إذ ذاك- حيث كان يؤمه حوالي مائتي ألف نسمة، كل سنة (1).

وكانت روسيا تقيم مثل هذه الأسواق الفكرية الرائجة في مدينة نوفكرود، كل ستة أشهر، أي مرتين في السنة، حيث كان عدد روادها يناهز إثني عشر ألفاً كل مرة، وهم ينتمون إلى مختلف بلدانها وأقاليمها، وحتى من أوربا الشرقية(2).

---

(1) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 37.

(2) المصدر السابق و ج، وص.

والواقع أننـا نجد أنماطـا كثيرة لهذه الأسواق لـدى المسلمين، وفي أوربا الغربية، بألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وحتى في أمريكا (3).

ومـا "الجمناسيـوم" لـدى قدمـاء اليـونان إلا شكـل من أشكال هـذه الأسواق والمجالس. فقد كانت تقام أساسا للألعاب البدنية المختلفة -كما هو معروف- لكن الفـلاسفة والعلماء كانـوا يغتنمون انعقادهـا ووجودهم بها فرصـة للمباحثـة والمناظرة والمنـافرة في تحليل وتعليل الظـواهر، وتمحيص الحقائق، ونقـد وتقييم الإبداع الفكري عامـة، ومقارنة بعضـه ببعض، وكذا لتنقيح اللغة،(4) وتشـذيبها وتهذيبهـا، وبـالتالي للتحكيم بين المتبـارين في جميع المجالات العلمية والفكـرية والأدبية والفنية، وإعـلان النتائج، وإجازة المبدعين الفـائزين من النخبـة المثقفة، الـذين يشكلون الطـلائع الأولى لرواد الفكر الإنساني، والآداب والفنـون العالمية، والذين كانـوا ولا زالوا وسيبقون قادة للنهضة البشريـة، والحضارة الإنسانية، إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها.

المجالس العلمية عند العرب في الجاهلية -قبل الإسلام-

لا يمكن استثناء العرب من هذه الظاهرة الإنسـانية العامة، إذ لم يكونوا بدعاً بين الأمم في شيء.

فقد كانـوا في الجاهلية يقيمون أسواقا من هـذا القبيل على امتداد أشـهر السنة، وينتقلون بينهـا، كسوق دومة الجندل، وهجـر بنجد، وسوق عمان، وسوق حضرموت، وسوق عدن، وسوق عرفة (5).

وكانت للأشـهر الحرم أسواق خاصـة -باعتبار اختصاصات كل سوق- وأشـهرها: عكاظ، وصحار، والشحر، وحباشة، والمستقر (6)... إلخ.

ولعل أشـهر أسواق العرب في الجاهلية : سـوق عكاظ، وسوق مِـجَـنَّـة، وسوق "ذو المجاز، والمربد...

---

(3) المصدر السابق و ج، و ص.

(4) المزهر، ج: 1، ص: 109، والمصدر السابق و ح، وص.

(5) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 37.

(6) المصدر السابق وج، و ص.

وكان يحضر هـذه الأسواق العامة أشراف سـائر القبائل -خلافـا لبقية الأسواق الخاصة- سواء من حيث اختصـاصاتها أو من حيث روادها، فكل من أراد القيام بعمل، والإعلان عنه حتى تعـرفه العرب، أو أراد أن يشـهدها على أمر ما (7)، أو أراد مفاخرة شخص ما، جهارة -على مرأى ومسمع من الناس- عليه أن يقصد سوق عكاظ (8).

وكان العرب يعقدون هذه الأسواق أو المجالس كلها بصفة عامة لمناشدة الشعـر، وتبـادل الأخبـار، والبحث في شـؤونهم ومصـالحهم ومشـاكلهم الخاصة والعامة....

وكانـوا يسمون هـذه الأسواق أو المجالـس بالأنديـة، ومنها نجـد نادي قريش، ودار الندوة -التي كانت بجـوار الكعبة- ولازالت أمثال هذه الندوات تعقد إلى الآن (9).

المجـالس العلميـة في صدر الإسـلام، أي عهـد النبي ﷺ والخلفـاء الراشدين :

لقد كسدت هذه الأسـواق أو المجالس بعد الإسلام، لنهي النبي ﷺ عن أهم مـا تقوم عليـه، كـالمفاخـرة، والتنافـر، والتهـافت، والتزاحم للصعـاليك وأمثالهم، حيث قال ﷺ : «الموسم يجمع رعاع الناس» (10)

وكانوا يتفـاخرون فيها حتى في كبار المصائب والنكبـات، كمفاخرة (11) الخنساء مع هند بنت عتبة (12)، زيادة على المفاخرة بالأحساب والأنساب، والشجاعة، والفضائل كلها. لذلك كثرت المواقع والحروب بينهم، ولذلك نهى عنها الإسلام.

---

(7) المصدر السابق ج، ص: 38، والأغاني، ج: 2، ص: 13.

(8) سوق عكاظ كانت تقام أول ذي القعدة إلى العشرين منه، بين الطائف ونخلة.

(9) تاريخ التمدن الإسـلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 36 أي إلى زمن المؤلف، وحتى يومنـا هذا أيضا.

(10) رواه أبو هريرة.

(11) معجم البلدان لياقوت الحموى، ص: 129.

(12) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص:38-39.

لكن الإسلام عوض هذه الأسواق أو المجالس بالمساجد، التي أصبحت ملتقى لمجالس العلم والعرفان، وتفسير آيات القران الكريم، ومدارسة الحديث النبوي الشريف، ومناظرة اليهود والنصارى، ومجادلة المنافقين، إلى غير ذلك من المجالات العلمية والأدبية وغيرها لذلك العهد، بما في ذلك مناشدة الشعر ومدارسته.

فقد كان رسول الله ﷺ يتحدث مع جلسائه من الصحابة وغيرهم. بحديث أولهم، كما جاء في الشفا. قال الخفاجي : «أي بما كان قبل الإسلام من حروبهم، كيوم بعاث وغيره من أيامهم » (13).

وعن جابر بن سمرة قال : «جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من فعل الجاهلية، وهو ساكت، فربما تبسم معهم» (14).

ومما يؤكد ذلك أن كعب بن زهير، دخل على النبي ﷺ المسجد وهو في صحابته قبل صلاة الصبح –بعد أن أهدر ﷺ دمه، لما هجا الإسلام والمسلمين– إذ جاءه تائبا، ومادحا إياه، –بشفاعة بعض الصحابة– فلما مثل بين يديه أنشده قصيدته اللامية المشهورة، التي –يمدحه فيها ويمدح صحابته، والتي افتتحها بالنسيب– وهي العادة التي كانت متبعة لدى شعراء ذلك العصر –المقدمة الغزلية والطللية– ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم عندها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ برزت
إلا أغن غضيض الطرف محكول

فسُرَّ النبي ﷺ واستبشر بإسلام كعب وشعره الإسلامي، وعفا عنه، وخلع عليه بردته التي اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان بعشرين ألف دينار، وكان يلبسها في الجمع والأعياد تبركا، وقلده في ذلك الأمويون، ثم العباسيون بعدهم، وأعطى العطاء الجزيل للشعراء، حتى اشتهر بذلك (15).

---

(13) الحلل البهية للمشرفي، ص: 4–5، م.خ.ع. رقم D.1463.
(14) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، المصدر السابق، ص: 19.
(15) الحلل البهية : المشرفي، ص: 20.

وكـان الصحـابة يقبلـون يـد النبي ﷺ عنـد البيعة، أو عنـد عفـوه عن أحدهم، أو عند وداعه، أو عند تجديده العطاء لهم.

وكانت مجالس النبي ﷺ مع الصحـابة رضي الله عنهم كلهـا علمية كما كانت تعتبر المصدر الرئيسي للأحاديث النبوية الشريفة، وكان ﷺ يستهدف منها : الدعوة إلى الإسلام، وتوطيـد صرح الدولة الإسلامية، وتعميق إيمان الصحابة، وتلقينهم تعاليم الشريعة الإسلامية، ومبادئها السامية، وتربيتهم على فضائل أخلاقها، وتعويدهم على تأدية شعائرها...

ولم تكن دروسـه خـلال مجالسـه العلميـة هـذه تقتصر على الشـؤون الدينيـة، وتلقين العبادات فحسب، بـل كان يعلمهم آداب السلـوك، وأحكام المعاملات في البيع والشراء، والسلف والرهن، وما إلى ذلك من شؤون دنياهم وآخـرتهم. كما كـان يلقنهـم أسـاليب الحرب، ومنـاهج الحكم وطـرقـه، ويـرشدهم إلى الأوجـه المختلفة للسيـاسـة الداخليـة والخارجية، سـواء في علاقاتهم مع الدول الموالية أو المعادية لهم، أيام السلم والحرب (16)، وكيفية تقسيم الأموال بينهم، وتوزيع الأراضي المغلة عليهم...

وكانت مجالسه العلمية ﷺ تتحول إلى مجالس للمناقشة حول ما جاء في دروسه المختلفـة، وأحاديثه الشريفـة الجامعة المانعـة، فكان يتلقى أسئلتهم واستفساراتهم بصدر رحب، ويتولى الجواب بنفسـه عنها حتى يزول الشك ويعم اليقين.

وكثيرا مـا كـان ﷺ يعقـد مجالس استشـاريـة مع كبـار الصحـابـة وصفوتهم حـول القضايا الهامة التي تـواجه دولة الإسلام الفتيـة،ليدربهم على الشورى الإسلامية وتجنب الإستبـداد بالرأي، وعلى كيفية الحفاظ على كيـان أمتهم من بعـده، ولم يترك شـاردة ولا واردة فذة من قـوام الحيـاة وحقائقها، ونظام الدنيا، إلا علمهم إياها، حتى قال المشركون لسيدنا عثمان رضي الله عنه : "لقد علمكم نبيكم كل شـيء..."

---

(16) دعـوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 1-3، 1383هـ-1964م، دار الحديث الحسنيـة أفق جديـد في ثقافتنا الإسلامية، مـن خطاب عبد الله كنون باسم رابطة علماء المغرب، بمنـاسبة إعلان جلالة الملك الحسن الثاني عن تأسيـس دار الحديث الحسنية، في حفل ختم الدروس الحسنيـة، في ليلة القدر المباركة سنة 1383هـ.

بل إن النبي ﷺ كان في تنزلاته وفي تواضعه مع صحابته في حلهم وترحالهم يحدثهم عن دقائق العلوم، ويجيبهم عن أسئلتهم العلمية المختلفة، سواء منها الطبية أو الطبيعية أو الكونية أو غيرها، وفحوى تلك الأحاديث والأجوبة النبوية العلمية لم ينقضه العلم إلى يومنا هذا.

كما كان عليه الصلاة والسلام يصحح لأصحابه أخطاء الإخباريين من أهل الكتاب، وتحريف أحبار اليهود، ورهبان النصارى لحقائق التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية، وكذا أغلاط عرافيهم وتدليس كهانهم في تفسير الظواهر الطبيعية المختلفة، الجوية وغيرها. وذلك خلال تفسيره للقرآن الكريم وآياته وسوره البينة.

وكم عقد من مجالس علمية مع أحبار اليهود، ورهبان النصارى، سجلها القرآن الكريم، وفي طليعتها ذلك المجلس المشهود الذي سألوه فيه عن قصة أهل الكهف، وعن تاريخ ذي القرنين (17)، وعن ماهية الروح التي تشير إليها الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾(18).

وجملة القول أن علم الحديث هو حصيلة المجالس العلمية للنبي ﷺ طيلة حياته، ومن ثم فهو جماع المعارف الإسلامية الدينية والدنيوية على السواء. وجله جاء تفسيراً للقرآن الكريم وشرحا لآياته وسوره.

أما المصدر الذي كان يستقي منه رسول الله ﷺ فهو القرآن الكريم، كلام رب العزة تبارك وتعالى، الذي كان يراجعه مع سيدنا جبريل عليه السلام، والذي كان يلقاه كل ليلة من كل رمضان (19)، ليدارسه القرآن، ويراجعه معه.

المرأة في المجالس العلمية للنبي ﷺ :

كان النبي ﷺ يسمح للنساء بحضور مجالسه العلمية، بل إنه خصص لهن يوما، يعقد فيه مجلسا خاصا بهن، استجابة لرغبتهن وطلبهن، أن يعلمهن أمور دينهن (20).

---

(17) الإسكندر المقدوني.

(18) سورة : الإسراء الآية : 84.

(19) من حديث عبد الله بن عباس.

(20) دعوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 7، 1383هـ—1964م، الجانب الروحي من المرأة المسلمة، للكتاني.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد : «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله، فقال : اجتمعن في يوم كذا، في مكان كذا وكذا، فاجتمعن، فأتاهن رسول الله ﷺ، فعلمهن مما علمه الله »... الحديث(21).

وكان النساء يحضرن في المصلى يوم العيد، وفي الصلوات، وبالتالي يستمعن لخطب الأعياد، والجمعة، في شبه مجالس علمية (22).

ومما يؤكد مشروعية ذلك، قول رسول الله ﷺ : «إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد، فأذنوا لهن» (23)، وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت :«إن رسول الله ﷺ ليصلي الصبح، فتنصرف النساء متلفعات بمروطهن، ما يعرفن من الغلس (24)».

فقد كان النساء يجلسن في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ (25)، بدليل ما رواه البخاري، عن هند بنت عتبة، أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: عن النساء بالمسجد النبوي الشريف :«كن إذا سلمن من المكتوبة قمن، وبقي رسول الله، ومن معه من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله قام الرجال ». وفي بعض الروايات، أن النساء كن يصلين خلف الرجال، في مؤخرة المسجد(26).

المجالس العلمية على عهد الخلفاء الراشدين :

كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يجلون علماء عصرهم، ويقربونهم، ويتخذونهم مستشارين لهم في أمور الرعية وغيرها.(27)

---

(21) رواه البخاري، عن أبي سعيد.
(22) المصدر الأول.
(23) المصدر السابق.
(24) رواه الإمام مالك في الموطا.
(25) المصدر الأول، ص: 4.
(26) المصدر السابق، ص: 4.
(27) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 4، ص: 208.

وكانت المجالس العلمية للخلفاء الراشدين تعقد بالمسجد، أو المنزل، حيث يقعدون على حصير أو جلد، ويلتفون في عباءة أو شبهها، ويدخل عليهم الناس للاستماع والمناقشة، وغير ذلك، حيث يخاطبون الخليفة باسمه، فلا يستنكف الخليفة من ذلك، ولا يستاء (28).

كما كان عمال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، بمختلف الأمصار، يعقدون مجالسهم العلمية على نفس النمط عموما، لكنها اكتست لديهم نوعا من الفخامة والأبهة والزينة -من حيث الشكل- مما اقتبسه هؤلاء العمال والولاة من الفرس والروم.

لكن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يمنعون عليهم ذلك، ويعاتبونهم ويلومونهم عليه، وربما اتخذوا في شأنهم عقوبات صارمة أحيانا، كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مع سعد بن أبي وقاص، الذي كان أميرا على الكوفة، فاتخذ قصرا، وجعل له بابا فخما، وأضفى على مجالسه العلمية نوعا من العظمة والفخار، فأرسل إليه عمر من أحرق عليه باب قصره (29).

ولم يلبث الخلفاء والأمراء -بعد عهد الراشدين- أن تدرجوا وتباروا في مظاهر الأبهة والفخامة في مجالسهم العلمية وغيرها، حتى اتخذوا الحجاب(30).

وكان الصحابة يستأذنون على الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وهم في مجالسهم العلمية وغيرها (31).

وكان الصحابة يقبلون يد الخلفاء الراشدين في مجالسهم العلمية وغيرها، شأنهم مع الرسول ﷺ في مجالسه المختلفة، ثم ترفع الخلفاء بعد الراشدين عن الاحتكاك بالناس ولمسهم، فصاروا يقبلون أكمامهم وأعتابهم (32)، فإذا دخلوا للمجلس، تولى الحاجب إجلاسهم حسب مراتبهم(33).

---

(28) المصدر السابق، ج:5، ص: 150.
(29) المصدر السابق، و ج، و ص.
(30) المصدر السابق، و ج، و ص.
(31) المصدر السابق، و ج، ص: 152، والعقد الفريد، لابن عبد ربه، ج: 1، ص: 21
(32) المصدر السابق، ج: 5، ص: 153-154 .
(33) نفس المصدر، وج، ص: 53-54.

أما من حيث آداب مجالس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فقد كانت مجالسهم عادية، تتسم بالبساطة والتواضع كسائر الناس، حيث كان الصحابة يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته، كما كان الحاضرون يتخاطبون، ويتباحثون ويتدارسون، دونما أي تهيب أو تحفظ ولا احتراس(34)، ولم يحتجب أحد من الخلفاء الراشدين المهديين (35).

ويصف لنا ابن القيم الجوزية المجالس العلمية للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، من خلال وصفه لمجلس من مجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول(36) : "كانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه -ليس فيها عنده نص عن الله تعالى، ولا عن رسول الله(ص)- جمع لها أصحاب رسول الله (ص)، ثم جعلها شورى بينهم(37).

إذ ليس صحيحا أن المسلمين لا يعملون إلا بنص من الكتاب والسنة، بل إذا لم يجدوا فيهما حكم النازلة يعملون بالقياس أو غيره من مصادر الشريعة الإسلامية(38)، ولم يمنعوا العمل بالرأي والاجتهاد، بل اشترطوا لذلك بلوغ مرتبة من العلم، يصح بها إعطاء الرأي (39) -وهي شروط الاجتهاد-

وهنالك وصف أدق لأحد المجالس العلمية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمحمد بن كلب رضي الله عنه (40).

المجالس العلمية بعد عهد الخلفاء الراشدين:

بعد عهد الخلفاء الراشدين المهديين، تطورت هذه المجالس العلمية شكلا ومضمونا، متأثرة بالتطور الشامل الذي عرفه المجتمع العربي والإسلامي،

---

(34) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص:154-155.

(35) المصدر السابق وج، ص: 60.

(36) في إعلام الموقعين.

(37) و (38) حاضر العالم الإسلامي لوثيروب ستودارد الأمريكي تعريب دعجاج نوهض، ج: 3، ص: 349، ط: 4، دار الفكر.

(39) شروط الاجتهاد أهمها : الإحاطة بالكتاب والسنة، وأسباب النزول، والقراءات، والناسخ المنسوخ، والمحكم والمتشابه....

(40) الرفض الفائق في المواعظ والدقائق، ص: 78.

نتيجة الاحتكاك بحضارة وثقافة المجتمعات في الأقطار المفتوحة شرقا وغربا، ولا سيما بالفرس والروم، وبالتالي نتيجة الثراء، والسلطة، والثقافة، إذ أصبح العرب يشكلون الطبقة الحاكمة الغنية المثقفة بصفة عامة، وفي طليعتها طبقة الخلفاء والأمراء والحكام، الذين بالغوا في الاحتفاء بأهل العلم، وتكريمهم وتقريبهم.

ذلك أنه من شروط صحة الخلافة في الإسلام، أن يكون الخليفة عالما بالشريعة الإسلامية، وينطبق هذا الشرط على بقية الحكام من الأمراء والعمال والولاة، لذا كان جل الخلفاء -إن لم نقل كلهم - عالمين بها، مقبلين على العلم وحملته، حيث يعقدون المجالس للنظر في الشريعة الإسلامية ومدارستها، ويستدعون لذلك العلماء والمثقفين، وخاصة الفقهاء والمفسرين والمحدثين، حتى صاروا يتنافسون في ذلك، ويتفاخرون بتقريب العلماء، وتأليف الكتب، بل أصبح جلهم من كبار العلماء والمؤلفين (41) في عصرهم، بفضل تلك المجالس العلمية العالية.

ذلك أنه -كما يقول ابن خلدون- «من الشروط المعتبرة في التحصيل: المذاكرة مع الأقران، ومناظرتهم، لما قيل : العلم غرس، وماؤه درس، لكن طلبا للتوازن وإظهارا للصواب ».

وقيل : «مطارحة ساعة، خير من تكرار شهر، لكن مع منطق سليم الطبع...»(42) .

وقد قامت تلك المجالس العلمية المختلفة على أساس الحوار والمناظرة بين الفئات المتصارعة، وبالتالي بين فلسفاتها ونظرياتها، تارة باللفظ وسحر البيان، وطورا بالسيف والسنان (43).

وهنا لا بأس من الاستئناس برأي ابن خلدون(44) في هذا الصدد حيث يقول : «... والحق أن أعظم الأسباب في رواج العلم أو كساده هو رغبة

---

(41) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 192.

(42) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، المجلد الأول، ص: 47، منشورات المثنى، بغداد، ومقدمة العلامة ابن خلدون.

(43) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص:190-191، من الوزراء العلماء يحيى بن خالد البرمكي، وزير هارون الرشيد، ويعقوب بن كلس، وزير العزيز بالله الفاطمي بمصر .

(44) كشف الظنون، لحاجي خليفة، المجلد: 1، ص: 35 منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ومقدمة العلامة ابن خلدون، ج، وص.

الملوك في كل عصر، أو عدم رغبتهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون». كما يقول:«... ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم (45)، وأما العرب فشغلتهم الرئاسة، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم، مع ما يلحقهم من انتحال العلم من أنفة، باعتباره من جملة الصنائع، والرؤساء يستنكفون من الصنائع.

أما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاختص بها العجم وتركها العرب، فلم يمارسها إلا المعربون من العجم (46)».

المجالس العلمية وغيرها على عهد الدولة الأموية :

تطورت المجالس العلمية وغيرها على عهد الدولة الأموية، سواء من حيث شكلها وآدابها، أو من حيث مضمونها ومحتوياتها، كما استقلت عن بعضها، فصار الخليفة يعقد مجلسا خاصا بالعلماء وحملة العلوم الإسلامية، من فقه، وتفسير، وحديث، وغير ذلك، ومجلسا خاصا بالأدباء والشعراء وأمثالهم، ومجلسا لأهل الموسيقى والغناء والطرب، ويشمل الندماء والمضحكين، والمجان وأمثالهم.

والواقع أن ازدهار المجالس العلمية الخاصة في هذا العصر يرجع إلى أن الجدال والمناظرة والحوار بين الطوائف الدينية والمذهبية، بدأ في هذا العصر خافتا، ثم علا صخبه، وعم ضجيجه في العصر العباسي، حيث تحول إلى معركة ضارية، وصراع مرير (47).

هذا الخلاف المبدئي، وهذه الصراعات المذهبية، فجرت طاقة العلماء والمفكرين، فانتشرت مجالس الجدال والمناظرة والحوار، في المساجد والمدارس والمنتديات (48).

---

(45) المصدر السابق، والمجلد، ص: 41، ومقدمة العلامة ابن خلدون، ج، وص.
(46) كشف الظنون، لحاجي خليفة، المجلد: 1، ص: 41 منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ومقدمة العلامة بن خلدون، تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 158.
(47) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، ط: دار الكتاب اللبناني بيروت.
(48) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، ط: دار الكتاب اللبناني ببيروت، وحاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 3، ص: 325، ط: 4، دار الفكر.

وهذا ما حدا بالخلفاء الأمويين إلى عقد مجالس علمية وأدبية نقدية في قصورهم (49)، استقطبوا لها خير العلماء والأدباء والفلاسفة والأطباء، وبالتالي: الرواة والأدباء والشعراء، حفاظا على الملكة اللغوية العربية وثقافتها، باعتبارها وعاء للكتاب والسنة (50).

ولم تلبث هذه المجالس أن استقلت عن بعضها، وتخصصت، وسرعان ما عم انتشارها، فعقدها الأمراء والوزراء، والعمال والولاة في قصورهم بمختلف الأقطار والأمصار.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية يعقد مجالس في علم الكيمياء والنجوم، فأمر بنقل كتبها من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وأنفق أموالا طائلة في ترجمة هذه العلوم، واستحضار آلاتها (51).

ذلك لأن الترجمة كانت لازالت محدودة في هذا العصر، إذ اقتصرت فيه على الطب والكيمياء والتاريخ (52).

وقبل هذه المجالس العلمية المتطورة، كان خلفاء بني أمية يكتفون بجمع فقهاء المدينة، ويستشيرونهم في الأمور الهامة التي تعترضهم، كما يسألونهم عن الوسائل الكفيلة بتحقيق العدالة في حكمهم، ويعتبر عمر بن عبد العزيز مع الحسن البصري، أحسن مثال لذلك (53).

وممن اهتم بعقد المجالس العلمية وغيرها من الخلفاء الأمويين، معاوية ابن أبي سفيان، الذي كان يعقد مجلسا خاصا لأصحاب الأخبار في كل ليلة، بعد صلاة العشاء إلى ثلث الليل ثم ينام ثلث الليل، ثم يعقد مجلسا آخر للتراجمة الذين يقرأون عليه ما ترجموه له من الكتب عن اليونانية واللاتينية، وهي تتعلق بتاريخ الدول، وسير الملوك، وأخبار الحروب ومكائدها، وأنواع السياسات(54).

---

(49) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، صك 211و340-343و353، ط: 5، المكتبة الدولية، بيروت-لبنان.

(50) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 115، دار الكتاب اللبناني-بيروت.

(51) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، ص: 211، 340، 343، 353، ط: 5، م.دب، لبنان.

(52) المصدر السابق، ص: 211، ط: 5، المكتبة الدولية، بيروت.

(53) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج:3، ص: 82-208، ونشأة الأشعرية لجلال محمد، ص: 97-98، ط: 1، دار الكتاب اللبناني-بيروت، وتاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي، ص: 55.

(54) المصدر الأول ص: 97.

كما كان عبد الملك بن مروان حريصا على عقد المجالس العلمية وغيرها للمذاكرة والمناظرة بين المفكرين وذوي الإختصاصات المختلفة، لتوسيع مداركه، وحتى يستفيد بعضهم من بعض. فقد قال لهم مرة في أحد هذه المجالس : «أيكم ياتيني بحروف المعجم في بدنة ؟»... فعدها سويد بن غفلة، كما عدها أحد الحاضرين مرتين (55).

وكان خلفاء بني أمية أول من أضفى مظاهر العظمة والأبهة على مجالسهم العلمية وغيرها، واتخذوا الحجاب والأسرة، اقتداء بمعاوية(56) الذي مهد دولتهم، وحَوَّل الخلافة الإسلامية القائمة على الشورى إلى ملك يتوارثه أبناؤه من بعده. أما الحجاب فاتخذه حين حاول البرك بن عبد الله الخارجي قتله، سنة 40هـ(57).

وكانت تحية الداخل للمجلس هي : السلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله تعالى وبركاته (58). وعند الإنصراف يمشون القهقرى إلى الوراء، احتراما للخليفة.

وكانت الرتبة الأولى في هذه المجالس –بعد الخليفة– للأمويين الذين يجلسون على الأسرة، والرتبة الثانية، لبني هاشم، الذين يجلسون على الكراسي(59).

المجالس العلمية على عهد الدولة العباسية (العصر العباسي الأول)

اهتم العباسيون بالعلماء والفقهاء ورجال الدين عموما، وقربوهم وأفاضوا عليهم العناية المادية والمعنوية، باعتبارهم واسطة السلطة الدينية بين الخليفة والعامة. فكانوا يصدرون عن مشورتهم وآرائهم، ويحكمون

---

(55) المصدر السابق، وج، ص: 90–98، والكشكول، ص: 155.

(56) المصدر السابق وج، ص: 150.

(57) المصدر السابق، ج: 5، ص: 157–158.

(58) تاريخ التمدن الإسلامي، ج: 5، ص: 153 والأغاني، للأصبهاني، ج: 12، ص: 35، والمقريزي، ج: 2، ص: 288.

(59) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 154.

بفتاواهم، ويتباررون في احترامهم وإجلالهم، ويبكون أمام مواعظهم، شأن أبي جعفر المنصور مع عمرو بن عبيد، والرشيد مع الكسائي، ومحمد بن الحسن (60)، اللذين كان يجلسهما مع الأمراء، ويأمرهما ألا يقوما لقيامه، وقال يوم حضر جنازتهما معا : «دفنت الفقه والعربية بالرَّي».

وتبعا لذلك كان الأمراء والوزراء والحكام، وبالتالي عامة الناس يعظمون العلم، ويقدرون أهله (61) من فقهاء، ومحدثين ولغويين، ونحاة، وأدباء، وشعراء، ومؤرخين... كالأصمعي، وأبي عبيدة، والكسائي، وسيبويه، والفراء، وغيرهم.

واقتداء بالخلفاء كانوا يقربونهم، ويجلونهم، ويجيزونهم، ويفرضون لهم الأعطيات والرواتب، ويفرقون عليهم الأموال، وخاصة البرامكة وآل الفرات، فنشط العلم وأهله، وأصبح صناعة، ولا سيما الترجمة التي أقبل عليها أهل الذمة من غير المسلمين، الذين قربهم الخلفاء والحكام لعلمهم(62).

قال جيبسون في معرض كلامه عن اهتمام العرب بالعلوم والمعارف: «إن أمراء المقاطعات كانوا ينافسون الخلفاء في محبة العلم، وبفضلهم انتشر هذا العلم، من سمرقند وبخارى، إلى فاس وقرطبة» (63).

واحتلت العلوم الدينية في مطلع هذا العصر الصدارة، وظهر المتكلمون، وأقبل الناس على علم الكلام، لحاجتهم إلى كل ذلك في المعركة الفكرية التي احتدمت في العصر الأموي، وحمي وطيسها في العصر العباسي بين الفرق المذاهب، والملل والنحل المختلفة، وبين علماء الإسلام من جهة، وبين علماء الإسلام أنفسهم من جهة أخرى، والذين انقسموا في هذا العصر إلى أهل العلم، الذين يعتمدون على النقل والإستيعاب، وأهل العقل الذين يستعملون العقل والاستنباط.

---

(60) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص:82.

(61) المصدر السابق، وج، وص.

(62) المصدر السابق، ج: 5، ص: 44–45.

(63) حاضر العالم الإسلامي، للوتروب استودارد الأمريكي، تعريب، دعجاج نويهض، ص: 149–150.

وكان من أثر انتشار علم الكلام وكثرة المتكلمين، أن أخذت كل فرقة تدافع عن عقيدتها، وتدحض أدلة عقيدة مخالفيها.

وكانت المناظرات بين المتكلمين تعقد بكل حرية في قصور الخلفاء والأمراء، والوزراء والولاة عموما، وفي المساجد والمدارس والمعاهد الدينية وغير الدينية، كبيوت الحكمة(64).

ولم يكتف أبو جعفر المنصور بالمجالس العلمية العامة، التي كان يعقدها لعلماء عصره -فيما سبق ذكره- دفاعا عن الإسلام، وإفحاما لخصومه، وإنما كان يعقد مجالس جد خاصة لعلماء الفلك والطب والفقه (65)، وواظب عليها مدة طويلة، مستهدفا توطيد دعائم الشريعة الإسلامية، وإثراءها وإغناءها على أسس علمية سليمة متينة.

واحتذى حذو المنصور حفيده هارون الرشيد، الذي آتت الحركة العلمية في عهده أكلها، لمبالغته في الاهتمام بالعلم، وتوقير العلماء، وخاصة الأصمعي (66).

فقد وضع هارون الرشيد دور العلم العامة تحت إدارة يوحنا بن ماسويه، وكلفه بترجمة الكتب القديمة التي غنمت من أنقرة، وعمورية، وبلاد الروم (67)...

فقام بترجمة كتب كثيرة عن اليونانية واللاتينية إلى السريالية، ثم إلى العربية، مما حد من العصبية العربية الإسلامية، وارتقى بالعقلية والفكر العربي الإسلامي إلى خوض أغوار الفلسفة، ومجالات العلم، فتكاملت شخصية وعظمة الإمبراطورية الإسلامية (68).

---

(64) تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن، ج: 2، ص: 335، ط: 7، مكتبة النهضة المصرية.

(65) حاضر العالم الإسلامي، للوتروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ص: 148.

(66) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 159، وسير الملوك، ص: 79.

(67) حاضر العالم الإسلامي، للوتروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 1، ص: 143-144، ط: 4، دار الفكر.

(68) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب ستودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ج: 1، ص: 143-144، ط: 4، دار الفكر .

وكان الرشيد -كجده المنصور- يجمع العلماء في مجالس خاصة، لدراسة هذه الكتب المترجمة، لما فيها من ميتافيزيقية، وعقائد، وأفكار منافية لروح العقيدة الإسلامية (69).

كما كانت له مجالس عامة، يعقدها لعلماء عصره للتباحث والتدارس حول أهم قضايا العصر، ألا وهي الرد على الملل والنحل المختلفة.

وكان لسياسة الدولة واتجاهها أثر على توجيه هذه المجالس مما يعكسه المجلس الذي عقد للتحكيم بين علماء البصرة والكوفة، وبالتالي بين سيبويه والكسائي، حول المثل العربي القائل : "كنت أظن أن الزنبور أشد لسعا من النحلة، فإذا هو إياها"، في نظر الكسائي، و"فإذا هو هي "، في نظر سيبويه.

وانتصر الأمين للكسائي استاذه، وأيد المأمون سيبويه، فحكم الرشيد لصالح الكسائي الكوفي، على حساب سيبويه البصري، رغم خطئه، مناصرة منه لأهل الكوفة الذين أيدوا الدولة العباسية، والذين كانوا في مجادلات علمية وأدبية ولغوية ودينية... مستمرة مع أهل البصرة.

وتفطن سيبويه إلى ذلك فرحل عن بغداد إلى فارس (70).

وكان المأمون أعلم خلفاء الإسلام إلى وقته، فعمل على تطوير المجالس العلمية، وإغنائها وإثرائها، وإخضاع نتائجها النظرية للمناقشات والمجادلات والحوار، وبالتالي للتجربة العملية الميدانية.

فقد جعل دار السلام عاصمة العلم الكبرى، وزودها بخزائن عديدة للكتب المختلفة، المؤلفة والمترجمة لجميع الأمم.

وزود هذه المكتبات الكبيرة بأجنحة خاصة للنسخ والترجمة (71).

وعكف مع كبار علماء عصره -في مجالس خاصة مغلقة - على مناقشة العلماء ومباحثة الحكماء، ومناظرتهم جميعا (72)، وذلك بالطريقة التجريبية

---

(69) المصدر الأول و ج، ص: 147-148.

(70) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 3، ص: 89-90 و160.

(71) المصدر السابق، وج، وص.

(72) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نوهض، ج:1، ص: 148.

المخبرية التي أخذوها عن يونان الإسكندرية، وليس بالطريقة النظرية التأملية ليونان أوربا.

وبموازاة هذه المجالس الخاصة التجريبية النظرية المغلقة، كان المأمون يرأس مجالس علمية عامة جهارة في قصره، للدفاع عن العقيدة والشريعة الإسلامية أمام خصومها، بالحجة والبرهان، والمناظرة والجدال، والإقناع، على أساس علم الكلام، وبواسطة المتكلمين، وخاصة بعد أن ظهر القول بخلق القرآن(73) .

فقد شمر المأمون لذلك، وأخذ يعقد المجالس المطولة للمناظرة حول ذلك كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع (74).

وكان المأمون يعتز بعلماء مجالسه العلمية، ويقول عنهم بافتخار: "إنهم صفوة الله في خلقه، ونخبة من عباده، صرف أعناقهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، فكانوا مصابيح وسادة البشر" (75).

وإلى جانب المناظرة حول قضية القول بخلق القرآن، وزيادة على مجالسه العلمية التجريبية – النظرية يوم الثلاثاء الخاصة المغلقة (76) كان يعقد مجالس عامة خلال بقية أيام الأسبوع، تضم المتكلمين وغيرهم من أهل الملل والنحل، يتجادلون ويتباحثون في الكُمُون، والظهور، والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، وغيرها من المواضيع الفلسفية، وذلك على أساس قواعد علم الكلام (77).

ويرى ابن خلدون أن بدعة التشبيه والتجسيم، وبالتالي الإعتزال،ثم محنة خلق القرآن نشأت من النظر في الآيات المتشابهة، بل حتى نشأة علم الكلام في نظره تعود إلى هذه الآيات المتشابهة، لأن النظر فيها أدى إلى ما حدث من حوار وجدال بين الفرق والمذاهب، ومختلف الملل والنحل،مما كانت نتيجته الحتمية نشأة علم الكلام (78).

---

(73) المصدر السابق وج، ص:147، ط:4 دار الفكر.

(74) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص:162، والمسعودي ج: 2، ص: 231

(75) حاضر العالم الإسلامي، للوثروب استودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، ص:151.

(76) تاريخ التمدن الإسلامي، لجورجي زيدان، ج: 3 ، ص: 223.

(77) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 162 المسعودي ج: 3، ص: 202.

(78) المقدمة، لابن خلدون، ص:463، ونشأة الأشعرية لجلال محمد، ص:85 ط: 1، دار الكتاب اللبناني بيروت.

والواقع أن هذه الملل والنحل كانت موجودة منذ العصر الجاهلي، إذ نجد المقدسي في البدء والتاريخ عند الكلام عن شرائع أهل الجاهلية يقول : " كان فيهم من كل ملة ودين، فكانت الزندقة والتعطيل في قريش، والمزدكية والمجوسية في تميم، واليهودية والنصرانية في غسان، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم(79) ".

والحقيقة أن هذه البذور كانت منذ عهد الجاهلية - كما مر بنا - وأن هذا الدس بدأ مند فجر الإسلام (80).

ويرى بعض الباحثين أن المأمون العباسي اهتم بجمع المجالس العلمية، وخاصة حول قضية خلق القرآن، لإزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية وتثبيت عقيدة من زاغوا عن الإسلام من الملحدين والصابئين والمارقين(81).

أما الحقيقة التاريخية لمحنة خلق القرآن، فهي أن المأمون كان يميل للأخذ بمذهب المعتزلة، باعتباره أكثر حرية واعتمادا على العقل، فقرب علماء هذا المذهب حتى أصبح لهم نفوذ كبير في قصره، وبالتالي على سير واتجاه مجالسه العلمية الخاصة والعامة وغيرها (82).

المجالس العلمية في العصر العباسي الثاني :

استمر الخلفاء في العصر العباسي الثاني -بعد المعتصم - على تقديم العلماء وإقامة المجالس العلمية، لكن مستوى هذه المجالس تدهور، وأصبحت شكلية ومظهرا من مظاهر العظمة للدولة، أو قطعة من ديكور واجهاتها المختلفة، وطقسا من طقوسها المقدسة.

ذلك أن محنة خلق القرآن، وامتحان الأئمة من العلماء الكبار، زعزع إيمان الناس بالمعتزلة، وشحذ إيمانهم بأهل السنة والجماعة من المحدثين

---

(79) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص:88، والبدء والتاريخ للمقدسي ج:4ص:31.

(80) نشأة الأشعرية لجلال محمد، ص : 88، مقدمة تبيين كذب المفتري للكوثري،ص:10.

(81) تاريخ الإسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ج: 2، ص: 223، ط: 7، مكتبة النهضة المصرية.

(82) المصدر السابق، وص ونشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص:187،ط : 1، دار الكتاب اللبناني بيروت.

السلفيين. كما أن الخليفة المتوكل العباسي م : 234 هـ، ألقى بثقله في الميزان حين منع المناظرة والجدال، وقرر العودة إلى التقليد والتسليم، وأصدر أوامره للمحدثين بالعمل على نشر السنة النبوية على أوسع نطاق. فكانت تعليماته هذه إنذارا للمعتزلة بأن يتركوا الساحة(83). لكن الذي حدث بالفعل هو أن المعتزلة ظلوا بالساحة. لكنهم أوقفوا نشاطهم السياسي فقط، وإلا فقد ظهر بعد ذلك كل من الجاحظ، م: 256هـ، والخياط م: 290 هـ، وأبي علي الجبائي،م:303هـ وولده أبي هاشم، م:321 والكعبي م: 319 هـ، وهؤلاء يشكلون رموز المعتزلة خلال العصر العباسي الثاني.

ولا أدل على ذلك من المناظرة التي جرت بين ابن كلاب، وأبي الهذيل العلاف، م : 722 هـ أيام الخليفة العباسي الواثق، وكذا مناظرة القلانسي للنظام، وكتابته في الرد عليه (84).

بل إن هذه المجالس عقدت حتى أيام المتوكل نفسه، إذ يرون أنه بعد مجلس من مجالسه هذه نثر مالا جليلا على المنتصر فتناهبه الأمراء والقواد بين يديه(85).

واستمر الحال على هذا – حتى بعد انهيار الخلافة العباسية – باستقلال أجزائها، وظلت المجالس العلمية تعقد للبحث والمناظرة وغيرهما في الدول التي خلفت الخلافة العباسية، أو تفرعت عنها، سواء بآسيا أو إفريقيا أو الأندلس، وذلك في قصور الملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم، ممن اسْتَبدُّوا بالحكم وخرجوا عن سلطة الخلافة، كالأمويين بالأندلس، والفاطميين بإفريقيا ومصر، والأيوبيين بمصر والشام، والحمدانيين بحلب(86).

---

(83) نشأة الأشعرية، لجلال محمد، ص: 180–186، ط:1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(84) م: 231هـ.

(85) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج: 1، ص: 322 ط: 2، المطبعة الهندية بمصر.

(86) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، للدكتور النشار، ونشأة الأشعرية، لجلال محمد ،ص:33.

المجالس العلمية للإمارات المستقلة عن الدولة العباسية :

ومن أشهر المجالس العلمية بهذه الدول الجديدة المستقلة عن الخلافة العباسية(87) : مجالس صلاح الدين الأيوبي، وسيف الدولة الحمداني، ونظام الملك، وزير ملكشاه، والحكم المستنصر الأموي بالأندلس وغيرها(88).

وكان نظام الملك الطوسي، وزير ملكشاه السلطان السلجوقي، من أول من أنشأ هذه المجالس أواسط القرن الخامس الهجري، سنة 457هـ، وكان يحضر هذه المجالس شخصيا، ويناظر علماءها، وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي، وأبو إسحاق الشيرازي.

وما إن استقل سيف الدولة الحمداني بحلب حتى أنشأ بلاطا، وجمع حوله نخبة من العلماء والأدباء والشعراء، "ولم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر" كما قال بن خلكان.

فكان يعقد لهم مجلسا علميا كل ليلة، حيث يناظرهم شخصيا بمنتهى التواضع واللياقة، كما كانوا يتناظرون فيما بينهم بحضرته. ومن ذلك مناظرة جرت بين المتنبي وابن خالويه، تطورت إلى مشاجرة بينهما، حيث ضرب ابن خالويه الشاعر الكبير المتنبي بمفتاح حتى شج رأسه، فغادر المتنبي على إثر ذلك مجلس سيف الدولة وبالتالي حلب -وهو حزين مجروح- وظل يحن إلى فردوسه المفقود (89). ذلك أن سيف الدولة كان حاضرا، لكنه لم يتدخل لحماية المتنبي، فخرج مغاضبا، وذلك سنة 346هـ-957م، لكنه ظل يحن للعودة إلى سيف الدولة، ويمدحه منتظرا دعوته إياه من جديد (90).

أما عن المجالس العلمية للدولة الأيوبية فإننا نجد لدى، ابن خلكان في وفياته أن ابن دحية السبتي -أحد كبار علماء المغرب- رحل إلى المشرق، فأكرم الكامل الأيوبي وفادته، وأنشأ له المدرسة الكاملية للحديث في القاهرة سنة 622هـ(91).

---

(87) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 162، وطبقات الأطباء، ج: 1، ص: 175.

(88) المصدر السابق، ج: 5، ص: 162، ووفيات الأعيان، لابن خلكان، ج: 2، ص: 235.

(89) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، ص: 602، ط: 5، المكتبة الدولية بيروت.

(90) ديوان المتنبي، ص: 5، المكتبة الثقافية بيروت.

(91) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، المجلد: 5، ص: 155، دار الثقافة، بيروت – لبنان.

وكانت دروس هذه المدرسة عبارة عـن مجالس علمية حديثية، يحضرها السلطان الكـامل الأيوبي بنفســه، حيث تدور منـاظرات قيمـة بين علمائها وغيرهم، وقد أسند رئاستها بعده لأخيه عثمان، ثم لأبيه شرف الدين (92).

كما كانت للسلطـان صلاح الدين الأيوبي مجالس علميـة وأدبية زاهرة، ويكفي أن نعلم أن ضيـاء الـدين بن الأثير كـان من أقطـاب ورواد هـذه المجالس، وكتب لصلاح الدين ولأبنائه من بعده (93).

ولما استقرت الـدولة الفـاطمية بمصر، أنشأ وزيـرها يعقـوب بن كلس مجالس علمية للمنـاظرة في الفقه، والأدب والشعـر، وعلم الكلام، وغير ذلك من علوم العصر.

وكـان هدف الـدولة من وراء ذلك منـاصرة مذهب الشيعـة الذي قـامت دولتهم على أساس، توطيد دعائمه.

لذلك كان الحاكم بأمر الله الفاطمي يحضر هذه المجالس، ويناظر العلماء ويفاوضهم، ويمكنهم من وسائل البحث، ويسهل عليهم المناظرة التي كانت تقام بدار الحكمة، التي أنشأها الخليفة المذكور في القاهرة لهذا الغرض(94).

واهتم خلفاء الدولـة الأموية في الأندلس بإقامـة هـذه المجـالس العلمية ولا سيما الحكم المستنصر، الذي دعم مجالسه العلمية بمكتبة عظيمة، تضم أكثر مـن اربعمائة ألف كتاب. فقـد كان هذا الخليفـة من أكبر علماء عصره، ومن ثم كان ينـاظـر علماء مجالسه ويحاورهم، ويشـارك مشاركـة فعالة في التوصل إلى النتائج الإيجابية للمواضيع المطروحة في هذه المجالس(95)، وإذا كان عهـد ملوك الطـوائف عهد انحطاط سيـاسي وانهيار عسكـري فإنه من الناحية الثقافية والفكريـة بعث نهضة علمية وأدبية تضاهي أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية بالشرق العربي.

---

(92) الأدب المغربي من خـلال ظواهره وقضايـاه، لعباس الجراري، ج: 1، ص: 145، مكتبة المعارف بالرباط.

(93) تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري، ص : 751، ط : 5، المكتبة الدولية، بيروت.

(94) تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان ج : 3، ص : 162.

(95) تاريخ التمدن الاسـلامي،لجرجي زيدان، ج :5، ص 162، ووفيات الاعيـان، لابن خلكان، ج: 2، ص : 235.

وإذا كان اهتمام الخلفاء في الدولة العباسية، والملوك والسلاطين والحكام في الدويلات المستقلة عنها موجهاً بالدرجة الأولى إلى المجالس العلمية لأهميتها بالنسبة لسياسة دولتهم، وتوجهاتها، وما يواجهها من مشاكل وأخطار على الصعيدين الداخلي والخارجي، فإن المجالس الأدبية واللغوية احتلت المكانة الثانية بالنسبة لهذه المجالس، وكانت مقتصرة على الفنون الأدبية، والعلوم اللغوية، والنحوية واللسانية دون غيرها، كما كان شأنها أيام الدولة الأموية(96).

وكانت للشعراء حظوة ملموسة بالنسبة لغيرهم من الأدباء، فقربوهم، وأجزلوا عطاءهم، وخصوهم بمجالس لا يدخلها غيرهم، باستثناء المنصور العباسي، الذي كان منصرفا عنهم، لانشغاله عنهم بتوطيد دعائم الدولة، فكانوا في أيامه يتحسرون على أيام بني أمية (97).

ولتلازم الشعر والغناء فقد اهتم خلفاء الدولة العباسية، ثم الملوك والسلاطين بالدويلات المستقلة عنها بالغناء، إلا في الأوقات الحرجة التي تجتازها دولهم، فإنهم كانوا يعزفون عنه خلالها.

ولم تلبث هذه الطقوس والعوائد أن رفعت وأزالت هيبة الخلفاء، حتى أبيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم (98).

وكان من أدب هذه المجالس ألا يأمر أحد بالمجلس غير الخليفة (99)، وقد اتخذوا الحجاب (100)، ثم جعلوه عدة أستار كالبرامكة (101).

---

(96) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 162، والمسعودي، ج: 3، ص: 202، وابن خلكان، ج: 5، ص: 480.

(97) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 160، والأغاني للأصبهاني، ج: 12، ص: 91-102.

(98) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص :155، والمسعودي، ج: 2، ص: 261.

(99) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 156، والعقد الفريد، ج: 3، ص: 111.

(100) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج: 5، ص : 157، والمسعودي، ج: 1، ص: 106.

(101) تاريخ التمدن الاسلامي، لجرجي زيدان ج : 5، ص : 157، والفرج بعد الشدة، ج: 2، ص: 23، والمستظرف، ج: 1، ص: 164 .

كما اتخذوا لقصورهم عدة أبواب (102)، واتخذ كل منهم إشارة لإعلام جلسائه بانتهاء المجلس، ووجوب انصرافهم. وعند الخروج من المجلس يمشون القهقرى إلى الوراء (103).

المجالس العلمية على عهد الأدارسة (104) :

لم يكن عهد الولاة بالمغرب يسمح بإقامة مجالس علمية من أي نوع، اللهم ما كان يلقى بالمساجد والمدارس والرباطات من دروس دينية كخطب الجمعة، وما إلى ذلك من الخطابة الدينية الحافزة على الجهاد، والشهادة في سبيل الله.

ذلك أن عهد الولاة كان عهد الفتح الذي استهدف نشر الدين الأسلامي، واللغة كأداة له، باعتبارها لغة القرآن، إذ واكبت اللغة الفتح بكل الأصقاع، وتعرضت حركة التعريب لنفس الهزات والمصاعب التي اعترضت نشر الإسلام، كما استهدف الفتح توطيد صرح الدولة الإسلامية -بتعريب البربر- وبالتالي التمكين للوجود الإسلامي وللإمبراطورية الإسلامية في شمال إفريقيا، وهي الرسالة المقدسة الخالدة التي قام بها على التوالي كل من حسان بن النعمان، وعقبة بن نافع الفهري، وموسى بن نصير رفقة طارق بن زياد.

وجاءت الدولة الإدريسية، فحققت هذه الأهداف على أوسع نطاق، فانتشر الإسلام، وفي ركابه اللغة العربية، ودخل المغاربة في دين الله أفواجا عن طواعية واختيار، وبعصامية والتزام، حبا لآل البيت، وتعويضا لهم عما قاسوه من عسف وغبن....

وما إن وضع المولى إدريس أسس دولته العربية المسلمة، حتى تقاطرت عليه وفود العلماء والشرفاء والنبهاء من المشرق، والقيروان، والأندلس، من أنصار الأسرة النبوية الشريفة الذين ضاقوا ذرعاً باضطهاد كل من الأمويين، ثم العباسيين على التوالي، فكون منهم حاشيته وبطانته،

---

(102) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج: 5، ص: 157.

(103) المصدر السابق، و ج، ص : 157–158 .

(104) نسبة إلى المولى إدريس، الذي فر من وقعة فخ، سنة 169هـ، في عهد الهادي العباسي.

وأسند إليهم المهام الجسيمة في دولته الفتية، كأطر عليا وخبراء ومستشارين.

وكانت هذه النخبة النيرة بذرة المجالس العلمية للمولى إدريس الأكبر التي كانت تجتمع لوضع المشاريع والمخططات الضرورية لسير الدولة، وكذا لوضع القوانين والأنظمة، واستنباط الأحكام لمواجهة مستجدات الحياة اليومية، وبالتالي لطرح المشاكل التي تواجه الدولة بالداخل والخارج، ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها على مختلف المستويات والأصعدة.

وإذا كان نشاط هذه المجالس أصيب بشيء من الفتور بعد مقتل المولى إدريس الأول أو الأكبر، فإنها لم تلبث أن عادت إلى سابق عهدها وأحسن، ببيعة المولى إدريس الثاني أو الأصغر الذي تابع سياسة والده المنعم، وسار على دربه ونهجه الحكيم.

فقد كانت بيعته -رغم صغر سنه- فاتحة عهد جديد في حياة المغرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وبالتالي الفكرية والثقافية، ذلك أنه في عهده، تضاعف عدد الشخصيات الوافدة عليه من كبار العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء من المشرق والقيروان والأندلس، خاصة الذين أصبحوا يكونون مع الوافدين الأوائل في عهد والده، ومع الأطر المغربية الجديدة التي تكونت بين الفترتين طلائع الأمة المغربية، والنخبة المثقفة التي صارت تتبادل الرحلة مع الشرق والأندلس، في إطار التعاون الثقافي.

وكان على رأسهم : عبد الله بن سعادة الفاسي، ودراس بن إسماعيل، وأبو عمران الفاسي(105).

وهؤلاء وأولئك الوافدون من الشرق، أو المتوجهون إليه من العلماء والمفكرين وغيرهم، هم الذين كانوا يعقدون المجالس العلمية الحقيقية للتباحث في قضايا العصر الفكرية والثقافية والدينية وغيرها، وهم الذين كانوا مؤهلين وحدهم للقيام بهذا الدور الطلائعي كرواد أوائل للفكر الإسلامي العربي في هذه الربوع المغربية. لذلك أخذ علماء عهد المولى إدريس الثاني، وبالتالي علماء مجالسه العلمية، بالمذهب المالكي السني.

---

(105) دعوة الحق، ع:4، س: 10، ص: 34، 1967، عناية الملوك المغاربة بالحديث النبوي الشريف، لرضا الله ابراهيم الإلغي.

ذلك أن المولى إدريس كان هدفه تدعيم ملكه، فقد تفطن بذكائه لنفور المغاربة من مبادئ الشيعة، وعدم استعدادهم لتقبلها، رغم أن الأدارسة كانوا زيديين، أي من أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وقربا من أهل السنة والجماعة، وبالتالي لتعاطف المولى إدريس مع الإمام مالك الذي يروي في الموطأ عن والد المولى إدريس عبد الله الكامل، وكذا لموقف مالك المناصر لأخي المولى إدريس، محمد النفس الزكية، حيث أفتى –عند قيامه ضد أبي جعفر المنصور– بأن بيعة المنصور لا تلزم، لأنها تمت بالإكراه، وامتحن بالجلد والتطويف، لإفتائه ببطلان طلاق المكره، وبسقوط يمين الإكراه عموما.

وبذلك كانت مجالس المولى إدريس تعقد في أحضان المذهب المالكي(106).

المجالس العلمية على عهد الدولة المرابطية :

من المعروف أن يوسف بن تاشفين كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويكثر من تلاوته، كما كان محبا للعلم، مكرما ومقربا للعلماء والفقهاء، ذا فصاحة باللغتين : العربية والبربرية، مع لحن في العربية.

وكانت مجالسه العلمية غاصة بالعلماء والفقهاء والأدباء، فكان مولعا بمذاكرتهم ومناظرتهم في المسائل الدينية والدنيوية. كما ثبت بما لا يترك المجال للشك أنه كان يعتني في هذه المجالس بسرد حديث رسول الله (ص)، ولاغرو فقد كان من أنبه تلاميذ مدرسة عبد الله بن ياسين الجزولي، الذي لازمه منذ أن دخل بلادهم، إلى أن مات هذا الشيخ الجليل(107) .

وما كان رباط عبد الله بن ياسين إلا مجلسا علميا متواصل الجلسات والانعقاد آناء الليل وأطراف النهار، ولا أدل على ذلك من قول المراكشي(108): «...فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة –الأندلس– من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته بني العباس في صدر دولتهم».

ويعتبر عبد الله بن ياسين الجزولي في طليعة رواد خريجي هذه المدرسة النموذجية، أو المجلس العلمي العتيد.

---

(106) المغرب قبل الاستقلال، لعبد الرحيم سلامة، ص: 15–16، ط: 2، دار الثقافة – الدار البيضاء.

(107) البستان الظريف، للزياني، ص: 67.

(108) المعجب، للمراكشي ص: 243.

ولم يكن يوسف بن تاشفين بدعا في كل ذلك، بل إن أمراء المرابطين اغترفوا من معين العربية بأوفر نصيب، وكانت مجالسهم العلمية والأدبية الزاهرة مضرب الأمثال، وموضوع روايات كثيرة تضمنتها كتب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،) و«قلائد العقيان» (109).

كما كان أمير صنهاجة يحيى بن إبراهيم الكدالي من أقطاب تلاميذ وأساتذة هذه الرابطة المباركة، والرباط المجيد الذي يصدق في حقه الحديث النبوي الشريف "لا يزال أهل المغرب قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (110).

وذلك بشهادة العلامة أبي بكر الطرطوشي، الذي كتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رسالة يؤكد فيها أن المغاربة هم المقصودون بهذا الحديث النبوي الشريف، بدليل أن الطوائف الضالة لم تؤثر فيهم كما أثرت في غيرهم من أقطار الشرق العربي الإسلامي.

وسار ولده وخليفته علي بن يوسف بن تاشفين على نفس النهج، من تقديم العلماء والفقهاء، واستشارتهم، والأخذ برأيهم في السراء والضراء، بعد أن استقطب لمجالسه العلمية صفوتهم من مختلف أنحاء دولته المترامية الأطراف، من عواصمها ومدنها وقراها...

ولعل أهم مجلس علمي عقد على عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، هو ذلك المجلس المشهود الذي دعا إليه العلماء والفقهاء، لمناظرة محمد بن تومرت الملقب بالمهدي (111)، واختبار أمره.

المجالس العلمية على عهد الدولة الموحدية :

ازدهرت النهضة العلمية على عهد الموحدين أيما ازدهار بفضل الأرضية الخصبة التي مهدها وهيأها لهم المرابطون، والبذور الطيبة التي زرعوها فيها، وجاء الموحدون لقطف أزهارها الندية وجني ثمارها الناضجة الدنية.

---

(109) دعوة الحق،ع: 6و7، س: 9، ص: 104-107، دراسات مغربية البربر عربوا المغرب.

(110) رواه مسلم عن ثقاة الصحابة.

(111) مجلة المناهل ع: 9، ص: 151 وما بعدها دراسة حول رسائل ابن العربي، التي تسمى رحلة أبي بكر ابن العربي، للدكتورة عصمت دندش.

فالحقيقة التي لا غبار عليها أن المرابطين هم الذين وضعوا الأسس المتينة التي شيد عليها الموحدون صرح نهضتهم الثقافية والحضارية والفكرية وغيرها، التي يتباهى بها تاريخ المغرب.

ولا أدل على ذلك من أن جل العلماء والأدباء والشعراء الذين ازدهى بهم عصر الموحدين، إنما تم تكوينهم المادي والروحي في مدارس المرابطين ورباطاتهم المشعة، التي قامت على هدى من الله ورضوانه، وبالتالي في مجالسهم العلمية النيرة، ناهيك بالقاضي عياض، وابن رشد، وابن الطفيل...

وقد قام الموحدون بدور إيجابي فعال لاستثمار كل ذلك، وعززوه بمبادرات ومواقف خالدة صهرته في بوتقتهم، فشيدوا حضارة عظيمة، وبعثوا نهضة شاملة، انعكست مظاهرها على جميع مجالات الحياة، ولاسيما الثقافية منها، ولازالت معالمها ماثلة للعيان تنافس الدهر البقاء، شاهدة على عظمتهم وجدارتهم....

ذلك أن جل خلفائهم كانوا علماء كبار، ومفكرين أفذاذا، ومؤلفين بارعين باللغة العربية، باعتبار أن اللغة الرسمية للدولة المغربية، كانت ولازالت وستبقى هي اللغة العربية العتيدة.

لذلك كانت مجالسهم ومجامعهم العلمية تعج بكبار المفكرين والعباقرة، الذين أنجبهم العالم العربي والإسلامي في عصرهم.

وكانت لمجالسهم العلمية هذه -التي أسموها بالمجامع- طقوسا وبروتوكولات خاصة تختلف عن تلك التي عرفناها بالمشرق شكلا ومضمونا، لما تميزت به من تقشف ووقار.

وكان الخلفاء الموحدون يعقدون مجالسهم أو مجامعهم العلمية مع أشياخ علماء الموحدين، وكبار العلماء الواردين عليهم من الأصقاع (112).

وكانت هذه المجالس العلمية حافلة بالجدال والمناظرة، والدراسة والبحث في أنواع العلوم والفنون، التي تختلف باختلاف رواد هذه المجالس، التي كانت زاخرة بكبار العلماء والأدباء والأطباء والفلاسفة المغاربة والواردين، الذين يكلف باستقطابهم واستجلابهم علماء كبار، كأبي بكر بن الطفيل من

---

(112) المعجب للمراكشي، ص: 227، والعلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 39 .

طـرف يـوسـف بن عبـد المؤمـن، ويؤكـد لنا ذلك المراكشي بقـوله (113):
"ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبهه عليهم، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم".

كما درج الموحدون على مكاتبة البلـدان لاستجلاب العلماء إلى عاصمتهم من أهل كل فن، وخاصة علم النظر.

ولم تكن هذه المجالس مقتصرة على علم أو فن معين فقط، بل خصصوا لكل علم مجلسـا من العلماء ذوي الكفاءة والاختصـاص فيه، فهـذا مجلس للمناظرة في علم الأصول، وذاك مجلس للمذاكرة في الآداب المختلفة(114)....

وكانوا يفتتحـون هذه المجالـس بطرح مسألـة علميـة معينـة من طرف الخليفـة نفسه -وهو ما كـان يفعلـه عبـد المؤمـن وولـده يوسـف (115) - أو تلقى نيـابـة عنـه، من طـرف الأجلـة من العلماء الحاضرين، وتعطى الأولويـة في حق الكلام حسـب مراتب الجلوس بـالمجلس، بحيث يتـوسطه الخليفة ويَـحُـفُّ به أقطاب الأئمة والشيوخ، ثم رئيس الأطباء، فكبار علماء العاصمة، ثم بقية العلماء الحاضرين على اختلاف مراتبهم (116).

ولا بأس من استعراض نبـذة عن المجالس العلمية لأشهـر وأعظم خلفاء الدولة الموحدية.

فقد كان عبد المومن بن علي يعقد مجالس أدبيـة وعلمية عالية المستوى، تضم علماء المغرب والعلماء الـوافدين عليـه، والمستقطبين من طرفـه، الذين اتخذ منهم جميعا بطانته (117).

كما كانت لعبد المومن مجالس علمية جد خاصة (118) انتقى لها صفوة الشيوخ والأئمة من العلماء والفقهاء، والأدباء والشعراء المرموقين، واختصهم بـالاستشارة، وتبـادل الـرأي في القضـايا الكبرى، والأمـور الجسيمـة التي تعترض دولته، وأبـرزهم: القاضي يوسف بن حكم، والفقيه القـاضي الكاتب

---

(113) المعجب للمراكشي، ص: 158، والعلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 39.
(114) العلوم والآداب والفنون، للمنوني، ص: 39، وطبقات الأطباء، ج: 2، ص: 78-81.
(115) المعجب للمراكشي، ص: 227، والعلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 39.
(116) العلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 40، طبقات الأطباء، ج: 2، ص: 74.
(117) الأنيس المطرب لابن أبي زرع، ص: 308، دار المنصور الرباط.
(118) المصدر السابق و ص.

علي المغيلي، والفقيه الأديب مالك بن المرحل، والفقيه الكاتب أبو عمران التميمي، والفقيه الأديب الشاعر عبد العزيز الملزورتي، وأبو شعيب بن سعيد الصنهاجي(119)، وأحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي(120)، وأحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي، مؤسس مدرسة قرطبة في النحو، وذلك لكون عبد المومن كان عالما وفقيها كبيرا وأديبا يأخذ نفسه حتى بنظم الشعر (121).

وكان من أعلم علماء الدولة الموحدية على الإطلاق أبو يعقوب المنصور، الذي يرجع إليه الفضل في النهضة العلمية والأدبية التي ازدهرت في هذا العصر، وشع نورها في جميع الأنحاء إلى شخصيته العلمية الفذة.

فقد كان عالما فقيها، مفتيا باجتهاده، محدثا ومصنفا في جمع الأحاديث الصحيحة (122)، كما كان أديبا شاعرا، محبا للفلسفة (123)، -بعد أن تراجع عن اضطهاد الفلاسفة، وعلى رأسهم ابن رشيد، واصطفاه ليطلعه على أسرارها-.

فواظب على عقد مجالس علمية حافلة داخل قصره، بحضور كبار موظفي الدولة وعلمائها.

وكان يخصص لكل علم من العلوم يوما من أيام الأسبوع، فيوم لمجلس الفقهاء، وآخر لمجلس الأدباء، وثالث لمجلس الأطباء (124)، وهكذا. وكان يختار فحول وفطاحل كل علم لمقارعتهم في اختصاصاتهم.

---

(119) المعجب المراكشي، ص: 484، وإعلام المغرب لابن منصور ج: 2، ص: 196.

(120) أعلام المغرب لابن منصور ج: 3، ص: 318-321، والإحاطة، ج: 1، ص: 182، والتاج، ص: 5، والأعلام للزركلي، ج: 1، ص: 146.

(121) أعلام المغرب لابن منصور ج: 3، ص: 357-359، والأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 308، دار المنصور بالرباط.

(122) نفح الطيب، ج: 2، ص: 99، ط: القاهرة، وعصر المنصور الموحدي، لرشيد ملين، ص: 148 المطبعة المحمدية -الدار السلطانية- .

(123) المعجب المراكشي، ص: 190، ط: الرباط، وعصر المنصور الموحدي، لرشيد خليل، ص: 148 .

(124) طبقات الأطباء، لابن ابن اصيبعة، ج: 2، ص: 78-81، وعصر الموحدين لرشيد ملين، ص: 148، المطبعة المحمدية -الدار السلطانية-.

وكان يعطي اهتماما خاصا لمجالس علمي التفسير والحديث، وبالتالي لعلمائهما الذين نالوا حظوة كبيرة لديه، فظهر أئمة وحفاظ في التفسير والحديث، كعلي بن محمد بن عبد الملك بن القطان م. 628(125).

وكل ذلك كان على أساس مذهب الظاهرية، لإعجابه بإمامه ابن حزم بن محمد الذي قال عنه : "كل العلماء عيال على ابن حزم" (126).

ومن مظاهر هذا الاهتمام، حرصه على ختم القرآن الكريم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك كما فعل بقرطبة سنة 593هـ-1197م، حيث جعل ذلك الختم مسك الختام لغزوته الثالثة للأندلس (127).

وبلغ من اهتمامه بمجالسه العلمية أنه كان حريصا على أن يصحب علماءها في غزواته تبركا بهم، إذ كان يعدهم أهم من جنوده باعتبار أن دعاءهم من أقوى أسلحته، وكان يقول عنهم : " إنهم الجنود لا هؤلاء»(128) .

وكان يرأس مجالسه العلمية ويطرح بنفسه القضايا والمسائل على علمائها الحاضرين، ويشاركهم المناقشة والمناظرة والجدال (129) في حلولها وممن حظي باختياره للحضور في مجالسه العلمية المذكورة : الحافظ أبو بكر بن الجد، ويحيى بن أبي الحجاج، ومعلم أولاده عبد الله بن سليمان بن حوط، والطبيب الأديب بن زهر، وابن رشد، وأحمد بن يحيى ابن السعود العبدري (130).

---

(125) عصر المنصور الموحدي، لرشيد ملين، ص: 226-229.
(126) مذهب الظاهرية يحتم الأخذ بظاهر كلام الله تعالى، مالم يمنع من ذلك نص أخر، أو بإجماع، أو ضرورة
(127) البيان المغرب، ص: 201، ج: المتعلق بالموحدين، ط: تطوان.
(128) يريد بهؤلاء عسكره وجنوده.
(129) عصر المنصور الموحدي لرشيد ملين، ص: 150، والمعجب للمراكشي، ص: 211.
(130) عصر المنصور الموحدي لرشيد ملين، ص: 150، ونفح الطيب للمقري التلمساني، ج: 1، ص: 75، وأعلام المغرب العربي لابن منصور، ج: 3، ص: 369، و ج: 4، ص: 24-25.

وكان يعقد امتحانا للعلماء فلا يحضر مجالسه منهم إلا من نجح في ذلك الامتحان، وأثبت فيه كفاءته وأهليته لهذا الشرف، ومن ذلك اختباره للمحدث الكبير أبي عمر بن غاث (131).

كما كانت له مجالس خاصة بالخطباء، الذين كانوا يتبارون بمحضره لاختيار أفصحهم، وأكثرهم براعة وقدرة على ارتجال الكلام، وإقناع السامعين (132).

وكان يرأس مجالس الأطباء ومؤتمراتهم التي يقابلون فيها بين نظرياتهم وملاحظاتهم فيما بينهم، وبالتالي بين نظريات غيرهم، على أساس الدراسة والبحث والمقارنة والتجربة العلمية.

أما مجالسه العلمية الخاصة بالشعر والشعراء فقد طغى عليها الشعور الديني، فكانت جل القصائد التي تلقى فيها بين يديه تدور حول الأغراض الدينية كالزهديات والمدائح النبوية، ثم في غرض المدح الحماسي للمنصور وأعماله وملاحمه البطولية (133).

أما من حيث شكل هذه المجالس العلمية للموحدين بصفة عامة، وتقاليدها المرعية، باعتبارها مجالس للخلفاء، فكانت تطبعها الجدية ومراعاة آدابها الملوكية التي لا يغتفر الأخلال بها (134).

وكانت هذه المجالس تختتم دائما بالدعاء من قبل الخليفة جهرا، وبالتأمين من طرف الوزير (135)، ولم تكن هذه المجالس تتوقف حتى خلال سفر الخلفاء، مع اختلاف شكلها بما يتلاءم وظروف السفر(136).

---

(131) نفح الطيب للمقري التلمساني، ج: 1، ص: 369، عصر الموحدين لرشيد ملين، ص: 151-152، المطبعة المحمدية، الدار السلطانية.

(132) عصر المنصور الموحدي لرشيد ملين، ص: 171، المطبعة المحمدية -الدار السلطانية-.

(133) المصدر السابق ص: 201-202.

(134) العلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 40، والبغية، ص: 62.

(135) المصدر السابق و ص، والإعلام ج: 3، ص: 85.

(136) العلوم والآداب والفنون للمنوني، ص: 40، والمعجب المراكشي، ص: 227.

المجالس العلمية على عهد الدولة المرينية :

كانت المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة المرينية مشعلا مشعا للعلم والمعرفة في أرجاء البلاد، وانعكس سناؤه حتى تجاوز حدود البلاد لما وراءها من الأقطار. كما كانت هذه المجالس مدرسة عليا قائمة الذات، تخرج منها عباقرة الفكر المغربي العربي والإسلامي، والإنساني، أمثال: ابن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، وابن بطوطة، والمسداني والعبدوسي، وابن مرزوق (137)، ومحمد بن الفضل بن الصباغ، ومحمد السطي، والعلامة الزواوي (138)....

وقد سجل ملوك هذه الدولة وخلفاؤها سوابق ومبادرات، سواء في رئاسة هذه المجالس وحضورها، أو في المشاركة في مناقشاتها ومناظراتها العلمية والأدبية وغيرها. كما سنوا سننا حسنة في مجال تطويرها، ففازوا بأجرها وأجر من عمل بها بعدهم.

وقد بلغت هذه المجالس العلمية في عهدهم أوج ازدهارها وعطائها على عهد أعظم ملوكها أبي الحسن المريني (139) الذي كان من أبرز علمائها، وفطاحل أدبائها.

وقد نشطت في مجالسه العلمية الدراسة الحديثية (140)، إذ كان مشغوفا بسماع الحديث النبوي الشريف يقرأ بين يديه في هذه المجالس، ولا سيما صحيح البخاري الذي كان يستكثر من قراءته وسماعه (141) ويقول ابن مرزوق في هذا الصدد : -وهو من جهابذة علماء مجالسه العلمية- "أكثر ما كنا نقرأ بين يديه كتاب الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري(142). كما يصف لنا ابن

---

(137) دعوة الحق، ع: 7، س: 6، ص: 38، الفكر المغربي في عصر بني مرين، للحسن السائح.

(138) ترجمة ابن الصباغ في إتحاف الأعلام، ج: 3، ص: 581، وترجمة الزواوي بالروض الهتون، لمحمد بن غازي العثماني، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور ص: 42.

(139) علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب (731-751هـ ـــ 1331-1351م) -دعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، 1384-1964، خصائص المدرسة المرينية بالمغرب لحسن السائح.

(140) دعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، 1384-1964، خصائص المدرسة المرينية بالمغرب لحسن السائح.

(141) المسند الصحيح في مآثر السلطان المريني، لابن مرزوق، ص: 150م.خ.م بالرباط رقم : ق: 111.

(142) المصدر السابق، ص: 154.

مرزوق هـذا -في شرح العمدة- مجلســا علميا لأبي الحسن المرينــي، وكان الموضوع المطروح للمناقشة والبحث "مدى شرعية زخرفة المساجد" (143).

ومن عوامل تطويـر هذه المجالس العلمية في عهده مـده لجسور التبادل والتعـاون الثقـافي والفكـري والعلمي بين علـمائها وعلماء العـالم العـربي والإســلامي، ولا سيــما بمصر عن طـــريـــق المراسلـة، وهـــو نـــوع من المجـالس العلميـة فـريد مـن نوعـه، سَـــنَّــه أبو الحســن المريـني لعلماء عهـده (144).

ومن معـالم تجديـد أبي الحسن المريني لهذه المجـالس العلميـة شكـلا ومضمونـا،سَـنُّـهُ لظاهـرة علمية صـارت متبعة للملـوك من بعده، ألا وهي المجالس العلمية المتنقلة.

فقـد كـان يصطحب معـه في رحـــلاتـه وأسفـاره -وحتى في حملاتـه العسكريـة- العلماء والفقهاء والمحـدثين، وكذا الأدبـاء والشعراء والفـلاسفة وغيرهم من أعضاء مجالســه العلمية المختلفـة، حرصا على استمـرار انعقاد هذه المجالس في ظعنه وإقامته.

ولا أدل على ذلك من حملته على تـونس سنة 748-750هـ التي اصطحب معه فيها كبار علماء مجالسه العلمية وغيرها.

وقد صور لنا ابن خلدون فجيعتهم بقوله : «هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغـرق جماعة منهم في أسطـوله لما غـرق، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم» (145).

وكان ضمنهم أساتـذة لابن خلدون ذكرهم في سيرته الـذاتية (التعريف بابن خلدون)(146).

---

(143) إتحاف إعلام الناس لابن زيدان، ج: 1، ص: 246، م.خ.م، بالرباط، رقم : 12464.

(144) نص الـرسالـة في نفح الطيب، للمقري التلمســاني، ج: 2، ص: 547-544، المطبعة الأزهرية المصرية، ودعـوة الحق، ع: 9، س: 17، ص: 10، 1391هـ-1971م ملامح الحيـاة المغربية في رمضان، لمحمد المنوني.

(145) ودعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجـالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون، ص: 45 دار الكتاب اللبناني - بيروت.

(146) دعـوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجـالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون ص: 45، دار الكتاب اللبناني.

والجدير بالذكر أن نابليون بونابرت اقتبس هذه السنة من أبي الحسن المريني واحتذى حذوه في حملته على مصر سنة 1798-1799م، حيث صحب معه في ركاب حملته على مصر علماء وأدباء وفنانين. وما أكثر أوجه الشبه بين الحملتين في الأبعاد والأهداف والنتائج، وغير ذلك (147).

ولعل أبرز معالم تجديده لمجالسه العلمية، قيامه بتدريس علماء مجالسه العلمية بنفسه (148).

وكانت المجالس العلمية للسلطان أبي عنان المريني (149) تعج بأعلام الفكر والسياسة والأدب من جميع أنحاء مملكته الشاسعة المترامية الأطراف، من تونس وتلمسان والأندلس وسبتة، وهم ينتمون إلى جميع الاختصاصات وفروع العلم والمعرفة وشعبها، الذين ترجم لهم لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة بعد أن تعرف عليهم شخصيا عن كثب، خلال سفارته ورحلته إلى المغرب حيث ظل ضيفا على أبي عنان المريني، وبالتالي على مجالسه العلمية التي كان (150) يحضرها طوال مدة سفارته التي امتدت إلى شهر، والتي ظلت مضرب الأمثال مدة طويلة(151).

واهتم أبو عنان بمجالسه العلمية، إذ كان شغوفا بها، فكان -كوالده أبي الحسن- يجلب لها جهابذة العلماء، ويلزمهم حضور مجالسه العلمية، حيث يتبادلون الأخذ والعطاء على مستوى الفكر الإنساني. ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين استوردهم أبو عنان المريني : العلامة المغاربي الكبير:

---

(147) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 66، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني.

(148) حسب قصيدة للسان الدين بن الخطيب ومنها :

معهد العلم ومسرى المنن   وواحد الدهر وفخر الزمن

(149) أبو عنان المريني ولد بفارس سنة 729هـ، وبويع بتلمسان سنة 749هـ، في حياة أبيه، وخنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي سنة 759هـ.

(150) دعوة الحق، ع: 5، س: 7، ص: 13، 1383هـ-1964م، لسان الدين ابن الخطيب في المغرب، لعبد القادر زمامة.

(151) دعوة الحق، ع: 5، س7، ص: 14، 1383هـ-1964م لسان الدين ابن الخطيب في المغرب، لعبد القادر زمامة.

ابن خلدون، الذي وصف لنا الطريقة التي كان أبو عنان يستجلب بها كبار العلماء مثله (152).

وكان من أقطاب العلماء الذين يتصدرون المجالس العلمية للسلطان أبي عنان المريني، زيادة على ابن خلدون، أبو عبد الله المقري التلمساني الجد صاحب نفح الطيب.

ولعل أهم مظاهر التجديد التي أدخلها أبو عنان على مجالسه العلمية في إطار تطويرها، يتجلى في أنه كان يقوم بتدريس علمائها، وبإجازتهم.

ونجد على رأس من درس عليه في هذه المجالس، وتلقى عنه: العلامة ابن خلدون الذي درس عليه فيها كتاب الجامع الصحيح للإمام البخاري وأجازه فيه (153).

وكان أبو عنان : ".... حسن الثقافة فقيها، يناظر العلماء الجلة فيصيب ويخطئهم، حتى سماه ابن الخطيب " عالم الملوك، وملك العلماء(154).

ولا أدل على ذلك من قول ابن خلدون : " سمعت معظمه -صحيح البخاري - عن السلطان أمير المؤمنين أبي عنان بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن -قدس الله روحه- بدار ملكه من فاس، في مجالس متعددة، وأجازني في سائره."

حدثني أبو عنان به، عن جماعة من الأشياخ الذين كتبوا له بالإجازة من الديار المصرية وغيرها (155).

ومن ملوك بني مرين الذين اهتموا بالمجالس العلمية، وقربوا علماءها في مختلف العلوم والفنون، أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني(156)

---

(152) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص:68، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني والتعريف بابن خلدون ص: 60-61، وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان، ج:1، ص: 305-308، وكتاب أبي عنان إليه، بإتحاف إعلام الناس لابن زيدان، ج:1، ص: 308-310، وجوابه إلى أبي عنان بالرفض ص: 305-308.

(153) المصدر السابق، وص.

(154) روضة النسرين في تاريخ بني مرين، للأمير إسماعيل بن الأحمر ص: 23، ط: باريز.

(155) دعوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 69، 1391هـ-1971م، البلاط المغربي في المجالين الروحي والزمني، د عبد الله العمراني.

(156) ولد سنة 659هـ، وتوفي مجاهدا بالأندلس سنة 685هـ، ونقل إلى شالة، ودفن بمقبرة ملوك بني مرين.

الذي كان يقيمها طيلة شهر رمضان، وكان العلماء المشاركون فيها يقضون الليل عنده في قصره، يذاكرهم ويناظرهم ويحاورهم بلياقة ولباقة، في القضايا المقررة لكل ليلة، حتى ثلث الليل (157).

وبعد انفضاض مجالسه العلمية، كان ينصرف إلى ورده، ومناجاة ربه.

وكان يختم هذه المجالس الرمضانية يوم عيد الفطر بحفل ديني، تنشد فيه بين يديه القصائد في مدحه، وتعداد مناقب دولته، وانتصاراته في غزواته، ويختم الحفل بتوزيعه الجوائز على الشعراء والمنشدين (158).

وتدعيما لمجالسه العلمية، كان يعقوب بن عبد الحق المريني يحرص على أن يجلب لها خزائن الكتب القيمة، حرصه على استقطاب أقطاب وأعلام العلماء إلى رحابها.

وفي هذا الصدد إشترط على ملك شريس في معاهدة الصلح بينهما(159)، أن يبعث إليه بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا، فأرسلها يعقوب بن عبد الحق المريني إلى فاس، وحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي بناها هو بفاس (160).

وكان من أبرز علماء مجالسه العلمية : أحمد بن يوسف بن مالك السرغيني(161).

المجالس العلمية على عهد الدولة الوطاسية :

اهتم الوطاسيون حتى في أحرج ظروفهم بالمجالس العلمية، غير أنها لم تبلغ ما كانت عليه على عهد الدولة المرينية، وأول من جمع هذه المجالس، وترأس جلساتها منهم : أبو زكرياء الوطاسي (162)، وكان في أول الأمر

(157) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 363، دار المنصور للطباعة.

(158) المصدر السابق، وص.

(159) في 20 شعبان 684هـ، 21 أكتوبر 1285م.

(160) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع، ص: 363، دار المنصور للطباعة.

(161) أعلام المغرب العربي، لابن منصور، ج: 4، ص: 392–393، والأعلام للزركلي، ج: 1، ص: 274.

(162) الروض الهتون لابن غازي، تحقيق ابن منصور ص: 41، ط: 2، وإتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 94، ط:1.

يكتفي بجمع القراء، لترتيل القرآن الكريم وختمه مرة في كل أسبوع، وسمي مجلسه هذا "الأسبوع" (163). وكان يفتتحه بذكر الله تعالى.

وقد اجتمع له بهذا المجلس أقطاب علماء عصره، أمثال الفقيه القاضي محمد بن ورياش (164)، الذي كان يتبرك به، ويتلمس منه الدعاء (165).

ولم يلبث الإمام ابن غازي (166) أن سن في شهر رمضان سنة قراءة وإسماع صحيح البخاري، من أوله إلى آخره طيلة أيام شهر رمضان المعظم، متخذا من مقصورة الخطيب بجامع القرويين بفاس مقرا لهذه المجالس العلمية (167).

وقد زاوج علماء وفقهاء المجالس القرآنية بين المجلسين وجمعوا بينهما، فنفخوا فيهما من روحهم العلمية المبدعة، فتطورت هذه المجالس على العهد الوطاسي، وأصبحت مجالس لتفسير القرآن الكريم ومدارسة السنة النبوية، وما فتئت أن شملت جميع أنواع العلوم والفنون، شأنها في بقية العصور السالفة.

وسرعان ما غزت سنة ابن غازي المذكورة المساجد والمنابر في المدن والقرى، فسرى العمل بهذه العادة الحسنة إلى المساجد والرباطات، وبالتالي إلى قصور الملوك الوطاسيين وأمرائهم وعمالهم وولاتهم، حيث أقيمت مجالس علمية رمضانية.

وكانت هذه المجالس العلمية تحتفل في ليلة القدر احتفالا خاصا -باعتبارها مبدأ نزول الوحي- حيث يقرأ القرآن الكريم فيها بأتمه، ويختم، ثم يقرأ آخر درس من صحيح الإمام البخاري، ويختم بمظاهر وتقاليد خاصة متعارف عليها (168).

---

(163) المصدر السابق، وص.

(164) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 3، ص:580.

(165) ترجمته بالمصدر السابق، وص

(166) من كبار محدثي القرن العاشر الهجري ودعوة الحق ع: 2، س: 8، ص: 72، 1384هـ-1964م، خصائص المدرسة الحديثة بالمغرب لحسن السائح.

(167) دعوة الحق،ع: 9، س: 14، ص: 136، 1391-1971، ملامح الحياة المغربية في رمضان، للمنوني.

(168) فاس في عصر بني مرين، لروجيه لوتورنو، تعريب د. نيقولا زيادة، ص: 192-193، نشر مكتبة لبنان والمصدر السابق وص.

وكان من أبرز علماء المجالس العلمية في العهد الوطاسي : أحمد بن الولي الصالح عبد المغيث زغبوش القرشي المكناسي(169).

المجالس العلمية على عهد الدولة السعدية :

ازدهرت المجالس العلمية على عهد الدولة السعدية أيما ازدهار، فاكتملت معالمها، وتطورت شكلا ومضمونا، فأصبحت لها تقاليد متعارف عليها، ولاسيما على عهد أحمد المنصور الذهبي، الذي كان بلاطه يعج بكبار العلماء، ونبغاء الفقهاء، وبلغاء الكتاب والأدباء، وفحول الشعراء، ومهرة الأطباء، وبالمثقفين والمفكرين على اختلاف اختصاصاتهم.

وكان شغوفا بعقد المجالس العلمية والندوات الثقافية لهم، حيث يطرح أمامهم على بساط البحث القضايا الرئيسية التي كانت تشغل بال الرأي العام (170) في عصره.

وقد طور المنصور السعدي أسلوب الاحتفال بالمواسم والأعياد المختلفة، فجعلها تكتسي طابعا ثقافيا، ومناسبات يتبارى فيها العلماء والأدباء والشعراء بين يديه في إطار مجالسه العلمية المختلفة باختلاف العلوم والآداب، وبالتالي باختلاف اختصاصات روادها، المشاركين في برامجها وحصصها....

وكان يعقد جميع هذه المجالس والمباريات المذكورة بقصره، ويترأسها بنفسه، ويشارك فيها مشاركة عالم متمكن، مستهدفا توسيع وتنمية ثقافة علماء مجالسه، وإثراء رصيدهم منها في العلوم والفنون.

كما كان شغوفا بتثقيف نفسه لا ينقطع عن أسباب الدرس والتحصيل، حتى إنه اصطفى لنفسه شيوخا كبارا في التفسير والحديث والآداب(171).

---

(169) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 299–300.

(170) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، ص: 15–16، 1399هـ–1979م، احتفالات أحمد المنصور الذهبي، لعبد القادر العافية.

(171) مناهل الصفاء للفشتالي، ص: 238و 244–247و251–252.

ومن مظـاهر التطـور التي أضفاهـا على مجالسه العلميـة إحياؤه ليـالي رمضـان المباركـة في أكنـاف هذه المجـالس التي بـالغ في انتقـاء أعضائهـا وعناصرها من مشايخ العلماء (172).

ويقسم أعمال هذه المجالس مابين الإشفاع، وتجويد القرآن الكريم(173)، بينما تستأثر مجالس الدراسة والبحث والمناظرة في التفسير والحديث، والفقه والطب، والأدب والشعر والنحـو واللغة، والتـاريخ والسير، والمنطق، بأغلبية، حصص هذه المجالس (174).

وكـان في كل صبـاح مـن أيـام رمـضان الأبـرك يعـقد مجالس خاصـة، لسرد وسماع الحديث النبـوي الشريف بين يديـه، وخاصـة كتاب صحيح البخاري، وكـانت تتخلل السرد، المذاكرة والمناقشة، مستهـدفا تفهم الأحاديث النبـوية، واستخراج كنـوز أحكامها ومبادئهـا وأهدافها السـامية، وذلك في مظاهـر وتقاليد خـاصة، حيث يجلس المحـدث على كرسي خصص لذلك.

وكـان صحيح البخـاري يـدرس بـروايـة ابن حجـر، حيـث تنـاقش الموضوعـات الحديثية المطـروحة على بسـاط البحث على أسـاسه، بقـداسة وإجلال.

وكان السلطـان العالم المنصور السعــدي يتولى قراءة صحيح البخاري في هذه المجالـس – المشهـودة القدسية العابقة بأريـج العلم– بنفسه (175) كما كـان يفسح المجـال للعلماء في البحث والمناقشـة بكل حـريـة وطلاقـة، متعمـدا تلطيف أجواء الـدراسـة والمنـاظرة والحوار والجدال بنكت عجيبـة، وفوائد فريدة ونوادر (176) ممتعة.

---

(172) روضة الأس، للمقري التلمساني، ص: 112–163.

(173) المنتقى المقصور، لابن القاضي، ورقة5، م.خ.ع بالرباط رقم د. 764.

(174) المصدر السابق والورقة

(175) وصف هذه المجالس في التكملة، ج: 2، ص: 876–868، ط: مصر. وإفادة النصيح لابن رشيد، ص: 60–61، ومرآة المحاسن، ص: 49.

(176) الأعلام للقاضي التعارجي المراكشي، ج: 2، ص: 46–47.

وكان المنصور يبالغ في إكــرام وتبجيل العلماء في هــذه المجالس (177)، ولاسيما الوافدين منهم من مختلف الأقطار النائية كمصر، والشام، والعراق، والحجاز وغيرها (178).

وقد تمخضت حركة المجالـس المختلفة للسلطان أحمد المنصور الذهبي، وما راج فيها من دراسات، وبحوث عن مؤلفات، ألفها أصحابها رغبة منهم في إقناع أعضاء المجلس بآرائهم ووجهة نظرهم.

كما ألف له جهابذة علماء مصر والقسطنطينية كتبا عديدة قيمة (179).

ولعل أبرز مظاهر تطوير المنصور السعدي لهذه المجالس العلمية تتجلى في المجالس العلمية التي كــان يعقدها في سفره وحملاتــه المختلفة التي كان يرافقــه فيها جميع أعضاء مجالســه المختلفة، في جميع الاختصــاصات دون استثناء.

ونجد صورة نموذجيـــة لهذه المجالس العلمية والأدبيــة وغيرها المتنقلة، في المجلـس الذي عقده المنصور بالمحلة المنصورية السعدية.

---

(177) مناهل الصفا للفشتالي، ص: 213.

(178) روضة الآس، للمقري التـلمساني، ص: 14–15، ط : المطبعة الملكية بالرباط.

(179) روضة الآس للمقري التلمساني، ص: 69–70، ط: 2، المطبعة الملكية بالـرباط، وروضة الآس للمقري التلمساني، ص: 176، ط: 2، المطبعة الملكية – الرباط.

الباب الأول

الباب الأول

اهتمام الدولة العلوية بالعلم ومجالسه

الفصـل الأول :

تقاليد المجالس العلمية السلطانية في عهد التأسيس

الفصـل الثاني :

تعدد أنواع المجالس العلمية بتعدد موضوعاتها وأهدافها

الفصـل الثالـث :

تطور المجالس العلمية للملوك والأمراء وكبار العلماء
بين عهد المولى إسماعيل وعهد الاضطراب



الفصل الأول

(تمهيد)

تقاليد المجالس العلمية السلطانية
في عهد التأسيس



اهتمام الدولة العلوية بالعلم والعلماء ومجالسهم

تمهيـد :

كـان بـلاط الملـوك العلـويين منـذ قيـام دولتهم الشريفـة كعبـة للعلم والعرفان، وكان ملوكهم عبر عصور تاريخهم المديد مثابة للعلماء والمفكرين ومثلا أعلى ونموذجـا يحتذى (1)، وخاصــة في الحفاظ على التـوازن العام والموازاة بين السلطتين الروحية والماديــة، أو الدينية والدنيويــة، وبالتالي بين سلطة الدولة، وسلطة المؤسسات.

لـذلك عـرف المغـــرب في عهـدهم ازدهــارا (2) علميــا، وتقدمــا فكريــا وحضــاريــا، بفضل عملهم الـدؤوب على نشر العلم والمعـرفــة، بــالحواضر والبوادي، وحـرصـهم على تكويـن العلماء في جميع فنون المعـرفة، ومـراقبة نتائج أعمالهم عن كثب.

فقد عملوا على نشر تعــاليم الدين الإسلامي الحنيف (3)، وتلقين مبادئ أخلاقه الفاضلة، والحفاظ على مقوماته الأســاسية، وعاداته وتقاليده الثابتة الراسخــة، في المدارس والمساجد وغيرهــا من المراكز الثقافيــة التي أنشأوها بالحواضر والبوادي.

وقد بدأوا في ذلك بأنفسهم، فكانــوا يصطفون جهابذة العلماء، وأساطين الفكر ويستخلصونهم لأنفسهم، ويتخذونهم شيوخا لهم، ومستشارين، ولا يســتنـكـفـون مـن الأخــذ عنهـم، والتتلمـذ عليهـم، والتــأدب معهـم (4)،

(1) دعـوة الحق، ع: 3، س: 14، ص: 65، 1391هـ–1971م، البلاط المغـربي في المجالين الـروحي والزمنــي، د. عبد اللـه العمراني، والنهضــة العلميــة، لابـن زيدان ميكروفيلـم، خ. ع، بالـرباط، رقم: 2028، ص: 1، و م.خ.م بالرباط رقم 3177، ص: 5.

(2) الحركة الفكرية لمحمد حجي، ج: 1، ص: 56.

(3) المصدر السابق، و ج، ص: 55.

(4) النهضة العلمية، لابن زيدان، ميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم 2028، ص: 1.

ولم تصرفهم عن ذلك أعباء السياسة، ولا تبعات الملك (5)، فكان الملوك العلويون في جملتهم علماء وأدباء(6).

ولم يلبثوا أن طوروا مجالسهم الخاصة مع شيوخهم إلى مجالس علمية عامة ينتقون لها الباحثين والمحققين المشهورين في جميع الاختصاصات العلمية والأدبية والفنية وغيرها، ومن مختلف أنحاء البلاد.

وكانت هذه المجالس بمثابة مجمع علمي خاص، إذ كانت ميدانا للدراسة والبحث، ومجالا للجدال والنقاش بين العلماء في مواضيع حيوية قيمة، ضمن برامج ومناهج، وحصص مقننة (7).

وكانت مواضيع البحث علمية دينية في جملتها، وأحيانا تكون تاريخية أو أدبية.

أما الكتب التي كانت تدرس خلالها فأشهرها صحيح البخاري، ثم الموطأ، وبقية الكتب الستة. وكذا كتب السيرة النبوية، ولا سيما الشفا للقاضي عياض، كما درست بها البردة والهمزية أحيانا (8).... يضاف إلى ذلك بقية الكتب الستة، التي كانت تدرس بالقصر الملكي بمحضر السلطان(9)، ويحضرها كبار العلماء.

وقد أثمرت هذه المجالس العلمية السلطانية للعلويين، سلسلة من المؤلفات والرسائل القيمة في مختلف فنون المعرفة، صنفت على هامش هذه المجالس والمناظرات المختلفة، إما تلقائيا وتطوعا،أو بأمر من الملوك العلويين، الذين كان جلهم علماء وأدباء، يشاركون في أعمال تلك المجالس ونشاطاتها المختلفة عن كثب، سواء في مجال الدراسة والبحث، أو في ميدان الاجتهاد والاستنباط بما في ذلك مجال التأليف والتصنيف.

---

(5) الحيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 261، ودعوة الحق، ع: 3، س: 11، ص: 94-96، 1387هـ-1968م، الإسهام العلوي في خدمة العلم، لأحمد منتصر الريسوني.

(6) العز والصولة لابن زيدان، ص: 177-178 ومجلة البحث العلمي، ع: 4و5، س: 2، ص:23، 1384هـ-1965م، الكتاب المغربي وقيمته لمحمد إبراهيم الكتاني، والجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 261.

(7) مؤرخ المملكة الأستاذ الجليل عبد الوهاب بنمنصور، رواية شفوية.

(8) العز والصولة، لابن زيدان، ص: 177-178، ومجلة البحث العلمي، ع: 4و5، س: 2، ص: 23، 1384-1965. الكتاب المغربي وقيمته، لمحمد إبراهيم الكتاني.

(9) مجلة البحث العلمي، ع: 4و5، س: 2، ص: 23، 1384هـ-1965م، الكتاب المغربي وقيمته، لمحمد إبراهيم الكتاني.

ومن معالم تجديد الملوك العلويين لهذه المجالس العلمية عقدها على امتداد الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان لتدارس كتاب صحيح البخاري بأتمه، بحيث يختتم ليلة السابع والعشرين من رمضان المبارك.

ففي الجيش العرمرم : "ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة -العلوية-... فيما بلغنا من قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان، حتى صار ذلك أمرا لازما، لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه... " (10).

فقد كان للملوك العلويين شغف كبير بالعلوم الدينية كلها، ولا سيما علم الحديث، الذي بلغ من تعظيمهم له، أنهم كانوا في أسفارهم وحملاتهم، يحملون معهم علبا مليئة بكتب الصحاح، ويربطون نسخا صغيرة منها مع الرايات المرفوعة على أساطيلهم، ويحتفظون بنسخ فاخرة منه في أبهى وأفخم قباب قصورهم، مما يضفي عليها القداسة والإجلال، فتدعى بقبة سيدي البخاري (11). كما كانوا يجيزون حفاظه تشجيعا على نشره(12). ومن مظاهر تطويرهم لهذه المجالس العلمية، وتجديد معالمها شكلا ومضمونا، أنهم كانوا يصطحبون العلماء والمحدثين معهم في رحلاتهم وحملاتهم وأسفارهم، حيث كان هؤلاء يتبارون في استنساخ جوامع الأحاديث ومسانيدها.

ولعل أهم أعمالهم في سبيل نشر السنة النبوية الشريفة وخدمتها، الدروس الحديثية التي كانوا يترأسونها شخصيا بقصورهم، في ظعنهم وإقامتهم، وحتى داخل أفراكاتهم (13)، حيث كان يتبارى أمامهم جهابذة العلماء والمحدثين، فيوسعون صحيح البخاري وغيره من الكتب المقررة للدرس شرحا وتحليلا وتعليلا، من خلال الدراسة والبحث، والمناظرة

---

(10) الجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 261.

(11) كتاب الوثائق لمديرية الوثائق الملكية المجموعة الثالثة، خ.م، بالرباط، ص: 66-67، الوثيقة رقم 61، لعبد الوهاب بنمنصور.

(12) المصدر السابق، وص.

(13) أصلها أفراق أي الحاجز الذي يفرق بين السلطان وحاشيته وجنده في محطات الطريق، وهي مدينة من الخيام والأخبية، ينزل بها الملك ومن معه في سفره.

والجدال والحوار. حتى أصبحت هذه المجالس العلمية مدرسة حديثية بكل معنى الكلمة، وحتى صار بعض هؤلاء الملوك من أئمة الحديث، وفي طليعة المصنفين فيه.

وبلغ من مكانة المحدثين لدى هؤلاء الملوك، أنهم كانوا يتميزون عن بقية العلماء بأن يكتبوا بيعتهم على حدة كلما بويع سلطان جديد (14).

بل كان لجميع العلماء والمفكرين الذين يحضرون هذه المجالس العلمية السلطانية دور قيادي طلائعي، ومكانة مرموقة، لعلاقتهم الجدلية بالجماهير الشعبية، ومبادرتهم لقيادتها في جميع المجالات بما فيها العسكرية. وخاصة في مطلع قيام الدولة العلوية، حيث كان العلماء يرابطون بالثغور والحاميات، تطوعا منهم في الجهاد، فيشاركون في المعارك الميدانية مشاركة فعالة، إيمانا واحتسابا(15).

لذلك كان صوتهم مسموعا، يرتفع عند الضرورة، فيعلو ولا يعلى عليه، مما عمل على إشاعة الحرية والشورى الإسلامية، وجعل الملوك العلويين يلجأون إلى العلماء كلما كانت هناك قضية هامة تشغل بال الرأي العام المغربي بصفة عامة، والأوساط العلمية بصفة خاصة، كالرد على بعض العلماء في بعض القضايا الدينية والشرعية الدقيقة، أو لإقناع العامة بأمر هام للصالح العام، وبالتالي لاستشارتهم وأخذ رأيهم، حتى في تصرفاتهم الخاصة أحيانا (16)، باعتبار أن سلطتهم لم تكن شخصية كملوك أوربا، وأن السلطة التشريعية مصدرها الرئيسي هو القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. ومن ثم كانوا لا يصدرون ظهائرهم وقراراتهم العامة إلا باستشارة علماء مجالسهم العلمية، واعتماداعلى فتاواهم (17)، وغالبا ما كانوا يرفضون ذلك. ناهيك بالمولى إسماعيل في قضية عبيد البخاري.

---

(14) كتاب الوثائق لمديرية الوثائق الملكية المجموعة الثالثة، خ.م بالرباط، ص: 66-67، الوثيقة رقم: 65، لعبد الوهاب بنمنصور وبه نص بيعتهم للمولى الحسن الأول، بتاريخ 22رجب 1290هـ

(15) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 198.

(16) العلوم والآداب والفنون، للمنوني، ص: 17.

(17) المغرب قبل الاستقلال، لعبد الرحيم بن سلامة، ص: 29-30، ط: 2، دار الثقافة بالدار البيضاء.

فقد كان علماء هذه المجالس العلمية هم الذين يستنبطون الأحكام والقوانين من مصادر الشريعة الإسلامية المختلفة، ولا سيما من الكتاب والسنة، على مقتضى المذهب المالكي، ولا يصادق عليها الملك إلا بعد مصادقتهم (18)، إذ كانوا له بمثابة برلمان، أو مجلس استشاري.

ومع استقرار الدولة وتنظيمها وامتداد نفوذها، تطورت هذه المجالس فتفرعت وتنوعت (19) شكلا ومضمونا كما سيأتي.

(18) المصدر السابق، ص: 41.

(19) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ج: 1، ص: 56، دار المغرب.



الفصل الأول

المجالس العلمية السلطانية
على عهد الدولة العلوية الشريفة



الفصل الأول
المجالس العلمية السلطانية
على عهـد الدولة العلويـة الشريفـة

لقد كان الملوك العلويون هم الذين سنوا والتزموا بعقد مجالس علمية في بلاطهم على امتداد الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان(1). يستدعون إليها كبـار العلماء والمفكرين من المدن والقـرى بسائر الأقـاليم، حيث يسرد صحيح البخاري غـالبا وغيره من الكتب الستـة أحيانـا، كما قد تسرد كتب دينية أخرى في التفسير والسيرة النبوية وغيرها.

وقد واظبوا على عقد هـذه المجالس في حلهم وترحالهم (2)، حتى أصبح ذلك سنة ثابتة محكمة، يتوارثونها خلفا عن سلف.

فقبل حلول شهر رجب، يؤمر العمال والقضاة في جميع الأقاليم باختيار نخبة من صفوة علماء أقاليمهم، وإرسالهم إلى العاصمة معززين مكرمين(3) على نفقة الدولة، هم وأعوانهم وخـدامهم، زيادة على المنح والصلات السنية. فإذا وصلوا إلى العاصمة، كانـوا محل عناية وتكريم وتبجيل، وتغدق عليهم النعم بسخاء كبير.

وفي مستهل شهر رجب تفتتح المجالس العلمية السلطانية في حفل بهيج، ووفق مخطط مسنون معلوم، ومنهج محدد (4).

فبعـد صلاة العشـاء، يستقبل خليفـة قائد المشـور وأعـوانه المدعـوين، ويدخلونهم إلى قاعـة المجلس، حيث يجلسونهم في الأماكن المعينة لكل منهم حسب البروتوكول -كما سيأتي-.

---

(1) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 177، ط: الملكية بالرباط.

(2) المصدر السابق و ج، ص: 177-178.

(3) نموذج لرسائل الدعوة الموجهة للعلماء بالعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 178.

(4) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 177 وما بعدها، ط: الملكية.

وغالبا ما يرأسها قاضي العاصمة (5) -زيادة على الرئاسة الشرفية والفعلية المباشرة للسلطان نفسه- الذي يعين لكل دورة عالما كبيرا يتولى التقرير، كما يعين آخر من مرتبته ليقوم بالسرد، وقد يتناوب على السرد والتقرير نخبة مختارة من صفوة علماء المجلس (6).

وما إن يفتح الملك النسخة الملوكية لصحيح البخاري أو غيره التي بيده، حتى يشرع السارد في قراءة الباب المنصوص على دراسته في البرنامج، دون أن يتوقف، اللهم حيث يجب أن يترك السرد لعالم آخر (7) .

وكل سارد يسرد حصته من الأحاديث بترنيم متوارث، وبصوت رخيم مرتل.

أما العالم المقرر فيتولى التفسير والتعليق، والتحليل والتعليل والمقارنة لنصوص بعض الأحاديث التي يأمر السلطان بالتوقف لشرحها وتوضيحها، وذلك بإشارة منه متعارف عليها، وتكون إيذانا بفتح باب المناقشة والحوار، والمناظرة حولها أمام سائر العلماء الحاضرين، لإبداء رأيهم وملاحظاتهم وتعليقاتهم، ولتسجيل تحفظاتهم حول موضوع الحديث المراد شرحه.

ذلك أن السلطان كان إذا أراد التوقف عند حديث معين للتقرير، ووضعه على محك الدراسة والبحث، لإغناء موضوعه وإثرائه بآراء جميع العلماء الحاضرين، فإنه يطوي النسخة الملوكية للكتاب الذي في يده، ويومئ للمقرر مؤذنا له بالشروع في تقرير وشرح الحديث الذي وقع عليه اختياره لذلك، رافعا رأسه ومتجها بكليته نحو المقرر (8).

وهكذا يشرع المقرر في شرح الحديث المختار من طرف السلطان، وأهدافه وأبعاده... فإن اهتدى إلى الصواب ولم يعترض عليه أحد من العلماء

---

(5) مكناس أو غيرها من العواصم التي يقيم فيها السلطان.

(6) دعوة الحق، ع، 4، س: 10، ص: 37، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الألفي، والعز والصولة لابن زيدان، ج:1، ص: 177-178.

(7) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172، والبرنامج هو سفر يشتمل على أنصبة كل مجلس، في كل يوم من النسخة الملوكية.

(8) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 172، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172.

الحاضرين، واقتنع الملك بصواب رأيه، فإنه يفتح نسخته الملوكية من جديد ويستأنف السارد سرده، وهكذا دواليك إلى نهاية الحصة المقررة لذلك المجلس، والتي كانت تتراوح بين ساعتين فأكثر في كل درس أو مجلس(9). وإذا اعترض عليه أحد، يفتح باب النقاش من جديد حتى يقتنع الجميع برأي معين لعالم أو لجماعة من العلماء.

وظلت دروس المجالس العلمية السلطانية تجري على هذه الطريقة إلى عهد متأخر، بالضبط إلى عهد السلطان المولى عبد العزيز (10).

أما بعد ذلك، فقد تطورت هذه المناقشات، حيث أخذ الجدال يحتدم بين العلماء المحافظين والمجددين، مما يعكس الأجواء الفكرية، والسياسية السائدة في المغرب -آنذاك- حيث عرفت البلاد مخاضا حضاريا، وانتفاضة فكرية أدت إلى تخلي المولى عبد العزيز، وتنازله عن العرش لمبايعة وتنصيب أخيه المولى عبد الحفيظ الذي كان رمزا لتطلعات الطبقة المثقفة الشابة الواعية كما سيأتي (11).

وكان السلطان في المجالس العلمية السلطانية يتدخل لحسم الخلاف بين العلماء المتناقشين، أو لتوجيه المناقشة نحو الأهداف المنشودة من الدرس والمناقشة بصفة خاصة، ومن عقد المجالس في حد ذاتها، بصفة عامة(12).

وأهم القضايا التي تضاربت حولها آراء العلماء في العصر العلوي، واحتدم حولها جدالهم ونقاشهم، وطالت مدته -على سبيل المثال لا الحصر- قضية السلفية، ومسألة الاجتهاد، ومدى إمكانية فتح بابه من جديد، ومسألة ثبوت الهلال وغيرها من القضايا الحيوية الهامة، التي لا يشملها عدٌّ ولا حصر.

---

(9) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(10) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(11) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 172-173.

(12) المصدر السابق و ص.

وقد صنفت مـؤلفات، وأعدت بحوث هـامة، على ضوء هذه المنـاقشات، وتبودلت حـولها الأسئلة والأجوبـة بين العلماء، انطلاقا من هـذه المجالس، وعلى أسـاس محك النقـد العلمي المجـرد، والـدراسة المنهجيـة الأكـاديميـة النزيهة، وفي إطار البحث العلمي البناء الهادف.

ولعل ذلك كان منهم رد فعـل لملاحظـة ابن خلـدون على علماء المغرب -في وقتـه-، الـذين عـاب عليهم -في مجالسـهم العلميـة- إهمالهم لعنصر المناقشـة، التي كانت سـائدة بالمشرق -إذ ذاك- واعتبر ذلك سببـا لضعف الملكة العلمية(13)، والموهبة الأدبية لدى الأدبـاء والعلماء المغاربة على السواء. ويقـول ابن خلـدون في ذلك : "... إنك تجد طلاب العلم منهـم، بعد ذهـاب الكثـيـر من أعمـارهـم في ملازمة المجالـس العلميـة، سكـوت لاينطقـون، ولا يفاوضـون (14)".

وإذا طالت المناقشـة بأحد المجالس العلمية السلطانيـة المذكورة أكثر من الـوقت المحدد في بـرنامج المجلس، فإن السلطـان يعلن تأجيل المناقشـة في المسألـة المطروحة للـدراسة والبحث إلى جلسـة أخرى، أو يشكل لجنـة من العلماء المقتدرين من بين الحاضرين، ويعهد إليها بإيفائها حقها من الدراسة والتمحيص، والبث في شأنها، ثـم يكلف كل عـالم في المجلس بتقـديم رأيـه كتابة(15).

وهذا مـا يؤكد لنـا أن الحصة المقررة للـدراسة والبحث، في كل مجلس، كـانت محددة في البرنـامج الموضـوع وغير قـابلـة للـزيـادة ولا للنقصـان إطلاقا(16). وهنالك نمـوذج لهذه البرامج والحصص والأنصبة التـي كانت تـدرس كل يوم بالمجالس العلمية المذكورة وكيفية تقسيط ذلك (17).

---

(13) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 39، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي، والعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 173.

(14) المصدر السابق، وص.

(15) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 173.

(16) المصدر السابق و ج، ص: 178.

(17) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 181.

ويعلق ابن زيدان على هذه البرامج والحصص بما يؤكد صحة النماذج المذكورة فيقول : "صح من كناشة القاضي أبي العباس أحمد بن الطالب بن سودة، شيخ المجلس السلطاني، قال : وعلى هذا استقر عمل سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (18) مدة تنيف على العشر سنين، في سرده لصحيح الإمام البخاري، في الثلاثة الأشهر، أنه يقرأه في ستة وثلاثين نصابا (19).

وقد قوبل على ما هو محتفظ به من أوراق برنامج الأنصبة السلطانية، المنتسخة من النسخة التي كانت معدة لقراءة الجلالة السلطانية، المحتفظ بها في المكتبة الزيدانية، فألفت موافقة لما ذكر، من غير زيادة ولا نقصان".

وتتميما للفائدة هناك برامج وحصص أنصبة شعبانة (20) المولوية، وكيفية تقسيطها.

هذا من حيث مضمون هذه المجالس، أما من حيث شكلها فقد كان السلطان يتصدر المجلس الذي يقام يسار المحراب، ويحف به أبناؤه وإخوته، وأبناء عمه وبقية أفراد أسرته، ثم رجال الدولة المقربون من مدنيين وعسكريين.

أما العلماء، فيصطفون قبالته في ترتيب متعارف عليه، وخلف العلماء يجلس الأشراف، والكتاب، والوزراء، ثم العمال، والقواد، والضباط الكبار للجيش.

وكانت توضع أمام السلطان الساعة المخزنية (21) وثريا توقد بالشمع المصفى من العسل، بينما، يأخذ في يده نسخة من برنامج الدروس المقررة، والنسخة الملوكية أو المولوية لصحيح البخاري، المعدة لقراءة السلطان بصفة خاصة(22)، وهي مقسمة إلى أسفار، بحيث يقرأ سفر كل يوم، ويشتمل كل

---

(18) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص: 181، ويعني به الحسن الأول.

(19) المصدر السابق، و ص

(20) كانت شعبانة تقام في العشر الأواخر من شعبان، وظل العمل جاريا بها وبمجالسها إلى نهاية عهد المولى عبد الحفيظ.

(21) منجانة.

(22) محتفظ بها في الخزانة الزيدانية.

سفر على عدد من الأنصبة، حتى يسهل عليه رئاسة الجلسات وتسييرها، بالطريقة التي ذكرناها(23)

ويؤكد لنا التزام الملوك العلويين ومواظبتهم على إقامة هذه المجالس العلمية، ورئاستها، ومدى استمراريتها قول ابن زيدان : "...وعلى هذا كان العمل جاريا، من لدن الدولة الرشيدية، إلى أواسط الدولة اليوسفية...وقد وقع الاقتصار في الدولة المحمدية (24) على القراءة فقط في شهر رمضان...عند صلاة الظهر (25)، وتنتهي في ليلة السابع والعشرين".

وفي إطار التنظيم الشكلي لهذه المجالس والعادات المتبعة فيها، كان الطعام يقدم للعلماء خلال شهري رجب وشعبان، بعد انتهاء المجلس كل يوم مباشرة بعد انتهاء المجلس. أما في رمضان فكان يقدم لهم بعد أذان المغرب.

وكانت هذه المجالس تعقد طيلة أيام الأسبوع، باستثناء يومي الخميس والجمعة، اللهم لضرورة طارئة ملحة، فإنها كانت تقتصر على بعض أيام الأسبوع، وغالبا ما كانت تعقد مساء.

وكانت هذه المجالس العلمية تختتم ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان الأبرك، بعد الدرس الأخير. ففي هذه الليلة المباركة كانت تقام حفلة دينية وأدبية كبرى، تلقى فيها القصائد التي تجود بها قرائح شعراء البلاط وغيرهم من شعراء المملكة في تمجيد هذه المناسبة العظيمة، وفي مدح السلطان.

وفي هذه الليلة من كل رمضان التي يتداخل فيها الاحتفال بليلة القدر المباركة، مع الاحتفال باختتام المجالس العلمية السلطانية، والتي يتضاعف فيها أجرجميع المشاركين في إحياء وإقامة هذه الحفلة المزدوجة، كانت تعبق في أرجاء قاعة الاحتفال روائح أبخرة العود الهندي، والند، والعنبر، المتصاعد من مباخير الفضة التي يشرف عليها قائد المشور، الذي يتولى أيضا استقبال

---

(23) العز والصولة، لابن زيدان ج:1،ص: 172–173.

(24) محمد الخامس طيب الله ثراه.

(25) دعوة الحق، ع:4،س:10،ص:38، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي.

المشاركين والمدعوين من العلماء، وغيرهم، ويتكلف بإجلاسهم في أماكنهم الخاصة حسب البروتوكول، حيث تقدم لهم الأطعمة الفاخرة، ثم الحلويات اللذيذة مع الشاي (26).

وقبل الفجر بساعة ونصف يصل السلطان،ويتصدر قاعة الاحتفال من جديد، حيث تتلى بين يديه القصائد المختارة من بين القصائد العديدة التي نظمت وقيلت في مدحه وتهنئته بختم المجالس العلمية، وصحيح البخاري وبالتالي التي وردت عليه من سائر أنحاء المملكة.

وفي ختام هذه الحفلة، كان الملك يجزل العطاء لجميع العلماء والشعراء المشاركين، سواء في المجالس العلمية، أو في حفل اختتامها، ويوزع عليهم جوائز سنية عالية.

وتنتهي الحفلة بأذان الفجر، وبعد أداء صلاة الصبح، وذكر الباقيات الصالحات، يفتتح السلطان قراءة الحزب كعادته، ثم يرجع إلى قصره.

وأخيرا ينصرف الجميع بعد أن يودعهم بباب المسجد الحاجب السلطاني، الذي يسلم لكل منهم جائزته أو صلته في غلاف مختوم، فتملأ نفوسهم الغبطة والبهجة والحبور (27).

وبعد أن يقضوا أيام العيد في الضيافة الكريمة للسلطان حيث يبالغ في إكرامهم وإغداق النعم والصلات عليهم، يأذن لهم في العودة إلى ديارهم معززين مكرمين، محملين بهدايا لذويهم وأهليهم، بعد أن تقضى أغراضهم ومصالحهم، وتلبى جميع طلباتهم، وبعد أن يزودوا بظهائر التوقير والاحترام، والإنعام والتوصية (28) للعمال الذين يمرون بعمالاتهم، في طريق عودتهم إلى ديارهم.

وهذا نموذج للاستدعاءات التي كانت ترسل إلى العلماء، وهو موجه من الحاجب أحمد بن موسى (29)، إلى القاضي أبي العباس أحمد بن سودة(30)،

---

(26) العز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص :173.

(27) لعز والصولة، لابن زيدان، ج: 1، ص :174.

(28) دعوة الحق، ع: 4 س:10، ص:39، 1967م، عناية الملوك العلويين بالحديث الشريف، لإبراهيم رضا الله الإلغي.

(29) حاجب المولى الحسن الأول، ثم المولى عبد العزيز، والوصي على عرشه.

(30) ابن الطالب بن سودة المري الفاسي، قاضي الجماعة بمكناس، م. سنة 1321هـ

رئيس مشيخة المحدثين بالمجلس السلطاني على عهد السلطان المولى الحسن الأول، يعلمه بافتتاح المجالس العلمية المذكورة، ويستدعيه إلى رئاستها كعادته، ونصه(31) : «محبنا الفقيه العلامة القاضي السيد أحمد بن الطالب ابن سودة.

سلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله.

وبعد، فإن مولانا أعزه الله، أمرنا بافتتاح سرد صحيح الإمام البخاري بحضرته العالية بالله، بكرة غد إن شاء الله، فاقدم لذلك أنت ومن حضر ممن يحضر معك فيه ولابد، وذلك في الساعة الرابعة والنصف، وعلى المحبة والسلام: في مستهل رجب، سنة 1300 هـ».

أنواع المجالس العلمية السلطانية العلوية :

تطورت المجالس العلمية السلطانية، وأدخلت عليها تعديلات على امتداد عهد الدولة العلوية، وتعاقب ملوكها، وذلك من حيث الشكل والمضمون، والمناهج والحصص، والزمان والمكان، وكذا حسب متطلبات وملابسات كل عصر، وحسب ظروف وإمكانيات كل ملك، كما تناولتها بالزيادة والنقصان في طقوس البروتوكول، أو في مظاهر الأبهة والعظمة، أو حتى في حصص البرنامج وأنصبته، وبالتالي حسب شخصية كل ملك ومزاجه الخاص، ومستوى ثقافته وتطلعاته، ونوعية كل ذلك، لكن هذه التعديلات لم تتناول جوهرها وأبعادها وأهدافها، التي تعتبر من الثوابت الراسخة لملوك الدولة العلوية الشريفة.

لذلك تفرعت هذه المجالس العلمية، واتخذت عدة أشكال، في إطار شكلها التقليدي العام، الذي تكلمنا عنه بإسهاب، وذلك حسب الظروف والملابسات التي عرفها كل عصر، وحسب المواقف والتجارب التي وقفها أو أمر بها كل ملك من ملوك هذه الدولة الأفذاذ.

هذا وقد خضعت هذه الأنواع بدورها إلى نوامس سنة التطور والارتقاء، ومرت في تطورها هذا بمراحل حتمية –أفقيا وعموديا–، وتدرجت في ذلك.

(31) نصها بالعز والصولة، لابن زيدان، ج:1، ص:178.

لكنهـا كلهـا لها قـاسم مشترك واحـد، يتجلى في أنها تقـوم بنفس الـدور للمجالس العلميـة التقليدية المسنونـة المتوارثة، في وحـدة الأبعـاد والأهداف والنتائج. كما أن أعضـاء جميع أنواعهـا هم أنفسهم علماء المجالـس العلمية السلطانية الرسمية.

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار المناظـرات والمناقشات العلمية التي كانت تـدور بين العلماء، في إطـار الحوار العلمي، على هـامش المجـالس العلميـة السلطانيـة وخارج نطاقهـا –سواء كتابية كـانت أو شفوية، وسـواء كانت مباشرة أو غـير مباشرة– يمكـن اعتبارهـا كلها مجالس علميـة أخرى من نـوع خاص.

والمرحلة التأسيسية الأولى للمجالس الموازية للمجالس العلمية السلطانية التقليدية الـرسمية، سواء كانت بين علماء المغـرب أو بينهم من جهة، وبين علماء العـالم العربي والإسـلامي، أو المسيحي، من جهـة أخـرى، وسـواء كانت بالحوار والجدال الشفاهي، أو بالمراسلة، أو على شكل استفتاء، أو على غـير ذلك مـن الأشكـال التي سنأتي عليهـا، فإنها كلهـا وفي جملتهـا أسفـرت عن مـؤلفات ومصنفات، وعن رسـائل مسهبة حول موضـوعاتها القيمـة، كمـا أن نـصوص عـروضـها أو محاوراتها، تعتبر نتـائج إيجابية لهذه الأنواع الفعـالة من المجـالس العلمية الموازيـة، وروافد غـزيرة متـدفقة للمجالس العلميـة السلطانية الرئيسيـة الرسمية، وبالتـالي، من شأنها كلها خدمـة الثقـافة والفكـر المغربي والعـربي والإسلامـي خاصـة، والإنساني بصفة عامة.

ذلك أن المجـالس المختلفـة للملـوك العلـويين، أغنت الخزانـة المغـربيـة خصوصـا، والعربية الإسلاميـة عموما، بمـؤلفات ومصنفات قيمة عـديدة، ألفها العلماء المشاركـون في هذه المجالس العلمية، الرسميـة والموازية للملوك العلويين، أو غيرها، إما من تلقاء أنفسهم، تأييدا وتأكيدا لآرائهم، أو دحضاً لآراء زملائهم وشجبا لها، وإبرازا لأخطائهم وبرهانا على مجانبتها للحقيقة والصواب، أو أنهم ألفوها بأمر من السلطان نفسه، إذ غالبا ما كان السلطان هو الذي يأمر عالما أو لجنة من العلماء بالتأليف حول القضايا الحيوية التي تطرح بمجالســه العلمية، والتي يرى أنها لازالت تتطلب التعميق والتفصيل،

وأن جلسات مجالسه العامة، ليست كافية لتعميق الدراسات والبحث حولها(32).

ولعل من أهم أنواع هذه المجالس الموازية للملوك العلويين، تلك المجالس العلمية والأدبية وغيرها، التي كانوا يعقدونها في رحلاتهم الترفيهية، وحركاتهم التفقدية والعسكرية لأقاليم مملكتهم، حيث كانوا يصطحبون معهم فيها كبار العلماء والكتاب والشعراء والأدباء، ويعقدون خلالها مجالس علمية نيرة، على شكل محاضرات، ومناظرات علمية، ومساجلات أدبية، اقتداء بكبار شيوخهم من جهابذة العلماء - إذ كان جل الملوك العلويين علماء (33) - الذين كانوا يقومون بالتدريس خلال أسفارهم، حيث كانوا يصطحبون معهم خلالها تلاميذهم، أمثال الشيخ أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، والشيخ بناصر الدرعي، وغيرهما من العلماءالأفذاذ، وبالتالي اقتداء وتقليدا لعظماء ملوك المغرب (34) وغيرهم من عظماء الملوك، كالمنصور الذهبي السعدي وأمثاله.

ومن أمثال هذه المجالس العلمية الموازية نجد أن الملوك العلويين الأوائل دأبوا على تبني محافل ختم كبار علماء عصرهم لتدريس أمهات المصادر والكتب، مما يعتبر مرحلة هامة على درب تطوير المجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية، وتفرعها وتشعبها وتنوعها....

فعندما كان أحد الشيوخ العلماء الكبار ينتهي من تدريس كتاب من أمهات المصادر الدينية، في التفسير أو الحديث أو الفقه أو غيرها، فإنه كان يلقي الدرس الأخير في حفل كبير مشهود يحضره علماء المدينة أو القرية، والقاضي والعدول، وممثل السلطان بالناحية، ووجهاؤها وأشرافها وجمهور المواطنين....

وكان درس الختم هذا، يشتمل على ثلاثة محاور :

- ترجمة مؤلف الكتاب المحتفل بختمه، ودراسة مؤلفاته وأسانيده المتصلة بالنبي ﷺ، أو حول المذهب المالكي أوغيرها.

---

(32) استجواب شخصي أجريته مع مؤرخ المملكة، العلامة عبد الوهاب بنمنصور بمكتبه.

(33) إذ من شروط الخلافة في الإسلام : العلم بالشريعة الإسلامية.

(34) البستان الظريف، للزياني، ص : 21. م.خ.م. بالرباط، رقم : 142.

– استعراض روايات الشيخ الخاتم لتدريس الكتاب وإجازاته، وقراءة أسانيده من حفظه، المتسلسلة إلى مؤلف الكتاب (35).

– تحليل مفصل للموضوع، وغالبا ما يركز على موضوع نص صغير كسورة الناس، أو حديث قصير، حيث يبذل الشيخ المحتفل بختمه قصارى جهوده في شرحه وتأويله وتخريجه، وتحليله وتعليله ومقارنته....

واشتهر كبار الأئمة –المعاصرين لقيام الدولة العلوية– بإقامة حفلات ختم صحيح الإمام البخاري، في نهاية شهر رمضان، كالعلامة الطيب بن المسناوي الدلائي(36)، والشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، والشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي(37)، وأبو عبد الله محمد بن علي الفيلالي(38) وهو من أبرز علماء المولى الرشيد ورواد مجالسه العلمية الرشيدة، وأحمد بن عبد الوهاب (39) الوزير الغساني، الكاتب العالم الشاعر. وكانوا جميعا يسردون صحيح الإمام البخاري طيلة شهر رمضان، ويختمونه في آخره في مجالسهم الخاصة.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لأغلبية شيوخ الزوايا كشيخ الزاوية الدلائية محمدا بن أبي بكر الدلائي، الذي كان يلقي درس الختم في نصف يوم كامل، ويقيم حفلا يحضره علماء فاس ومراكش، ويقدم فيه الطعام للحاضرين، ويختمه بإنشاد الشعراء لقصائد في مدح الإمام البخاري رضي الله عنه(40)، والإشادة بشيخ الدلاء، وسعة علمه،....

كما كان الشيخ محمد الدرعي، يقوم بسرد صحيح الإمام البخاري وختمه في شهر رمضان من كل عام بزاوية تمكروت (41).

---

(35) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 144 .

(36) ترجمته مع تراجم علماء هذا العصر كما سيأتي .

(37) الذي وقعت زلزلة وهو بأحد مجالسه لسرد صحيح البخاري وذلك في 10 رمضان 1075هـ، حسب رواية الفقيه أحمد بن عبد الهادي الشريف السجلماسي .

(38) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 45 .

(39) ترجمته بنشر المثاني، ج: 3، ص: 173 .

(40) الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ص : 273.

(41) درة ابن القاضي،ج:3، ص:284، وتنبيه الكلالي،ص:17، والمزايا لعبد السلام الناصري،ص:19–20، وفهرس الفهارس، ع الكتاني، ج:2،ص : 25.

ويمكن اعتبار المجالس السلطانية التي كان يعقدها الملوك العلويون احتفالا بعيد المولد النبوي الشريف، بمثابة مجالس علمية خاصة بالسيرة النبوية، والتي كان العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من المثقفين يساهمون فيها مساهمة فعالة، كما أن التقاليد التي كانت تقام في إطارها شكلا ومضمونا تكرس دورها كمجالس علمية وتؤكده.

وقد اتسع نطاق هذه المجالس في هذا العهد، فأصبحت تقام ليلة عيد المولد، وليلة سابعه في مختلف الزوايا والأضرحة، وبعض المساجد والبيوتات، حيث تنشد الأمداح النبوية الشريفة. كما تتلىٰ قصة المولد النبوي الكريم (42).

وكان المغاربة عموما يتلون قصة المولد النبوي للبرزيجي مخللة بتصلية المدني.

وبعد النهضة المغربية الحديثة تأثر المغاربة بالحركة السلفية في المشرق ثم في المغرب - التي ولدت النهضة المغربية الحديثة، في أحضانها - كما تأثروا بلسانها الناطق في الشرق العربي -مجلة المنار المصرية- فصاروا يتلون قصة المولد النبوي الشريف، للشيخ رشيد رضا، مخللة بتصلية ابن جعفر(43).

وكان الملوك العلويون -ومازالوا- يحرصون على إقامة هذه المجالس العلمية الاحتفالية في شكل مهرجانات ومحافل ثقافية ويتفنن كل واحد منهم في تطويرها وتجديدها وإضفاء مظاهر العظمة والإجلال والتقديس على طقوسها، كل حسب عصره والعقلية السائدة فيه.

وقد اهتم ملوك الدولة العلوية أيما اهتمام بالجانب الفكري والمذهبي والعقائدي لمجالسهم العلمية المختلفة، وذلك في إطار اهتمامهم بجوانب الفكر المغربي وتوجيهها الوجهة الصحيحة على جميع المستويات والأصعدة، سواء في المعاهد والمدارس بين الأساتذة والطلبة، أو في المساجد والزوايا والرباطات بين العامة، أو في المجالس العلمية السلطانية، حيث تنطلق الدروس العلمية

---

(42) مجلة البحث العلمي، ع: 4و5، س: 2، ص: 26-27، 1385-1965.

(43) المصدر السابق، و ص.

الحديثية أو غيرها من هذه الجوانب الفكرية والمذهبية والعقائدية، وتوظف لخدمتها في آن واحد، والتي يمكن حصرها في الوحدات التالية :

– وحدة المذهب الفقهي في العبادات والمعاملات، وهو مذهب الإمام مالك.

– وحدة المذهب العقائدي، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، وطريقة أبي الحسن الأشعري.

– وحدة المذهب الصوفي، وهي طريقة الجنيد بواسطة أبي الحسن الشاذلي(44).

–وحدة المذهب في القراءات، وهي قراءة نافع، برواية أبي سعيد عثمان الملقب بورش.

– وحدة رواية صحيح البخاري، وهي رواية ابن سعادة.

وهذه الوحدات (45) هي التي تعمل على وحدة الفكر المغربي، وبالتالي هي التي توحد المغاربة، وتشكل قاسما مشتركا بينهم جميعا، مما يجعلهم في حرز أمين من الوقوع في شباك دعاة التفرقة، من أصحاب المذاهب الضالة المضلة على اختلاف مشاربهم.

لذلك حرص ملوك الدولة العلوية على سلامة هذه الوحدات، وجعلوا منها أرضية صلبة لمجالسهم العلمية السلطانية وغيرها التي كانت ولا زالت تشكل أهم مؤسسات وهياكل الدولة، وألمع واجهاتها بالداخل والخارج وحصنها الحصين في السراء والضراء....

الملوك العلويون والمجالس العلمية السلطانية :

تضاربت آراء الباحثين حول بداية المجالس العلمية السلطانية الحديثية وغيرها على عهد الدولة العلوية، وبالتالي حول من هو أول ملك علوي اتخذ هذه المجالس، وجعلها سنة متبعة لمن بعده.

غير أننا إذا استقرينا كتب التاريخ واستقصينا الموضوع في مصادره ومراجعه الأصلية نجد أن الجد الأعلى لهذه الأسرة المالكة الشريفة الحسن

(44) م. 656هـ

(45) دعوة الحق، ع: 6، س: 22، ص: 58، 1401هـ–1981م، الوحدات العشر، للعمراوي.

الداخل(46)، كان عالما كبيرا مشاركا في مختلف الفنون والعلوم، ولا سيما علم البيان، ويروى أنه أول من أدخل هذا العلم إلى المغرب (47).

وأشهر أجدادهم بعد الحسن الداخل هو المولى علي الشريف، الذي يقول عنه الزياني (48) : " ... ممن عظم العلم، واكتفى به عن الملك، وزهد فيه مولانا علي الشريف، جد الأشراف... واشتهر علمه، وظهر فضله، وراوده أهل الأندلس على ملكها، فزهد فيه،.... وقال : يكفيني قصب العلم".

أما أول من بويع بالملك منهم، فهو المولى الشريف الذي كان وجيها عند أهل سجلماسة، وكافة أهل المغرب، يقصدونه في المعضلات، ويستشفون به في الأزمات (49)، ويهرعون إليه فيما جل وقل من الملمات.... فأسندوا أمرهم إليه، لعلمه وفضله وتطوعه لخدمتهم (50)".

فبايعه أهل سجلماسة والصحراء كلها، وضربوا عليه الطبول سنة 1043هـ-1633م (51).

ويؤكد لنا ثقافته ومشاركته العلمية القادري (52) الذي جعله من علماء القرن الحادي عشر، وقال عنه :" ومنهم الشريف الأسمى، والملاذ الأحمى،

---

(46) الحسن بن قاسم، الذي دخل المغرب سنة 664هـ- 1265م، وتوفي سنة 706هـ، وقبره بالريصاني، قرب قصر كرينفود. وكان رجلا صالحا ناسكا، حتى تنازع السجلماسيون مدفنه بعد موته، ثم اتفقوا على تمسيح سجلماسة، ودفنه في وسطها، بحيث يشكل قبره المركز بالنسبة لها.

(47) الأنوار الحسنية أوالسنية، لأحمد العلوي، ص: 27، والحلل البهية للمشرفي، ونزهة الحادي للافراني، ص: 291-292.

(48) الروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 48، والبستان الظريف، للزياني ص: 21 م.خ.ع، بالرباط، رقم 1577.

(49) الحلل البهية للمشرفي، ص: 48.

(50) تاريخ الضعيف، ص: 56، كحفره آبارا على طريق الحجاج، وكان أهل سجلماسة تناقلوا تكهن أحد صلحائها وفقهائها عبد الله بن علي بن طاهر، بظهور الملك في أسرة الشريف بن علي، الذي عرف بصلاحه، وتقواه كسائر أسلافه.

(51) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 19-20، ونزهة الحادي، للافراني، ص: 299-300. لكنه اختطف بعد بيعته مباشرة، فقام بالملك ولده محمد الأول، فبايعه أهل سجلماسة في حياة والده، ثم افتدى أباه، لكنه لما عاد، زهد في الملك، وتنازل له عنه، وتفرغ للعبادة حتى توفي سنة 1069هـ، فجددوا البيعة لولده محمد الأول سنة 1069هـ، وهي البيعة الرسمية العامة، كما في البستان الظريف، للزياني،ص: 21، والروضة السلمانية، للزياني، ورقة: 48.

(52) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 88.

سيد الزمان، ووالد الخلفاء الأعيان...... من العلماء الأكابر، والخلفاء المجاهدين المشاهير".

غير أن هؤلاء الأجداد الأفذاذ للملوك العلويين، رغم مكانتهم العلمية السامية، لم يتفرغوا للمجالس العلمية وتقاليدها المستقرة، لانشغالهم بالجهاد في سبيل الله، والإصلاح الاجتماعي، وزهدهم في الملك، ومع ذلك فقد كانوا -عن قصد أو عن غير قصد- أول من وضع أسس الدولة العلوية، ومهدوا ووطدوا صرح الأرضية الصلبة الصالحة لانطلاقتها وإقلاعها.

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى محمد الأول - المولى الرشيد 1050 - 1182هـ - 1640 - 1672م.

المجالس العلمية السلطانية في عهد المولى محمد الأول (53). (1050 و 1069 - 1075هـ - 1640- 1658م).

كل القرائن تدل على أن محمد الأول كان عالما مطلعا، ونستشف ثقافته الواسعة، وعلمه ومآثره من مراسلاته مع معاصريه، من رؤساء الدول وغيرهم، كالأتراك (54) العثمانيين بالجزائر، والدلائيين (55) بالأطلس المتوسط. كما نتعرف من خلالها على شخصيته الفذة التي تمتاز بالحنكة السياسية، والشجاعة والبطولة التي شهد بها الأعداء (56)، والتي ربما كان التاريخ قد ظلمها (57) بحكم ظروف عصره المضطرب، ولكونه جاء في منعطف تاريخي بين دولتين وعهدين مختلفين.

---

(53) ترجمته بنشر المثاني، ج: 2، ص: 145.

(54) نصها بالحلل البهية، للمشرفي، ص: 54-57.

(55) توجد نصوصها في الروضة السليمانية للزياني، ورقة : 52، وفي الاستقصا ج: 7، ص: 22-25، والحلل البهية للمشرفي ص: 57-59. والاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 26، ومصادر عديدة، كنزهة الحادي للافراني، وتاريخ الضعيف، والبذور الضاوية، لسليمان الحوات.

(56) نشر المثاني للقادري، ودعوة الحق، ع: 258، ص: 26، 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية محمد الأول، د. محمد بن شريفة.

(57) المصدر السابق، ص: 22.

فمما لا شك فيه أنه تلقى دراسته حسب منهج الحركة العلمية في سجلماسة(58) مع أقرانه وإخوانه (59).

وباستقرائنا لرسائله المذكورة، يتضح لنا أنه كان مولعا برواية الأشعار، مشاركا في علم البيان -كجده الحسن الداخل (60) الذي نشره في سجلماسة كلها آنئذ - ذا اطلاع واسع في علم التاريخ والأنساب والسير (61)، مع إلمام بعلم الجفر(62).

غير أنه -كأبيه المولى الشريف- رغم مكانته العلمية المرموقة، لم تكن له مجالس علمية بالمعنى الرسمي المعروف. لانشغاله بوضع أسس الدولة، وتوطيد دعائم صرحها، وتمهيد أرجائها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يزدهر علم، ولا فن، ولا ثقافة، ولا حضارة في بلاد، إلا إذا سادها الأمن والاستقرار، وعمتها الطمأنينة والسلام.

والواقع أنه لا يساورنا أي شك في أنه كانت لهذا البطل الرائد المغوار مجالس علمية خاصة، في دائرة محدودة من الأقران والأنداد والأقارب المثقفين، لتدارس العلوم والآداب، ولا سيما العلوم الدينية، إن لم يكن للترفيه والتسلية والمؤانسة فلاستنباط الأنظمة والأحكام، واستفتاء الشريعة فيما يعترض دولته الفتية من قضايا على جميع المستويات والأصعدة.

ومما يعزز هذا الرأي أنه ثبت تاريخيا أن المولى محمد الأول أجاز الشاعر الجزائري المشهور أبا عثمان سعيد التلمساني (63)، بحوالي خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص، على بعض أمداحه فيه (64).

ولا شك أن إلقاء هذه المدائح بين يديه، وهذا الإنعام الحاتمي وأمثاله كانا في مجلس أدبي عام أو خاص. وما كان لمثل المولى محمد أن يكون له مجلس أدبي على هذا المستوى الرفيع، دون أن تكون له مجالس علمية

---

(58) المصدر السابق و ص.

(59) المصدر السابق، ص: 21.

(60) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 6، والمصدر السابق و ص.

(61) المجلة السابقة، وص.

(62) المصدر السابق، ص: 23.

(63) صاحب العقيقة.

(64) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 31، والحلل البهية للمشرفي، ص: 51-52.

موازية لها، إن لم تفقهـا، لمكانته العلمية والـدينية والدنيويـة، ولمناخ عصره الديني والاجتماعي الذي لا يسمح بذلك مطلقا.

ونعود لنلقي باللائمة على المؤرخين الذين أهملوا آثاره وأمجاده. وسجل لنا الافـراني اعترافه بلسـان حالهـم جميعـا في روضـة التعـريف قائلا : "وقد أضربنا عنها روما للاختصار".

وكـانت لـه مـراسـلات مـع بعض كبـار علماء عصره يمكن اعتبـارهـا -بتجاوز- نـواة للمجالـس العلمية السلطانيـة على عهـد الدولـة العلوية، لما تتضمنه مـن نظريـات وآراء سياسيـة، وقوانين وأحكـام دينية ودنيـوية ومخططات اجتماعية، ومشاريع اقتصادية، ومـا تنم عنه من ثقافة تاريخية وأدبية وغيرها. تلك النواة التي نمت وترعرعت، واشتد عودها بالتدريج على يد خلفائه من بعده بعوامل التطوير والتجديد التي عرفتها العصور اللاحقة كما سيأتي.

وهذه نبذة عن أحد أشهـر علماء عصره، الذين كانت له مع بعضهم تلك المراسلات العلمية المذكورة :

-الشيخ أبو عبد اللـه محمد بن أبي بكر الصنهاجي الـدلائي الذي قال عنـه صاحب الصفـوة : "أحد صـدور مشايخ المغـرب، انتهت إليه رئاسـة الدين والـدنيا، فأحسن السيرة فيهما، مع المشاركـة في جميع الفنون، سيما علم التفسير وعلم الحديث، فلـه فيهما اليد الطولى، والبـاع المديد. أخـذ عنه رحمه الله كبـار علماء المغرب بعده، كـالشيخ ميارة، وأبي العبـاس المقري، وابن عاشر، والبوعناني وغيرهم".

توفي ودفن بالدلاء قرب قبر والده الذي بنى عليه السلطان محمد الشيخ السعدي قبة فـاخرة، مداراة وتأليفا لقلب ولده محمـد الحاج الدلائي، الذي كان -إذ ذاك- معارضـا قوي الشوكة للسعـديين، شأنه شأن المولى محمد ابن الشريف، الـذي كان من المنـاوئين الأكفـاء لهما معا، في مـرحلة انتهـاء الدولة السعدية.

وكانت للمولى محمد بن الشريف معه مراسلات عديدة (65).

---

(65) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 161.

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى الرشيد : (66)
(1075-1082هـ - 1664- 1672)

أجمع المؤرخون والباحثون على التنويه بالشخصية العلمية الفذة للمولى الرشيد، والإعجاب بعبقريته الخلاقة المتميزة، والثناء على أعماله الجليلة، ولاسيما في مجال نشر العلم، وتعميم المعرفة، وخدمة الفكر الإسلامي والإنساني بصفة عامة.

وقد حالفه التوفيق على جميع المستويات والأصعدة، لسلامة طويته، وحسن نيته، وإخلاصه في أعماله، وبالتالي لبطولته، وشجاعته وإقدامه، وسمو أخلاقه...

والإجماع المذكور على التنويه بأريحيته العلمية يتجلى في شهادة هؤلاء المؤرخين والباحثين التي أقاموها لله وسجلتها ذاكرة التاريخ بأمانة.

ولا بأس من تسجيل بعض هذه الشهادات الحية لأعلام هؤلاء الباحثين والمؤرخين في أمهات المصادر التاريخية وغيرها.

- ففي الشجرة الزكية نجد : "كثر في أيامه العلم، وانتشر تعلامه،.... واعتز أهل العلم..... فقد أغدق عليهم النعم، فتنافس الطلاب في التحصيل(67)".

- ويقول الضعيف في شهادته : "عمل على نشر العلم وبثه، وإتقانه وتحقيقه، وتعظيم طلبته، فأقبل الناس على العلم والتعليم"(68).

- وقال الافراني : "في أيامه كثر العلم، واعتز أهله، وظهرت عليهم أبهته(69)....".

- ولعل أزكى شهادة وأرجحها، ما كتبه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، في رسالته للمولى إسماعيل : " .... ثم جاء المولى الرشيد بن الشريف فأعلى مناره، وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد،

---

(66) ترجمته بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 11-23.

(67) النهضة العلمية، لابن زيدان، ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028.والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 56.

(68) تاريخ الضعيف، ص: 56-57.

(69) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 36-37، والروضة السليمانية للزياني، ورقة : 56، ونزهة الحادي، للافراني، ص: 303-304.

وأعطاهم ما لم يعد، ولا سيما بمدينة فاس، ففاق من قبله، وأتعب من بعده، ولو طالت مدته، لجاءته علماء كل بلدة (70)» .

– ويزكي المشرفي شهادة هؤلاء جميعا، معلنا أنه أول من سن سنة عقد المجالس العلمية السلطانية للملــوك العلويين بقولـه:" كان الرشيـد محبا في جانب العلماء، مؤثرا لأغراضهم، مـولعا بمجالستهم، محسنا إليهم حيثما كانوا (71) " .

وكـاد إجماع البـاحثين أن ينعقـد على أن المولى الــرشيـد هـو المؤسس الحقيقي للمجالس العلمية السلطانيـة في شكلها التقليدي الرسمي، على عهد الدولـة العلوية الشريفـة، وأنه أول من سن سنتهـا الحميدة لملوكهـا الذين جاؤوا من بعده.

«فقـد كان حـاملا لـرايـة أهل الروايـة، مـولعا بمجـالسة أئمـة العلماء وشيوخهم، وتعظيم مجالسهم» (72).

وكان ينتقي لها كبـار العلماء المجتهدين من جميع أنحـاء مملكته، حيث كانوا يتـدارسون الأحاديث النبـوية الشريفة (73)، ويتباحثون ويتناظرون حول أحكامها وآدابها وأهـدافها... فكانوا بمثابة المنظـرين والمشرعين لدولته الفتيـة، الذيـن يضعون لها الاستراتيجيـة والتـوجهـات العامـة، ويحددون أبعادها ومراميها، وبالتالي أهـدافها القريبة والبعيدة، وذلك على أسس ثابتة من كتـاب اللـه العـزيـز وسنـة رسـولـه المصطفى الأمين. وفي ذلك يقـول أكنســوس : "وكـان مجلســه غاصـا بأهل العلـم يتجاذبـون فيـه أطـراف الأحاديث(74)، "وكـان عددهم ينـاهـز خمســة وعشرين عالما مـدربين على المعقول والمنقول" .

– وقال الحسن اليوسي في ذلك : "وكذلك مولانا رشيد، قد جمع العلماء، وأتوه من الآفاق بلا جمع" (75).

---

(70) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 38.

(71) الحلل البهية للمشرفي، ص: 101-104، والجيش العرمرم لأكنسوس، ص: 48.

(72) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم : 3177، ص: 56.

(73) الجيش العرمرم لأكنسوس، ورقة : 48.

(74) المصدر السابق، وص.

(75) النهضة العلميـــة، لابن زيـدان،م.خ.م بالــربـاط رقم : 3177، ص: 56. وميكروفيلـم، خ.ع، بالرباط، 2028.

وهـذه الأقـوال تـؤكـد أن مجالسه كـانت تتـدارس الكتـاب و السنــة، وتستنبـط أحكامهمـــا وكنـوزهـما بمنهجيـة تعتمـد على المأثـــور والرأي. كما كـانوا يتنــاولون بـالدراســة والبحث القضايـا الهامة التي تشغل بـال المجتمع المغـربي بصفة خـاصة وبـال الأمـة العـربية والإسلامـــية بصفة عامة، وذلك في جميع مجالات الحياة ومرافقها.

فقـد كـان هم المولى الـرشيـد معالجة الأوضـاع الفـاسـدة، ومحاربـة المتمردين والثـوار تحت مختلـف الشعارات المزيفـة، ونشر الأمن والاستقرار في البلاد وتوحيدهـا، تحت سلطة دينية، روحية ودنيوية مـوحدة، في ظلال الدوحة النبوية الوارفة، وآل البيت النبوي الطاهر.

وهـذا ما يلخص الأهـداف البعيدة التي كـانت مجالسه العلميـة تعمل جاهدة على تحقيقها، من خلال موضوعاتها وقضاياها...

وفي هذا الإطار كـانت مواجهة المولى الرشيد للزاويـة الدلائية (76) ومع غيرهم من الثوار بمختلف الجهات.

لكن المولى الرشيـد، انطلاقا من حبـه للعلماء، وميله إلى مجالستهم(77) ومباسطتهـم، وبالتالي إلى تعظيمهم وإكـرامهم، (78) فإنــه لما فتح الزاويـة الدلائية، ودخلهـا على أهلها، عاملهم بنبل، وحلم، وشهامـة هاشمية، فحقن دماءهم، وصـان أعراضـهم، بل وانتقم شر انتقام ممن حاول ترويعهم(79).

كما أنه نقل علماءها إلى فاس العاصمة العلمية، إذ ذاك معززين مكرمين، حيث هيأ لـهم سبل العيش الكريم، وتعهدهم ببره وحلمـه، واختار صفوتهم من الأئمـة والشيوخ لمجـالسته ومنـاظـرته في مجالســه العلمية الخاصـة والعامة، كأبي عبد الله المرابط.

---

(76) خربها سنة 1079هـ-1668م، ونقل محمد الحاج الـدلائي مع أبنائه إلى فـاس، ثم إلى تلمسان، الحياة الأدبية، لمحمد الأخضر، ص: 67-72، والروضة السليمانية للـزياني، ورقة : 560، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 175.

(77) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم: 3177، ص: 56، والميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم: 2028.

(78) نزهة الحادي، للافراني، ص: 303.

(79) نشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 180.

وكان ذلك دأبه مع كافة أهـل العلـم بسائر أرجاء مملكتـه، الذين كانت مجالســه لا تخلـو منهـم. أينما حـل وارتحـل.

ونجد لـدى الافراني في : "صفوة من انتشر من صلحـاء القرن الحادي عشر" وصفا حيا لأحـد المجالس العلمية للمولى الرشيـد، ويصور لنا كيف كان يبـدد أتعاب العلماء أعضاء مجلســه العلمي، ويحاول الترفيه عنهم من حين لآخر.

ذلك أنــه كـان من جملـة العلماء الحاضرين في ذلك المجلس، ابن المرابط المسناوي الدلائي، فأراد أن يؤانسه ويزيل وحشته، ويهدئ روعه، كما أراد مباسطة بقيـة العلماء، الحاضرين بذلك المجلس -كعادتـه في سائر مجالسه المختلفة- فأنشد قول المتنبئ، وهو يستطلع وقعه على ابن المرابط المسناوي بنظرة خاصة.

ومن نكـد الدنـيـا علـى الحـر أن يـرى

عـــدوا له مــامـن صداقتـــه بــد

فقال ابن المرابط : "أيـد الله أمير المؤمنين، ياسيدنا رحم اللـه من قال : من سعـادة المرء أن يكون خصمـه عاقـلا (80)". فاستحسن الحاضرون حضور بديهته، وحسن جوابه (81).

ويمكن اعتبار ما حدث بهذا المجلس، من نوادر المجالس العلمية والأدبية لهذا السلطان الجليل.

و يصور لنا ابن زيدان مجلسا من المجـالس العلمية للمولي الرشيد بما مفاده: "حـدث في أحد مجالسه العلميـة -وكان النقـاش يدور حول قـواعد الإسلام، وأنها خمـس- فقال أحد العلماءالحاضــرين بل هـي ست، فأنكروا عليـه قــوله واستجهلــوه، فبـــادرهم قـائلا : القاعــدة السادســـة هي السلطـان، إن وجــد وجــدت القواعــد الخمـــس وإلا فـــلا، فاستلطفـــه الحاضرون (82).

---

(80) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 48.

(81) الاستقصا، للناصري، ج : 7، ص : 48.

(82) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بـالرباط، رقم 3177، ص: 2، وميكروفيلم، خ.م، بالرباط، رقم : 2028.

وكان يـراقب حضور العلماء إلى مجالسـه العلمية و مـواظبتهم على ذلك بنفسه و عن كثب، فيسأل عن المتاخـرين و المتغيبين منهم، حرصا منه على الانضبـاط و الالتزام و المصـداقية، بـاعتبار أن العلماء مثل أعلى و نمـوذج تحتذيه الأمة كلها.

فقد لاحظ مـرة تكرار تغيب العالم الحسـن بن علي بن أحمد بن موسى السملالي عن مجلسه العلمي، فسأل عنه قائلا : «ماله لايأتينا مع العلماء؟» فقيل لـه: إنه رجل فيـه نـوع من الغفلة، فلم يقتنـع، حتى تأكد من الأمـر بنفسه، فوجدهم قد صدقوه القول، فاقتنع (83) .

ومن مزايـا هذه المجالس –التي تعتبر سنة من السنن الحسنـة العديدة للمولى الـرشيد، كملك ورائد لملوك الدولـة العلوية، حـرصه على تخصيص جناح(84) خاص بنساء القصر في مجالسه العلمية، وهو عبارة عن مقصورة لا يفصلها عن مجلـس السلطـان إلا شبـاك رقيق من الخشب المزخرف، ذو مـربعـات رقيقــة، بحيث يسمعن ويـرين بـوضـوح كل شيء، دون أن يراهُــنَّ أحـد. وكـان يحـث الشريفات وزوجات الشرفاء على حضور صلاة الجمعة (85)، وبالتالي حضور مجالســه العلمية وغيرها، في المقصورة التي خصصها لهن.

أنـواع المجالـس العلميـة للمولـى الرشيـد :

كانت المجـالس العلمية للمولى الرشيـد متنوعة، ذلك لأنها كـانت متأثرة بعـوامل مرحلـة النشأة أو المخاض، حتـى انتهت إلى عادة مـوحدة، وسنـة

(83) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م رقم : 3177، ص: 2.

(84) دعـوة الحق، ع: 1، س: 6، ص: 50، 1382هـ–1962م، المساجد وأشهرهـا في إصلاح العقول، لعبد الله الجراري، وحوار أحمد بنسودة، بقاعة الاستقبال في بيته، وقدروى لي ما قرأه شخصيا في تقييد لابن عمه العابد بن أحمد بن سودة، رئيس المجالس العلمية السلطانية على عهد الحسن الأول بالوراثة عن أبيه وجده، عن هذا الموضوع راويا عنهما في تقييده المذكور.

(85) دعوة الحق، ع: 1، س: 6، ص: 50، 1382هـ–1962م، المساجد وأثرهـا في صلاح العقول، لعبد الله الجراري. وحوار أجريته شخصيا مع مستشـار جلالة الملك الحسن الثاني العلامة أحمد بن سودة في قاعة الاستقبال ببيته، وقد روى لي في هـذا الشأن ما قرأه شخصيا في تقييد لابن عمه العابـد بن أحمد بن سودة، الـذي كان يترأس هـذه المجالس العلميـة السلطانيـة على عهد المولى الحسن الأول، بالوراثة عن أبيه وجده. عن هذا الموضوع، راويا عنهما في تقييده المذكور.

متبعة، واستقرت على شكل المجالس العلمية السلطانية التقليدية الرسمية المتوارثة فيما بعد، فقد لازمتها عوامل التطور والتجديد، عبر العصور، حتى وصلت بها إلى ما هي عليه اليوم.

وأهم أنواع المجالس العلمية وغيرها للمولى الرشيد :

– كانت له مجالس علمية ثنائية خاصة وجد محدودة يخلو فيها بعالم كبير ليأخذ عنه العلم، ويتمم دراسته عليه، أو ليستشيره في أمر هام من أمور الرعية وشؤون ملكه، تنفيذا لتعليمات الشريعة الإسلامية، وتواضعا مع العلماء حملة الشريعة، وورثة الأنبياء...

من ذلك أنه بعث إلى بعض علماء عصره، ليتدارس معه بعض الكتب على انفراد، فامتنع العالم وقال قولة الإمام مالك المشهورة :" العلم يؤتى ولا يأتي". فكان المولى الرشيد يتردد لمنزله للقراءة عليه" (86).

وإذا كانت هذه مزية لهذا العالم، الذي اقتدى بالإمام مالك، فإنها منقبة لهذا السلطان الجليل، الذي اقتفى أثر هارون الرشيد في حلمه وأريحيته....

– ومن أنواع مجالسه العلمية أنه كان يقصد مجالس الشيوخ من العلماء الكبار بالقرويين وغيرها، فيدخل عليهم بغتة، ويحضر دروسهم كواحد من الطلبة، وخاصة مجالس الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (87). وكان من سننه الحسنة أنه كلما دخل جامعة القرويين، إلا ويخرج منها إلى المدرسة المصباحية، حيث يحضر المجالس العلمية لكبار علمائها بدورها (88).

وذلك اهتماما بسائر علماء عصره، والتماسا للحكمة عندهم، وتحقيقا لمبدإ تكافئ الفرص بينهم، وحتى ينتقي بنفسه –عن كثب– خيارهم وأفاضلهم وصفوتهم لمجالسه العلمية وغيرها : الخاصة والعامة.

(86) الحلل البهية للمشرفي، ص: 103–106، والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 2، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 48.

(87) الحلل البهية للمشرفي، ص: 103.

(88) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.ع، بالرباط، رقم : 3177، ص: 56، والميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم 2028.

وكلما حضر مجلسا لعالم من هؤلاء العلماء الكبار -في أية مدرسة- إلا ويتدخل ليناقشهم في أدق المسائل الفكرية والعلمية المطروحة من خلال ذلك الدرس، ويساعدهم على التوصل إلى حقائقها، عن طريق الحوار والجدال والمناظرة إلى أن يستخلص معهم قواعد هذه الدروس ونتائجها....

وفي نهاية الدرس كان ينعم على جميع الحاضرين بوافر العطايا، حسب مكانة كل منهم، تشجيعا لهم، وبثا لروح المنافسة بين العلماء والطلبة، وإحياء للنهضة العلمية التي ينشدها.

لذلك أقبل العلماء والطلبة على دراسة مختلف العلوم والفنون في عهده، إقبالا منقطع النظير، وبعثوا حركة علمية مباركة في جميع أنحاء البلاد.

" وبذلك تعرف درجته في العلم، وأنه من العلماء (89) " كما قال المشرفي.

ومن الصور الحية لهذا النوع من مجالسه العلمية، أنه دخل القرويين ثم المدرسة المصباحية بطريقته المعهودة، سنة 1107هـ، حيث جالس جماعة من علمائها. وعلى رأسهم الحسن بن مسعود اليوسي، وعلي بن منصور الزموري -وهما من فحول علماء عصره، ورواد مجالسه العلمية- فأعطى لكل واحد ممن حضر المجلس، مائة مثقال من الذهب(90).

ويظهر أن شغفه بهذا النوع من مجالسه العلمية بالخصوص، يرجع إلى انتقاله الفجائي من مرحلة الدراسة في حلقات الدروس، إلى سدة الملك وعرشه وتاجه وصولجانه، قبل أن يشبع نهم عقله المتوقد، وروحه المتوثبة إلى مناهل العلم والعرفان، وظمإ نفسه الطموحة التواقة إلى النهل والعلل من ينابيعه الصافية، حيثما وجدت....

وهذا ما يفسر تردده للدراسة على كبار الشيوخ، بمفرده، ثم تردده على مجالس هؤلاء الشيوخ بجامعة القرويين، وغيرها من المؤسسات العلمية، التي كان الحنين إليها يراوده دائما، حتى بعد بيعته واعتلائه عرش البلاد، وبعد أن دانت له العباد.

كما يفسر لنا مبالغته في تعظيم العلماء، وإكرامهم، والبرور بأبوتهم التي كان يعتز بها، مما يشهد به المؤرخون بالإجماع -كما مر بنا-.

---

(89) الحلل البهية للمشرفي، ص: 106.

(90) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 73-75.

فقد كان "كثير الاجتماع بالعلماء، وما اجتمع بهم قط إلا وبالغ في حضهم على نشر العلم وبثه، وإتقانه وتحقيقه، وتعظيم طلبته، فأقبل الناس على التعليم والتعلم، وعمرت أسواق العلم، -وقد عفت من قديم- حسبما أشار إلى ذلك الافراني في النزهة (91)".

-وبموازاة المجالس العلمية للمولى الرشيد، كان يعقد مجالس أدبية صرفة أو مختلطة، بحيث يتدارسون أحيانا المواضيع الدينية، من تفسير أو حديث أو فقه أو غير ذلك، وطورا يتناشدون غريب الأشعار (92) -إذ لم تكن أنواع المجالس قد استقل بعضها عن بعض -كما حدث فيما بعد- بل كانت لا زالت تعرف نوعا من التداخل بينها، شأنها في ذلك شأن العلوم فيما بينها، وبالتالي لم تكن أنواعها قد استقرت، واتخذت المجالس العلمية منها شكلها التقليدي المتعارف عليه عبر العصور اللاحقة وإلى اليوم.

وهذه المجالس الأدبية للمولى الرشيد خلدت جوده وأريحيته الأدبية، التي جعلت الأدباء والشعراء يتهافتون على مجالسه الأدبية، ابتغاء عطائه الندي الكريم.

فقد سجل لنا التاريخ الأدبي للمغرب أن المولى الرشيد أنعم خلال أحد مجالسه الأدبية على أحد شعراء الجزائر بألفي وخمسمائة دينار على مدحه له ببيتين من الشعر (93) وهما :

فاض بحر الفرات في كل قطر
من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـ
ـر خلاصا فلم يجده فمات

كما مدحه أحد شعراء فاس، بقصيدة من أربعين بيتا، وأنشده إياها في أحد مجالسه الأدبية، فأعطاه أربعين قنطارا من الذهب (94).

(91) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 56، وميكروفيلم، م.ع بالرباط، رقم 2028.

(92) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 48.

(93) نزهة الحادي للافراني، ص: 303-304، والحلل البهية للمشرفي، ص: 101، والاستقصا للناصري. ج: 7، ص: 44، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 48، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 2.

(94) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 3.

ولما فتح مراكش وأخرج منها الشبانات جاءت الوفود المهنئة وتوافد عليه الشعراء بقصائد المدح والتهنئة، فعقد لهم مجلسا أدبيا، أنشده فيه أحمد بن عبد العزيز العلوي –مؤلف كتاب الأنوار السنية أوالحسنية – قصيدة من نظم أحد الشعراء، وزاد فيها أبياتا من نظمه، تتعلق بفتح مراكش ومطلعها :

جرت بمناك الدهر ملء عنانها وساعدت الإمام في عنفوانها

– وتقديرا لدور الطلبة الطلائعي في المجتمع، وروحهم النضالية العالية، واعترافا بفضلهم وإسهامهم الفعال في تأسيس دولته التي قامت على أكتاف الطلبة أبى إلا أن يخصهم بمجالس علمية وأدبية موازية في شكل مهرجان أو محفل أو مؤتمر ترفيهي، فسن لهم نزهة الربيع السنوية.

وكانت تقام تحت الرئاسة الشرفية للمولى الرشيد، وتشارك السلطات المحلية في تنظيمها وتسييرها بكيفية غير مباشرة. وكان يحضرها الأهالي، وخاصة آباء وأولياء الطلبة، وغالبا ما يحضرها السلطان بنفسه، تأكيدا لاهتمامه بأمر الطلبة، وإحياء لذكرى عزيزة على نفسه، ذكرى قضائه على الإقطاعي اليهودي المتجبر "هارون بن مشعل" (95)، وتخليدا لذلك الميثاق الروحي الذي يربط بينه وبين الطلبة، وبالتالي بين العرش العلوي والشعب المغربي قاطبة، ويجعلهما يدا واحدة على الأعداء، في السراء والضراء، في السر والعلانية....

ذلك أن المولى الرشيد لما فتك بابن مشعل، أقام لجنوده من زملائه الطلبة – الذين كان عددهم خمسمائة طالب – نزهة فاخرة، فظل يحتفل بذكراها كل سنة (96)، طيلة حياته، اعتزازا بها وتخليدا لها.

أما خضوعه لسلطان الطلبة أمام رعيته، فهو رمز لمكانة العلم العظيمة، وبالتالي لمكانة العلماء من الدولة باعتبار أن العلم أساس الملك . وهو سر اهتمامه بعقد المجالس العلمية، وحرصه على استمراريتها وتطويرها، باعتبارها أهم مؤسسات الدولة، وأعتد هياكلها.

---

(95) المصدر السابق، ص: 3.

(96) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص : 23–24، والنهضة العلمية لابن زيدان،م.خ.م.. بالرباط، رقم 3177، ص : 3.

ومن مجالسه الأدبية التي تذكرنا بأروع ما في كتاب الأغاني، ونفح الطيب، من مساجلات ومحاورات ومناظرات ومناقشات أدبية، ما يحكيه لنا ابن زيدان (97) قائلا : " جرى في مجلس من المجالس الأدبية للمولى الرشيد نقاش في المفاضلة بين مدينتي : فاس ومراكش، فقال أحد الحاضرين " "بينهما ما بين بانيهما في الفضل"(98) .

وبموازاة مجالسه العلمية والأدبية وغيرها، وانطلاقا من أهدافها، قام بأعمال جليلة في حقل المعارف والعلوم، من شأنها تدعيم هذه المجالس، وتعزيز دورها، وتسهيل أعمالها، وتكوين علمائها، وانتقاء صفوتهم وتزويدها بنبغائهم .

وفي هذا الصدد، قضى على النشاط السياسي للزاوية الدلائية(99)، وشيد على أنقاضها نهضة علمية عتيدة، شع نورها في البلاد، حيث بنى لعلمائها المدارس والمعاهد، وشجعهم ماديا ومعنويا، فأقبلوا على العلم والتعليم، والإصلاح والتوجيه، مما جنى المغرب خيره، فعم البلاد والعباد.

كما أنشأ خزانة للكتب العلمية والأدبية وغيرها بفاس، وحبس عليها كتبا (100) سنة 1079 هـ، " وانتقى لعمارتها ذخائر الكتب العلمية، وأنفس النفائس الأدبية " (101).

كما أكثر من بناء المدارس (102) بالمدن والقرى، -ولاسيما بالعواصم كفاس ومراكش- وزودها بالأقسام الداخلية لإقامة الطلبة، اهتماما بمشاكلهم وتكريما لهم، وتقديرا لمكانتهم ودورهم . وتوج ذلك بمدرسة الشراطين سنة 1081هـ ومدرسة حومة ابن صالح بمراكش (103) .

---

(97) أخذاً من تقاييد بعض شيوخه، المصدر السابق،وص.

(98) ومشيرا بذلك إلى أن فاسا بناها المولى إدريس الثاني، ومراكش بناها يوسف بن تاشفين، ولا شك أن القائل من فاس.

(99) في 8 محرم سنة 1079.

(100) نص عقود هذا التحبيس بالدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 24.

(101) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص: 39.

(102) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص: 41.

(103) المصدر السابق، وص.

وكـان كلما دخل مدينـة أو قـرية إلا ويحرص على زيـارة مسـاجدهـا ومدارسـهـا، وتعهدها كلها بـالعناية والإصلاح، والإحسـان إلى العاملين بها، والتكفل بـالمنقطعين للعلـم في أحضـانها، ولاسيما جـامعـة القـرويين بفـاس(104).

وفي هـذا الإطار، وعمـلا على نشر تعاليم الإسـلام الصحيحة السمحـة، وخدمة للحـركة الإصلاحية التي يتزعمهـا علماء مجالسه العلمية في جميع مجالات الحيـاة، اهتم بـاختيـار خطبـاء المسـاجـد، وتعيينهم بـالحواضر والبوادي، والإشراف على مراقبة أعمالهم.

واهتماما من المولى الرشيـد بالمجالس العلمية وتقديرا لـدورها، وبالتالي لـدور علمائها الطـلائعي في جميع مجالات الحيـاة -كرواد لـلأمة وحملـة للشريعة "وظل الله في أرضه " - كـان يحترم العلماء ، ويعاملهم بإجلال وتقـديـر، وإكـرام وتكـريم، ويحرص على تقـريب جهـابـذتهم، ويبـالغ في التواضع معهم، وخفض الجنـاح لهم، وإغداق النعم عليهم، والسعي لكسب رضـاهـم عنـه وعن أعماله، ولاسيما في المجـال الـديني والعلمي . فكـان لا يصدر إلا عن رأيهم ومشورتهم (105).

نـاهيك بقصتـه مع شيخ الجماعـة بفـاس، أبي زيـد عبـد الـرحمن بن القاضي، الذي سعى لاستقباله شخصيا في داره لكبر سنه واستشارته فيمن يصلح للسلطة المحلية بفاس، طالبا منـه اختيار عناصر صالحة لذلك قائلا: "أتيتك أستشيرك فيمن أوليـــه بفـــاس من حـــاكـم وقـــاض ومحتسب وناظر(106) ...... " فأشار عليـه بأناس، فولاهم، ومنهم أبـو العباس أحمد دعي حمدون المزوار، الذي ولاه القضاء.

---

(104) النهضـة العلمية لابن زيـدان، م.خ.م. بـالربـاط، رقم 3177، ص : 56 والميكـر وفيلم، خ.ع. بالرباط، رقم 2028.

(105) النهضـة العلميـة لابن زيـدان، م.خ.م. بـالـربـاط، رقم 3177، ص : 56 والنهضة العلمية ميكروفيلم، خ.ع. بالرباط، رقم2028.

(106) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 3والنهضة العلمية ميكروفيلم، خ.ع. بالرباط، رقم2028، والإتحاف لابن زيدان، ج:3، ص:39.

وكان يعتمد إشارة ابن القاضي هذا في النقض والإبرام، "حسبما أفصح بذلك الزياني في شرح ألفية السلوك، وصاحب الدر المنتخب وغيرهما" (107).

لذلك ماإن تمت له البيعة بفاس حتى "أفاض المال على علمائها وغمرهم بالعطاء .... وأظهر إحياء السنة والشريعة، فأحبته الخاصة والعامة(108).

وعن علماء عصره، وبالتالي مجالسه العلمية وغيرها يقول الزياني :"كان في عهده جماعة من العلماء والأعيان والأدباء، وكتاب الديوان، لكن تاريخه لم يدون إلا في عهد مولاي إسماعيل وبعده "(109).

وهذه أسماء لبعض أشهر علماء عهد المولى الرشيد، وجلهم من أشهر علماء مجالسه العلمية والأدبية وغيرها، باعتبار أن العلوم كانت لا زالت لم تستقل عن بعضها، وبالتالي كانت المجالس العلمية السلطانية لا زالت في طور النشأة والتأسيس، ولم تأخذ بعد طابعها النهائي، وشكلها التقليدي المتبع -كما سبق القول-.

- الشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي الفاسي (110).
- الشيخ أحمد بن بناصر الدرعي (111).
- عبد الله بن حمدون الروسي (112).
- السيد المؤذن (113).

---

(107) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 3والنهضة العلمية فيكر وفيلم، خ.ع. بالرباط، رقم2028، والإتحاف لابن زيدان، ج:3، ص:39.

(108) الحلل البهية للمشرفي، ص: 99.

(109) الروضة السليمانية، للزياني، ص: 2.

(110) ترجمته بالاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 45.

(111) ترجمته بالدرر المرصعة، ص: 276و 147-156.

(112) ترجمته بنشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 238.

(113) المصدر السابق، وج، ص: 227-228.س

الفصل الثاني

تعدد أنواع المجالس العلمية بتعدد موضوعاتها وأهدافها



الفصل الثاني
المجالس العلمية السلطانية
على عهد المولى إسماعيل(1)
(1082 - 1139 هـ - 1672 - 1727م)

كان المولى إسماعيل شخصية فذة متميزة، قل أن يجود التاريخ بمثلها، فقد جمع بين العلم والأخلاق، والشجاعة المادية والأدبية، فكل جوانب شخصيته في ترجمته، وكل تصرفاته تؤكد علمه واضطلاعه، غير أن أخبار بطولته وملاحمه العسكرية، طغت على أخباره العلمية والأدبية، فحجبتها أو جعلتها تبدو باهتة بالنسبة لأخبار انتصاراته المظفرة الرائعة، وشجاعته النادرة، وسياسته الحكيمة المتزنة.

فقد كان "آية إعجاز في معرفة علوم الحديث، والأدب والتاريخ، والأنساب والسير" (2) .

وأقر له بذلك العلماء والباحثون والمؤرخون، كالمؤرخ أبي عبد الله محمد الصغير الإفراني (3) في قوله :".... وأما مسائل التاريخ ومعرفة الأنساب فهو ابن بَجْدَتِها، والعارف بدسائسها، يعرف القبائل العربية والشعوب البربرية،ولم يكن في وقته أعرف منه بالأنساب، كأنها جمعت إليه، فهو ينظر إليها، ولم يكتف من العلم بالقشر دون اللباب، بل نال القدح المعلَّى والغاية القصوى في ذلك، التي هي العمل والتخلق بمقتضياته خشية وخوفا من ربه، وعدلا وإحسانا وإنصافا، وغير ذلك من الأخلاق المصطفية(4) ".

(1) ترجمته بنشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 292.

(2) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 38-39.

(3) في كتابه الظل الوارف.

(4) المصدر الأول، ص: 39-40، والدرر الفاخرة لابن زيدان ص: 36.

فقد كان شغوفا بالعلم، يعمل على نشره، وينفق في ذلك بسخاء(5)، حتى بعث حركة علمية، ازدهرت في ظلها جميع فروع المعرفة في عهده(6)، مستهدفا خلق مناخ ثقافي يواكب أعمال مجالسه العلمية الجليلة، ويتجاوب معها في توافق وتناغم وانسجام، حتى لا تكون هنالك هوة فكرية تفصل بين طبقات الأمة، وفي ذلك يقول القادري :"وجدد الناس لأيام العلوم عهدا، فكانت أسواق العلم في خلافته عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة" (7) .

وبلغ من ازدهار الحركة الفكرية في عهده وأصداء مجالسه العلمية، ما دفع بعض المؤرخين الفرنسيين المعاصرين إلى القول :" أنه بآثاره ودهائه، يساوي الملوك العظام بفرنسا الذين كان يهاديهم (8) ".

وقد هيأ لمجالسه العلمية الروافد التي تغذى ينبوعها الفياض، بما يكفل استمراريتها وعطاءها، ويعمل على إثرائها وإغنائها، وبالتالي على تطويرها وتجددها، ومواكبتها للظروف المستجدة والطارئة على جميع الجبهات والواجهات، في سائر ميادين الحياة ومرافق الدولة.

ففي سبيل تكوين العلماء الأكفاء وتأطيرهم، كلف لجنة تربوية تتفقد وتتبع أحوال التلاميذ ودراستهم في الكتاتيب القرآنية (9)، والإنفاق عليهم، ومن ظهرت نجابته وفرض تفوقه، أسقطت عنه الواجبات تشجيعا لهم، وبعثا لروح المنافسة بينهم، وحتى ينتقي نبهاءهم، ويصطفيهم أعضاء في مجالسه العلمية المختلفة، كل حسب اختصاصه.

كما اهتم بالطلبة الكبار في المعاهد العليا، فكان يجري لهم اختبارات، ويختار المتفوقين منهم للمناصب الشرعية والدينية وغيرها، وبالتالي أعضاء في مجالسه العلمية، مكافأة لهم وتشجيعا لغيرهم.

---

(5) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص: 108–109.

(6) المصدر السابق، ص: 109، والنهضة العلمية، لابن زيدان م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 5، وميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

(7) نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 290. والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 5، والنهضة العلمية ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم : 2028.

(8) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 30.

(9) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 6.

وقد وصف هذه المدارس الكمندار "استـوار"، في رحلته التي كتبها عن رحلته إلى مكنـاس، فقال : "تـوجد مـدارس عديـدة، يتعلم فيهـا الصبيان الكتابة والقراءة والحساب، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب" (10).

أما أئمـة وشيوخ العلماء بمجالســه المذكورة، فكـان يعظمهم، ويقربهم، ويشجعهم على الالتزام والعطـاء، والتفاني في المهام الجسيمة الموكـولة إليهم في التنظير، والاستنباط، والتشريع... بأن يغدق عليهم النعم. إذ أجرى عليهم الـرواتب من بيت المال طـول حياتـه (11)، حتى يكفيهم مـؤونة مشـاغلهم الشخصية، ويتفـرغوا للعلم، وللمسؤوليـات المنوطـة بهم. كما كان يقطعهم إقطاعات قيمة (12) كالشريف محمد بـن عبد القادر الإدريسي (13)، وطبيبه الخاص أحمد أدراق (14)، والشريف محمد بن عبد القادر العمراني (15).

وكـــان يصـــدر لعلماء مجالســـه العلميـــة وغيرهم ظهـــائر التـــوقير والاحترام(16)، ويجددها لأبنائهم، مكافأة لهم، وحفزا لأبنائهم، حتى يسيروا على نهجهم، وتعزيزا وتدعيما لمجالسه العلمية بالأطر الفعالة الكفأة. كظهير عبد السلام بن عبد الواحد غريط (17) الأندلسي، الذي جدده لأولاده.

كما عزز مجالسه العلميـة المختلفة بخزانات كبيرة، وزودهـا بعدد هائل من المصادر والمراجع القيمة، وجنـد طاقات هائلـة في هذا السبيل، حتى قال صـاحب سنن المهتـدي (18) في ذلك :"حـــوت الخزانـة الإسماعيليـــة من التصانيف، وجمعت من أنـواع الدفاتـر وأسماء التآليف، مالم تحوه خـزانة بغداد، ولا علق بذهن الداني الأستاذ".

---

(10) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 36–37.

(11) تاريخ الضعيــف الربـاطي، ص: 98–99، والنهضـة العلميــة، لابن زيدان، م.خ.م، بالـرباط، رقم 3177، ص: 6، والنهضة العلمية، لابن زيدان ميكروفيلم، خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

(12) النهضة العلميـة، لابن زيدان، م.خ.م، بالربـاط، رقـم : 3177، ص: 7، والمنـزع اللطيـف، وبه نصوص الظهائر بذلك.

(13) م. 1124هـ .

(14) م. 1137هـ .

(15) م. 1132هـ .

(16) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 87.

(17) نص الظهير بالمنزع اللطيف.

(18) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 36–37.

فقد اعتنى بجمع الكتب بنهم، وبذل في ذلك كل غال ونفيس، مما سجله له التـاريخ، حتى قال الإفراني :"وقـد جمع من الدفاتـر في كل فن مايحير العقول (19) ".

كما ولع بنسخ الكتب، فجمع لذلك الخطاطين الماهرين (20)، وأسكنهم في جنـاح خـاص من قصره، -بحيث يـراقب أعمالهم عن كثب-، وكـان يفيض عليهم النعم والعطايا بسخاء (21).

وفي هـذا الصدد اغتنم فـرصـة مجيئ النصارى الإسبـان يطلبون فـداء أسراهم، -بعد استرجـاعه لمدينة العـرائش سنة 1211هـ -، فـاشترط عليهم مقابل ذلك أن يسلمـوا له خمسة آلاف كتاب من الكتب الأسيرة لـديهم منذ سقوط الأندلس، زيادة على خمسمائة أسير مغربي، وأموالا كثـيرة، وبعـث مع الـوفـد لجنـة مـن كتـابـه المثقفين لاختيـار هـذه الكتـب، وكـذا الأسـرى(22).

وترغيبا وشحذا لمحبة رعيته في آل البيت، وتثبيتا لقداسة كل ما يمت إلى النبي ﷺ بصلـة، تقبل تـوبـة أهل فـاس الـذين تشفعـوا لـديـه بـالنعل النبوي(23). الذي كان لدى الشرفـاء الطاهريين (24)، سنة 1114هـ، فتقبله من أهل فاس للتبرك به، وبنى له قبة خاصة عرفت بقبة النعل، وبقي عنده طيلة حياته (25).

---

(19) المصدر السابق، و ص .

(20) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 7، وتاريخ الضعيف، ص: 69.

(21) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 39-40، ونشر المثاني، للقادري، ج: 2، ص: 340.

(22) تاريخ الضعيف، ص: 73.

(23) كـان لدى الشرفـاء الطاهـريين المراكشيين الصقليين الحسنيين القـاطنين بمصمودة من فـاس الأندلس.

(24) ذلك أن النبي (ص) لم يورث -كسـائر الأنبياء- فتصـدق أبو بكر بما تـركه، والنعـال أهديت لبني عبد المؤمن الموحدي، وظلت لدى قـاضي قضاتهم، وهو من الأشراف الطاهريين، فلما دخل عبد الحق المريني مراكش، وخرج منها الموحـدون، ظلت النعال مع الطاهريين، إلى أن تشفع بها أهل فاس لدى المولى إسماعيل، كما في نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 144-158.

(25) نشر المثاني، للقـادري، ج: 3، ص: 158-159، وطالبـه به بعض الطاهـريين، فدافعهم بلطف، وقيل إنهم لم يعطوه الأصل بل نسخـه منه، وفقد النعل من قصر المولى إسماعيل، بعد وفـاته، وزعم الطاهريون أنهم افتدوه ممن نهبه، واحتفظـوا به من جديد، كما في نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص: 159.

وفي إطار تقديس كل ما يمت إلى النبي ﷺ، وتحقيقا لنفس الأهداف، سمى جيشه بعبيد البخاري، ثم جمع رؤساءه، وأحضر نسخة قيمة من صحيح البخاري، وقال لهم : " أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ، ولشرعه الحنيف المجموع في هذا الكتاب، نفعل ما أمر به، ونترك ما نهى عنه، وعليه نقاتل". فعاهدوه على ذلك، وأقسموا به، واحتفظ بتلك النسخة، فكانوا يصحبونها في أسفارهم، ويقدمونها في حروبهم، في هالة من التقديس، وعادات ومظاهر متعارفة، كتابوت بني إسرائيل (26)، مما يؤكد مدى تقديسه للسنة النبوية الشريفة، التي هي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، وبالتالي على جعله لها الموضوع الرئيسي لمجالسه العلمية السلطانية.

وفي هذا الصدد أمر بمراقبة الأهلة -لارتباطها ارتباطا وثيقا بالعبادات- وذلك بواسطة لجنة من عدلين، مساء اليوم التاسع والعشرين من كل شهر، اللذين يقيدان شهادتهما برؤيته أو بعدمها في سجل خاص يوقعه القاضي، ثم يرسله إلى حضرة المولى إسماعيل شخصيا، على جناح السرعة (27).

وفي إطار تهييئ المناخ الديني والعلمي الموازي لأعمال مجالسه العلمية المختلفة، تبنى مظاهر الحضارة العربية الأندلسية، وعمل على تجديدها بالمغرب، مما لاحظه الإنجليزيان :(استيورت، والكمندار أستيفار) ونقله عنهما (جون ويندروس الإنجليزي) في رحلته المغربية، سنة 1134هـ-1721م (28).

وانطلاقا من تفانيه في توطيد دعائم الدين الإسلامي في ربوع مملكته بصفة عامة، وأركانه بصفة خاصة - ولا سيما ركنه الأول، وعموده الفقري : الصلاة- سن قراءة الحديث النبوي الشريف الذي يأمر المصلين بالسكوت والإنصات يوم الجمعة، بمجرد حضور الإمام، وخروجه من المقصورة(29). وفي هذا الباب، وعملا على إصلاح

(26) الاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 53-59.

(27) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص: 31-32، وبها نموذج الشهادتين : برؤيته، وبعدمها.

(28) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 20، ص:41، 1399هـ-1979م مسيرة الفتح، مسيرة أصيلة د. عبد الله العمراني، و الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص:30.

(29) تاريخ الضعيف ص: 82، والمصدر السابق، وص.

المعتقـدات الفاسـدة بالبـلاد -التي كانت شغلـه الشاغل- حـارب الزوايـا وشيوخها- كسائر أسلافه الكرام -احترازا من تطلعهم للحكم، فمنعهم من التجمع في المساجـد، وكان دائما يراقبهم بحـذر وعن كثب. إذ لاحظ أن جل الثـوار الخارجين على أسـلافـه كانـوا من أصحـاب الطـرق الصـوفيـة والزوايا(30).

وفي إطار تأليف القلوب، وتوطيـد العدالة الاجتماعية، والأمن الاجتماعي، -وهما أسـاس كل استقـرار، ويكمـلان الأمن الاقتصـادي- "سن يـوم عـاشوراء ميقـاتـا للعطايـا... والإحسـان إلى الشرفاء والعلماء والصـالحين، وسائر الرعايا) " (31).

وكـانت المجالس العلميـة المختلفـة للمولى إسماعيل تشكل قطب الـدائرة بالنسبة لدولته، إذ كانت سلطاتها الروحية، موازية لسلطته في مواقع اتخاذ القرار، ومركـز السلطة، بحيث كانت جميع القرارات والقـوانين منها وإليها، لذلك اتخذها منطلقا لتحقيق أهداف الدولة ومبادئها.

ولذلك أيـضا لم يكتـف بتهيئ الأرضية الصلبة، والتربة الخصبة لأعمال هذه المجـالس المختلفة، ولا بإعداد المنـاخ المعتدل، ولا بإثراء وإغناء الـروافد التي تجـدد دمـاءها، وتكفـل لها الاسنمراريـة والتطوير والتجديـد، بل أبى إلا أن يـرأسها بنفسـه، ويشـارك فيـها مشاركـة الـرائد المحنـك والقـائد الخبـير.

وهذا ما يشهـد به علماء عصره، وعلى رأسـهم المؤرخ الشهير الإفراني في قوله: " كان آية إعجاز في معرفة علوم الحديث والأدب والتاريخ والأنساب.... وكثيرا مـا تدور بمجلسـه غـرر المسائل، فإذا تكلم فيهـا أبهت الحاضرين، وأذهل المتكلمين (32) ".

---

(30) دعـوة الحق، ع: 6و7، ص: 17، 1385هـ-1964م، الصوفيـة وطرقهـا في الإسلام، لعبـد الله الجراري، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 62.

(31) الدرة المكنونة الغالية في وصف أهل الدولة العلوية العالية للعربي الفيلالي، م.خ.م، رقم 12238، ص: 57.

(32) دعوة الحق، ع: 258، ص: 21، 1406هـ-1986م، ملامح من شخصية محمد الأول، د. محمد بن شريفة، والمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 38-39.

أنواع المجالس العلمية للمولى إسماعيل :

تطورت المجالس العلمية السلطانية في عهد المولى إسماعيل، فاتخذت عدة أشكال وأنواع.

فقد كان تارة يعقد مجالس علمية تقليدية عادية لأئمة العلماء والشيوخ، بالطريقة التي سبقت الإشارة إليها للبحث والدراسة حول نص من القرآن الكريم أو حديث نبوي شريف، أو غير ذلك من القضايا الدينية والدنيوية التي يتوقف عليها سير الدولة.

وطورا كان يجمع أعيان العلماء من جميع الأقاليم، حول قضية وطنية حساسة شائكة -سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية- من القضايا التي كانت تؤرقه، وتقض مضجعه، فيسند إليهم أمر دراستها، والبث فيها بما يرونه ويجمعون عليه، اعتمادا على تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ومصادرها، تخليصا لضميره من تبعتها، وإرضاء لربه، ومراعاة لإرادة الأمة.

وأحيانا أخرى كانت مجالسه تتخذ شكل مراسلات متبادلة ومتواصلة بينه وبين جهابذة علماء عصره -سواء من داخل البلاد أو خارجها- حيث يطرح عليهم في مراسلاته أسئلة وملاحظات واقتراحات، حول مسائل وقضايا دينية عويصة أشكلت عليه، أو تضاربت حولها آراء العلماء والباحثين....

كما نجده مرارا يعطي مجالسه العلمية صورة استفتاء لعلماء عصره، حول أعمال وقرارات وأحكام اتخذها، أو يريد اتخاذها، لكنها تلقى معارضة شديدة من بعض العلماء، أو من طرف الرأي العام المغربي.

وكثيرا ما كان يوسع دائرة هذا الاستفتاء، فيستفتي علماء من العالم العربي والإسلامي.

ومرات عديدة عقدها في إطار الدعوة إلى الإسلام، حيث يناظر فيها الرهبان، ويجادل أقطاب علماء الديانة المسيحية.

وكثيرا ما كان يتبنى حفلات ختم أعيان العلماء لصحيح البخاري أو غيره من أمهات المصادر الدينية في التفسير والحديث والفقه أو غيرها.

ولا يلبث أن يجمع علماء مجالسه المختلفة في مهرجان ديني شعبي لطلب الغيث.... إلى غير ذلك من أنواع مجالسه العلمية وغيرها، التي تعددت بتعدد الجوانب الإيجابية للفكر الإسماعيلي الخلاق، وكدليل إثبات لعبقرية هذا الملك العظيم، وشخصيته المتميزة، وإرادته الفولاذية، ونفسه التواقة المتوثبة والمتحفزة للمعالي والأمجاد....

وجميع هذه المجالس على اختلاف أنواعها وأشكالها، كان يرأسها ويسير جلساتها شخصيا، حيث يكون قطب الرحى ويعسوبها، وبالتالي كان فيها مثالا حيا للتواضع، والديمقراطية، والالتزام والامتثال لتعاليم الشريعة الإسلامية، بالنزول عند رأي العلماء، وإرادة الأمة، اللهم في القليل النادر، "والنادر لا حكم له".

1) المجالس العلمية الثنائية :

كانت للمولى إسماعيل مجالس علمية ثنائية، ينفرد فيها بأحد أقطاب العلم والمعرفة، للأخذ عنه، أو لسؤاله، أو لاستشارته....

ولعل أهم مجالسه العلمية من هذا القبيل مجلسه الاستشاري الذي قَصَره على العلامة مولاي إدريس العراقي، دون غيره من العلماء....

وقد أكد لنا ذلك، الإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، في كتابه "سلوة الأنفاس" أثناء ترجمته لمولاي إدريس العراقي بقوله: "إن أمر الشورى في خلافته –أي المولى إسماعيل– كان مقصورا عليه، لرجاحة عقله، وبهاء سمته، لا يقطع أمرا دونه، وأن أولاده –أي أولاد المولى إسماعيل– اقتفوا أثره في ذلك (33)".

كما كان يعقد مثل هذه المجالس الثنائية –الخاصة جدا والرفيعة المستوى– مع كل من الشيخ الإمام، أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، ومع العلامة السيد علي بن إبراهيم الزياني، جد المؤرخ الكبير أبي القاسم الزياني، المشهور.

---

(33) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 282. والمصدر المذكور ميكروفيلم، خ.ع بالرباط، رقم : 2028،

ويؤكد لنا ذلك ابن زيدان بقـوله : "وما زال -قدس الله روحه- يتلقى العلوم عن العـلامة الأستاذ السيـد علي بن إبراهيم، جـد الشيخ أبي القاسـم الزياني، منذ نقله من بـلاده ليأتم به في الصلاة عام 1099هـ، إلى أن قبضه الله، حسبما أفصح بذلك الزياني في الرحلة الكبرى ".

" وكانت وفاة هذا الشيخ بعد وفاة السلطان بتسعة أيام "(34).

ومن فطاحل علماء عصره الـذين اصطفاهم لجلسـاته الثنائيـة الخاصة، لدراسـة جلائل أمـور الدولـة، أحد رواد مجالســه العلمية، العـالم المجتهد، محمد بن أحمد بن محمد ميـارة، وكان المولى إسماعيل يعتبره عميدا لعلماء عصره، ويتطارح معــه مشاكله العـالقة مع العلماء، ويتخـذ لها الحلول على ضوء مشورته ورأيه (35).

وعلى رأس جهـابـذة علماء عصره الذيـن اختصهم بمجالســه الثنـائيـة المنفردة، وائتمنهم على أسراره، -لما يكنه لهم من حب وإجـلال، وما يعتقده فيهم من إيمان وورع وتقوى، وما يتوسمه فيهم من صدق وأمانة-، الإمام العلامة عبد القادر الفاسي، الذي أرسل كتـابا في طلبه للحضور إليه، فوجده مريضا. وبلغ من حرصــه وإصراره على لقائه ومجالسته والاجتماع به، أنه أمره بـالخروج إليه محمولا في محفـة، إلى عاصمته مكنـاس، لكبره وعجزه، وذلك سنة 1091 هـ.

وقد بالغ في الاحتفـال بمقدمه، فاستقبله بنفســه، وأنزله بقصره، وأطلق سراح المسجونين من أتباعه ومريديه إكراما له (36) .

2) المجالس العلمية التقليدية الرسمية :

لعل أهم مثـال وأصدق صورة للمجـالس العلمية السلطـانية التقليـدية الـرسمية للمـولى إسماعيل التي صـارت سنـة متبعة مـن بعده، -بعـد أن تطورت شكلا ومضمونـا، ومن حيث زمانها ومكانها... حتى أصبحت كما

---

(34) المصدر السابق، و ص.

(35) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 353.

(36) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 5، ونشر المثاني للقادري، ج: 2، ص: 71، وتاريـخ الضعيف، ص: 74، وبه نص الكتاب الـذي أرسله المولى إسماعيل إلى العامل في طلبه.

هي عليه اليوم –نجدها عند محمد بناصر الدرعي الذي يحكي لنا على لسان والده الذي قال : إن والده (37) حضر مع جماعة وافرة من علماء عصره مجلسا علميا حديثيا لسرد صحيح البخاري تحت الرئاسة العملية للسلطان المولى إسماعيل، وحضر هذا المجلس أرباب الدولة وغيرهم.

وجلس والده في مكان منزو من المسجد لتتبع الدرس، ولم يلبث أن وقع إشكال في بعض المسائل الحديثية، فتطارحوا الأسئلة، و تبادلوا الحوار والجدال، فأجاب أحد العلماء بأقوال بعض الأئمة في الموضوع(38)، فاستنكر قوله الجميع، وتدخل والده مؤيدا له، و مؤكدا صحة قوله، ذاكرا مصادر ذلك بالتحديد، فأحضروا تلك المصادر، و تأكد لهم صحة قوله، فأخذوا به واعتمدوه.

وسأل السلطان عنه، فلما عرفه قال : مرحبا بدار العلم، ما مثله من يجلس في مؤخرة المجلس، و فسح له في مقدمة المجلس معززا مكرما، إذ زاده ذلك حظوة لديه، وشهرة بين الناس.

و صور لنا، الإفراني جانبا آخر من هذه المجالس العلمية التقليدية للمولى إسماعيل بقوله : «و من عادته –حفظه الله– أنه يسرد عليه كل يوم فصل منه كتاب، إلى أن يختمه، و يبدأ في كتاب آخر» (39).

3) المجالس المزدوجة :

من الأمثلة الحية لمجالس المولى إسماعيل المزدوجة، أو المتنوعة من حيث موضوعاتها المطروحة على بساط الدراسة والبحث، أو للحوار والجدال والمناقشة، والتي تجمع بين العلم والأدب وغيرهما، تلك المجالس التي كان يعقدها، ويستدعي لها أعيان العلماء والمفكرين، والكتاب النابهين، والشعراء والأدباء، وأهل الخبرة وذوي التجربة في كل فن، للسمر معه، حيث يعاملهم جميعا باحترام وتقدير، ويفيض عليهم الصلات والهبات (40)، وفي ذلك

---

(37) مؤلف الدرر المرصعة، الدرر المرصعة، ص: 447.

(38) المصدر السابق،ص،

(39) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص:40.

(40) الدرر الفاخرة لابن زيدان، 33–34.

يقول الإفراني : «.....وله من المحاضرات مع كتابه، والمباسطة في القطع الأدبية ما يبخس زهر الرياض (41).... وكل ما مر على أذنه من الحكايات الرائعة، والأخبار المستظرفة، لا ينسى منه شيئا، بل يستدل بذلك في موضع الإستدلال (42)، ولم يكن أعرف منه بالأنساب . وكم مرة يسأل علماء عصره بمجلسه عن نسب أحد الصحابة، أو واقعة وقعت له، أو منقبة يوسم بها، فلا يجد معهم شيئا من ذلك، وربما أفادهم بفوائد من ذلك، ما خطرت لهم على بال (43).

كما اهتم بسرد كتب العنتريات كالأزلية وغيرها التي تحتوي على أخبار الشجعان.

فقد كان مغرما بكتب الأبطال والشجعان الذين عرفهم التاريخ، إذ كان يتأسى بهم، ويتخذهم مثلا أعلى ونموذجا يحتذى حتى صار مثلهم، وفاقهم في ذلك، بفضل إيمانه العميق، ومصداقيته الدينية والوطنية العصامية الملتزمة.

4) مجالس ختم العلماء لأمهات المصادر الدينية :

مما يؤكد أن المجالس العلمية السلطانية العلوية في عهد المولى إسماعيل كانت لازالت في طور النشأة ومرحلة التكوين، احتضانه مجالس كبار العلماء لختم أمهات الكتب والمصادر الدينية، وتبنيه لها، وإقامته حفلات فاخرة بقصره في تلك المناسبة العلمية االدينية والفكرية، بل إنه كان يترأسها شخصيا ويقوم على خدمة الحاضرين من العلماء بنفسه، اقتداء بسنة جده المصطفى الأمين ﷺ.

وأهم المجالس العلمية للمولى اسماعيل من هذا القبيل ؛ مجلس ختم تفسير القرآن الكريم للعلامة القاضي (أبي عبد الله المجاصي) سنة 1106هـ. ذلك المجلس الذي استدعى له علماء فاس، وبالغ في إطعامهم وإكرامهم حيث

---

(41) المصدر السابق، ص :40.

(42) المنزع اللطيف، لابن زيدان ص :113.

(43) المصدر السابق، ص: 37-38.

وزع عليهم جوائز نقدية " وكان من مشاهده الجميلة ومصانعه الجليلة " (44).

والعلامة المجاصي يكفيه فخرا أن الشيخ أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي اختصه بالمشورة لما كتب رسالته المشهورة إلى المولى اسماعيل(45).

وظل هذا دأب المولى إسماعيل. فكلما هم عالم كبير بختم كتاب مهم من أمهات المصادر الإسلامية، إلا وتكفل بحفله وبإقامة مجلس الختم في قبته بقصره، التي تهيأ بالزرابي والفراش الفاخر، حيث يقدم للعلماء المشاركين مالذ وطاب من الأطعمة والأشربة، ثم يفرق عليهم الجوائز السنية (46).

وبعد اختتام الدرس بالطريقة التي تقدم وصفها، يذيله بحفلة أدبية، تقرأ فيها القصائد في مدح السلطان، وبيان فضله في إقامة هذه المجالس، وتعداد الأهداف المتوخاة من ذلك....

ولا بأس من إيراد وصف حي لهذا المجلس، صوره لنا ابن زيدان، إذ بالوصف المباشر تتضح الفكرة وتتجسم، فتصبح ملموسة. يقول ابن زيدان:(47): " ففي جمادى الأولى 1100 هـ، استدعى - المولى إسماعيل - العلماء من فاس لقصره، لحضور ختم الإمام أبي عبد الله المجاصي تفسير القرآن الكريم، وكان يختم في قصره ببيته الخاص، وبه نصب المنبر للفقيه المذكور.

وبعد الفراغ من درس الختم، أفاض على الضيوف الكرام قادة الأمة، وأئمتها الأعلام، ما لذ وراق من فاخر الأطعمة. وكان هو المتولي بنفسه صب الماء على أيدي ضيوفه العظام، وهو الذي تولى أيضا تفريق الجوائز فيهم بيده ".

---

(44) تاريخ الضعيف، ص:70، والاستقصا للناصري : ج: 7، ص : 69، ونشر المثاني للقادري،ج: 2، ص : 357، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص :8، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع. بالرباط، رقم 2028،ونشر المثاني للقادري، ج: 2، ص: 357، ونلاحظ اتفاق القادري والضعيف حول تاريخ هذا المجلس، بينما اختلف عنهما الناصري الذي جعله سنة 1099هـ.

(45) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 71-72.

(46) نشر المثاني، للقادري، ج: 33، ص : 55.

(47) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص : 33 - 34.

ونستنتج من وصف ابن زيدان لهذا المجلس، التشابه والتقارب الموجود - وخاصة من حيث الشكل - بينه وبين المجالس العلمية السلطانية المعاصرة، مما يدل على أن المجالس العلمية للمولى إسماعيل تطورت تطورا جعلها تقترب جدا من تكريس طابعها، وتمكن عادتها ومنهجيتها، واستقرار شكلها النهائي وسنتها المتبعة، وبالتالي يؤكد أنها عرفت نشأتها في عهد أسلافه قبله، وبين جدران قصورهم، وربما في مجالس أجدادهم الأولين من الشرفاء الوجهاء المقصودين، والعلماء المرابطين المجاهدين، قبل أن يقلدهم الله تعالى أمر هذه الأمة، وملك هذه البلاد.

وبناء على ذلك يمكننا القول بأن المولى إسماعيل هو الذي أسس المجالس العلمية السلطانية العلوية، وقعدها على أسس وقواعد مستقرة، وكرس سنتها التقليدية المتبعة، وتوجها بالتواضع لله، وخدمة العلماء حملة الشريعة، وخلفاء الأنبياء....

كما يمكننا التأكيد أن المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى إسماعيل كانت تذيل بحفلات ختامية أدبية، تنشد فيها قصائد في مدح السلطان، وتعداد مناقبه وفضائله - ولا سيما العلمية منها - وتستعرض أبعاد وأهداف هذه المجالس، وقيمتها الدينية والدنيوية....

ومما يبلور هذه الفكرة، ويجعلها فوق كل شك، ولا تقبل الجدال، وصف لمجلس آخر من هذا النوع، نقله لنا ابن زيدان (48) عن الدر المنتخب، ونصه: "قال في الدر المنتخب : " إن العلامة سيدي محمد المشاط، لما أراد ختم المختصر الخليلي، نوه به المترجَم -المولى إسماعيل-، وأمر من كان بفاس من البلاط الملوكي وذوي الحيثيات بحضور ذلك الختم، وقال : "لو كنت هنالك، لحضرت مجلسه".

وأعطى للفقيه المشاط أموالا للطعام، وهي له من الأمور العظام، وأعطى أرباب القصائد عطايا سنية.

---

(48) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 71-72، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 8، ونفس المصدر ميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط رقم 2028.

ومن الأمــداح التي أنشـدت في ذلك الختـم، قصيـدة لأبي الحسين علي مصباح الزرويلي، من واحد وثلاثين بيتا، ومطلعها (49).

سقيم الصبا بلغ إلي أم خالد　　تحية صب في لغو الحب خالد

وإذا كان الشيء بـالشيء يذكر فلابأس من أن نسجل هنـا لتاريخ الأدب والنقد الأدبي المغربي، أن القصيدة المغربية -إلى عهد المولى إسماعيل- كانت لازالت تحتفظ بشكلهـا التقليـدي الذي تمثلـه المقـدمـة الغزليـة والطلعيـة، والمتوارث منذ العصر الجاهلي في المعلقات وغيرها.

ذلك التقليـد الـذي أصبح متجاوَزا في القصيـدة العـربيـة بالمشرق منـذ العصر العباسي الأول، حيث تـزعم الثورة ضده فطاحل الشعـر العربي -إذ ذاك- وفي طليعتهم : أبو نواس، على رأس مدرستـه الشعوبية، ثم أبو تمام، على رأس مدرسته العربية القحة الصميمة والأصيلة.

5) المجالس العلمية للمولى إسماعيل - بالمراسلة - :

كـان من آداب المجـالس العلميـة للمولى إسماعيـل المتعارفـة أن يقـدم العلماء أعضـاء مجالسه المختلفـة تآليفهم وتصانيفهم وإبداعـاتهم هدية إلى المولى إسماعيل، يتحفـونه بها، وغـالبا مـا تكـون حول مـواضيع وقضـايـا طرحت في مجلس من مجالسه العلمية الحافلـة، وكانت تشغل بال المفكرين والرأي العام المغربي في ذلك الوقت، سواء على الصعيد الوطني، أو الإقليمي، أو العربي الإسلامي، وأحيانا الدولي.

فكان يتقبلها بغبطة واعتزاز، ويجيب أصحابها برسائل قيمة، هي عبارة عن دراسة نقدية وتقديرية وتقييمية لمؤلفاتهم، وإعجاب بنبوغهم، وتشجيع لمواهبهم، وشحذ لعزائمهم....

وقد اتخذت هذه الـرسائل -مع الأيام- طابعـا جديدا، وأصبحت تشكل -مع الكتب المؤلفـة على هامش مجالس المولى إسماعيل والمهـداة له - نـوعا جديـدا لهذه المجالس العلمية السلطـانية للمولي إسماعيل، إذ تعتبر رسـائله التقديرية لهم وثائق علمية وتاريخية فريدة من نوعها.

---

(49) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 71-72، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 8، والميكرو فيلم، خ.ع. بالرباط رقم 2028.

إهداء الكتب المؤلفة :

ولم تكن هذه العادة والسنة الحسنة مقتصرة على علماء المغرب، بل شملت علماء المشرق، كالعلامة الشيخ أبي عبد الله الخرشي، الذي بعث إلى المولى إسماعيل شرحه على صغرى الشيخ السنوسي هدية منه، بمجرد انتهائه من تأليفه(50) يتحفه به ويهنئه على فتح مدينة العرائش سنة 1102هـ، معبرا عن فرحه وابتهاجه بذلك في رسالة خاصة رفقته. فأجابه السلطان المولى إسماعيل برسالة (51) قيمة، كلها تقريظ وشكر، ويمكن اعتبارها – من حيث موضوعها – أطروحة في آداب النقد العلمي المجرد النزيه، وحلية في جيد النثر المغربي عموما، والرسائل.السلطانية المغربية خصوصا.

وفيها بجله السلطان أيما تبجيل، وأطنب في تعظيم قدره، وخاطبه بقوله: "إلى كبير فقهاء عصره، وإمام أئمة الأقطار والأمصار....خاتمة المحققين، وبقية سلف المؤيدين والموفقين وقدوة المجتهدين، ونخبة المنقطعين لخدمة المعارف، المتجردين (52)".

ويعتبر جواب السلطان هذا، أسطع برهان على مدى شغفه بالعلم، وتعظيمه وتبجيله لأهله.

والواقع أنه فتح صدره لعلماء الإسلام، سواء على الصعيد المغربي أو المغاربي، أو العربي والإسلامي، ولاأدل على ذلك من تودده وتواصله مع الإمام الحلبي (53)، وإنعامه عليه.

وفي إطار تواصله مع علماء المشرق، نجد في زهر البستان : أنه كان حريصا على توطيد علاقته مع العلماء الصلحاء بالحرم الشريف، الذين كان يراسلهم باستمرار، ويبعث لهم بالصلات السنية كل سنة (54).

---

(50) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم : 3177، ص : 60، والمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 99–100، وبها نصها وجواب السلطان.

(51) تاريخ الضعيف، ص : 74، وبها نص رسالة السلطان التي أجاب بها العلامة الخرشي.

(52) نص الجواب الكامل بالمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 110، كما أورده المؤرخ القادري في نشر المثاني.

(53) دعوة الحق ع:5، س : 10، ص :32، 138هـ 1967م الثقافة والعلم في العصور الحديثة، لعبد العزيز بن عبد الله.

(54) النهضة العلمية لابن زيدان م.خ.م. بالرباط، رقم 3177، ص : 60، وسلوة الأنفاس، ج :1، ص : 282. للكتاني.

ومن علماء مجالسه العلميـة المغاربة الذين أهـدوه تآليفهم، وراسلهم في شأنها -بنفس المنهجية- الفقيـه محمد بن قاسم بن محمد بن عبـد الواحد الفاسي، المعروف بابن زاكور، الـذي أهدى للمولى إسماعيل شرحه "الحسام المسلـول، لتحقيق معنى قصر المفعـول على الفاعل، والفـاعل على المفعـول" الذي ألفه على ضوء المناقشات والمناظرات والجدال حول هذا الموضوع بأحد المجالس العلمية النحوية للمولى إسماعيل، وذلك سنة 1103 (55)هـ.

كما أهداه أحـد نبغاء مجالســه العلمية، الفقيه ســالم بن أحمد الشريف، المعـروف بابن ضم الشـاوي، شرحه على المرشـد المعين لابن عاشر، الـذي أصـدره سنـة 1108هـ(56). فأجـابـه السلطـان المولى إسماعيل بطـريقتـه المعهودة، المتبعة مع سائر العلماء، سواء المشارقة منهم أو المغاربة.

المجالس العلمية على شكل رسائل ديوانية وإخوانية :

في إطار المجالس العلمية للمولى إسماعيل بالمراسلة، نجد له نوعا آخر من المجـالس، على شكل رسائل ديـوانية وإخـوانية، متبـادلة بينـه وبين علماء عصره بالمشرق والمغرب.

وهذه نماذج لأهم هـذه الرسـائــل وأكثرها مساسا بالأوضــاع المغربية -إذ ذاك- وأكثـرها دلالـة على ديمقراطيـة المولى إسماعيل، وتمسكه بمبـدأ الشورى الإسلامية بعصامية وامتثال.

- الرسالة المشـهـورة، للشيخ الحسن بن مسعود اليوسي، التي بعثها إلى السلطان المولى إسماعيل. لما أمر بتجريد القبائل من الخيل والسلاح.

وقد تناولت هذه الرسالة ثلاثة محاور :

" جباية المال، وصرفه في وجهه، وفي إقامة رسم الجهاد، وشحن الثغور بالمقاتلة والسلاح، وفي الإنصاف من الظـالم للمظلوم، وكف اليد العادية عن الرعية "(57).

---

(55) تاريخ الضعيف، ص : 75.

(56) المصدر السابق، ص : 78.

(57) نص الرسالة بالاستقصا، ج: 7، ص : 82-86.

ومنها فيما يتعلق بالموضوع الرئيسي، وهو تجريد القبائل من الخيل والسلاح : " إن ذلك وهن في الدين، وإضعاف للمسلمين (58) "، علما بأن المولى إسماعيل لم يفعل ذلك حتى كون جيشا نظاميا قويا، يحمي حدود دولته.

وكانت للعلامة الحسن بن مسعود اليوسي مع المولى إسماعيل، مراسلات ومحاورات، وهذا مقتطف من إحدى هذه المراسلات، كنموذج لذلك (59) :

" فليعلم سيدنا، أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى، لاشريك له، والناس كلهم عبيد الله تعالى وإماؤه، والسلطان واحد من العبيد، وقد ملكه الله تعالى عبيده، ابتلاء وامتحانا...وإن أقام بالجور والعنف، والكبرياء، والطغيان، والإفساد فهو متجاف على مولاه في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير حق، ومتعرض لعقوبة الله تعالى الشديدة وسخطه، فليتق سيدنا دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب، وليجتهد في العدل، فإنه قوام الملك، وصلاح الدين والدنيا (60) ".

وفي إطار المراسلات والمحاورات العديدة المتبادلة بين المولى إسماعيل، والشيخ الحسن بن مسعود اليوسي، راجعه برسالة أخرى أطول من هذه، جوابا على ما نعتته به بطانة السلطان، -تقربا وتزلفا للمولى إسماعيل- على حسابه(61).

كما عقد معه المولى إسماعيل اجتماعات ثنائية خاصة، حيث حاوره وباحثه مشافهة، في مسائل دينية عديدة. وقضاياه معه كثيرة ومتنوعة، وكلها تؤكد ديمقراطية المولى إسماعيل وتقواه، وتعتبر مثالا حيا للشورى الإسلامية، كما تجعل العلامة اليوسي نموذجا حيا لعظمة العلماء، وعصاميتهم والتزامهم....

---

(58) دعوة الحق، ع :2و3، ص: 139 – 141، 1399هـ–1979م، كفاح الملوك العلويين من أجل الوحدة لعثمان ابن خضراء.

(59) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص :35–37.

(60) المصدر السابق، وج، وص : 32–35.

(61) نشر المثاني، للقادري، ج: 3، ص :37.

وهل هنالك مثال للديمقراطية والشورى الإسلامية أروع من محاورة المولى إسماعيل لعميد علماء عصره وقطب مجالسه العلمية، الشيخ محمد بن أحمد بن محمد ميارة، الذي كان المولى إسماعيل يرجع إليه في كل ما يتعلق بعلاقته مع العلماء ولا يتجاوزه. فقد قال له مرة في معرض حواره معه عنهم : " أفصلني مع إخوانك "، -العلماء- الذين خالفوه مرارا.... فقال له ميارة : " إني لم أسمع كلامهم "، يريد أن القاضي يجب ألا يحكم، إلا إذا سمع كلام الخصمين معا (62).

ومن أهم رسائل المولى إسماعيل في نطاق هذه المراسلات المتبادلة بينه وبين أئمة العلماء، رسالته إلى علماء فاس، يحضهم على التفاني في نشر العلم، وبذل قصارى جهودهم، وتوظيف علمهم في خدمة البلاد ونفع العباد (63) سنة 1225 هـ .

ولما وصله جواب علماء فاس على كتابه هذا، وثقه في الدفاتر الرسمية، وبالغ في إكرامهم، ووصلهم جميعا حسب مراتبهم العلمية «ولم يزل ذلك دأبه معهم، حتى نقله الله إليه» (64).

ومن أبلغ رسائل العلماء إلى المولى إسماعيل، رسالة من صياغة العلامة الأديب الشهير أحمد بن أحمد بن محمد الحاج الدلائي (65).

ومن العلماء الذين تجرأوا على مراسلة السلطان المولى إسماعيل، ومخاطبته كتابيا وشفاهيا، العلامة محمد العربي بن أحمد بردلة (66).

ومن رسائل المولى إسماعيل إلى علماء عصره ومجالسه العلمية، رسالته إلى الشيخ أبي عبد الله محمد (فتحا) بن عبد القادر الفاسي، في مسألة علمية، سنة 1096 هـ، وهي تؤكد شغفه بالعلم وعمله على نشره، ومنها: ".....إذ ما تفتخر فاس على سائر المدن والأقاليم والأقطار إلا بالعلم والاعتناء بتدريسه، وكثرة معاطاته.

---

(62) المصدر السابق، وج، ص : 353.

(63) لمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 101، ونص رسالته الكامل، ص : 101-104.

(64) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص :72، ونص جواب علماء فاس على رسالة السلطان، ص : 104- 108.

(65) نصها بنشر المثاني، للقادري، ج : 2، ص : 282.

(66) نصها بنشر المثاني، للقادري، ج :3، ص : 247.

فالله الله في الاحتزام على العلم... وبثه، وإفشائه... ونطلب الله تعالى أن نكون من السعداء عنده، وأن لا يندثر العلم في زماننا (67)".

وهذه رسالة للمولى إسماعيل، وجهها إلى العلامة أبي عبد الله محمد(فتحا) بن عبد القادر الفاسي، سنة 1115هـ. وهي تطلعنا على طريقة من الطرق التي كان هذا السلطان ينهجها في اختيار وانتقاء علماء مجالسه العلمية، والشروط التي كان يشترطها فيهم، إغناء وإثراء وتجديدا لهذه المجالس.

وفي هذه الرسالة يطلب السلطان من العلامة المذكور أن يرشح له أنجب تلامذته، حتى يضمهم إلى علماء مجالسه العلمية، ويعينهم أعضاء رسميين فيها، وهذه نبذة منها : "...فطالما استقصينا الخبر والبحث عمن حصل علما وأدبا جما، وبرز في فنون العلم، دراسة ورواية ومنهجا، ودرسا ومطالعة، فصاحة وخطابة، وهمة وبراعة وبلاغة من أبناء هذا العصر ممن تخرج عليك، ومن مجلسك، أو مجلس غيرك من المدعين العلم، المتفقهين في الدين، ليظهر للناس بعلمه ونجابته، نقربه من مجلسنا للإشباع به والأخذ عنه والاستفادة منه...

مع كثرة شغفنا بحب العلم وأهله. ويعلم الله تعالى أنا ما قصرنا في التحريض، ولا تعامينا على الإرشاد إلى طلب العلم، والاشتغال به في عامة مجالسنا وخاصتها، وظاهرها وباطنها.

.....وبالجملة : العالم العامل، المنتفع به في علمه وديانته، ونصحه ومحبته –مثلك– اليوم غريب مهضوم (68)."

وكانت للمولى إسماعيل رسائل إخوانية في هذا الصدد، زيادة على رسائله الديوانية : التي ذكرنا نماذج منها. ومن رسائله الإخوانية في هذا الباب، التي تدل على مدى إنسانيته وتواضعه، وأريحيته الإسلامية، وتمثله وتأسيه بالسنة النبوية العملية، واتخاذها مثلا أعلى، ونموذجا يحتذيه

---

(67) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م.،بالرباط، رقم :3177 ص: 7، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم :2028.

(68) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م.،بالرباط، رقم :3177، ص: 7، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم :2028.

في سلوكه بانضباط والتزام، دأبه ومواظبته على مراسلة من يحبهم من أهل الدين والمروءة، المعتصمين بالكتاب والسنة، يعلمهم في رسائله بمحبته لهم، -اقتداء بعمل النبي ﷺ مع صحابته الكرام-، ملتمسا منهم الدعاء له، ولأحبائه وشعبه...

ومن هؤلاء الأولياء الصالحين الذين راسلهم بهذا المعنى : مولاي التهامي بن محمد بن عبد الله الشريف الوزاني (69)، وأبو عبد الله محمد (فتحا) بن عبد القادر الفاسي (70).

كما راسل بهذا المعنى عددا من العلماء الصالحين بالحرم الشريف، بالمشرق مع صلات سنية سنوية (71).

7) المجالس العلمية للمناظرة واستفتاء العلماء :

كانت بعض المجالس العلمية للمولى إسماعيل تتخذ شكل الندوات والمناظرات، وتقوم على الجدال والحوار بينه وبين العلماء المعارضين لبعض قوانينه وقراراته التي اتخذها خارج نطاق مجالسه العلمية، وفي غياب العلماء، الممثلين الرسميين للسلطة التشريعية، وأصر على تطبيقها بالترغيب والترهيب.

وفي هذه المجالس العلمية للمولى إسماعيل، التي يحتدم فيها النقاش العلمي، كان الحوار والجدال يتطور إلى استفتاء للعلماء، وخاصة في القضايا الدينية العويصة، التي اعترضته خلال مدة حكمه الطويلة، وهي قضايا احتدم الجدال والنقاش حولها داخل مجالسه العلمية الخاصة والعامة، وألفت حولها الكتب والرسائل المطولة -سلبا وإيجابا، نقدا وتأييدا- بين علماء المغرب من جهة، وبينهم وبين علماء المشرق من جهة أخرى، وهي عديدة ومتنوعة، وكلها كانت قضايا ذات أهمية بالغة، وبعضها اقتضى

---

(69) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص : 113-116، وبها نص الرسالة المذكورة.

(70) المصدر السابق، ص : 116-119.

(71) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م.،بالرباط، رقم :3177، ص: 7، وميكروفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم :2028.

استفتاء العلماء على الصعيدين الوطني، والعربي الإسلامي، لخطورة الاجتهاد فيها، باعتبارها مواضيع دينية حساسة. لكنني سأكتفي بأهمها، وأمسها بالحياة المغربية، والأوضاع المحلية الدينية وغيرها، ألا وهي قضية تمليك العبيد (72).

وقد سجلت لنا المجالس العلمية للمولى إسماعيل ذلك الصراع العنيف الذي احتدم بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حول هذه القضية، والذي أدلى فيه المغرضون والذين في قلوبهم مرض -من أعداء الدولة- بدلوهم، فلم تلبث المعارك الفكرية القانونية والتشريعية -بالقلم واللسان-، أن تطورت إلى معارك وحروب ميدانية -بالسيف والسنان-.

فقد دس هؤلاد المغرضون السم في الدسم، وقاموا بحملات واسعة من الوشايات والسعايات بالمداهنة والتدليس بين ذوي السلطة والنفوذ، وأصحاب القرار، فقلبوا حتى الابن على أبيه، وأوقعوا بين السلطان العظيم وولده البار العالم.

أ – المجلس العلمي الأول للاستفتاء :

ولعل أهم قضية شغلت الرأي العام المغربي بصفة عامة، والعلماء -بالمغرب والمشرق- بصفة خاصة، قضية تمليك العبيد.

ذلك أنه في مطلع عهد المولى إسماعيل كثرت الفتن، وتعدد الخارجون على الدولة، الطامعون في الحكم. فاتضح للمولى إسماعيل أن عدد جيشه – المكون في جملته من رجال القبائل – غير كاف، وغير مؤهل لتمهيد البلاد وحمايتها، ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها على المستوى المطلوب. كما أن جيوش القبائل لم تكن محل ثقته، إذ تتحكم فيها العنصرية القبلية الضيقة، وتميل مع ريحها حيثما هبت (73).

واستشار المولى إسماعيل في ذلك، العلامة الفقيه القاضي أبا عبد الله محمد ابن العياشي، فأشار عليه بجمع عبيد جيش أحمد المنصور (74)

---

(72) مجلة البحث العلمي، ع: 4و5، س : 2، ص : 27–56، 1385هـ 1965م، وتشتمل على جميع تلك القضايا، وجميع المؤلفات التي صنفت حولها، وعلى هامشها بتفصيل ودقة متناهية وموثقة.

(73) الحلل البهية، للمشرفي، ص : 117–118و123.

(74) المصدر السابق، ص: 118.

الـذهبي السعـدي. ولما اقتنع السلطـان برأيـه، كلفـه بجمعهم (75)، وقلده القضاء للفصل في ذلك، وسماه قـاضي القضاة،وعين له وكيلا، وهـو الباشا محمـــد بن قــاسم أعليلش، الـذي شرع في جمع العبيـد من المدن والقـرى، ونـادى عليهم في الأســواق بأن يـأتوه حتى يـوظفهم في خـدمة السلطـان. فتـوافد عليـه السـود من العبيـــد والأحـرار، ولـــما بلـغ عددهـــم خمسة آلاف عبـــد، أعطـــاهم جميعــا اللبـاس العسكـــري، والســـلاح، والفـرس، والراتـب....

ولما تـوقف توافـدهم التلقـائي التطـوعي عليه أخـذ يجمعهم للتـوظيف والعمل في خدمة السلطـان، ويحملهم على ذلك حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً، فاكتفى بهم المولى إسماعيل، واعتنى بهم، واتخذ منهم الولاة والقواد(76) كما قـــال الـزيـــاني في ذلك: «واعتنى هـــذا السلطـان بجمع العبيـــد وجعلهم عسكرا»(77).

ولما كـان للعلماء رأي مخالف، وموقف مشرف ضـد تمليك العبيد، فقـد رأى المولى إسماعيل عرض الأمر على أنظارهم، والاحتكام إلى تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، فقـد استفتى علماء المغرب والمشرق، راضيا بما ستسفر عنه الفتوى فأجازوا له ذلك(78).

عقـد لذلك عـدة مجالس علميـة كان خـلالها يستمع إلى رأي العلماء في الموضـوع، ويتقبل بيانهم لحكم الشرع فيه.

وهنالك شهادة في الموضـوع لأبي عبد اللـه محمد أكنسوس، الذي يقول في هذا الصدد : " قضية جمع العبيد، مفصلة في الكناش الكبير الإسماعيلي، وفيه تميـــيز المماليك والأرقـاء الـــمشتـريـن شـــرعـا، والمجلـــوبيـن من القـبائل. ولم يـدَّع السلطان ملكيتهم... ووجـــه في ذلـك أسئلة إلى العلمـاء

(75) المصدر السابق، ص :117–123.
(76) نشر المثاني، للقادري،ج :4، ص:220–221.
(77) الحلل البهية، للمشرفي، ص :119.
(78) الاستقصا، للناصري، ج : 7، ص : 88.

بالمـــشرق والمغـرب، فـــأجـازوا ذلـــك، وحـاشـــاه أن يـدعـــي تمليـــك الأحـرار (79) ".

وهنالك حجـة دامغة تبرئ المولى إسماعيل، وتبرر مـوقفه، وتضفي على عمله الصبغة القانونية والشرعية.

ذلك أن المولى عبد الحفيظ، أخذ عقود البيعة للملوك العلويين–التي كانت معلقة في ضريح مولاي إدريس، بجدار القبة الشريفـة –للاطلاع عليها، لكنه أرجع لإدارة الضريح بدلها – خطأ طبعا – رسما مزخرفا بالذهب الإبرين، يتضمن عقـود شراء المولى إسماعيل للعبيـــد، وفتـاوى لعـدة علماء، تحمل توقيعاتهم، وتنص على صحة ذلك الشراء (80).

والواقع أن السياســة الدينية للمولى إسماعيل لا غبـار عليها، وفوق كل شبهـة، فقـد أجمع العلماء على تقـديره وتكـريمـه للعلماء، واحترام وجهـة نظرهم، مما يؤكده موقفه من العلامة، أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، رغم ولائه للدلائيين، ورثائه لهم بالتلميح.

ب – المجلس العلمي الثاني للاستفتـاء :

وهنـــاك قضية أخـــرى هـزت الأوســاط العلميــة المغربيــة، وأحدثـــت ضجة مـدوية بين علماء المشرق والمغـرب، وبالتــالي اقتضت تدخـــل علـماء المجالـــس العلميـــــة، واضطـرت المولى إسماعيل إلى استفتـــائهم، ألا وهي انحـراف محراب القبلة بضريح مـولاي إدريس، وبســائر مســاجد مدينـــة فــاس(81).

ذلك أنه بعد تجديد ضريح المولى إدريس الثاني، سنة 1131هـ، أمر المولى إسماعيل بإقـامـة الجمعـة فيه، فـاكتشف المؤقت العـالم العـربي بن أحمد الفـاسي انحـراف محرابـه عن القبلـــة، وأكـد أنـه يجب تحريف المحـراب، فـاستفتى المولى إسماعيل العلماء في مجلس خـاص، وأمـر بتنفيـذ فتـواهم دونما أي تردد.

---

(79) الاستقصا، للناصري، ج : 7، ص : 88 و 56 – 59.

(80) العز والصولة، لابن زيدان، ج:1، ص:27–29.

(81) مرآة المحاسن، لمحمد العربي الفاسي، ص :41–43.

ذلك أنه جمع مجلسا علميا، ضم صفوة من أئمة علماء عصره، وطلائع مجالسه العلمية -من ذوي الاختصاص في الموضوع-، الذين عقدوا مناظرة فقهية حول الموضوع، وهم العلماء السادة : محمد ميارة الحفيد، ومحمد ابن حمدون بناني، ومحمد بن عبد السلام بناني، وعلي الشراطي، والمؤقتون السادة : العياشي الخلطى، وأحمد بن شنون، والعربي قصارة، مؤقت القرويين.

وانعقد المجلس بمجلس الأحكام الشرعية لدى القاضي ابن أبي عنان، وبحضور ممثل السلطة المحلية أبي علي الروسي.

وبعد دراسة القضية من سائر وجوهها بما تتطلبه من عناية واهتمام، اتفقوا على عدم هدم المحراب، والاكتفاء بقول المؤذن بعد انتهائه من الإقامة: "إنحرفوا بانحراف الإمام يرحمكم الله" (82) وذلك في جميع المساجد بمدينة فاس.

ووافق على ذلك شيخ الجماعة المسناوي، وكتبوا للسلطان بذلك، ورفعوا إليه نص الفتوى التي وقع إجماعهم عليها. وأقيمت بعد ذلك صلاة الجمعة في الضريح الإدريسي، وأمها شيخ الجماعة أبو عبد الله المسناوي، ليطبق الفتوى ويدشنها (83).

جـ - المجلس الثالث للاستفتاء :

عقده المولى إسماعيل، في إطار إصلاح الأوضاع والمعتقدات الفاسدة، ومحاربة البدع والشعوذة بجميع مظاهرها، وخاصة في بعض جهات الجنوب، التي وجد فيها بعض المشعوذين والمضللين مخبأ لترويج ضلالاتهم المغرضة، ومجالا لبلبلة العامة وتأليبها واستغلال مشاعرها الدينية من خلال مواسم الأولياء والصالحين. فكان أهم عمل قام به المولى إسماعيل هو التصدي لظاهرة انتشار البدع والأهواء والتضليل في تلك

(82) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص : 241-242.

(83) المصدر السابق، والحركة الفكرية في عهد السعديين، لمحمد حجي ج: 1، ص : 290 - 291، وفيه تفصيل قضية انحراف القبلة والمحراب المذكورة.

الجهات، وبالتالي العمل على إصلاح الأحوال والأوضاع الاعتقادية وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وترتضيه ملتها الحنيفية السمحة.

فقد عقد مجلسا علميا أعلى، ضم كبار علماء مجالسه العلمية، تحت رئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، واستفتاهم حول مدى ثبوت صحبة سبعة رجال لرسول الله ﷺ، فافتوا بعدم صحة ما قيل من زيارتهم للنبي ﷺ، وبالتالي بعدم ثبوت الصحبة لهم، بدليل أن الصحابي الوحيد الذي دخل المغرب : زمعة البلوي دفين القيروان.

لكن فيما بعد، دافع علماء آخرون عن صحة صحبتهم، واعتمدوا على أحاديث واجتهادات، وعلى رأسهم : ابن سعيد المرغيثي (84)، وهنالك لائحة بالعلماء القائلين بثبوت صحبتهم (85).

والخطوة الثانية للمولى إسماعيل في هذا الصدد كانت هي تنظيم زيارة مضادة لسبعة رجال عرب بمراكش، مقابل سبعة رجال رجراجة البربر.

وأحاط موسم سبعة رجال العرب بكامل عنايته ورعايته، ليحتل مكان الزيارة التي تنظمها رجراجة وموسمها.

وأجمعت المصادر على أن الإمام الحسن بن مسعود اليوسي هو الذي أشرف على هذه الزيارة المضادة (86) سنة 1100هـ (87).

وثبت أن المولى إسماعيل كان يزور الصالحين (88)، لكنه كان ينتقد تقديس الأولياء والصالحين، وسؤالهم الحاجات (89).

---

(84) العيون المرضية، ص : 12 – 13.

(85) مجلة المغرب، يونيه – يوليوز، 1936، ويرى " ميشوبييران " أن الشخص الذي زارته رجراجة هو صالح بن طريف البرغواطي، الذي كان يتكلم البربرية، فأشاعوا أنهم زاروا نبي الإسلام في مكة

(86) Les sept patrons de marrakech H . De castrèes H esperis 1924.

(87) الإستقصا للناصري، ج : 7، ص: 49–60–63.

(88) الصفوة، ص : 208–209.

(89) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج:2، ص : 397.

ويظهر أن الحكمة في كونهم سبعة، ترجع إلى أهمية رقم سبعة في مظاهر الكون (90).

د - المجلس الرابع للاستفتاء :

ومن القضايا الشائكة التي حيرت المولى إسماعيل واضطرته لعقد مجلس لاستفتاء العلماء، قضية اكتشاف قبر المولى إدريس، الذي عثر عليه سنة1131هـ، في أساس حائط القبلة، وقد كتب على مرمرته : أنه دفن بمسجد الشرفاء، دون تعيين موضع القبر بالضبط (91).

وكأن القبر أصبح مجهولا منذ أن تغلب البربر من مغراوة وبني يفرن على الأدارسة، وأخرجوهم من فاس (92)، وبالتالي أهملوا قبر المولى إدريس - الثاني - ونزعوا عنه هالة التقدير والاحترام، فلم يجيروا من استجاربه، وآذوا من أظهر تقديره واحترامه، فتنوسي وضاع مكانه (93).

فجمع المولى إسماعيل مجلسا ضم جهابذة علماء مجالسه العلمية، واستفتاهم في الموضوع، وترك لهم مهمة وحق البت في أمره.

فاجتمع المجلس من جديد تحت رئاسة إمام الفتاوى، عبد الله العبدوسي وعضوية العلماء الكبار السادة : الفقيه الوزير يحيى بن زيان، وسليل المولى إدريس الفقيه علي بن محمد بن عمران وغيرهم.

وبعد دراسة الموضوع بجميع أبعاده وحيثياته، ولاسيما الدينية منها، قر رأيهم واتفقوا بالإجماع على إظهار لافتة القبر، وما كان مكتوبا عليها، ووضعها وراء الضريح (94)، وأفتوا بذلك. فأمر بتطبيق الفتوى وتنفيذها.

وعاد الضريح إلى سابق عهده، وإلى مكانته المرموقة المحترمة.

---

(90) درة الحجال، للإفراني، ص : 57.

(91) الاستقصا للناصري، ج: 7، ص : 93.

(92) أخرجهم موسى ابن أبي العافية المكناسي الزناتي إلى قلعة حجر النسر، وادعى أن لا ضريح بمسجد الشرفاء، وأن أهل أوْرَبَا حملوه إلى وليلي ودفنوه مع والده وأهمل مسجد الشرفاء، وأبطل الخطبة فيه.

(93) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص : 240 - 243.

(94) المصدر السابق، وج، ص : 243 - 244.

هـ - المجلس الخامس للاستفتاء :

ومن المجالس العلمية التي عقدها المولى إسماعيل للاستفتاء مجلس حول قضية فتح مدينة العرائش، وهل كان فتحها صلحا أو عنوة؟ وذلك تنصلا من تبعتها، ومسؤوليتها أمام الله، وضميره، والناس أجمعين.

فقد ادعى أسرى النصارى أنها فتحت صلحا، وأن السلطان نكث وغدر بهم، فاعتبرهم أسرى، وكأنها فتحت عنوة، وهذا ما تبناه مانويل في كتابه.

لذلك عقد المولى إسماعيل مجلسا علميا، وأسند رئاسته المباشرة إلى قاضي مكناس أبي عبد الله محمد المعروف بأبي مدين، واستفتى علماء هذا المجلس في هذه القضية العسكرية الشائكة، والخارجية والدولية في آن واحد.

وبعد البحث والتحري، والاستماع إلى شهود الإثبات والنفي، ودراسة ملف القضية من جميع جوانبه وأبعاده بتجرد ونزاهة علمية، أفتى المجلس بأنها فتحت عنوة، وبالتالي باعتبار النصارى أسرى، فنفذ فحوى هذه الفتوى بأمانة والتزام، وأرسل الأسرى إلى مكناس، لاستخدامهم مع المساجين وبقية الأسرى في البناء، وكان عددهم : ثمانمائة وألف أسير.

و - المجلس السادس للاستفتاء :

ومن أهم المجالس العلمية التي عقدها لاستفتاء العلماء، مجلس حول قضية هدم سارية سيدي عبد القادر الجيلاني، من مسجد القرويين ومصادرتها، وذلك في إطار محاربته للبدع الضالة، والطرق المضلة.

فقد كانت هذه السارية بالصف الأول من المسجد، وكانوا ينسبونها إلى سيدي عبد القادر الجيلاني باعتبارها الخلوة المنسوبة إليه، وبناء على ادعائهم بأن أحدهم رآه بتلك الخلوة في المنام، فصار الناس يتبركون بها.

وهذا ما اضطر المولى إسماعيل إلى عقد مجلس للعلماء، برئاسة القاضي أبي عبد الله بردلة، للبت في أمر هدمها أو تركها.

وبعـد جلسات من الـدراسة والبحـث، والمجادلـة البناءة الهادفـة، أجمع رأيهم على وجوب هدمها (95)، وأصدر مجلسهم فتوى بذلك.

فأمـر المـولى إسماعـيل القاضي بردلـة بتنفيـذ ذلـك شخصيـا، وذلك سنة 1104هـ.

وكان هـدمها أسوة واقتـداء بعمـر بن الخطاب رضي الله عنـه، في قطعه الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضـوان، وذكرت في القرآن، لما رأى ملازمة الناس لها للصلاة والتعبد تحتها، تبركا بها، فخـاف عمر أن يتحولوا في يوم من الأيـام لعبـادتها، فأمـر بقطعهـا، محاربـة للـوثنيـة في جميع أشكـالها ومظاهـرها.

ولنستمع إلى القادري، الذي يحدثنا عن مدى صحة هذا الإدعاء، وعلاقة تلك السـارية بالخلوة المزعومة في قوله : "....وهذه السنة من الكذب المحض، جرت على لسان العـامة، لأن الشيخ عبد القادر الجيـلاني لم يدخل المغرب قط أصلا، ولا خـرج من مكانـه لأية ناحيـة أخرى، وإنما استقـر في بغداد وماوالاها، ولم يخرج منها إلا للحج، ورجع لعامه" (96)

ز – المجلس السابع للاستفتاء :

وكـان أخطـر وأصعب مجلس عقـده المولى إسماعيل لـلاستفتـاء، ذلك المجلس الذي عقده حول قضية خروج ولـده محمد العالم عليه، وحكم الله تعالى والشريعـة الإسلاميـة فيه. فأفتى أعـداء ولده من العلماء المتشـددين بـالحد الشرعي، ألا وهـو قطع يديـه ورجليـه من خـلاف، فنفذ فيـه الحد الشرعي المذكـور، بوادي بهت، سنـة 1119هـ. ولـم يأذن السلطـان بعلاجه فمات(97).

ذلك أن ثورة المولى محمد العـالم، كانت مدعمة من طـرف عدد كبير من العلماء ورجال الدولة الكبار(98)، إلا عبد الله الروسي الـذي كان يكتب له،

(95) الاستقصا للناصري، ج : 7، ص : 74.

(96) نشر المثاني، ج : 3، ص : 61.

(97) المصدر السابق، وج، ص: 166–168 و172.

(98) المصدر السابق، ج،: 4 ص:238–240.

يعظه بحقـوق الوالدين، وبما ورد في الخروج عـن طاعة السلطـان كما ذكر ذلك القـادري(99).

8) المجالس العلمية للمولى إسماعيل، المتعلقة بالأسئلة :

من أنـواع المجالس العلميـة الإيجابية التي سنهـا المولى إسماعيل، وتعبر عن مرحلـة حاسمة من مـراحل تطور هذه المجـالس، طرحه لأسئلـة حول قضـايا هـامة على كبـار علماء مجالسه العلميـة، وغيرهم من علماء عصره، فـرادى أوجماعـة، مبـاشرة داخل المجـالس أو بـالمراسلـة. وذلك على شكل رسائل علميـة رسمية ديوانية أو سلطـانية متبادلـة بينه وبين علماء عصره بالمشرق والمغرب.

وأحيـانا تكـون حـول أمور حيـوية دقيقـة، تتعلق بحيـاته الشخصيـة الخاصة، أو بحياته العملية العامة كملك، أو غير ذلك.

ويؤكد ذلك ابن زيدان بقولـه : « وكان هذا الإمام يلقي الأسئلة على أهل العلم، ويرجع إليهم في كل شاذة وفاذة من أمور الدين (100).

وأهمية هذه الأسئلـة تكمن في المجالس العلمية التي كانـت تعقد حولها، والمناقشـات والمباحثات والمنـاظرات التي كـانت تدور على هامشهـا، وحول موضوعهـا، وبالتالي الكتب والرسائل العلميـة، التي كانت تؤلف وتحبر على ضوئهـا حتى ينعقد إجماعهم على صحة الجواب، وصوابـه وشرعيته، حيث يتحمل أعضاء المجلس جميعا مسؤولية الجواب وصوابه، كمؤسسة رسمية للدولة، أمام الله، والسلطان، وعلماء العـالم الإسلامي، والرأي العام المغربي بصفة عامة.

أ - السؤال الأول :

ونجد أهم نموذج لـلأسئلة السلطانية التي كـان يرفعها المولى إسماعيل لعلماء مجالسه العلمية في السؤال التالي :

(99) المصدر السابق، وج، و ص.

(100) النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م.، بالرباط رقم 3177، ص : 9. وميكروفيلم نفس المصدر خ.ع، بالرباط، رقم 2028.

"سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في رجل وقعت بيده أمة في إنصاف من قبيلة أهلها، فأصابها الرجل المذكـور. هل وطـؤه إياها ينشر الحرمة بينها وبين أقاربها -كابنتها مثلا - أم لا (101).

و تصدى للجواب عن هـذا السؤال السلطاني، الفقيه القـاضي أبو مروان ابن عبد الملك التجموعتي بقوله :

" إن إصابة المشار إليه في السؤال لـلأمة المأخوذة من أهلها على الوجه المنبه عليه، إصابة ملغـاة في نشر الحرمة في أصولها أو فصولها، فلا يترتب شيء من لوازم الوطء الـشرعي، فيحـل وطء ابنتـها مثلا بالملك أو النـكاح، وعليه درج الإمام مالك.(102) وكفى به قـدوة وحجة. و مـا وقع في المدونة محمول عند بعض العلـماء على الكـراهة، و عليه فالخطـب في المسألة سهل، والله أعلم ". (103)

كما أجـابه عن نفس السـؤال، القاضي أبـو عبد اللـه سيدي محمـد بن الحسن المجاطي فقال : الجواب أعلاه صحيح - يقصد جواب التجموعتي - وما نقل عن الإمام مالك في الموطأ، قـال الحافظ : عليه جل أصحابه، بل قد قال غير واحد : إن جميعهم عليه - يقصد أصحاب الإمام مالك- (104) .

ب - السؤال الثاني :

ومن جملـة هـذه الأسئلة التـي كان المولى إسماعيل يـرفعهـا إلى علماء مجالسه العلمية، سؤال رفعه للعـلامة أبي علي، الحسن بن مسعود اليوسي، ونصه : "جـوابكم، فأنا أردت منكم الإعلام بما عمل سيـدنا عثمان -رضي الله عنـه- في ذلك المغنم الذي أعطى مـروان بن الحكم بإفريقيـة : هل كان الخمس فقط، أو واجب الغنيمة كلها ؟ وما قصـده بذلك في إعطائه له، وما وجهه مـن الاجتهادات ؟ وما أراد بـذلك؟ هل على مصلحة أو صلـة رحـم ؟ وما قـاله لـه الصحابة في ذلك ؟ ومـا اتفق عليه رأيهم ؟ ومـا صح في هذه المسألة ؟

---

(101) المنزع اللطيف، لابن زيدان، ص:83

(102) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص: 84

(103) المصدر السابق و ص .

(104) المصدر السابق و ص .

بينوا لنا ذلك بيانا شافيا : تعريفا، وكتبا وإيضاحا، والسلام (105) .
فأجابه العلامة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي بقوله :

" الحمد لله.

فهذه الواقعة معروفة عندنا، ولم يحضر عندنا تواريخها في الوقت، لنذكر توجهاتها، وتفصيلاتها، وغاية المحفوظ منها، وهو ثمرتها : أن الناس أنكروا على سيدنا عثمان فيها وقالوا: إن هذه المسألة قصد الفتنة على عثمان رضي الله عنه. ولا بد أن يعتقد أنه لم يتعمد فيها بل اجتهد في مصلحة، وهو غير معصوم من الخطإ، فلا إثم عليه، ولا يذم، بل قول الجمهور أولى (106) " .

جـ - السؤال الثالث :

وفي هذا الصدد طرح المولى إسماعيل سؤالا على العالمين الجليلين : سيدي العربي بردلة، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المسناوي عن قول النبي ﷺ : " ستغربلون حتى تصيروا في حثالة من الناس قدت عهودهم، وخربت أمانتهم، قال قائل : فكيف بنا يا رسول الله؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون بقلوبكم (107) " .

فأجابه سيدنا العربي بردلة بما يأتي (108) :

بعد الحمد والتصلية، جاء بروايات عديدة للحديث، وأعتذر عن الخوض في التصرف وتأويل الأحاديث النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بغير دليل، إذ لا يجوز الخوض فيها إلا بإسناد نصوص الأئمة الهادية(109).

د - السؤال الرابع :

كما رفع المولى إسماعيل سؤالا آخر إلى أحد أقطاب مجالسه العلمية، الشيخ أبي عبد الله بن عبد القادر بن على بن يوسف الفاسي، وهو يتعلق

---

(105) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص: 87
(106) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص: 88 – 90
(107) المصدر السابق ص :90
(108) بتصرف
(109) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص:90.

بإعطاء الدليل على قول والده في جواب للمولى إسماعيل، عن أسئلة كان قد رفعها إليه من قبل: " من قلد عالما، لقي لله سالما. "

فأجابه بعد البسملة، والتصلية بما نصه :

" مولانا أمير المؤمنين......... هذا وقد وصل كتابكم الأغر، مشتملا على البحث، عن المسألة التي تكلم بها مع الوالد -رحمه الله- وأردتم منا زيادة بيان في معناها، فلم يكن بد من امتثال الأمر و إن كنا قاصرين فنقول، وبالله نستعين : إن شاء الله تعالى......" (110)

وسأله أيضا عن المراد من قول والده المذكور العلامة محمد الفاسي للمولى إسماعيل في محادثة كانت بينهما :

" قلد نفسك "

فأجابه أبو عبد الله بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي " جوابا شافيا في الموضوع " (111) .

هـ - السؤال الخامس :

كما وجه المولى إسماعيل إلى علماء مجالسه العلمية حول أمر خلافة ابن الزبير، ومدى شرعيتها . فأجابه -باسم المجلس- أحد كبار علماء عصره، وأقطاب مجالسه العلمية، محمد المسناوي الدلائي " بما يبهر العقول من التحقيق بالمعقول" (112) .

ومن أئمة علماء مجالسه العلمية الذين وجه إليهم المولى إسماعيل أسئلة، وكانت له أجوبة علمية وشرعية صائبة، تدل على سمو مكانته العلمية، العلامة محمد العربي بن أحمد بردلة (113).

9 - المجالس العلمية لمناظرة الرهبان :

من مظاهر التطور الذي عرفته المجالس العلمية المتعددة والمتنوعة للمولى إسماعيل -بتعدد وتنوع أوجه نشاطه المنقطع النظير- نجد هذه المجالس الخالدة، التي عرفها عهد المولى إسماعيل خاصة، وعهد الدولة العلوية عامة،

---

(110) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص : 94 والنص الكامل للجواب ص 95 – 99

(111) المصدر السابق ص : 99 – 101 وبها النص الكامل للجواب.

(112) نشر المثاني، ج : 3، ص : 267 – 278، و فيها نص جوابه الكامل

(113) نشر المثاني للقادري، ج 3، ص : 247، وبها نص ذلك كاملا.

والتي تعتبر فريدة من نوعها، تميزه وتجعله في طليعة أئمة الإسلام، ودعاته المغاور الأفذاذ.

فقد كان من سننه الحميدة التي واظب عليها، أن يستدعي رهبان النصارى الموجودين بالمغرب، ويعقد لهم مجالس علمية مع جهابذة وأقطاب علماء المغرب للمناظرة، حول موائد مستديرة، حيث يتناظرون بحضرته، وتحت رئاسته الفعلية، رغبة منه في إقناعهم بأحقية وصحة دين الإسلام، وأنه دين يقوم على المنطق والحجة والبرهان (114)، مستهدفاً دعوتهم للإسلام، آملا دخولهم فيه.

وفي هذا الصدد، وخدمة لهذه الأهداف الدينية السامية، وأبعادها العظيمة البعيدة، كاتب ملوك أوربا يدعوهم إلى الإسلام، ويحاججهم فيها بالحكمة والبرهان والموعظة الحسنة، ويجادلهم فيها بالتي هي أحسن، مؤكدا على أحقية دين الإسلام وصحته، آملا أن يهديهم الله للدخول فيه على يده (115)، فتدخل شعوبهم في دين الله أفواجا.

وذلك إحياء لسنة جده المصطفى الكريم ﷺ، في دعوة ملوك ورؤساء الدول في عهده إلى الإسلام.

فقد كتب المولى إسماعيل في هذا الموضوع إلى لويس الرابع عشر –ملك فرنسا– الملقب بالملك الشمس يدعوه إلى الإسلام.

كما راسل في نفس الشأن ملك إنجلترا المخلوع جيمس الثاني –أخا شارل الثاني– بمنفاه في فرنسا، ينصحه دينيا ودنيويا، داعيا إياه للدخول في الإسلام (116)

كما عرض الإسلام على الأسير البرناربوسي –الذي اتخذه لتعليم ولد من أولاده اللغة الإسبانية– ودعاه للدخول فيه بالترغيب والتقريب.

---

(114) دعوة الحق، ع : 7، س : 8، ص : 20، 1382 هـ 1963م المولى إسماعيل، د. عبد الله العمراني ومجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س، 2 ص : 286 – 299، 1385هـ 198م والإتحاف، لابن زيدان، ج :2، ص :51

(115) المصادر السابقة، و ص.

(116) دعوة الحق ع : 2 و 3، س : 20، ص : 41، 1399هـ – 1979م مسيرة الفتح عملية أصيلة، د. عبد الله العمراني، ومجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س 2، ص : 286 – 299، 1385هـ – 1965م والإتحاف لابن زيدان، ج : 2، ص : 5، ونصوص الرسائل نشرها، د. عبد الله العمراني بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نوفمبر و دجنبر 1947م.

فقد كـان المولى إسماعيل يحبه ويريـد تقريبه ورفع قـدره، لكنه رفض حسب ما جاء في كتاب فويت (117) .

وكـانت دعـوة المولى إسماعيل ملـوك أوربـا إلى الإسـلام تعتبر تحقيقـا لأهداف مجالسه العلمية البعيدة، وعلى أوسع نطاق.

ويقـول الأستـاذ " روم لانـدو" في ذلـك : "...... بما أن الفيـلاليين- العلويين- كانوا سلاطين وشرفاء معا فقد شرعوا يزاولون الحكم كمصلحين دينيين، ومن المحتمل أن أي قطـر إسـلامي لم يـزاوج بين الـدين والأسرة الحاكمة، بمثل النشاط والحيوية التي زاوج بينهما المغرب " (118) .

ويقول المؤرخ الفرنسي "سان أولون" في نفس الموضوع :

"....ويدعو المسيحيين للـدخول في دين الإسلام، وصدرت منـه مكاتيب بذلك لجل دول أوربا، أشـهرهـا كتابه للويس الرابع عشر - ملك فرنسا - يذكره بكتاب النبي ﷺ لهرقل عظيم الروم، ويدعوه إلى الإسلام (119) .

واشتهرت هـذه الرسالـة أكثر من غيرهـا لأنها نشرت في كتيب خاص بأربع لغات : العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية (120).

وهذه الـرسائل أعطت للمـولى إسماعيل في نظر أوربـا وغيرها من دول العالم صـورة الملك القوي، وبالتـالي جعلت المغرب من الـدول التي يقام لها ويقعد، ويحسب لها حسـابها، كما أحاطتـه بهالة من المهـابة والاحترام بين أقطار العالم المتمدن - آنذاك - (121).

---

(117) المنزع اللطيف لابن زيدان، ص : 108، وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان ح : 2، ص : 51.

(118) دعوة الحق، ع 2 و 3، س 20، ص : 41، 1399هـ 1979م، مسيرة الفتح عملية أصيلة لعبد الله العمراني.

(119) إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ح : 2، ص : 51.

(120) كتابه هذا يوجد بكليـة دار العلوم بالقاهرة تحت رقم 5357، والرسائل كلها توجد نصوصها بإتحاف أعـلام الناس لابن زيـدان، ج : 2، ص : 51. تم نشرها د. عبـد الله العمـراني بمجلة المعرفة بتطوان، عدد نونبر - دجنبر 1947 م، وعلق عليها.

(121) مجلة البحث العلمي، ع : 4 و 5، س : 2، ص : 286 - 289، 1385 هـ - 1965م.

10 – المجالس العلمية على شكل مهرجان ديني :

من المحافل والمهرجانات الدينية الكبرى التي ترأسها المولى إسماعيل بنفسه، وجمع فيها العلماء والأدباء والشعراء من رواد مجالسه العلمية المختلفة، زيادة على كبار رجال دولته المدنيين والعسكريين، والأمراء، والشرفاء، والأعيان ورجال البلاط والحاشية...، محفل إقامته لصلاة الاستسقاء حيث خرج على رأس موكبها في خشوع وخضوع لله تعالى، منقطعي النظير.

فقد قلب أذيال جلبابه مشمرا، ومشى فيها حاسر الرأس حافي القدمين، داعيا ربه الدعاء المأثور : " اللهم اسق عبادك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت ". و " اللهم أغثنا غيثا نافعا ".

كما أمَّ الناسَ في صلاتها شخصيا، بنفس الخشوع والخضوع والاستسلام لإرادة الباري عز وجل (122).

(122) دعوة الحق، ع : 2 و 3، س : 20 ص : 41، 99/13هـ – 1979م ، مسيرة الفتح عملية أصيلة، د. عبد الله العمراني

الفصل الثالث

تطور المجالس العلمية
للملوك والأمراء وكبار العلماء
بين عهد المولى إسماعيل
وعهد الإضطراب



المجالس الأدبية للمولى إسماعيل :

كما اهتم المولى إسماعيل بالمجالس العلمية الحديثية وغيرها مما تقدم، كانت له مجالس أدبية رائعة صال فيها وجال، وشارك فيها مشاركة فعالة لا تقل عن مشاركته في مجالسه العلمية المختلفة، كرائد خبير محنك، مما يؤكد أريحيته الأدبية وتأثره بالشعر وسحر البيان، حتى إن مجالسه الأدبية الرائعة، لتذكرنا بالمجالس الأدبية الفاخرة للمشارقة، في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وللأندلسيين في كتاب نفح الطيب، للمقري التلمساني.

ولعل أول مجلس أدبي عقده المولى إسماعيل كان يوم بيعته، حيث أنشده الشعراء قصائد في تهنئته بالملك، ومدح خصاله، وتعداد مناقبه وفضائله.

وفي طليعة هذه القصائد نجد قصيدة أحمد بن عبد العزيز العلوي – مؤلف كتاب الأنوار السنية أوالحسنية – التي يرثي فيها المولى الرشيد، ويهنئ المولى إسماعيل، ويبشر به، ومطلعها :

قد ضجت الأرض أنجاد وأغوار
وأنهد من صدمات الدهر أمصار
نبكي لفقد الرشيد أكرم من
زالت بفضله أحزان وأكدار

كما مدح المولى إسماعيل بقصيدة، ضمنها ما قرأه عنه في (1) بعض الأجفار، وهو الجفر الأكبر المسمى " المفتاح في أستار الفتاح". ونجد على رأس المجالس الأدبية للمولى إسماعيل، تلك التي كانت تذيل بها مجالسه العلمية السلطانية الرسمية، ولا سيما المجالس الحديثية الرمضانية، وخاصة مجالس الختم لصحيح البخاري، وبالتالي لهذه المجالس.

حيث كانت تنشد مدائح في السلطان، وفضائله وأياديه، وتعداد مناقبه، وخاصة العلمية منها، ولا سيما المتعلقة بتشجيع المجالس العلمية والأدبية، وتقريب وتكريم علمائها الأبرار.

وكان يجيز الأدباء والشعراء بكرم وسخاء، وينعم عليهم بالعطايا والخلع السنية.

---

(1) الأنوار السنية، لأحمد العلوي، ص:77–83.

فقد أجاز الشاعر علي مصباح، بأن خلع عليه كسوة فخمة، وأعطاه مائة مثقال من الذهب، على قصيدة مدح بها العلامة محمد بن محمد المسناوي، الذي ختم عليه ولد السلطان -المولى إسماعيل- الأمير محمد، كتاب الشفا، ومطلعها :

يا أهل ودي هل لديكم من شفا   مما غدا منه الفؤاد على شفا.(2)

ويصف لنا ابن زيدان(3) أحد هذه المجالس وصفا حيا رائعا في قوله : " ومن ذلك أنه نصره الله خرج يوما، وخلفه جارية وسيمة، حاملة لسيفه، فاستنزل قرائح الكتاب في وصفها، فقال في ذلك خاتمة أهل الأدب، وسراج من تأدب عبد الحق السحيمي (4) :

حملت سيوف الهند وهي غنية
عن حملها بفواتر الأجفان
حسب الفتاة جلالة ومهابة
عز الجمال وهيبة السلطان.(5)

ومن هذه المجالس الأدبية النادرة، أنه كان يفتتحها أحيانا بأن ينشد بيتا من الشعر الجاري مجرى الأمثال - الذي كثيرا ما كان يتمثل به - ويأمر شعراء مجالسه الأدبية أن يجيزوه، ويذيلوا عليه، فيتهافتون على ذلك، ويتنافسون فيه.

فقد أنشد في أحد هذه المجالس بيتا كان معجبا به، ومولعا بترديده دائما وهو:

وجربت الأمور وجربتني   كأني كنت في الأمم الخوالي (6).

وطلب من الشعراء الحاضرين في ذلك المجلس الأدبي إجازته، والتذييل عليه، فقالوا في ذلك مقطوعات عديدة قيمة.

---

(2) المنزع اللطيف، لإبن زيدان، ص:72، والنهضة العلمية، لإبن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص :9.

(3) الدرر الفاخرة، لإبن زيدان، ص :40.

(4) المصدر السابق، وص.

(5) المنزع اللطيف، لإبن زيدان، ص :39.

(6) المنزع اللطيف، لإبن زيدان، ص:39.

وكان انتصاره على الإسبان، وتحريره لمدينة العرائش معين إلهام لا ينضب للشعراء، استقى منه كل واحد منهم على قدر عزمه وملكته، وشاعريته وقريحته...

ومن القصائد التي ألقيت في هذه المجالس الزاهرة، قصيدة لعبد السلام بن الطيب القادري (7)، ومطلعها :

علا عرش دين الله كل عرائش   وهد بنصر الله حصن العرائش

كما أنشده الشاعر الأديب أبو حفص عمر الحراق قصيدة (8) في نفس المناسبة، بتلك المجالس الزاهرة، ومنها :

ومن عجب تروم الروم حربا
بسهل أو حزون أو جبال
وجربت الأمور وجربتني
كأني كنت في الأمم الخوالي

وقد أجازه المولى إسماعيل عنها بجائزة سنية قيمة.

وفي أحضان هذه المجالس الأدبية المسترسلة بهذه المناسبة العظيمة، أنشده أبو محمد عبد الواحد بن محمد البوعناني قصيدة (9)، مطلعها :

الا أبشر فهذا الفتح نور   قد انتظمت بعزمكم الأمور

ويقول إبن زيدان عن هذه المجالس الأدبية المسترسلة، التي عقدها المولى إسماعيل بمناسبة فتحه للعرائش : "... وقد خلد فتحه للعرائش الشعراء : عبد الواحد البوعناني، وعبد السلام بن حمدون جسوس، وعبد السلام بن الطيب القادري. وأجاز أبا حفص عمر الحراق عن قصيدته في ذلك، بأربعمائة مثقال (10) ".

---

(7) نشر المثاني، للقادري، ج:3، ص :50–53، وفيها نصها الكامل.

(8) المنزع اللطيف، لإبن زيدان، ص :39–40.

(9) الإستقصا للناصري، ج :7، ص :74، ونزهة الحادي، للأفراني، ص :307–309، ونصها في نشر المثاني.

(10) الحلل البهية للمشرفي، ص :129–138، حيث نصوص القصائد كلها والتفاصيل عن هذه المجالس.

كما أجازه بمائة مثقال على قصيدة هنأه فيها بتمام بناء مدينة الرياض(11).

ومن أروع ما مدح به في أحد مجالسه الأدبية :

مولاي إسماعيل يا شمس الورى
يامن جميع الكائنات فدى له
من لا يرى لك طاعة فالله قد
أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولعل أبلغ هذه القصائد كانت تلك التي مدحه بها شعراء شنكيط(12).

ومن الأخبار الظريفة لمجالس المولى إسماعيل الأدبية أنه سأل في أحد هذه المجالس عما روي من أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف كتابا وقال له فيه : " إنك عندي كقدح ابن مقبل."

فاغتم الحجاج لما قاله له عبد الملك فقيل له : لابأس عليك. أما سمعت مدح ابن مقبل لقدحه...وأنه فار أربعين مرة متوالية...وكان عبد الملك كثيرا ما يمتحن الحجاج بمثل هذا (13).

وكان سؤال المولى إسماعيل هو :هل كان مراد عبد الملك بذلك مدح الحجاج أم ذمه ؟ وما هو قدح ابن مقبل ؟ وما خبره الذي اشتهر هذا الإشتهار؟ فعجزوا جميعا عن الجواب.

وقصة قدح ابن مقبل مشهورة، وملخصها : أن النجاشي الشاعر هجا بني عجلان، فشكوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحكّم عمر حسان ابن ثابت في القضية، باعتباره خبيرا في الشعر، وأغراضه وأبعاده... فقال حسان : صبيان، ما هجاهم، ولكن سلم عليهم...

وكان أقطاب شعراء وأدباء المجالس الأدبية للمولى إسماعيل يحكمون بين الشعراء والأدباء المنتجين والمبدعين، ويرجعون إليهم كمصادر، إذ كان لهم القول الفصل في القضايا والمسائل التي تطرح على بساط البحث في هذه

---

(11) النهضة العلمية، لإبن زيدان، م.خ.م. بالرباط، رقم3177. ص:4-5، وميكرفيلم نفس المصدر، خ.ع بالرباط، رقم2028.

(12) النبوغ المغربي، لعبد الله كنون، ج : 1، ص: 312.

(13) الجيش العرمرم لأكنسوس، ورقة :145-146.

المجالس، سـواء كانت نقديـة أو أدبية أو غيرها. وعلى رأس هـؤلاء الشعراء والأدباء الحكام نجـد : أبا على الحسن بن مسعود اليوسي، الـذي له قصيدة قيمة في مدح شيخه بناصر الدرعي، ورائية في رثـاء الزاوية الدلائية وأيامها، تلميحا لا تصريحا -مراعاة للعلويين -

كما مـدح أبو سالم العياشي شيخه الحسن بن مسعود اليوسي بقصيدة قيمة منها :

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ومن شعراء هـذه المجالس المبجلين : أحمد بن عبد القـادر القادري(14)، وله قصيـدة قيمة رثى بها ابن عمـه عبد السـلام بن الطيب القادري (15)، ومنها :

يشق على الأقوام موت إمامهم كعبد السلام القادري المبجل

ويـذكـر ابن زيدان بعض فطـاحل شعـراء (16) هـذه المجالس الأدبيـة المشاركين في مبارياتها وحلباتها وهـم :

القاضيان أبو عثمان سعيد العميري، وولده أبو القاسم، وأبو محمد عبد الحق التميمي، وأبو حفص عمر الحراق، المذكور.

وممـا يدل على تأثـره بالشعـر، وتقـديره لـدوره الطلائعي والإعـلامي، واستخدامه لـه في أغراضه الإدارية وغيرها، إجـازته لشاعر بـلاطه، وعضو مجالسه الأدبيـة وغيرها، عمـر الحراق على قصيدة (17) يخاطب بها كتاب العاصمة الإسماعيلية بأربعمائة مثقال، ومطلعها :

كتـاب الإمـام لقـــد سـعـــدتـــم
بآثـــار لسـيـــدنـــا ســـديـــدة

(14) جد مؤلف كتاب نشر المثاني.

(15) نشر المثاني للقادري، ج : 3، ص : 53.

(16) المنتزع اللطيف لابن زيدان، ص : 329.

(17) أتحاف اعـلام النـاس، ج : 1، ص : 156، والنهضة العلمية، لابن زيـدان، ج، خ، م بالرباط، رقم 3177، ص : 4 – 5. وميكروفيلم نفس المصدر، خ. ع، بالرباط رقم 2028.

دنـــوتـم من قصـــــور أبي المعـــالي
وقـــد كـــانت منـــازلكـم بعيـــدة
مـا دار تـــقــــــرب مـــنــــــه إلا
مبـــاركـــة بـــلاريـــب سعيــــــدة

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كرمـه وأريحيته الأدبية، ويستشف من القصيدة وأهـدافها، أنه هو الـذي أوحى لشاعره بنظمهـا في هذا المعنى، توجيها وتذكيرا لكتابه، حتى لا يزيغوا عن الجادة، ويكفروا بنعمه.

المجالس العلمية والأدبية للأمراء :

كان بعض أبناء (18) المولى إسماعيل علماء وأدباء، وكانـت لهم مشاركة فعالة في الحياة العلمية والأدبية، على عهد أبيهم العظيم.

وقـد تركـوا آثـارا قيمة في المجـالين العلمي والأدبي، وعلى رأسهم المولى محمد العالم، والمولى المرتجي، والمولى إدريس، والمولى الشريف (19).

وكانوا يعقدون مجالس علمية وأدبيـة ترددت أصداؤها في أنحاء البلاد، وتـركت بصماتها على سـائر المجـالات العلميـة والأدبيـة، كما سـاهمت في إغنائها وإثرائها، وبالتالي في تجديدها وتطويرها.

المجالس العلمية للمولى محمد العالم :

كان محمد العالم وليا لعهد والده المولى إسماعيل، ونبغ في العلوم الدينية والأدبية واللغوية (20) وغيرها، وترك تصانيف وآثارا شعرية ونثرية فريدة.

وكان حـريصا على مجالسة العلماء، فأقـام سوقـا رائجة للعلم والأدب، وشكل مجلسا من كبار العلماء والأدباء والشعراء بإقليم سوس - حيث كان خليفة عن والده - فقصدته الوفـود من جميع النواحي، وبعث هنالك حركة علمية وأدبية زاهرة.

---

(18) البستان الظريف، للزياني، ص :44-45، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة 68-69.

(19) دعوة الحـق ع :2و3، س :20، ص :115-117،1399هـ-1979م، مسيرة الفتـح، عمليـة أصيلة. د. عبد الله العمراني.

(20) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص : 166، والحلل البهية للمشرفي، ص :112و14-15، والإستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 90-91.

وكان يعقد لعلماء مجلسه جلسات خاصة، حيث يتباحثون ويتناظرون حول مشكلات وقضايا علمية عويصة، وذلك في أعلى المستويات العلمية والدينية، ويبثون في شأنها بإشراف شيخ الأمير محمد العالم، سعيد بن أبي القاسم العميري الذي كانت له الكلمة الأولى والأخيرة في مجالسه، وكان يأخذ بمشورته، ولا يكاد يفارقه. ونافسه بقية العلماء على مكانته لديه، وغبطوه على حظوته، وقرروا إفحامه أمام المولى محمد العالم، فأحرجوه أمامه بأن طلبوا منه أن يقرئهم الشرح المطول على التلخيص للقزويني، بغتة دون أن يكون على علم بذلك، ودون أن يكون قد استعد أو حضر الموضوع.

لكنه استجاب لطلبهم، فألقى ذلك الدرس ارتجالا بكفاءة واقتدار منقطعي النظير، فبهرهم بتحقيقه وتقريره، وبمنهجيته في التحليل والتعليل، والمقارنة القائمة على أساس من المعقول والمنقول (21).

ومن المجالس العلمية الهامة للمولى محمد العالم، مجلس عقد للمباحثة حول موضوع : "الغيب، ومدى علم النبي ﷺ به".

وقد وقعت المباحثة والمجادلة الهامة سنة 1089هـ،(22) في مجلس البخاري، بين يدي المولى محمد العالم، وحضرها جمع غفير من العلماء،من جميع الأنحاء(23).

وفي هذا المجلس، أعلن العالم أبو عبد الله محمد بن محمد الدلائي أن النبي ﷺ يعلم الغيب، ودعم رأيه في تدخله بحجج واستشهادات علمية وافية.

وأنكرت عليه قوله جماعة من المشاركين في المناظرة، ومنهم العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي.

فاستفتى المولى محمد العالم شيخه، العلامة عبد المالك التجمعتي، فأجابه بأن النبي ﷺ لم يمت حتى أطلعه الله تعالى على الغيب.

---

(21) نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص :238-239.

(22) الإستقصا، للناصري،ج:7، ص :57.

(23)رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج :2، ص :506. حسب ماذكره أحمد الهشتوكي في كتابه هدية الملك الغلام.

وانتشر خبر هذه المناظرة، ووقائع حلباتها بفاس، فتضاربت آراء علمائها حول الموضوع، وعمت البلبلة.

فكتب الشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي، إلى العلامة عبد الملك التجمعتي في الموضوع، فأجابه العلامة التجمعتي بأنه ألف كتابا في الموضوع عنوانه «ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب» (24).

وتصدى للرد على مؤلف عبد الملك التجمعتي الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، في رسالته الثلاثين (25).

ولم يتردد العلامة عبد الملك التجمعتي في الرد على اليوسي بجواب مطول، شديد اللهجة، عنيف الأسلوب، حاد العبارات، غريب المضمون(26).

ومن أهم المجالس العلمية للمولى محمد العالم، مجلس عقده لاختبار الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن ناصر، المغربي المالكي، الشاذلي، الأشعري، الصوفي.

ذلك أن المولى محمد العالم لما قدم إلى وادي درعة خليفة عن والده المولى إسماعيل، منع الناس من قراءة صحيح البخاري، احترازا من التصحيف، واللكنة، والتحريف، إلا في الزاوية الناصرية.

وكان يختبر الطلبة (27) بالسرد في نسخة من الصحيح بخط شرقي، خال من النقط والشكل، فمن أحسن القراءة أقره، وإلا فلا.

وكان الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بناصر المذكور يقرأ صحيح البخاري رغم المنع المعلن عنه، فوشي به إلى المولى محمد العالم، فاستدعاه للحضور عنده، واختبره في مجلس عام من العلماء الكبار لمجالسه العلمية الخاصة، فوجده يتقن القراءة والسرد بفصاحة وكفاءة، فأقره على قراءته، وأذن له بها رسميا.

---

(24) رسائل اليوسي، تحقيق فاطمة خليل، ج :2،ص:506.

(25) من رسائل اليوسي المشهورة،وذلك سنة1091هـ باعتبار أن المناظرة جرت سنة 1089هـ ويؤكد اليوسي في رده أنه كتبه بعد عامين من المناظرة،المصدر السابق،وص.

(26) رسائل اليوسي،تحقيق،فاطمة خليل، ج: 2، ص: 56.

(27) الدرر المرصعة، لمحمد بناصرالدرعي، ص : 119.

فهجا الشيخ المذكور الوشاة الذين سعوا به لدى الأمير بقصيدة مشهورة(28).

المجالس الأدبية للمولى محمد العالم :

كان المولى محمد العالم شاعرا، وله مساجلات ومعارضات شعرية مع الشعراء، وخاصة مع أخيه المولى الشريف (29).

وكان حريصا على مجالسة الأدباء والشعراء حرصه على مجالسة العلماء، مبالغا في تعظيم وتكريم هؤلاء وأولئك. فقصده الشعراء بقصائدهم، والعلماء بمصنفاتهم العلمية، كل في مجال اختصاصه (30). مما جعل مجالسه محافل ثقافية هامة، استقطبت النبغاء والمبدعين، الذين بعثوا نهضة ثقافية وفكرية ساطعة، شع نورها في البلاد، ونفع العباد (31).

وكان شاعرا يتأثر بالشعر ويتذوقه، وترك قصائد عديدة بليغة. ومن شعره يخاطب أخاه زيدان (32) :

أبلغ الزيدان عني آية
فسيوف العدل تشفي ذا العلل

حصحص الحق ولاحت شمسه
وزمان الغي ولى وانخذل

وزمان النصر قد آن ولم
يبق إلا الجد قولا وعملا

---

(28) نفس المصدر السابق، وص.

(29)نشر المثاني، للقادري، ج :3، ص : 168-170.

(30) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 112.

(31) دعوة الحق، ع: 4،س: 10،ص178، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين قبل الحماية، لمحمد العلمي.

(32) الحلل البهية للمشرفي، ص112-115-116، أخوه زيدان انتصر عليه، وقيده، وساقه إلى أبيه الذي حده في وادي بهت، سنة 1119هـ.

وكان كأبيه شغوفا بأدب الفروسية (33) والشجاعة والبطولة. وإذا كان المولى إسماعيل قد اهتم بالعنتريات والأزلية وأمثالها، فإن ولده محمد العالم كان شغوفا بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي (34).

المجالس العلمية للمولى المرتجي :

من الأمراء العلماء والأدباء الشعراء في عهد السلطان المولى إسماعيل، الذين كانت لهم مجالس علمية خاصة : المولى المرتجي بن المولى إسماعيل.

وكان عالما جليلا، ورعا تقيا مقبلا على العلم وأهله، حريصا على التحصيل، منكبا على قراءة الكتب القيمة وخاصة الفقهية والحديثية.

كما كان يعقد مجلسا علميا كل أسبوع (35) يحج إليه جماعة من كبار علماء عصره، ويشاركهم شخصيا وعمليا في أعمال ذلك المجلس، بالتدارس والتباحث، والتناظر حول قضايا العصر، ولا سيما الدينية منها على الصعيدين : الوطني والعربي الإسلامي، كالاجتهاد والسلفية، ونحو ذلك.

كما كان يسرد الحديث النبوي الشريف في هذا المجلس – على الطريقة المعتادة –إذ ذاك– وخاصة خلال شهري : شعبان ورمضان (36).

ومن علماء مجالسه العلمية نجد نخبة نيرة : منهم أولاده العلماء الأمراء: محمد، وإسماعيل، وإدريس.

وقد رثاه بعض العلماء والأدباء الذين نادموه كؤوس العلم والعرفان في مجالسه العلمية والأدبية، وفاء لذكراه، وحنينا إلى مجالسه الزاهرة، ومنهم : محمد بن احمد لعلو، ومحمد معنينو، واحمد قيطس، وأحمد بن محمد الحافي، وعبد السلام حماس (37).

---

(33) النبوغ المغربي لكنون، ج : 3، ص : 81.

(34) الإستقصا، للناصري، ج : 8، ص : 52.

(35) دعوة الحق، ع : 2 و 3، س 20، ص : 115 – 117 – 1399هـ 1979م المولى المرتجي بن المولى إسماعيل. للتازي.

(36) المصدر السابق : و ص.

(37) المصدر السابق : و ص.

المجالس العلمية للمولى الشريف

كان المولى الشريف بن المولى إسماعيل من كبار العلماء والأدباء والشعراء في عهد والده المولى إسماعيل، غير أنه كان أكثر ميلا للأدب والشعر.

استخلفه والده على وادي درعة، حيث سكن قصبة أغلان الشهيرة.

وعرف بحب العلم وتقدير أهله وخاصة شيوخه، وعلى رأسهم العلامة أبو الحسن علي الترغي.

كما أشتهر بجمع الكتب القيمة، ولا سيما كتب التاريخ والأدب والشعر التي كون منها خزانة كبيرة.

وكان يعقد مجالس علمية وأدبية، يقصدها كبار مثقفي عصره، من العلماء والشعراء، الذين لازمه بعضهم حتى أصبحوا في حاشيته وبلاطه وبالتالي شعراءه.

وقد مدحه شعراء مجالسه الأدبية ووصفوا قلعته العجيبة، فأجاز كل واحد منهم على قدر مرتبته الشعرية، التي كان خير من يقيمها. وعلى رأسهم : الأديب الشاعر الشريف أبو عبد الله محمد العلمي الحوات، الذي مدحه بقصائد (38) ومقطعات رقيقة بليغة، فأجازه، وبالغ في إكرامه.

والشاعر أبو عبد الله محمد العلمي الحوات (39) هو من شعراء مجالسه الأدبية، كما مربنا، وهو من بني موسى بن مشيش أخي مولاي عبد السلام بن مشيش.

وتوفي المولى الشريف بداره في القلعة المذكورة سنة 1139هـ ودفن بزاوية سيدي عمرو المحادية لقصبته.

المجالس العلمية لكبار العلماء :

من مظاهر تطور المجالس العلمية على عهد المولى إسماعيل،ظاهرة عقد أئمة العلم وشيوخه لمجالس علمية خاصة بهم، تأكيدا للمثل السائد : "الناس على دين ملوكها". وجلُّ هؤلاء العلماء أصحاب المجالس الخاصة، كانوا من رواد المجالس العلمية السلطانية الرسمية للمولى إسماعيل.

---

(38) الدرر المرصّعة لمحمد بن الناصر الدرعي، ص : 167 - 174

(39) المصدر السابق و ص:

وكانت هذه المجالس العلمية بمثابة ندوات علمية وأدبية، موازية للمجالس العلمية السلطانية الرسمية، حيث يتدارسون القضايا التي تشغل بالهم، سواء على الصعيد الوطني، أو الإقليمي، أو العربي الإسلامي...

وربما تناقشوا وتجادلوا وتناظروا من جديد حول قضايا سبق طرحها في المجالس الرسمية للسلطان، دراسة متأنية هادئة، بعيدا عن هيبة مجلس السلطان ورهبته.

وكثيراً ما كانت المناقشات والمناظرات تدور حول الأسئلة التي كان المولى إسماعيل يرفعها إلى لجنة منهم، أو إلى أحدهم، حتى يكون الجواب صائبا أو حتى تكون الفتوى مدعمة بالإجماع المطلوب، وحتى يتقاسموا مسؤوليتها الدينية والشرعية والقانونية، في السراء والضراء.

وغالبا ما كانوا يعقدون هذه المجالس في شهر رمضان (40).

والواقع أنها كانت صورة مصغرة من المجالس العلمية السلطانية، وبالتالي فقد تنوعت بتنوعها ونهجت نهجها، حيث يطرح العلماء الأسئلة على بعضهم، ويتصدون للرد والجواب عليها، فرادى وجماعة، وحيث تصنف الرسائل والمؤلفات على هامش المناقشات والمناظرات الحادَّة، والمراسلات المتبادلة، والأسئلة المطروحة....

وفي هذا الصدد نجد جوابا قيما فريدا من نوعه للعلامة عبد السلام بن الطيب القادري (41) -وهوَ من أقطاب المجالس العلمية السلطانية الرسمية للمولى إسماعيل - على سؤال ورد على العلماء في مجالسهم الخاصة هذه، من العالم علي بركة الأندلسي التطواني، يطلب فيه جوابهم على خمس(42) مسائل وهي :

1 - قول النبي ﷺ : " وضع ربي يده بين كتفي، فوجدت برد أنامله بين ثديي" هل ثبت ؟ وعلى ثبوته، ما تأويله ؟

---

(40) اقتداء بالمجالس الرسمية السلطانية التي أصبحت تعقد طيلة شهر رمضان، ثم أضيف إليها شعبان ثم رجب فيما بعد، وكما سيأتي.

(41) جد مؤلف كتاب نشر المثاني، ولد سنة 1058 هـ، وت، في سنة 1110هـ، وأثنى عليه كثير من أشياخه

(42) نشر المثاني، للقادري، ج : 3، ص: 86، ونص السؤال بنفس المصدر، ص: 111.

2 – قول النبي ﷺ : " حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة، فلا تأكل منها دابة، إلا نافقت " هل هذا لفظه ؟ وما المراد به ؟

3 – " حب الدنيا رأس كل خطيئة " قيل: قرئ بين يدي عبد الكريم المراكشي، فقال لأصحابه : " وأنا أقول لكم : "حب الآخرة، رأس كل خطيئة" فبلغ ذلك الشيخ عبد الله الغزواني، فقال : " وأنا أقول لكم: "حب الله رأس كل خطيئة " ما محل هذا الكلام على ثبوته... وما وجه زيادة الشيخين المذكورين، على ما في الخبر؟

4 – قول أبي زيد البسطامي :" كنت من الزاهدين في الله " ما معنى هذا الزهد ؟

5 – قول بعض العارفين : " لو عرفت الله، ما دخل قلبي حق ولا باطل". ما معناه ؟

وقد أجابه العلامة القادري –المذكور– عن هذه الأسئلة الخمسة كلها كتابة، في نحو كراستين، فقرظ جوابه محمد بن عبد القادر الفاسي(43) والفقيه الطيب بن محمد الفاسي (44)، والحاج أحمد الجراندي (45)، والشيخ محمد المرابط الدلائي (46).

ومن الشيوخ الكبار الذين كانوا يعقدون هذه المجالس الخاصة ويترأسونها : العلامة الحجة أحمد بن عبد الوهاب، الوزير الغساني، الأديب الكاتب الشاعر، أحد أقطاب المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل، ترك مؤلفات وقصائد وأمداحاً نبوية وخطبا وتقاييد... وكلها في منتهى الجودة.

وكان في مجالسه هذه يسرد صحيح الإمام البخاري كل يوم، بعد صلاة العصر. كما كان يختمه ختمة كل شهر رمضان، من كل سنة.

---

(43) المصدر السابق،ص :111و 94.

(44) المصدر السابق، وج، ص: 96.

(45) المصدر السابق، وج، ص: 97.

(46) المصدر السابق، وج، ص: 98.

ولمكانته المرموقة. كان يحضر مجالسه العلمية الخاصة المذكورة، العالمان الشهيران : أحمد بن محمد بن عبد الله معن، وأحمد اليمني، اللذان كانا يحرصان على الصلاة خلفه، فلقب "بصاحب الأحمدين ".

ومن أهم القضايا التي أثارت الوسط العلمي المغربي، وأثارت مناقشات حادة في مجالس العلماء الخاصة، وتسربت أصداؤها إلى قبة المجالس العلمية السلطانية للمولى إسماعيل، قضية القصيدة التي نظمها العلامة الشاعر سراج الدين أحمد الحلبي(47) الشافعي الفاسي، أحد طلائع أقطاب المجالس العلمية للمولى إسماعيل، والتي تكلم فيها على لسان الله تعالى - على سبيل التجريد والمجاز -

وقد اطلع الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي على هذه القصيدة. - وكان يتردد عليه ويواصله - فانكر عليه ذلك بشدة وصرامة، وجرحه، وقطع عنه وده ومواصلته، ودعا إلى مقاطعته، وحذر من مخالطته أو معاملته أو الإجتماع به....

واستتابه فرفض وأبى التوبة، وأصر على إنكار التهم الموجهة إليه، مبررا موقفه بأنه يجوز في الشعر مالايجوز في النثر، وأن أعذب الشعر أكذبه...

وعجز العلامة اليوسي عن ردعه، لأنه كان من المقربين إلى بلاط المولى إسماعيل. كما كانت له مكانة مرموقة لدى السلطان، إذ كان في طليعة المقرئين الذين يحسنون إنشاد الأمداح النبوية بين يديه، في حفلات المولد النبوي الشريف، زيادة على عضويته للمجالس العلمية السلطانية - كما سبق القول - وبالتالي فقد كان موقّرا معظما مكرما في البلاط والديوان السلطاني، وينعم بصلات العلماء والشرفاء.

لكن السلطان المولى إسماعيل ما إن أطلع على قصيدته المشبوهة، وعلم برفضه التوبة، وبخروجه عن مذهب أهل السنة، وانتحاله للبدع، حتى منعه من حضور مجالسه العلمية وغيرها، وأبعده بأن نفاه من عاصمته، رغم مكانته العلمية المرموقة. فقد ترك مؤلفات نفسية كثيرة، وقصائد قيمة عديدة، ومقامات في معارضة مقامات الحريري.

---

(47) نشر المثاني، ج :3، ص : 197-200، وبها قصته بالتفصيل.

وقد قـرظ مؤلفاتـه وأثنى على نبوغه كبـار علماء عصره، كالعلامـة عبد القادر الفاسي والأديب الشاعر الكبير محمـد البوعناني، والشيخ القاضي أبي عبد الله المجاصي. لكنه ظل منبوذا حتى توفي سنة 1120هـ.

وتطـورت المجـالس العلميـة الخاصة للعلماء وتنـوعت بتطـور وتنـوع المجالس العلميـة السلطانية الرسميـة، فاتخذت بدورهـا شكل المراسلة بين العلماء خـارج نطـاق المجـالس العلميـة السلطـانيـة التقليـديـة الرسميـة والأمـيرية.

ولعل أحسن نموذج لهذا النـوع من المجالس تجسده الرسـائل المتبادلة بين الأئمة : أحمد بن عبد الحي الحلبي، والحسن بن مسعود اليوسي، وعبد الملك التجمعتي، حول قضية علم النبي ﷺ بالغيـب، التي طرحت بالمجالس العلمية للمولى محمـد العالم، بمقر خلافتـه في سوس - كما سبق القول - كما تجسده لنا الكتب والأطروحات التي ألفت وصنفت حول هذا الموضوع، وغيره من المواضيع الحيوية الهامة التي عرفها هذا العصر.

المجالس العلمية السلطانية في عهد الاضطراب

(1139 –1171 هـ ـ 1727 – 1757م)

المولى عبد الله بن إسماعيل : (1141– 1171 هـ / 1729 – 1757م)

كان المولى عبد الله أبرز ملوك هـذه الفترة المضطربة، الذي أجمعت كلمة أهل المغرب على طاعته (48)، ويصفه لنـا القادري في التقاط الـدرر فيقول: "كان له حـزم وعزم، وقوة ونجدة واحترام، وعلـو همة وجود، ومن عظمة شيمه احترامه للشرفاء والطلبة، والمرابطين والضعفاء. " (49)

وقال عنه أيضا : " عمرت به سوق العلم بعد دروسه. " (50)

وقال عنه الزياني : " إنه أحد من تولى أيام الفتن." (51)

---

(48) الحلل البهية للمشرفي، ص : 158 .

(49) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص : 53 .

(50) نشر المثاني للقادري، ج 4 – ص : 121.

(51) الروضة السليمانية للزياني ورقة : 187 .

وقال عنه أكنسوس : " والحق الذي لا شك فيه، أن كل من قام منهم - أبناء المولى إسماعيل - بعد بيعة المولى عبد الله، فإنما هو ثائر عليه، لا إمامة له، وإنما يكون خبره مسوقا من جهة أخبار المولى عبد الله." (52)

وقام المولى عبد الله بأعمال جليلة، من شأنها تنمية الحياة الفكرية والحركة العلمية والأدبية بالبلاد في جميع المجالات، الثقافية والإبداعية حسب إمكانياته، وفي نطاق ما تسمح به ظروف عهده الحرجة المضطربة...

وقد عمل على إيجاد الأجواء الثقافية المناسبة حتى يمكن للمجالس العلمية الرسمية وغيرها أن تقوم بدورها الحيوي في تحقيق التوازنات التشريعية والقانونية وغيرها في البلاد.

كما حافظ على وشائج الروابط الدينية والثقافية التي تربط بين المغرب والعالم العربي والإسلامي. فعمل على إحيائها وتنشيطها، تمهيدا لأعمال هذه المجالس على هذا الصعيد اللاحب.

فعلى الصعيد الوطني المحلي، سار على نهج أسلافه الميامين، في إصدار ظهائر الإجلال والإكبار، والعناية والرعاية لكبار العلماء، وأئمتهم، والنص فيها على مبرراتها، ألا وهي، مكافأتهم على اهتمامهم بالعلم، وعملهم على نشره وتشجيعهم على مواصلة نشاطهم العلمي، والاستمرارية فيه هم وأولادهم، جيلا بعد جيل.

ومن ذلك، تجديده ظهير التوقير والاحترام للعالم السيد محمد عبد السلام بن عبد الواحد غريط، وأولاده، سنة 1141هـ وإصداره ظهيرا بنفس المعنى للعلامة الحاج احمد بن عاشر العامري سنة 1143هـ(53).

واهتم بخزانة القرويين، فعمل على تزويدها بأمهات المصادر القيمة : الدينية والعلمية والأدبية واللغوية وغيرها، كما حبس عليها نفائس الكتب وذخائرها (54).

---

(52) الأتحاف الوجيزة للدكالي، ص : 48، والجلل البهية للمشرفي، ص : 43 .

(53) النهضة العلمية لابن زيدان، م . خ م . بالرباط، رقم : 3177 ص : 30 - 31 .

(54) نشر المثاني، للقادري، ج : 3، ص : 335 .

وحفاظا على وشائج القرابة والرحم، وتوطيدا للمودة مع ذوي القربى مهد قصبة تافيلالت لسكني الشرفاء آل سيدي أبي الغيث، بالزاوية المشهورة (55) .

وفي إطار عملية تنقية الأجواء وتحقيق المصالحة الوطنية، حرص على تأليف قلوب المتصوفة واستمالتهم، ولا سيما السيد الشرقي الذي كان معجبا به شخصيا، لدرجة أنه نهج طريقته، وسمى ولده باسمه، ووجهه للعلم والمعرفة، ويسر له سبلها ووسائلها (56). وذلك تفاؤلا به، ومجاملة للرجل الذي كان المغاربة - إذ ذاك - يجلونه ويجعلونه شعارا صوفيا محترما،(57)، رغم مسلك أسلافه في مناهضة بعض الزوايا والطرق الصوفية التي خرجت عن خطها المستقيم.

وذلك لعمري لدهائه السياسي، وسياسته الحكيمة الرشيدة.

أما على صعيد العالم العربي والإسلامي، فإنه لما بعث أمه الملكة خناته بنت بكار - العالمة الجليلة - إلى الحج بالديار المقدسة، ومعها ولده المولى محمد، سنة 1143هـ، وجه مع الركب النبوي المرافق لهما هدية سنية إلى الحجرة النبوية الشريفة تضم ثلاثة وعشرين مصحفا محلاة بالذهب، ومرصعة بالدر والياقوت، وألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الألوان، والمصحف العقباني (58)، أما المصحف العثماني فقد كان عند بني أمية بالأندلس، ونقله إلى المغرب عبد المؤمن بن علي(59)، وورثه المرينيون، ثم غرق في البحر مع أسطول أبي الحسن المريني، وهو أحد المصاحف الخمسة التي أرسلها سيدنا عثمان إلى الآفاق.

أما المصحف العقباني الذي أرسله المولى عبد الله في هديته إلى الحجرة النبوية فقد كان بالقيروان، ووصل إلى الأشراف الزيدانيين، فتداولوه، حتى

---

(55) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ص : 210 .

(56) دعوة الحق، ع : 234، ص : 36، 1404هـ 1984م مآثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن شقرون .

(57) المصدر السابق، و ص .

(58) نسبة إلى عقبة بن نافع الفهري .

(59) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص : 92 - 93 والروضة السليمانية للزياني، ورقة : 78 - 91، ودعوة الحق، ع: 234، ص : 36، 1404هـ 1984م، مآثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن شقرون .

وصل إلى المولى عبد الله. أما نسبة هذا المصحف إلى المصحف العقباني الأصيل فقد سجل عليها الشيخ المسناوي تحفظه، لبعد العهد.

وقد نظم لخروج الوفد ودخوله موكبا جليلا، وكان توديعه واستقباله في محفل عظيم (60).

وتدعيما للحياة الفكرية، وبالتالى للمجالس العلمية السلطانية وغيرها، أمر بإحياء كناشه وزير المولى اسماعيل، العلامة محمد ابن الحسن اليحمدي بمجلداتها العشر (61)، وكل مجلد مفتتح بصحابي من الصحابة المبشرين بالجنة(62)، في هذه الكناشة للوزير اليحمدي (63).

المجالس العلمية للمولى عبد الله

مما لا جدال فيه أن التقدم العلمي والأدبي والفني، والإزدهار الحضاري رهينان بالإستقرار والأمن، وبالتالي بالسلام السياسي و العسكري، والأمن الإقتصادي والإجتماعي بالداخل والخارج.

ولا غرابة إذا عرفت الحياة الفكرية بصفة عامة والمجالس العلمية السلطانية وغيرها بصفة خاصة -في هذا العهد- فتورا، فكسدت سوقها، وركدت ريحها لانصراف السلاطين إلى التقارع بالسيف والسنان، فانصرف العلماء والأدباء والشعراء عن العلم والشعر وسحر البيان.

غير أن ذلك لم يمنع من انعقاد مجالس علمية وأدبية وغيرها من حين لآخر، كلما دعت الضرورة، ومست الحاجة إلى ذلك.

غير أن هذه المجالس اتسمت بطابع العنف والفوضى والإضطراب، فكانت صاخبة صارخة.

---

(60) نشر المثاني للقادري، ج: 3، ص: 35 .

(61) الدرر الفاخرة لابن زيدان، ص : 54 .

(62) المجلدات كلها بالخزانة الزيدانية، رقم 833، ولعلها النسخة الوحيدة، و النهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م . بالرباط رقم 3117، ص 25 .

(63) سنن المهتدي في مفاخر الوزير اليحمدي، لعلي مصباح اليالصوتي، ص : 4، م.خ.م. رقم : 2365 .

ومن هذه المجالس المتسمة بالعنف والتعسف، ذلك المجلس الفريد من نوعه، الذي عقده المولى عبد الله، بمجرد بيعته ودخوله مكناس، سنة 1153هـ.

فقد عقد مجلسا خاصا، ضم كلا من القاضي بلقاسم العميري، والقاضي أحمد بن علي الشرادي، والفقيه بلعباس بن رحال المعدني، وأحمد بن عبد الله عليلش، فألقى عليهم القبض، واعتقلهم داخل المجلس، وفضحهم شر فضيحة، حيث نزعت عمائمهم، ولطموا على وجوههم -على رؤوس الأشهاد ممن حضر ذلك المجلس- وقال لهم : " كيف تزوجون نسائي من أخي، وأنا غائب" (64)

ومن مجالس العنف في هذه الفترة، التي تحولت إلى مأساة دموية، قضية محمد يعيش الزرهوني الذي تولى التدريس بالقرويين، والفتوى والإمامة والخطبة والقضاء في هذا العهد، وحمدت سيرته في كل هذه الأعمال.

لكن في هذا المجلس وقع له خلاف في شروط الشهادة، مع الفقيه عبد الواحد الشريف البوزيدي الحسني ناظر المواريث، فلطم هذا الأخير الفقيه القاضي محمد يعيش الزرهوني، وعلم السلطان بذلك، فأمر بقطع رأسه، فقطع وعلق على باب الفتوح، دون أن يتفطنوا لحصانته، باعتباره عدلا وشريفا(65).

فقامت الفتنة، ووثب الرعاع على دار محمد يعيش الزرهوني المذكور، وقتلوه، ونهبوا داره سنة 1151هـ (66).

أنواع المجالس العلمية في عهد الاضطراب :

استأنفت المجالس العلمية السلطانية في عهد الإضطراب إلى جانب الأحداث المروعة، التي كان سببها استبداد الجيش بالسلطة وتلاعبه بتولية

(64) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 24 – 25، والحوليات ص : 37 .
(65) نشر المثاني للقادري، ج: 4، ص : 7 – 9 .
(66) المصدر السابق ج، و ص .

الأمراء وخلعهم حسب أهـواء قواده ومصالحهم (67). ولم يتركـوا لهم من الأمر إلا الدعاء على المنابر.

فما إن بـويع المولى عبد الملك بن اسماعيـل، حتى شرع في عقد المجـالس العلمية السلطانية التقليديـة في شهر رمضان الأبرك، لسرد أحاديث صحيح البخارى، وغيره من الكتب الدينية (68).

كما عقد المولى عبـد الملك مجالس للإستفتاء في شأن أخيـه أحمد الذهبي المخلوع ، وحكـم الشرع فيه، فامتنـع العلماء عن الإفتاء، وتـركوا الأمـر له، فاستفتى كاتبـه العلامة محمد الفاسي على حدة، فأفتى بعـدم قتله، فاكتفى عبد الملك بنفيه إلى سجلماسـة، ولم يلبث العبيد أن بايعوه من جـديد، فعاد إلى الملك(69).

وعاد المولى عبد الملك لعقد مجلـس لاستفتاء العلماء في قضيته مع أخيه، فحاول العلماء رد العبيد عن غيهم، دون جدوى.

وتحارب الإخوان، لكن العبيـد قتلوهما معا، فبويع المولى عبـد الله سنة 1141 هـ(70).

وضمن المجالس العلميـة التي عقدت للإستفتاء في هـذا العهد المأساوي، نجد أن العبيد (71) لما عزلوا المولى أحمد الذهبي، واستـدعوا المولى عبد الملك خطبوا بالصحابة، وجعلوا أمر اختيار السلطان في يد العلماء - في الظاهر - فأجمع العلماء -بإيعاز من العبيـد طبعا - على مبايعة عبـد الملك، مع تعداد حيثيات ذلك، لتبريراتهم المزعومة (72).

كما عقـد المولى عبـد الله مجالس على شكل استفتـاء، حيث جمع كبـار العلماء، تحت رئاسة العلامة القاضي أبي عنان في مجلس خاص، واستفتاهم في شأن سالم الدكالي وأصحابه الذين بـايعوا أخاه محمد بن عربية، فأفتوه بوجوب قتلهم فقتلوا جميعا سنة 1149هـ(73).

(67) نشر المثاني للقادري، ج: 4، ص : 214 – 220 .
(68) المصدر السابق ج: 3 ص : 299 .
(69) المصدر السابق ج، ص : 301 – 303 .
(70) المصدر السابق ج : 3، ص : 299– 300 و316 – 322 .
(71) عبيد مشرع الرملة .
(72) المصدر السابق، وج:، ص: : 299 – 301 .
(73) الإستقصا للناصري، ج : 7، ص : 142 .

ومن المجالس العلمية التقليديـة الجادة التي عقدت في هذا العهد، مجلس عقـده المولى عبد اللـه في قضية هـامة -إذ ذاك - انقسم حـولها العلماء إلى محلل ومحرم، بعد أن تضاربت آراؤهم، وذهبـوا فيها كل مذهب - ألا وهي قضية شرب القهوة، وهل هو حلال أم حرام ؟

وقـد ألفت حـول هذا المجلس -المسلسـل الصاخب- الكتب والـرسـائل العلمية الطويلة في هذا الموضوع.

ومن المؤلفـات الهامـة في ذلك : الـرسـالـة التي صنفهـا ابن الطيب الشرقـي(74)، وسماهـا " الإستمسـاك بأوثـق عـروة،في الأحكـام المتعلقـة بالقهوة " التي ضـاعت منه في رحلته مع ماضاع من متاعـه، لكنه لخصـها ضمن رحلته الحجازية المخطوطة (75).

المجالس الأدبية للمولى عبد الله :

كان المولى عبـد الله يعقد مجالس أدبية مـن حين لآخر، لولوعـه بالأدب عمومـا، وبالشعـر خصوصـا. كما كـان يجزل العطاء لهؤلاء الشعـراء، قال القادري في ذلك : " عمرت به سوق العلم بعد دروسه " (76).

لذلـك نجد شعـراء وأدباء رسميين، يـلازمون مجالسـه الأبية وأعتـابه، وأشهرهم : محمد البوعصاميّ، ومحمد بومـديان، والطاهر بن عبد الواحد، والطيب ادراق (77).

ومن الشعراء الكبـار الذين مدحوا المولى عبـد الله : الشاعر عبـد القادر القادري الحسني، الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

عليك السـلام ياضيـاء العـوالـم
ويـابهجـة الإشراق من آل هـاشم
ويـامن سما شمسـا على كل جاهـل
وأصبـح مسـرورا بـه كـل عـالـم

---

(74) أبو عبد الله محمـد بن الطيب بن محمد بن موسى الشرقي 1110هـ - 1170 رحل إلى المشرق بعد اضطراب الأحوال بموت المولى اسماعيل، وجاور بالحرمين الشريفين .

(75) الرحلة : ل . ص . 57 - 60 .

(76) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 121 .

(77) تاريخ الضعيف، ص : 112.

ومن القصائد العديدة التي قيلت في مدحه (78) بهذه المجالس، نقتطف مطلعا لإحداها :

ويامن كساه الله من مهابة
تذل لها -رغما- أنوف الأعاجم(79)
ويامن له حزم وعز وسطوة
تفتت -إرهابا- قلوب الضراغم

المجالس العلمية للأمراء في عهد الاضطراب :

المجالس العلمية للأمير المولى محمد بن عبد الله :

كان المولى محمد بن عبد الله خليفة عن والده بمراكش وآسفي، وقد مهدهما وضبط أمرهما، فأحبته الخاصة والعامة، بعد أن ساد ربوعهما الأمن والإستقرار، والرخاء........

كما ازدهرت الحياة الفكرية، بفضل مجالسه العلمية والأدبية التي كان نورها يشيع في تلك الربوع والأصقاع.

وقد اهتم في مجالسه هاته بسرد الكتب التاريخية والأدبية، حتى كادت أن تكون مجالس أدبية صرفة، وقد ردد المؤرخون شغفه بهذه الكتب، وأجمعوا على أنه كاد أن يحفظها عن ظهر قلب، وأنه لم يشتغل بالعلوم الدينية إلا بعد أن تولى الملك، وأدرك أهميتها الشرعية والقانونية، وقيمتها المادية والمعنوية بالنسبة لسير الدولة، وتوطيد صرح الملك.

يقول الناصري (80) في هذا الصدد : "..... ولما فاته الإشتغال بفنون العلم في حال الصغر، اعتكف أولا على سرد كتب التاريخ، وأخبار الناس، وأيام العرب ووقائعها، إلى أن تمكن من ذلك، وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني من كلام العرب، وشعراء الجاهلية والإسلام".

---

(78) نصها الكامل بتاريخ الضعيف، ص : 113 .
(79) المصدر السابق، وص .
(80) الإستقصا، ج : 8 ص : 66 – 67 .

ويفصل لنا أحمد بن حمدون بن الحاج (81) ذلك بقوله : "..... قد كان أمير المؤمنين - قدس الله روحه وأسكنه من الجنان فسيحه - أيام خلافته بمراكش، مولعا بسرد كتب التاريخ والأدب، إلى أن امتلأ منها وبلغ الأرب، حتى كاد أن يحفظ ما في كتاب الأغاني من أشعار العرب والمولدين، ومن الوقائع والأخبار وغير ذلك، وأزال عن ذلك الأستار ".

وكان من أبرز علماء المجالس العلمية والأدبية : للأمير المولى محمد ابن عبد الله بمراكش -على عهد والده المولى عبد الله- : العالم الكاتب الأديب أبو جيدة الكتاني الأندلسي -من أولاد الكتاني العوام - وكان له صوت حسن، يرتل به في سرده لأي كتاب، وكان أولا في خدمة المولى عبد الله، ثم التحق بولده المولى محمد بن عبد الله بمراكش، حيث وجد ضالته المنشودة، فلزمه، وكان يسرد الكتب بالترتيل بين يديه في مجالسه المختلفة، إلى أن توفي بمراكش سنة 1180هـ (82).

وفي هذه الأثناء أبدى إعجابه بأحمد المنصور الذهبي، وحاول تقليده في أحواله الخاصة والعامة، بما فيها مجالسه العلمية والأدبية، وواكبه في حركاته ورحلاته وأسفاره. يقول الزياني في ذلك : ".... ولما استوطن مراكش -خليفة لأبيه- رفع إليه بعض طلبة مراكش تأليف الفشتالي، فكان يسرد عليه، ويحسن سيرة السلطان أحمد المنصور الذهبي في ترتيبه أمور دولته في الأكل واللباس، والندماء، والأطعمة، وطبقات الخدام والكتاب، وأهل الأشغال، ووظائفهم. وكل عمل له وقت مخصوص، وعوائد لا تتمزق.

فتبع سيرته في موكبه، ومنشوره، وحركاته وسكناته، إلى أن بلغ الغاية القصوى التي ما بلغها أحد من أسلافه رحمه الله".

---

(81) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. رقم : 1920 : ص : 189-190، والترجمانة الكبرى للزياني، ص : 30، والنهضة العلمية لابن زيدان، م.خ.م. رقم 3177، ص : 37، والحلل البهية للمشرفي، ص : 162 - 163، ودعوة الحق، ع : 234، ص : 6 سنة 1404هـ - 1984م، مآثر المولى محمد بن عبد الله، لأحمد بن شقرون .

(82) نشر المثاني، للقادري، ج : 4، ص : 250 .



الباب الثاني

الباب الثاني

المجالس العلميـة السلطانية بين 1171-1276هـ (1757-1859م) أو المجالس العلمية لسيدي محمد بن عبد الله، والمولى سليمان، والمولى عبد الرحمن

الفصل الأول : المجالس العلميـة على عهد سيـدي محمد ابن عبد الله: أنـواعها - مذهبها - نشـاطاتها على الصعيدين : الوطني والعربي الإسلامي -مؤلفاتها- علماؤها.

الفصل الثاني : المجالس العلمية على عهد المولى سليمان: تطورها وتنوعها بتطور وتنوع أعمالها على الصعيدين الداخلي والخارجي - مذهبها - كتبها - علماؤها.

الفصل الثالث : المجالـس العلميـة على عهـد الـمولى عبد الرحمـن، وتعـدد أنواعها وأعمالها بـالداخل والخارج -: مذهبها - كتبها - علماؤها.

الفصل الأول

المجالس العلمية على عهد
سيدي محمد بن عبد الله.
أنواعها - مذهبها - نشاطاتها على
الصعيدين: الوطني والعربي الإسلامي:
- مؤلفاتها - علماؤها



المجالس العلمية بين 1171-1276هـ - 1757-1859م
المجالس العلمية السلطانية على عهد سيدي محمد بن عبد الله - المولى سليمان - المولى عبد الرحمن

تمهيد :

سيدي محمد بن عبد الله : (1171-1204هـ - 1757-1790م).

كان سيدي محمد بن عبد الله ملكا مصلحا، أسدى لبلاده كثيرا من المكرمات، وحقق لها معجزات عديدة جمة، فاكتسى الاسلام في عهده حلة قشيبية من البساطة والصفاء.

فقد طهره مما علق به من البدع والضلالات والأوهام، وعاد به إلى صفاء ينابيعه الأصيلة الفياضة : الكتاب والسنة. فكان بدون منازع، نافخ روح النهضة العلمية والفكرية والاصلاحية في البلاد، وباعث أمجاد هذه الأمة، الذي جدد لها أمر دينها، كما قال ابن زيدان (1) :"هو الإمام الموهوب لهذه الأمة على رأس المائة، مجددا لها أمر دينها -كما ورد ذلك مرفوعا-".

وذلك في إطار إعداد وتهييئ التربة الخصبة والمناخ الملائم لأعمال مجالسه العلمية السلطانية، التي كانت لدولته بمثابة العمود الفقري، والروح من الجسد، باعتبارها المؤسسة الرئيسية لهذه الدولة، وأهم هياكلها، وبالتالي باعتبارها مجمعا علميا وقانونيا وتشريعيا للتنظير والتخطيط للمشاريع البناءة القيمة، التي تستهدف إصلاح جميع مرافق الدولة وقطاعاتها، وتنميتها، والنهوض بها في جميع مجالات الحياة، ولا سيما الثقافية والعلمية منها.

فقد جدد معالم الدولة العلوية، ووطد صرح كيانها على دعائم قوية متينة، تقوم على الموازاة والاتزان بين الشؤون الدينية والدنيوية، أفقيا وعموديا، في جميع مجالات الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، فحقق نوعا من التنمية الاقتصادية، والعدالة الاجتماعية، في نطاق

(1) الدرر الفاخرة، ص: 56، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 36.

التكـافل الضـمني. وتـوج كل ذلك بنهضــة علمية فكـريـة، شملت الحواضر والبوادي، وعمَّـت البلاد من أقصاها إلى أقصاها (2).

ولا غرو، فقد ولد وترعرع في بلاط جده المولى إسماعيل الذي كان يزخر بجهابـذة العلماء وفطاحـل الأدباء وفحـول الشعراء (3)، وفي كفالة جـدته العالمة خناثـة بنت بكار (4)، فأصبح واحـــدا من أولئك العلماء، وعمل على إحياء مفـاخر وأمجاد جـده المولى إسماعيل، بشـهادة كثير من علماء عصره، كـالعلامـة الحافظ أبي محمد عبـد السـلام بن الخياط القـادري في قولـه: "....وكان إماما من علماء الإسلام له تصانيف تقرأ بالمشرق والمغرب (5)". ويقول الزياني في نفـس المعنى :" كان نسابة إخباريا حـافظا لأيام العرب، ووقائعهـا، حافظـا للسير والحديث (6)"، وقولـه أيضا :" وكـان حافظـا يستحضر كل ما يطالعه، حتى كاد يحفظ كتاب الأغاني (7) ".

ذلك أن بيعته واكبت نشأة النهضـــة الغربية الحديثة، فـاستطاع بحكمته وتوازناته المدروسة أن يعيش قويا عزيزا مهابا على بعد أميال منها (8).

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى محمد بن عبد الله
1171–1204هـ - 1757–1790م

يعتبر سيدي محمد بن عبد الله، السلطان العلـوي الذي قعَّـــد المجالس العلمية السلطانية للـدولة العلوية، وأعطاها طـابعها النهائي التقليدي المتبع، الذي التزم به ملوك الدولة العلـوية بعده، وذلك من حيث جوهر مضمونها ومنهجيتها، وآدابها، وشكلهـا وزمانها ومكـانها وطقوسهـا.... مهما أدخلوا عليها من تعديلات جزئية، سواء بالزيادة أو النقصان في كل ذلك.

---

(2) دعوة الحق ع: 4، س: 10، ص: 31، 1386هـ–1967م، النهضة العلمية على عهـد العلويين لمحمد العلمي.

(3) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 9.

(4) المصدر السابق، ص: 12.

(5) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 56.

(6) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 63.

(7) المصدر السابق، وص، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.مخ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 37.

(8) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 9.

ولا أدل على ذلك من شهادة الزياني الذي يقول : " وهذه المجالس المحمدية كانت أساسا للمجالس الحديثية عند ملوك الدولة العلوية الشريفة بعده... فأصبحت المجالس الحديثية من العوائد الرسمية والسنن المرعية، للدولة، واستمر على ذلك الملوك من بعده (9) ".

كما اقتدوا به في اتخاذ أساطين الفكر المغربي شيوخا لهم، يأخذون عنهم، ويستنيرون بأفكارهم، ويقيمون ندوات، ومناظرات علمية وحديثية، يصطفون لها فحول الباحثين والمحققين من جميع أقاليم البلاد، مع التكفل بنفقاتهم في حلهم وترحالهم، خلال الأشهر الثلاثة : رجب، وشعبان ورمضان (10).

وكان يهتم بتكوين العلماء، وينتقي لمجالسه العلمية نبغاءهم، ويصطفيهم لنفسه، فيقربهم ويغدق عليهم العطايا والنعم، حتى يتفرغوا معه للبحث والدراسة، والاجتهاد والاستنباط في هذه المجالس، التي كان يترأسها بنفسه رئاسة عملية فعلية مباشرة، ويقودهم فيها، بعبقرية وذكاء ودهاء....

وفي ذلك يقول ولده عبد السلام (11) :"كان والدي نصره الله.... يجلب العلماء لحضرته السعيدة... فقد وسع أهل العلم إنعاما وإحسانا، وعطاء وامتنانا".

ويقول القادري في نفس الموضوع :" وكان يطعمهم بعد (12) الفراغ من صلاة الجمعة من أنواع الأطعمة المختارة المنتخبة".

وذلك أن هذه النهضة العلمية المباركة -التي كان هو قطبها ورائدها- قامت على أكتاف أئمة وجهابذة علماء عصره الذين قربهم، وشكل منهم مجالسه العلمية الخاصة والعامة وغيرها حسب مراتبهم العلمية وقدراتهم العقلية وآثارهم الإبداعية....

---

(9) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: هـ.

(10) دعوة الحق ع: 3، س: 11، ص: 64-96، 1387هـ-1968م الاسهام العلوي في خدمة العلم، لمحمد المنتصر الريسوني.

(11) دعوة الحق ع: 234، ص: 36، 1404هـ-1984م، دعوة لإحياء ذكرى وفاة سيدي محمد بن عبد الله، ودرة السلوك لولده المولى عبد السلام.

(12) يريد العلماء وأعضاء مجالسه العلمية، نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 123-124.

كما اتخذ منهم حاشيته وبطانته يرجع إليهم ويستشيرهم ويستعين بآرائهم على ما ندب إليه نفسه، وكان بصدده من تجديد الدولة، وتعديل قوانينها وأحكامها، ووضع برامجها ومناهجها بجميع ميادين الحياة، وقطاعات المجتمع، ومرافق الدولة.

فقد كان بدوره عالما نحريرا، و"على قدر ذوي العزم تأتي العزائم". يقول القادري عن ثقافته ومكانته العلمية :".... فكان نصره الله –في سائر العلوم– بحرا لا يجارى، وفي التحقيق لايبارى. وقد جمع من المعارف والمعالي ما أبقى به العلماء دونه، فكملت له بذلك شموسه وأقماره، فكان من منة الله تعالى على العباد، وأحيى به الدين في الأرض والبلاد، مع فرط الكرم والجود المتوارث.... فهو عالم الشرفاء، وشريف العلماء أو الخلفاء بعد الأربعة الراشدين (13)".

وفي هذه المجالس كان يقبل على علمائها وعلمهم بنهم، فيطيل مجالستهم، ومفاوضتهم (14) في القضايا التي يطرحها عليهم. ولا سيما في علم الحديث النبوي الشريف، الذي كان يكثر من المجالس العلمية الخاصة به، ومن سرد كتبه المختلفة (15) –بإجلال وتعظيم– ومن تحقيق معانيه، واستنباط أحكامه، وكذا من إتقان علومه ومصطلحه، وكل ما يتعلق به : متنا ورواية، وجرحا وتعديلا، ورجالا... وبالتالي في دراسته ورفعه وإسناده، والاجتهاد فيه، وتوظيفه في الإصلاح، إلى غير ذلك، مما كان أهمله في مطلع شبابه.

كما كان يدرس في مجالسه بقية العلوم الدينية الأخرى، كالتفسير، وعلوم القرآن المختلفة، التي يجب على المفسر أن يلم بها كلها، كالقراءات، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمكي والمدني من سور القرآن الكريم، ومراحل جمع القرآن الكريم، وغير ذلك. زيادة على الفقه وفروعه ومذاهبه المختلفة، وآراء أئمة مذاهبه، وعلم الأصول...

---

(13) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 125.

(14) تاريخ الضعيف، ص: 165.

(15) الحلل البهية للمشرفي، ص: 158–159.

وقد ندم على أنه لم يهتم بهذه العلوم منـذ صغره وشبابه، حتى يتمكن منها، وتحصل له ملكتهـا، فكان يعبر عن ندمه جهـارة، ويعلنه في مجالسه العلمية الحديثيـة، مما يـؤكده النـاصري على لسانـه :"..... وكان كثيرا مـا يتأسف أثناء ذلك -مجالس الحديث-، ويقول : "والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة "، ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب".

إذ كان في شبابـه -بمجالسه الأميرية بمـراكش -معتكفا على سرد كتب التاريـخ. والأدب، وأخبار الناس، وأيـام العرب وأنسـابها. حتى بلغ الغـاية القصوى في ذلك، وحتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني -كما مر بنا- (16).

لذلك ما إن تمت بيعته حتى شعر بحاجتـه الملحة إلى معرفة هذه العلوم وإتقانها، وعرف قيمتهـا وأهميتها، سواء بالنسبة لسير الدولـة، أو بالنسبة للحركة الإصـلاحية الشاملة التي كـان يريد القيام بها كـرد فعل لمعايشته المريرة للفترة المتأزمة وعهـد الاضطراب -في طفولته البـاكرة- الحالك الذي كاد يطيح بصرح الـدولة العظيمة، التي شيدها جـده المولى إسماعيل، فعقد العزم على تجديد معالمها وإحياء أمجادها.

فقد شمر منذ اليوم الأول لتحقيق أهدافه السامية، وبدأ من أول السلم، إذ توجه رأسـا إلى تشخيص مصدر الداء، من الأوضاع الفـاسدة، والقوانين والأنظمـة المتجـاوزة، والأحكـام العرفيـة البـاليـة، والبـرامج والمناهـج العقيمـة.

ولم تشغله عن أهدافه السامية، وإصلاحاته الجريئة الشجاعة -خاصة بالنسبة لوقته- لا أعباء الملك، ولا مشاغل الدنيا ومغرياتها، ولا ملاذ الحياة الزائفة، ولا غـرائز وأهواء الشباب الجامحة، بل كرس وقته وعقلـه وشبابه وإمكانياته الطائلة لخدمة أهدافه النبيلة، ومصالح أمته وشعبه، التي جعلها نصب عينيه، وفوق كل اعتبار.

وسرعان ما اهتدى إلى الدواء الكفيل بـالإصلاحات الجذرية المتوخاة، ألا وهـو الرجـوع إلى الكتـاب والسنة، والعمل على تـدريسهما، ونشرهما على أوسع نطاق، وعلى استنباط أحكامهما مباشرة.

---

(16) الحلل البهيـــة للمشرفي، ص: 162-163، ومقـدمـة الفتـوحات الإلهيـة، لـرشيـد ملين، ص: و-ف-ن-لا، هـ، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 25.

ويؤكد لنا ذلك أكنسوس قائلا :".... ولما ولاه الله أمر المسلمين -بعد موت والده- زهد في التاريخ والأدب -بعد التملي منهما- واشتغل بسرد كتب الحديث والبحث عن غريبها.... ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم، ورتب لذلك أوقاتا مخصوصة مضبوطة لا تنخرم (17)".

ويؤكد لنا المشرفي ذلك بقوله :".... ثم زهد في التاريخ والأدب -لما تولى الخلافة- وصرف همته للعلوم الشرعية، ومجالسة أهلها، ورتب لذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم (18)".

من هذه المنطلقات كلها بادر لاستدراك ما فاته منذ اليوم الأول لبيعته، حيث شرع في انتقاء علماء مجالسه العلمية وتكوينها، باعتبارهم نواة كل إصلاح وأداته، وباعتبار أن المجالس العلمية مصدر ومنبع ومركز لإشعاعه ومداره....

ومما يؤكد لنا ذلك قول أكنسوس (19) :".... لما دخل فاس -بعد مبايعته- كان كلما صلى الجمعة بفاس الجديد جلس مع العلماء والفقهاء، وسأل عنهم واحدا بعد واحد إلى أن عرف أعيانهم -بأسمائهم وصفاتهم- ". وذلك حتى يختار كلا منهم لما يصلح له من أنواع مجالسه المتوخاة وأعمالها الجسيمة المبتغاة من اجتهاد واستنباط وتأليف واستفتاء....

ولعله كان يعرض عليهم برامجه ومشاريعه الاصلاحية قصد إغنائها وإثرائها بآرائهم وملاحظاتهم واقتراحاتهم، في إطار عمل جماعي موحد، حتى يوقعوا معه ميثاقا للإصلاح العام الشامل الذي يطمح إليه ويسعى إلى تحقيقه بحزم وعزم وثبات.

ويؤكد لنا ذلك المشرفي (20) قائلا :" بويع بمراكش، ثم ورد على فاس.... ولازال بها خاصا العلماء بالمجالسة والمفاوضة في العلم، إذ كان رحمه الله في العلوم بحرا لا يجارى، وفي التحقيق والمعارف لا يمارَى

---

(17) الجيش العرمرم، ورقة : 106و 135-136.

(18) الحلل البهية، ص: 159-160.

19) الجيش العرمرم، ورقة : 113، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 5، ونشر المثاني للقادري، ج: 4، ص: 123-124.

(20) الحلل البهية، ص: 158-159.

لا سيما علم الحديث. كانت له عناية كبيرة بسرد كتبه وتحقيق معانيه ومزيد إجلاله وتعظيمه".

ويلخص لنا الزياني ذلك بقوله (21) :"كان يعقد مجلسه كل يوم جمعة في جامع الكبير يحضره جلة العلماء الذين قَرَّبهم".

وكان يبالغ في تعظيم العلماء وتبجيلهم وإكرامهم والإنعام عليهم، ولم يلبث أن رتب لهم (22).... زيادة على صلاتهم في كل عيد.... "، فقد "كان كريما يعطي عطاء من لا يخاف الفقر" (23).

وذلك تمهيدا لتنمية الأجواء الثقافية وإنعاشها وتنشيطها، وتأليفا لقلوب العلماء، وتشجيعا لهم على مرافقته وملازمة مجالسه عن طواعية واختيار، حتى ينعكس رضاهم على أعمالهم، فيكون عطاؤهم وإنتاجهم في المستوى المطلوب.

أنواع المجالس العلمية السلطانية لسيدي محمد بن عبد الله :

تعتبر المجالس العلمية التقليدية الرمضانية التي كان يقيمها سيدي محمد بن عبد الله خلال شهر رمضان الأبرك أصلا لجميع الأنواع والأشكال والنماذج للمجالس التي تفرعت عنها، وتعتبر تطورا وامتدادا لها.

فكان يحيي ليالي هذا الشهر المعظم بعقد المجالس العلمية التي كان يفتتحها بالقراءة والذكر، قبل أن يشرع في سرد صحيح الإمام البخاري -غالبا- أو غيره من أمهات كتب الحديث -أحيانا- أو غيرها من المصادر الدينية نادرا.

غير أن مجالسه العلمية الرمضانية هذه كانت لازالت في عهده تمثل مرحلة تمهيدية لهذه المجالس التي لم تستقر عادتها المتبعة، ولم تأخذ شكلها وطابعها التقليدي المتوارث إلا على عهد المولى سليمان كما سيأتي.

ورغم أن المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية اتخذت في عهد سيدي محمد بن عبد الله طابعها التقليدي المرحلي من حيث أبعادها

---

(21) الترجمانة الكبرى، ص: 18.

(22) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 70، ونشر المثاني، للقادري ج: 4، ص: 123-124.

(23) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 163-171.

وأهدافهـا، وتقاليدهـا وخطوطها العـريضة بصفة عـامة، فإن ذلك لم يمنع تنوعها وتطورها، سـواء من حيث شكلها أو مضمونها، بحكم سنة التطور والارتقاء الذاتية الأزلية والسرمدية.

ويمكن حصر هذه الأنواع -على اختلافها- في نوعين رئيسيين : المجالس الخاصة، والمجالس العامة، زيادة على المجالس الأدبية.

- المجالس العلمية السلطانية الخاصة :

المقصود بـالمجالس العلميـة الخاصة، تلك المجـالس العلمية الاجتهـادية الساميـة، التي كان سيدي محمد بن عبـد الله يعقدها يـوم الجمعة من كل أسبوع، في جـامع الكتبية (24)، على أعلى مستـوى علمي، مع كبـار الأئمـة والشيـوخ من العلماء الـذين رفعهم إلى جـانبـه في مـوقع اتخاذ القـرار، كمستشـارين في الشـؤون والقضايا المصيرية والحيـوية للدولة، كـالاجتهاد والتشريع، والتنظير والتخطيط، فاتحا بذلك باب الاجتهاد على مصراعيه، مما يعتبر منقبة، وسابقة إيجابية للمغرب وملكه.

وكان يعقد هذه المجالس الخاصـة دوريا كل جمعة، في مقصورة الجامع بمـراكش أو غيرها من العـواصم، التي كان يقيم فيهـا بالتنـاوب والتراوح، خلال أيام السنة وفصولها.

وكـانت تحضر تلك المجالس الصفـوة المختـارة من كبار العلماء، الـذين كانوا يرافقونه في حله وتـرحاله، والذين حرص على اختيارهم وانتقائهم من جميع أنحـاء المملكة بـالحواضر والبوادي، حتى تكـون ممثلة لجميع الأمـة، تحقيقا لمبـدأ تكافؤ الفـرص لجميع أفراد شعبـه، فكان هذا المجلس بمثـابة برلمان أو مجلس استشـاري مصغـر، أو مجمع علمي أكاديمي وطني، وكان هذا المجلس ينكب على دراسة نصوص الأحاديث النبوية الشريفة، ووضعها على محك البحث العلمي المنطقي المجـرد، بالمذاكـرة حولها، وتفهم معـانيها ومبانيها، وأبعادها وأهدافها (25)، والنقاش حولها بتجاذب أطراف الحديث،

---

(24) الاستقصـا للنـاصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتـاب، ودعـوة الحق، ع: 246، ص: 164، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(25) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

الذي قد يجر إلى إدخال علوم أخرى، فتـدور بدورها في فلك المحور الرئيسي لهذه المجالس الخاصة، ألا وهو الحديث النبوي الشريف.

وإذا تتبعنا أقوال الباحثين والمؤرخين في الموضوع، نجد أنهم أجمعوا على رأي واحد مهما اختلفت صيغتهم وأسلوب تعبيرهـم، كما اتفقوا في التعريف بهذه المجالس الخاصة، وتحديد أبعادها وأهدافها، القريبة والبعيدة.

ولا بأس من استعراض أهم هـذه الآراء، مع التعليق، والتحليل والتعليل، والمقارنة، ومحاولة استخلاص رأي موحد، يكون قاسما مشتركا بينها كلها.

ونبدأ بشهادة الزياني (26) الذي يقول : "…. وكان بعـد صلاة الجمعة يجلس بمقصـورة الجامع، مع فقهاء مـراكش، ومن يحضر عنـده من علماء المغرب الوافدين على حضرته، فيذاكرهم في الحديث، وفقهه ومعانيه".

ويفصل لنا ذلك المشرفي (27) قائلا :"…. لما تولى الخلافة، صرف همته للعلوم الشرعية، ومجالسة أهلها، ورتب بذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم".

ويؤكد لنا الناصري (28) ذلك بقوله :"…. جمع العلماء الكبار من أنحاء المغـرب، واختـار منهم جماعة لمجـالستـه ومـذاكرتـه في الحديث النبـوي، وخصص لذلك أوقاتا مضبوطة لدراسة كتب الحديث دراسة استيعاب".

ويفصل ولده عبد السلام (29) ذلك، ذاكرا بعض العلـوم الأخرى التي كانت تدرس في هذه المجالس، زيادة على موضوعها الرئيسي الحديث النبوي الشريف، فيقـول : "… وكانت عنده أوقـات خاصـة لسرد كتب الحديث مع علماء كبار، اختـارهم لمجالسته ومسامـرته، وفي غالب الأحيـان يتعرض في مـذاكـراته معهم إلى طـرح مشكـلات في الحديث أو في السـيرة، أو في علـوم العربية، فيفض -بفكره الثاقب- عويصها، ويحل مشكلها."

فهذه المجالس العلميـة الخاصة لسيدي محمد بن عبـد الله، كانت -كما يتضح من هـذه الأقـوال لكبار الباحثيـن والمؤرخين- بمثـابة مجمع علمي

(26) البستان الظريف، ص: 117، م.خ.ع، بالـرباط، رقم : 1577، ومقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.

(27) الحلل البهية للمشرفي، ص: 162-163.

(28) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 18.

(29) في كتابه اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار.

أو ندوة علمية يجتمع مع أعضائه بانتظام حيث تدور المذاكرات العلمية، والمناظرات الفكرية...

وقد اهتم فيها بتأليف وترتيب الأحاديث النبوية الشريفة حسب فهم خاص به، يواكب مخططاته، وبرامجه، ومشاريعه التي كان لها تأثير كبير، حيث نشطت في عهده الحياة العلمية بصفة عامة، فانتشر العلم، وكثر العلماء، من فقهاء، ومحدثين ومفسرين، وأدباء ومؤرخين وغيرهم، بفضل هذه المجالس التي تحررت من الجمود والقيود.

وكانت أعمال هذه المجالس متسلسلة، يفضي بعضها إلى بعض، بحيث لا يستأنف المجلس عمله، حتى يستخلص نتائج المجلس الذي قبله، ويوظفها فيما استنبطت واستخرجت من أجله من الغايات : التشريعية والتنظيمية وغيرها.

وقد تطورت هذه المجالس العلمية الخاصة بدورها من حيث منهجيتها. ففي المرحلة الأولى، كانت مجرد مجالس لدراسة الحديث، وتفهمه واستيعابه، واستنباط غرر أحكامه وآدابه المتعلقة بالعبادات والمعاملات، في سائر ميادين الحياة لكنها لم تلبث أن أصبحت - إلى جانب ذلك - مجالس للتأليف والتصنيف في الحديث، حسب مذهب خاص، ومنهجية محددة - من ابتكار واجتهاد سيدي محمد بن عبد الله، وضعها في إطار برنامجه الإصلاحي العام الشامل.

ومرحلة التأليف والتصنيف هذه جاءت بعد أن تمت له الملكة العلمية، وتبحره في العلوم الدينية والشرعية، إلى جانب الملكة الأدبية واللغوية، التي كان يملك أعنتها قبل بيعته واعتلائه العرش، أيام خلافته عن والده بمراكش وسوس، في مجالسه الأدبية واللغوية والتاريخية وغيرها.

وإذا كانت بداية هذه المجالس العلمية الخاصة للمولى محمد بن عبد الله، بمجرد بيعته وتحمله مسؤولية الأمة الجسيمة أمام الله والناس أجمعين. فإن ذلك يؤكد مدى استشعاره بثقل الأمانة الملقاة على عاتقه، وبالتالي مدى كفاءته وجدارته، وأهليته لتحملها.

ذلك أنه كان يترأس هذه المجالس علميا وعمليا، وهو الذي يتولى تذليل الصعاب التي كانت تعترض عملية الدراسة والبحث العلمي والمنهجي، بعلمه

واضطلاعه الواسع، وبقدراته الفكرية، وطاقاته العقلية الفطرية، وملكته وحنكته العلمية المكتسبة بالتمرس والاستمرارية، والمواظبة الدائبة.

حتى أصبح يجيز العلماء ويستجيزهم، شأن الأئمة الأقطاب الكبار(30)، كإجازته، للشيخ سليمان الفشتالي، ولأبي القاسم الزياني، ولولده المولى سليمان(31)....

وفي هذا الصدد يقول الناصري (32) : "..... ولما ولاه الله –بعد والده– زهد في التاريخ والأدب –بعد التضلع فيهما– وأقبل على سرد كتب الحديث، والبحث عن غريبها، وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب رحمه الله لذلك أوقاتا لا تنخرم".

ويقول صاحب الدر المنتخب (33) في هذا المعنى : "..... ولما قلده الله أمر المسلمين، ترك ذلك –التاريخ والأدب وأمثالهما– وأولع بكتب الحديث والسير، وجلب المحدثين من فاس ومكناس ومراكش، لهذا الأمر المعتبر".

وهذه الآراء رغم تشابهها، فإن كلا منها يطلعنا على جانب من جوانب هذه المجالس العلمية الاجتهادية العتيدة للمولى محمد بن عبد الله.

ذلك أننا نستنتج من الدر المنتخب مثلا، أن هؤلاء العلماء المجتهدين كان أغلبهم من العواصم الكبرى : فاس ومكناس ومراكش، وأن الدراسة والبحث كانت تتناول كتب السيرة النبوية العطرة أيضا، وذلك للعلاقة التي تربط بينهما، وللتداخل المستحكم بين موضوعاتهما. فالسيرة النبوية لدارس الحديث النبوي الشريف، هي بمثابة أسباب النزول لمفسر سور وآيات القران الكريم.

كما تشعرنا بأهمية هذه المجالس، وقيمة وجلال أعمالها بالنسبة للدولة، ومصالح الأمة على السواء.

فقد عمل من خلالها على تجديد الدولة، وتوطيد كيانها وخدمة مصالح الأمة : الدينية والدنيوية.

---

(30) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 17.

(31) النهضة العلمية، لابن زيدان.م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 33.

(32) الاستقصاج: 8، ص: 66–67، ومساند الأئمة لسيدي محمد بن عبد الله تحقيق الفريد البستاني 1941م منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية السلسلة الأولى رقم : 3.

(33) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م، بالرباط، رقم 1920، ص: 190.

وسـار في حركتـه الإصلاحيـة على خطة رشيـدة، مستهدفـا أن يشمل الاصلاح المنشود جميـع مناحي الحياة، في إطار السنـة والجماعة، والسلفية الأصيلة، التي من شأنها بعث أمجاد عصر صدر الإسلام الخالدة.

وكـرس وقته الثمين لإنجـاز برامجه ومشـاريعه ومخططـاته الجريئـة الطموحـة التواقة، معتمـدا في ذلك –بعد اللـه تعالى– على عبقريتـه الخلاقة، وعلى تلك النخبة والصفوة من العلماء الأجلاء، ونبوغهم وإبداعهم....

واهتمامـه بالحديث النبـوي الشريف، أكثر من غيره من العلـوم الدينيـة الأخـرى، يرجع إلى أنـه المصدر الثـاني للشريعـة الإسلاميـة –بعد القـرآن الكريم– وباعتباره –في جملتـه– يشتمل على تشريع متكامل ومتزن للحياة، جامع لخير الدين والدنيـا، والبلاد والعباد، دون إفراط ولا تفريط، ولا ضرر ولا ضرار. أضف إلى ذلك أن مجال البحـث في الحديث مجال رحب، وخـال من الحواجز المادية والمعنوية والنفسية.... باعتباره كلام إنسان بشر ونبي لا ينطق عن الهوى، رغم الخوف والحذر من ولوجه، لـوعيده ﷺ: "من كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار (34) ".

وذلك بالنسبـة لمجال البحث في علم التفسير الشائك، المحفوف بـالرهبة والمخاطر، والمحاط بهالة من التقـديس، والمملوء بعدد من الحواجز : النفسية والدينيـة واللغوية، ابتـداء من الغيبيات، ومرورا بالمسلَّـمات، وليس انتهاء بالآيات المحكمة والغير المحكمة، والناسخة والمنسوخة....

وكان معجبا بالمنصور الذهبي السعدي أيَّـما إعجاب، ويقلده في كثير من عادات وتقاليد ملكه، ولا سيما مجالسه.

والواقع أن المنصور الذهبي نفسـه كان يقلد الأتراك في كل ذلك، بل وفي جميع أمور دولته، ولا سيما تنظيم الجيش، وهو مـا أتاح له الانتصار على ملك البرتغال "سبسطيان"، الـذي جاء للمشاركة في مـوقعة وادي المخازن الخالـدة، منـاصرة وتـدعيما لابن أخي المنصـور الـذهبي، محمـد المتـوكل –المسلوخ–.

كما كان مثلـه الأعلى في الحياة والملك، جـده المولى إسماعيل، الـذي كان معجبا بـه، ويحتـذي حـذوه، لاحتكاكـه به عن كثب. فقد تربى في أكنـافه،

---

(34) مسند الإمام الربيع، من رواية عبد الله بن الحارث.

وفي كفالـة جدته العـالمة الفقيهة -خناثـة بنت بكار-، لذلك قلـده في عظمته وجلائل أعماله، ثم شمر لتجديد دولته، وإحياء مفاخرها، وبعث أمجادها.

وإذا كـان قـد اقتفى أثـر جـده المولى إسماعيل في جـوانب كثيرة من شخصيتـه وسلوكـه، وأعماله وأقـواله، فإن تأثير المنصـور السعدي عليـه يتجلى في المجـالات العلمية والثقـافية، ولا سيما في مجالسـه العلمية، سـواء الخاصة منها أو العامة، وسواء كانت في ظعنه أو إقامته، في حله وترحاله.

وذلك من حيث منهجيتها، وهيئتها، وتقاليدهـا غالبا، وكان يصرح بذلك جهارة، ولا يجد فيه غضاضة، كقوله :" وهو أستاذنا في هذه الأمور" (35) وهذا لعمري منتهى التواضع والعظمة.

بل إننا نجدها مطابقة لها ومقتبسة عنها، إذ كان يحذو حذوها من حيث شكلها وهيئتها -كما ذكر-، وكذا من حيث برامجها وزمانها، وحتى مكانها أحيانا، حسب ما رواه أكنسوس (36) في جيشه :" لما ظفر بتأليف الفشتالي المترجم بمنـاهل الصفا، أعجب بـه وبأخبـاره، وخصوصـا أخبار المنصـور الذهبي، فإنه كان يستحسن أحوالـه في الركوب، والأكل واللباس، والأطعمة، وطبقة الكتاب، وأهل الأشغال المخزنيـة، وكل شيء جعل له وقتا مخصوصا وحدا محدودا، لا يتعدى شيء مركزه".

ويؤكد الزياني (37) بدوره هـذا التقليد بقـوله :".... ولما ولاه اللـه أمر المسلمين -بعـد مـوت والـده-.... اشتغـل بسرد كتب الحديث، والبحث عن غريبهـا، وجلبها من أماكنهـا بالمشرق، ومجالسـة العلماء، والمذاكرة معهم. ورتب لـذلك أوقاتـا مضبوطـة لا تنخرم، على عـادة المنصور، في أوقـاتها، حسب ما هي في سوقه عند الفشتالي في المناهل، حتى إنه كان -رحمه الله- لما يخرج للنزهة أو لزيارة في فصل الربيع، أوللصيد، يقيم عليه الستة أيام، إلى أن يأتي لصلاة الجمعة، فلا ينزل إلا في منازل المنصور، التي كان ينزل بها وقت خروجـه للزيارة بـأغمات، وللصيد بوادي نفيس، ويقـول :" هذه منازل المنصور -رحمه الله- وهو أستاذنا ومقتدانا".

---

(35) البستان الظريف، للزياني، ص: 117.

(36) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 106.

(37) البستان الظريف، للزياني، ص: 117، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 125.

وبالجملة فقد كان معجبا بالملوك العظام، ويحب تقليدهم، سواء من أسلافه أو غيرهم (38).

وهذه نماذج للمجالس العلمية الخاصة التي كان يعقدها سيدي محمد ابن عبد الله مع أئمة العلماء الكبار، الذين اختارهم لذلك بمقصورة جامع الكتبية بمراكش، بعد صلاة الجمعة. اللهم إذا كان في سفر، أو، رحلة. أو زيارة، أو حملة، فإنه يعقدها حيثما تأتي، دون توقف ولا مماطلة.

1- "فقد كان سيدي محمد بن عبد الله في زيارة لمكناس سنة 1171هـ(39)، فاستدعى العلماء أعضاء مجالسه العلمية الخاصة كعادته، وبعد صلاة الجمعة، عقد لهم مجلسا علميا للمذاكرة في العلوم الشرعية : القرآنية والحديثية والفقهية وغيرها، وفرق عليهم خلال ذلك ملفات لجدول أعمال الجلسة، والأدوات والوثائق الضرورية لها.

وبعد مباحثات ومناقشات علمية حول موضوع الزكاة، أمر برفع الجلسة، وأقام لهم حفلة عشاء فاخرة، ثم أنعم عليهم بصلات سنية، وأمرهم أن يقدم له كل واحد منهم رأيه في الموضوع كتابة.

وبعد ذلك أذن لهم في الانصراف، على أن يأتوه يوم الجمعة الأولى من كل شهر(40).

كما عقد لهم مجلسا علميا آخر -بعد عودتهم يوم الجمعة المذكورة- بداره من فاس الجديد، حيث وزع عليهم ملفات بجدول أعمال الجلسة، ووثائقها، وتدارس معهم موضوع الزكاة المطروح للبحث، وكيفية جمع الزكوات والأعشار، وطريقة دفعها، وما يجوز دخوله إلى بيت المال من الأموال.... فاجتهدوا في ذلك، وبذلوا جهد طاقتهم في الحوار والجدال بين يديه، ثم قدم له كل واحد منهم دراسة كتابية وافية حول الموضوع. تنفيذا لتعليماته السامية. ولم يلبث أن ضمها إلى بعضها، وشكل منها كتابا واحدا في الموضوع.

ثم صرفهم بعد أن بالغ في البر بهم والاحسان إليهم كعادته (41).

---

(38) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 145.

(39) بمجرد توليته.

(40) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 132.

(41) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م، بالرباط، رقم : 1920، ص: 45-46، ونشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 130-131.

2 – ويصف لنا القادري (42) أحد هذه المجالس قائلا : "..... دخل فاس –على حين غفلة من أهلها–.... ثم استدعى العلماء لمحلته، فجمعهم قاضي فاس عبد القادر بن العربي بوخريص الكاملي، وعددهم أربعة وعشرون، ومراتبهم على ثلاث طبقات. فجلسنا معه، فذاكرنا في أنواع العلوم، كل واحد في فن مهر فيه، فكان نصره الله في سائر العلوم بحرا لا يجارَى، وفي التحقيق لا يبارى".

ومن خلال هذه المجالس كان يختبر العلماء واحدا واحدا في صلب اختصاصهم، لتصنيفهم، واختيار صفوتهم في كل اختصاص، وإلحاقهم بمجالسه العلمية الخاصة، وداخل الخلية التي يمكنه العطاء في إطارها.

أما منهجية العمل داخل هذه المجالس، فكانت تقوم على طرح المحاور للدراسة والبحث والمناقشة في موضوعاتها، لإغنائها وإثرائها بالعروض المختلفة، للمتدخلين من العلماء أعضاء المجلس، حيث يفرغ كل واحد منهم في تدخله خلاصة خبرته وتجربته، وكل ما لديه في ذلك الموضوع، ثم بتقديم المذكرات الكتابية المركزة الخاصة، من طرف كل واحد منهم.

تلك المذكرات التي أصبحت –بعد أن تكاثرت وتنوعت وتشعبت– نواة للمؤلفات التي أصدرتها هذه المجالس زيادة على المؤلفات التي كلف السلطان أعضاء مجالسه العلمية بتصنيفها، فرادى أو جماعات.

3– ومما يؤكد أنه كان قد وضع برنامجه الإصلاحي، وحدد مخططاته ومشاريعه وأهدافه، بمجرد توليته، وسعى سعيا حثيثا لتنفيذه من خلال مجالسه العلمية، وبواسطة علمائها المختارين، قول الناصري، واصفا لهذا المجلس : « بعد بيعته، انتقل إلى فاس، حيث حضر الجمعة بفاس الجديد في نظام (43) بديع، وزي عجيب، وجلس للفقهاء، وعرفهم واحدا واحدا ».

---

(42) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 125.

(43) الإستقصا للناصري، ج :8، ص : 53–54.

4- وهـذا نموذج، ووصف حـي، لأحد المجـالس (44) العلمية الخاصة لسيـدي محمد بن عبـد اللـه، الـذي عقده سنـة 1172هـ، وكـان يستهدف التشريع - واختلف حول مكانه هل كان بفاس أو بمكناس.

وقـد حضره العلماء السـادة : القاضي عبـد القـادر بـوخـريص، وشيخ الجماعة السيد محمد جسوس، ومولاي عبد الرحمن المنجرة، والسيد محمد ابن عبد الصادق، والسيد عمر الفاسي، والسيد التاودي بنسودة.

وكان جدول الأعمال يتمحـور حول : مدى إمكانيـة الإنفاق على الجيش من الزكاة.

وقد افتتح السلطان سيدي محمد بن عبد الله الجلسة بنفسه، وأعلن عن جدول الأعمال المذكور، وطلب منهم البحث في مـدى إمكانية ذلك، معلنا لهم بأنـه يطمح للسير في حكمـه على نهج الخلفاء الـراشـدين المهديين، وتعهـد أمامهم بذلك.

وأعطى الكلمة للعـلامة محمـد جسوس، الـذي أوضح أن نفقة الجيش، ليست من مصارف الزكاة.

وأخذ الكلمة العلامة سيدي عبـد الرحمن المنجرة، الذي زكى رأي محمد جسوس، وأكد ذلك بالحجج والنصوص الدامغة.

وعقب على كلامه الشيخ التاودي بنسودة، معلنا ومؤكدا أن نفقة الجيش وراتبه تؤخذ من بيت المال.

فاهتم به السلطان، وفسح له إلى صدر المجلس.

وبعد أن تعرف عليه السلطان، أذن له في الكـلام، وإعادة ما قاله، فأعاد كلامه، موضحا أن نفقة الجيش وراتبـه تؤخذ من بيت المال. وإن لم يوجد، فذلك واجب على سـائر الرعيـة والمسلمين. فقال لـه السلطان : « أحسنت » وأمر جميع العلماء الحاضرين، بأن يكتب كل واحـد منهم رأيه في الموضوع، على شكل بحث علمي، ويقدمـه كتابة، بعـد أن يؤيده بـالنصوص والحجج والشواهد اللازمة. ثم رفع الجلسة.

وتـردد العلماء في الأمـر، وتماطلوا في الجواب، فجمعهم القـاضي، وأخـذ منهم البحوث التي كتبـها كل واحـد منهم حـول الموضوع، فوجـد أن كلا

---

(44) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. بالرباط، رقم 1920، ص : 67.

من محمد جسوس، وعبد الرحمان المنجرة، قد كتب باب الزكاة ومصارفها، ولم يتعـرض لنفقـة الجيش، مطلقـا، وأن ابن عبـد الصـادق قـد تغيب عن حضور الإجتماع، ولم يقدم أي بحث.

أما التـاودي بنسودة، فكتب بحثـا على أساس رأيـه الأول، ومفاده : أن السلطان إذا عجز عن عطاء الجيش ومرتبه فإن إعالة الجيش وراتبه تصبح واجبة على سائر المسلمين، شريطة العدل وعدم الحيف.

وقـد اعتمـد في ذلـك على مـا أجـاب به علـمـاء الأندلـس يوسـف ابن تـاشفين، لما سألهم قـائلا : « إذا لـم يكن هنـالك بيت مـال، فمن أين تكون إعالة الجند » ؟ فقالوا: « تفرض في أموال المسلمين، فأمرهم أن يكتبوا له ذلك، ففعلـوا، إلاقاضي المرية محمـد بن يحيى بن البراء، الذي امتنع، ولما عـاتبه يـوسف بن تـاشفين على ذلك، أجابـه كتـابة في الموضـوع بما يبرر موقفه.

وفرح القاضي بجواب بنسودة قـائلا : " أخرجتنا من العهدة "، وخرج الشيخان: جسـوس والمنجرة مغـاضبين. (45) فكتب القـاضي الجوابين في محضره، وأرسل البحثين إلى السلطـان، الـذي تبنى رأي ابن سـودة، ونفذه(46).

لكنـه دمجه في بقية الأجـوبة. الموقعـة من طـرف سائر العلماء أعضـاء المجلس المذكور حـول الموضوع، وكون من تلك البحـوث كلها مؤلفـا واحدا اعتمده، فوظف على الأبواب والسلع، على أساسه (47).

---

(45) الـدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م. بـالـربـاط رقم : 1920، ص:70-67، والإستقصا، للناصري، ج :8، ص :7-9، ونص الفتوى ووصف المجلس كله بنفس المصدر، وج، وص، ومسانـد الأئمة تحقيق الفريـد البستاني، ص : 13، منشورات مؤسسة فـرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، السلسلة الأولى، رقم :3، سنة 1941.

(46) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.م.بـالرباط رقم : 1920، ص:70، والإستقصا، للناصري، ج :8، ص : 7-9، ووصف هذا المجلس كله بنفس المصـدر، وج،وص. ومساند الأئمة تحقيق الفريد البستاني، ص:13،منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، السلسلة الأولى، رقم :3، سنة 1941.

(47) البستان الظريف للزياني، ص : 102، والجيش لأكنسوس، ورقة : 120.

5 – ومن المجالس العلمية الخاصة المتعلقة بالتشريع التي عقدها سيدي محمد بن عبد الله، مجلس حول قضية ترحيل أهل الرباط (48).

ذلك أنه استفتى العلماء أعضاء مجالسه الخاصة في ذلك، فأفتوه بالإيجاب –حسب إرادته–

إلا أن العلامة التاودي بنسودة خرج عن إجماعهم، وأفتى؛ "بأن من نزل أرضا إحدى عشرة سنة، صارت ملكا له، وبأن الأمير لا يرث ما بناه الأمير".

وكان هدفه من هذه الفتوى، الاحتراز من أن يقيس السلطان على هذه الفتوى، ويفعل ذلك بأهل فاس، فغضب عليه السلطان وعزله.

ويظهر أن الشيخ التاودي بنسودة –رحمه الله– كان مولعا بمخالفة العلماء الاخرين في فتواه سلبا أو إيجابا، عملا بالمثل السائد "خالف تعرف".

6 – كما استفتى العلماء في قضية المكس (49)، فأفتوه حسب الشريعة الاسلامية، فاعتمد فتواهم، وصار يأخذ المكوس على الأبواب والأسواق، وجميع السلع والغلل (50).

وكان ذلك في مجلس من مجالسه الخاصة بالتشريع، وبحضور جميع العلماء أعضاء مجالسه العلمية السلطانية الرسمية الخاصة، وبموافقتهم وتوقيعهم.

7 – ومن النماذج الحية الفريدة من نوعها لهذه المجالس العلمية الخاصة، المتعلقة بالتشريع، المجلس الذي عقده سيدي محمد بن عبد الله، حول قضية خاصة للغاية، وعامة جدا، ألا وهي قضية عزل ولده اليزيد من ولاية العهد سنة 1203هـ، حيث أشهد العلماء –أعضاء المجلس المذكور– أنه يتبرأ من عهدة تولية أحد، ويترك الأمر شورى للمسلمين حتى يختاروا من تجتمع عليه كلمة جماعة المسلمين، وأهل الحل والعقد فيهم، وكتب العزل، ووقعه العلماء (51).

---

(48) تاريخ الضعيف، ص: 177.

(49) لأن المولى عبد الله كان قد أسقط المكوس كلها.

(50) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 244.

(51) تاريخ الضعيف، ص: 197.

لكنه ندم على كل ما فعله مع ولده اليزيـد، وبالتالي على عزله، بدليل أنه قصده في ملجئه في سيـدي عبد السلام بن مشيش وهو مـريض في محفة، ومات في طريقه إليه، وهو يهتف بإسمه، لذلك أجمع العلماء على بيعته بعده، وبايعوه.

وخلاصة القول، أن المجالس العلميـة السلطانية الخاصة لسيدي محمد ابن عبد الله، كانت عبارة عن نـدوات ومؤتمرات متواصلة، بل مجامع علمية اجتهادية، تشريعيـة أكاديمية عليا، شكلها السلطـان من كبار علماء الأقاليم والعواصم لملكته. فكان يعقد لهم اجتماعـات دورية أسبوعية -كل جمعة- تحت رئاسته، لمدارسـة الأحاديث النبويـة الشريفة بصفة خـاصة، وجميع النصوص التشريعية بصفة عامة، للاجتهاد، واستنباط الأحكام، والتنظيمات الضرورية لتقنين البرنـامج الإصلاحي الشـامل والطموح، الـذي أعده المولى محمـد بن عبـد اللـه، ومـا يشمله من المخططـات والمشـاريع والتعـديـلات الجديدة، وبالتـالي لإصـدار المراسم والظهـائـر والمنشـورات المتعلـقة بها. في جميـع مجـالات وقطاعـات الحـياة، وكـذا للاستفتاء وإصدار الفتـاوى في المعضلات التي تعترض سبيل الأمـة، أو في القضايـا التي يختلف حولها العلماء بما فيهم أعضـاء المجلس المذكـور فيما بينهم، أو بينهم من جهـة، وبين السلطان من جهة أخرى.

وبتراكـم البحـوث والعـروض الكتـابيـة، ومحاضر الجلسـات -التي حرص على تسجيلهـا بدقـة- تطـورت هـذه المجالـس، وأصبحـت عبارة عـن ورشـة للتأليف والتصنيف، في إطـار مذهبـه السني، الـذي يتـوخى التـوسط بين أهل الحديث والسنـة والجماعـة، وبين أهل العقل والـرأي، وبالتـالي بين التزمـت والتطـرف. مثلـه في ذلك مثل الإمام الشـافعي رضي الله عنه.

أعمـال المجالس العلميـة التشريعية الاجتهاديـة :

كانت هذه المجالس العلمية السلطـانية التشريعية الخاصة لسيدي محمد ابن عبـد الله بمثـابة مجالس استشـارية دوريـة، وكان أعضـاؤها بمثـابة مستشارين له.

بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك فنقول: إنها كانت تقوم مقام البرلمان باعتبار أن السلطان كان يختار أعضاءها من مختلف أنحاء البلاد -كما مر بنا- ثم لطبيعة أعمال هذه المجالس التي كانت تجتهد وتستنبط الأحكام، وتدخل تعديلات جذرية على القوانين، وتصدر الظهائر والمناشير الاقتصادية والاجتماعية والادارية والتربوية الثقافية وغيرها بعد الدراسة والبحث والنقاش والحوار، تحت رئاسة السلطان، وأحيانا بإشراك غيرهم من أئمة علماء العالم العربي والاسلامي.

ولم تكن الدراسة في هذه المجالس لكتب الحديث أو السيرة النبوية أو غيرها من الكتب الدينية دراسة نظرية محضة، كما أنها لم تكن مقصودة لذاتها، بل كانت تستهدف فتح باب الاجتهاد على أوسع نطاق، واستنباط أحكام وتنظيمات جديدة للأمة في جميع ميادين الحياة، بما في ذلك القطاع التربوي والتعليمي، على أن تكون تلك الأحكام والتنظيمات ملائمة لروح العصر ودون أن تخرج عن أحضان الشريعة الإسلامية وتعليماتها.

"وفي هذه المجالس كان يملي عليهم الحديث النبوي الشريف، ويشير عليهم بتأليفه وجمعه، واستخراج كنوزه من أحكام وغيرها، وهم يقومون بذلك وفق ما يشير عليهم به (52)".

كما أنه من هذه المجالس العلمية الاجتهادية التشريعية الخاصة انطلقت إصلاحاته الجذرية التي تناولت جميع مجالات الحياة كما تناولت بشكل لم يسبق إليه المناهج، والبرامج والحصص التعليمية، والكتب المقررة للتدريس، وبالتالي حقوق المرأة، واليتامى، والأموال والمعاملات(53)، مما كان في وقته يعتبر نهضة عامة، وسابقة سجلها عهده الزاهر، لكنها هزت الأوساط العلمية والدينية والفكرية بالداخل والخارج، إذ وصلت أصداؤها إلى ربوع العالم العربي والإسلامي.

ويتجلى نشاط مجالسه المذكورة في تلك المناشير التي كانت تصدرها دوريا، والتي كان يرسلها إلى قضاته وعماله، التي يستشهد فيها كثيرا

---

(52) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(53) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 13، والاتحاف، لابن زيدان، ج: 3، ص: 164-165.

بالأحاديث النبوية الشريفة -على سبيل التضمين- مستهدفا إحياء سنة أو إماتة بدعة، ومن ذلك ما كتبه إلى قضاته عندما غالى الناس في المهور وتباهوا بها، مستشهدا بقوله (ص) : " من يمن المرأة، قلة مهرها(54) ". والذي أمر فيه ألا تتعدى المهور أربعين مثقالا، كحد أقصى.

وكل ما صدر عن المجالس من منشورات وقوانين وظهائر وغيرها، يعتبر نتيجة إيجابية لأعمالها الجليلة المتواصلة. كما كانت القطرات التي تسبق الغيث النافع، والبداية التي دشنت بها هذه المجالس أعمالها العتيدة.

إصلاح القضاء من خلال مجالسه العلمية :

أهم هذه المنشورات، المنشور المتعلق بإصلاح القضاء (55) الذي وضع له مسطرة جديدة، وجعل السلطة التنفيذية والإدارية في خدمة القضاء، كما تبعته ظهائر ومراسيم عديدة في مجال إصلاح القضاء، على أساس استقلاليته، والفصل بين السلط، وعدم تداخلها مع السلطة القضائية الخاصة.

وقد ضم هذا المنشور أحكاما جديدة، وأخرى معدلة، أرسلها إلى القضاة والعمال والولاة، ليهتدوا بهديها، ويحتذوا حذوها.

وفيها يذكرهم بواجبهم، وبعدم الانسياق مع الفتاوى، وبطرد الوكلاء المدلسين، ويوصيهم بالضعفاء.... وبالتالي باتباع الشريعة، والاقتداء بتاريخ السلف الصالح، من الخلفاء الراشدين، والصحابة، والتابعين (56)، مما يعتبر دستورا إسلاميا، يوجه الأمة إلى الطريق السديد اللاحب، الموصل لما فيه خيرها وصلاحها، وفلاحها.

وفي إطار اهتمامه البالغ بالقضاء في مجالسه العلمية الخاصة، وبالتالي بنشر العدل، وحرصا منه على تتبع الأحكام الجديدة التي تصدرها مجالسه العلمية -وتضمنها المنشور المذكور- ومراقبة مدى تنفيذ كل ذلك، ونتائجه، كان يراقب أحكام القضاة عن كثب، بواسطة لجان مختصة من العلماء

---

(54) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ظ.

(55) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60، ونص المنشور ص: 60-62.

(56) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج.ط.

أعضــاء هذه المجــالس، ويعزل كل من ثبت لــديه إخــلاله بها، أو مجانفتــه للعدالــة من القضـــاة، بعد أن يحاسبــه حسابــا عسيرا، بحضور خصــومه وضحاياه.

وذلك بــواسطة تلك اللجان المختصـــة المذكورة من علماء مجالســه، التي تستمع لشكاوى هؤلاء الضحايا، وتأمر العمال بإنصافهم (57).

وكان بــرنامجه المتكــامل لإصلاح القضــاء، يتضمن جــانبا إداريــا، مما سجل به سابقة إيجابية في هذا المجال.

فقد عمل على تكــوين القضاة، بأن نظم لهم تكــوينا مستمرا بــالتداريب الدورية(58).

إذ كان يوجه الفقهاء والقضاة المبتــدئين إلى الصويرة للتدريس بها ستة أشهر، قبل أن يوليهم القضاء، حيث يرمي عصفورين بحجر واحد، ويحقق هدفين إيجابيين (59).

الهدف الأول : نشر التعليم وتعميمه في جميع أنحاء البــلاد، خاصة وأن الصويرة مدينــة جديدة، شيدها حديثا، فما كان أحــوجها هي ونواحيها إلى هذه الإلتفاتة الأبوية.

والهدف الثاني : أن يهضم القاضي الجديد مادته، حتى تختمر معلوماته. وقد أثبتت التجربة أن الإنسان مهما درس، فإنه لا يتمكن من مادته إلا بعد الممارسة العملية، والتجــربة الميدانية، وبــالتالي رأفة بدمــاء الناس وأموالهم، وأعراضهم، حتى لا يسلم رقابهم إلى قضاة مبتــدئين، يتكونون على حساب مصالحهم.

وكــان يحث القضـــاة والمفتين على نبــذ كتــب المتأخــرين المتشعبــة، وأن يرجعــوا إلى آراء السلف الصالح، حتى لا يكــونوا "كمن يــريق الماء، ويتبع السراب".

فقد ورد في أحــد منشوراتــه (60) :"من أخــذ الفقــه من مختصر خليل وشروحه، وترك كتب الأقدمين كمن أهرق الماء، واتَّــبع السَّــراب".

(57) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج-ط.

(58) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 36.

(59) المصدر السابق، و ص.

(60) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ج-ط.

إذ كان ينهج نهج الموحدين في وجوب الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة مباشرة (61).

ولا بأس من الإشارة إلى أن موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، كان أكثر تسامحا وتفهما من موقف الملوك الموحدين عموما، الذين كانوا يرغمون الناس على ذلك، ولا سيما يعقوب المنصور (62).

ذلك أن سيدي محمد بن عبد الله اكتفى بإصدار المنشورات والمراسيم والظهائر في شأن مصادرة كتب الفروع، لكنه لم يحرقها، ولم يمتحن أو ينكب أحدا من العلماء بسببها، كما فعل يعقوب المنصور الموحدي، سنة: 591هـ.

بل إن سيدي محمد بن عبد الله أباح استعمالها كمصادر (63) ومراجع لجهابذة العلماء من ذوي الاختصاص والتجربة، والحنكة العلمية، الذين لا ضرر عليهم من ذلك.

إصلاح التعليم من خلال مجالسه العلمية :

لقد اتخذ سيدي محمد بن عبد الله مجالسه العلمية التشريعية منبرا للدعوة إلى الرجوع للمصادر الأصلية للشريعة الإسلامية، وأمهات الكتب في التدريس، والإفتاء والحكم، وإلى نبذ المختصرات، حتى ألف في ذلك كتبا(64) كان لها أثر بعيد في تطوير برامج ومناهج وطرق وكتب وحصص التدريس(65)، وخاصة بالقرويين.

وانطلاقا من مجالسه العلمية الرشيدة، وضع برامج ومناهج تربوية تعليمية شاملة، لإصلاح نظام التعليم، وأصدر منشورا (66) في ذلك سنة 1203هـ، وبتأمل فصوله وبنوده، تتأكد لنا نيته في الإصلاح، وعبقريته الفذة الخلاقة.

---

(61) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 31.

(62) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 87.

(63) المصدر السابق، و ج، و ص.

(64) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(65) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 67 ط. دار الكتاب، والمصدر الأول، ص: 166-167.

(66) نصه بالنبوغ المغربي، لعبد الله كنون، ج: 1، ص: 276.

وقد ألزم المطلعين على ذلك المنشور، من العلماء ورجال الدولة، وجميع المواطنين، بتنفيذ بنوده وتعليماته (67).

وكان لبرنامجه التعليمي والتربوي الجديد تأثير غير مباشر على تطوير أحوال الطلبة، وعقليتهم، ووسائل تعبيرهم، حيث قاموا باتنفاضة للتعبير عن رأيهم، والمطالبة بحقوقهم، وذلك سنة 1201هـ، إذ اعتصم خمسمائة طالب "بلا بلقاست"، يختمون السلكة ليلا ونهارا، بعد أن قدموا مطالبهم(68)، المتعلقة بإصلاح أحوالهم، وصون كرامتهم الممتهنة.

وفي هذا المنشور بين ما يجب تداوله واعتماده، سواء في الحكم، أو الافتاء، أو التدريس، من الكتب المؤلفة على مذهب الإمام مالك، باعتبارها سهلة المتناول، ومفيدة.

ونص في منشور آخر أصدره سنة 1203هـ، على أسماء الكتب التي يجب تدريسها. فكتب الحديث، والمسانيد، والفقه، تدرس في المدونة، وكتاب البيان والتحصيل، والمقدمات، والنوادر والزيادات، والرسالة، وغيرها من أمهات كتب المالكية القديمة.

ومنع كتب المختصرات المعقدة، ولا سيما مختصر خليل، وابن عرفة. وحث على الاهتمام بأمهات المصادر المبسطة، كالرسالة، والتهذيب، وأمثالهما (69).

وهذا الرأي طالما ردده كبار الباحثين والمؤرخين، وعلى رأسهم أبو بكر بن العربي المعافري، وابن خلدون وغيرهم (70)، قال سليمان الحوات(71): "ولم ينقطع شيخنا (72) عن قراءة مختصر خليل، إلا ما كان أيام السلطان سيدي محمد الحسني، فإنه صدر عنه الأمر-إذ ذاك- بتأكيد

---

(67) دعوة الحق، ع: 10، ص: 178، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين، لمحمد العلمي.

(68) تاريخ الضعيف، ص: 192.

(69) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 67، ط: دارالكتاب.

(70) المصدر السابق، و ج، و ص، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 165-166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع لعبد الهادي الحسيسن.

(71) م. 1231هـ.

(72) محمد التاودي بن سودة.

قراءة التهذيب للبراذعي، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، فامتثل أمر السلطان» (73).

وتدعيما لبرنامجه الإصلاحي التربوي التعليمي منع كتب الفروع، والكلام، والجدل والخلاف، وعوضها بكتب الأصول، والحديث، وبعث المنشورات بذلك إلى كافة العلماء بجميع أرجاء البلاد، مؤكدا عليهم في وجوب اتخاذ الكتاب والسنة المرجع الوحيد، والأول والأخير في مجال التشريع، والقضاء والحكم، والتعليم والتدريس..... امتثالا لقوله تعالى : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه، ومانهاكم عنه فانتهوا**﴾ (74).

وفي هذا الصدد نظم الدراسة بالقرويين سنة، 1203 هـ، باعتبارها من أهم وأغزر روافد مجالسه العلمية.

فجدد مناهج التعليم بها على الأسس المذكورة آنفا، معتمدا العقائد السلفية، والتشريعات السماوية والنبوية.

كما أصدر منشورا سنة 1203 هـ (75)، وحدد فيه مايباح تدريسه من العلوم والكتب، وما يمنع منها (76) حيث قرر تدريس بعض أمهات الكتب بالقرويين، التي لم تكن مقررة بها من قبل (77).

ذلك أنه كان يرى أن اعتكاف طلاب العلم على دراسة المختصرات(78) في الفقه وغيره من المواد العلمية، وتركهم التعامل مع أمهات المصادر الأصلية الواضحة مضيعة للوقت وللأعمار، ولا جدوى منها.

لذلك منع المختصرات، ولا سيما مختصر خليل، وابن عرفة المتداولين -كما سبق القول-، وتشدد في ذلك حتى تركها الناس، ولذلك أيضا حث على كتب الأصول، كالرسالة، والتهذيب -كما مر بنا-.

---

(73) الروضة المقصودة، م.خ.ع، بالرباط، رقم : 2211، ص: 307، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(74) سورة : الحشر، الآية : 7.

(75) نصه في الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60-62.

(76) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 60-61، ونص المنشور، ص: 60-62.

(77) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 67، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: .

(78) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 31.

كما وجه إلى علماء القرويين منشـورا آخر في نفس المعنى يحدد لعلمائه مـا يجوز لهم تدريسـه للطلبـة منهـا، ومنه -بتصرف- :"وأول مـا يجدر بالعلماء تدريسه : كتاب اللـه الكريم، مع إدراك كنهه وأحكامه (79). وبعده يدرسون السنة النبوية الشريفة في كتب الصحاح، والمسانيد. ويجوز تدريس الفقه في الـدرجة الثالثـة، شريطة الابتعاد عن المختصرات والفـروع، وتوخي أمهات المصادر، كالمدونة، والبيـان والتحصيل، ومقدمة ابن رشد، والجواهر لابن شاس، والنوادر، والرسالة لابن أبي زيد (80) ".

أمـا مختصر خليل، فيجب تجنبه مـا أمكن، ومن اضطر للـرجوع إليـه، فليقتصر على شرح بهرام الكبير، والمواق، والحطاب، والشيـخ علي الأجهوري، والخرشي الكبير، دون غيرها (81).

ويجب تجنب علم الأصول أيضا، مع الاكتفـاء في علم الكلام بعقيدة ابن أبي زيد باعتبار أن علم الكلام يغض من قدر العالم الوقور الجليل ".

وبذلك كـان أول من فكر في إصلاح التعليم عمـوما، ونظامه بـالقرويين خصوصـا. كما اهتم بجامع السنة بـالرباط وطلبتـه، ودراستهم وأحوالهم فـرتب لهم الـرواتب، وكـان يصلي فيـه فيتفقـد أحـوالهم دائما، ويـزودهم بالطعام يوميا، ولا يفارق طلبته، طيلة مقامه بالرباط .

وهنـا لابأس من التأكيـد على أنـه تـوصل إلى الأخـذ بهذا المذهب وتلك العقيدة باجتهاده الـذاتي الخاص، مع علماء مجالسه العلمية، دون أي تأثر بنظريات وآراء محمـد بن عبد الوهاب، التي لم تصل أصـداؤها إلى المغرب، إلا أيام ولده المولى سليمان (82).

وتتويجا لأعمال مجالسه العلمية، ولبرنـامجه الإصلاحي العام، وتأكيدا لرأيه وموقفه ومذهبـه الوسط، بين الإفراط والتفريط، ألف المولى محمد بن عبد اللـه كتبا، جمع فيهـا بين محاسن الأصول والفـروع، وبين النصوص

---

(79) م. الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: و – ز

(80) مساند الأئمة تحقيـق الفريد البستاني، ص: 14، منشورات مؤسسة فرانكـو للأبحاث العربية والإسبانية السلسلة : 1، رقم: 3

(81) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ب-ك.

(82) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 14-15.

الحديثية والفقهية، في محاولة للتوفيق بينهما، والجمع بين الحسنيين، ككتاب مساند الأئمة، والفتوحات الإلهية، وغيرهما.

وتعزيزا لبرنامجه التربوي التعليمي، ألف --بمساعدة علماء مجالسه العلمية الخاصة- كتابه (83) "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان"، الذي يعتبر ثورة في مجال التعليم بالنسبة لعصره، وقبل النهضة الحديثة بقرن ونصف القرن، مساهما بذلك في تطوير مناهج التعليم والتصنيف على السواء(84).

مذهب المولى محمد بن عبد الله في مجالسه العلمية :

كان المولى محمد بن عبد الله، رغم أعباء الملك ومسؤولياته، عالما كبيرا، فقام بدور المصلحين المجددين، انطلاقا من مجالسه العلمية النيرة.

فكان يحض الناس على الإعتصام بمذهب السلف، والإقتصار على العقيدة المأخوذة من ظاهر الكتاب والسنة، دونما أي تأويل، وذلك على مذهب جماعة من الأئمة المجتهدين الكبار: كالإمام أحمد بن حنبل، وداود الظاهري، وابن حزم، وابن القيم الجوزية، وأتباعهم.

فقد أعلن موقفه من علم الكلام صراحة، موضحا أن العقيدة يجب أن تكون بسيطة ، تنسجم مع الفطرة، وتقبلها عقول العامة. لذلك فضل طريقة الحنابلة في علم الكلام، باعتبار أن ابن حنبل قطع طريق الخوض في علم الكلام، سدا للذرائع كلها (85).

لذلك كان ينهى العلماء عن الخوض في علم الكلام، على طريقة المتأخرين(86). كما كان ينهاهم عن قراءة كتب

---

(83) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 67، ط: دار الكتاب.

(84) دعوة الحق،ع: 5، س: 10، ص: 178، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين، لمحمد العلمي.

(85) دعوة الحق، ع: 246+، ص: 146، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(86) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 146، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن، والنهضة العلمية، لابن زيدان م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 32.

التوحيد (87) المؤسسة على القواعد الكلامية، ويحثهم على قراءة رسالة ابن أبي زيدان القيرواني المبسطة وأمثالها.

وصرح في مقدمة كتابه الفتوحات الإلهية، مؤكدا على :" أنه مالكي مذهبا، حنبلي اعتقادا (88) ".

ويعقب قائلا (89):" افتتحت كتابي بعقيدة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني. التي ابتدأ بها رسالته، لما اشتملت عليه من الفوائد الدينية، وسلامة قواعدها من القوادح الواردة على غيرها من الكتب التي صنفت في علم العقائد".

وأعمال مجالسه العلمية كلها كانت تصب في هذا الاتجاه، وله في ذلك أخبار طريفة في محاولته اختيار بعض خدامه (90).

وشبه الإمام الغزالي علم الكلام في كتابه "الإحياء" بالدواء، لا يتوقف عليه الإنسان إلا إذا أصيب بمرض، وبالتالي فلا يلجأ إليه إلا عند وقوع البدع، وانتشارها في البلاد (91).

وفي إطار مذهبه السلفي، وتحقيقا لأهداف برنامجه الإصلاحي الشامل، وانتهاجا لمسلك أجداده الملوك العلويين، عمل على محاربة البدع والشعوذة التي كانت سائدة في عهده، وعلى مناهضة بعض الطرق والزوايا التي حاول بعض أصحابها آنذاك الخروج عن النهج الذي تسير عليه من التوجيه والإرشاد الديني والإجتماعي، والتطلع إلى السلطة والحكم،(92) مما اقتضى منه اتخاذ موقف الحزم والصرامة إزاءهم، بهدف التزامهم طريق الجادة والوضوح، وبغية الحفاظ للبلاد على الاستقرار والوحدة التي كانت الهدف الأول لجميع ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة(93).

---

(87) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 159-160.

(88) المصدر السابق، ص: 160-163.

(89) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68، ط: دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 165، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(90) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 243-244.

(91) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68.

(92) إتحاف أعلام الناس ج: 1، ص: 153-161.

(93) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 17.

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي وغيره :

كان سيدي محمد بن عبد الله حريصا على الوحدة العربية الاسلامية، عاملا على تمتين أواصرها على صعيد الدول والشعوب، متطلعا إلى تحقيق الأخوة الإنسانية، والسلام العالمي المادي والمعنوي، وبالتالي كانت له رغبة أكيدة في التعاون الثقافي والعلمي، المتبادل مع علماء المسلمين بالأزهر الشريف، وغيره من الجامعات الإسلامية الكبرى، وخاصة في مجال القضاء والتعليم، واضعا نواة المجمع العلمي العربي الإسلامي في هذا المجال، متطلعا إلى فتح باب الاجتهاد على الصعيد الإسلامي....

وذلك في تواضع العلماء التلقائي، النابع من تحليه بالروح العلمية السمحة، والعملية التواقة الوثابة.

وفي هذا الصدد وجه المنشورات المهمة التي أصدرها، والمتعلقة بإصلاحاته الجذرية المختلفة –ولا سيما في مجال إصلاح القضاء والتعليم – إلى علماء الأزهر الشريف بمصر، طالبا مراجعتها من طرفهم، وتقييمها على أساس النقد العلمي النزيه، والبناء الهادف، بوضعها على محك الشريعة الإسلامية، لمعرفة مدى صوابها أوخطئها، وبالتالي مدى تطابقها مع نصوصها وتعاليمها، وتسجيل إيجابياتها وسلبياتها، وإرجاع ذلك إليه، واعدا مقدما بتقبل نتائج الدراسة والبحث، والامتثال لتعليماتها، وتطبيق توجيهاتها وتوصياتها، مشترطا أن يوقع علماء الأزهر كل ذلك، بيراعهم وخط أيديهم.

ومما جاء في كتابه(94) الذي رفعه إلى علماء الأزهر، مع المنشورات المذكورة : ".... نريد منكم أن تطالعوا مسائل أخرى مذكورة من هذا الدفتر يمنته. – وقد أمرنا قضاة المغرب أن يحكموا بها – فما كان منها على صواب، أثبتوه، واكتبوا عليه بخطوط أيديكم، وما كان منها على خطأ، اكتبوا عليه بخطوط أيديكم، في الدفتر المذكور ليرجع عنها.

ووجهوا لنا الكناش بعينه، وعليه خطوط أيديكم".

وفي هذا الإطار راسل علماء الأزهر بمصر –مرة أخرى– يستفتيهم في شأن من يقدح في النبوة، وفي النبي (ص)، أو في الصحابة رضي الله عنهم، وبالتالي في شأن من يقدح في المقدسات الإسلامية كلها.

فجاءه الجواب بتحريم كل ذلك (95).

---

(94) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62.

(95) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62.

وقد قـرظ علماء الأزهر نهضته العلمية، وبـرامجه الإصلاحية، ونـوهوا بمجالسه العلمية التشريعية النموذجية، ونبوغ علمائها.

وعلى رأس علماء الأزهر الذين راسلوه في هذا الصدد : العلامة محمد بن محمد الأمير المالكي الأزهـري، والشيخ محمد بن عبد اللـه المعطي الحريري الحنفي الأزهري (96).

وكانت المكـاتبة والمشـاورة متبادلة ومتـواصلة بينـه وبين علماء الأزهر المصريين وغيرهم -عبر مجالسه العلمية السلطانية الخاصة- الذين يطلعهم على آرائه ونظرياتـه ومشاريعه ومخططاتـه العلمية، وبالتالي على بـرنامجه الإصلاحي في هذا الباب.

كما كانـوا يوقعون مـؤلفاته، أو يـذيلون تـوقيعهم بتقريظها، والتنـويه بقدراته العلمية (97).

ومن جهة أخرى كان يصلهمَ بالهدايا السنية، فيجيبونه برسائل الشكر والامتنان، والاعتراف بمكانته العلمية والدينية.

ومن علماء مصر الذين شملتهم صلاته : الشيخ مرتضى الزبيدي، شيخ الحنفية، الـذي شرح القامـوس في عشرة أسفار (98)، وشيـخ المالكيـة أحمد الدردير، الذي قبل هديته شاكرا ممتنا (99).

ومن مظـاهـر هذا التعـاون والتبـادل والتفاعـل الثقافي بين أئمـة علماء مجالسه العلمية، وبين شيوخ العلماء بالعالم العربي والإسلامي -ولا سيما بـالمشرق- نجـد النشاط العلمي المعـروف للعـلامـة أحمد بن عبد العـزيـز الهلالي(100).

وفي هذا النطـاق، وتعزيزا لهذا التعـاون والتوادد الثقافي أرسل مجمـوعة ضخمة من الكتب الأدبيـة والتاريخية وغيرها، "لابن خلـدون، وابن خلكان،

---

(96) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ص-م.

(97) المصدر السابق، ص: ب-ن.

(98) النهضة العلميـة، لابن زيدان، م.خ.م، بـالربـاط، رقم : 3177، ص: 39-40، وعجائب الآثار، للجبرتي، ج: 3، ص: 203، والاتحـاف، ج: 2، ص: 225-233، والروضة السليمانيـة، للزياني، ص: 143-144.

(99) المصادر السابقة كلها، والأجزاء والصفحات نفسها، لكن شيخ الحنيفية رفض الهدية.

(100) نشر المثاني، ج: 4، ص: 143-149.

وقلائد العقيـان، والأغاني، ونفح الطيب، وتأليف ابـن الخطيب.... ووجهها مع الكــاتـب الصنـــهـاجـــي، ليـوقــف بـعــضــها بمصـــر، وبعـضـها بالأسكنـدريـة(101) ".

وهي الكتب التي كانت بخزانة ولـده وخليفته على فاس، المولى علي -مما سيأتي تفصيله-.

ومن أبــرز مظــاهر هــذا التعــاون الدينـــي والثقافي والفكــري بين علماء مجالسه العلمية، والعــالم العربي والإسلامي في عهــده -والذي كان يحرص على تنميته وتكريسه- ذلك التواصل المستمر بين علماء مجالسه العلمية من جهة، وبين علماء وشرفاء الحرمين الشريفين بالحجاز من جهة أخرى.

فقد كانت هــداياه وصلاته لا تنقطع عن علماء وطلبــة بيت الله الحرام، والمدينة المنورة (102).

وما زالت جل أوراقه وكتبه التي حبسـها على الحرمين الشريفين موجودة وشاهدة على أريحيته الهاشمية (103).

ومن هــذه الصــلات المسترسلة، مــا كــان يــرسله لعلماء وأشراف مكـة والمدينة المنورة والحجاز واليمن، مع ركب الحجاج كل سنة، من هبات مالية على وجه الهديــة، وخاصــة سنة 1187-1189هـ، حيث بلغ قـدرها خمسين وثـلاثمائة آلاف ريال، مــوزعــة في أحقاق على حـدة، كل واحــد يحمل اسم صاحبه.

وكان يرسل ذلك مع وفـد خاص، يرأسه ابن عمه وصـهـره عبد الله بن إدريس، وعضـويــة كاتبيه : محمـد بن عثمان، وعمر الـزيرق، وشيـخ ركب الحجاج المغاربة -إذ ذاك- عبد الكريم بن يحيى (104).

ذلك أنــه رتب لأهل الحرمين الشريفين، وعلماء وشرفاء الحجــاز واليمن، مائة ألف مثقال في السنة (105).

---

(101) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 64، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(102) النهضة العلميــة، لابن زيدان، م.خ.م، بــالربــاط، رقم: 3177، ص: 39-40، وعجائب الآثــار للجبرتي، ج: 3، ص: 203، والإتحاف ج: 2، ص: 225-233.

(103) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 70.

(104) الروضة السليمانية للزياني، ورقة 143-144.

(105) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 70.

كما كان يخص الشرفاء العلويين الحضرميين بالحرمين الشريفين بعنايته ورعايته الخاصة، ويغدق عليهم النعم بالهدايا والصلات والهبات.

من ذلك أنه أرسل إليهم أواخر القرن الحادي عشر مائة ألف ريال لتوزع عليهم. فأضاف إليها أمير الحجاز الشريف سرور -صهره- ستين ألف ريال، قبل أن يوزعها عليهم (106).

وفي هذا الإطار بعث سفيره الحاج المكي كركاش الرباطي بصلات نقدية قيمة، لعلماء وشرفاء الشام، وبيت المقدس، ومكة، والمدينة المنورة، بلغت مائتي قنطار (107).

وتلك كانت سنته المتبعة مع علماءالمغرب - ولاسيما علماء مجالسه العلمية -وشرفائه من باب أولى وأحرى (108).

وقد كان يصدر ظهائر بذلك كظهير توريث الشرفاء الأدارسة الصرحاء مال المنقطعين، وجباية الأعشار الذي سجله في حوالة القرويين (109).

كما رتب لعلماء وأشراف تافيلالت ألف مثقال سنويا، ولعلماء المغرب وشرفائه بأسره، مائة ألف مثقال (110) .

وعمل على تعزيز روابط الأخوة والمودة بينه وبين حكام الحرمين الشريفين، وبالتالي بين المغرب والحجاز بأواصر القرابة والدم، وذلك بمصاهرته لسلطان مكة الشريف سرور (111)، الذي زوجه ابنته، كما زوج أختها لولده سنة 1182هـ.

ورافق موكب العرس إلى الحجاز ولداه الأميران: علي وعبد السلام، مع هدايا لأمراء مصر، وطرابلس، والحرمين الشريفين، وأموال طائلة لعلماء وأشراف الحجاز واليمن، وجوائز سنية لكبار العلماء، والموظفين وغيرهم.

---

(106) (حاضر العالم الإسلامي)، لو ثروب تودارد الأمريكي، تعريب دعجاج نويهض، المجلد : 2، ص : 168.

(107) الروضة السليمانية للزياني، ص : 143-144.

(108) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ص :113.

(109) المصدر السابق، وج، وص.

(110) الإستقصا للناصري، ج : 8، ص : 70.

(111) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 163-171.

زيادة على مجوهرات كثيرة وثمينة للعروستين، كما بعث في ركاب موكب العرس كبار علماء مجالسه العلمية، والوجهاء، وأمراء القبائل، بالخيول والسلاح والشارة، مما ظل مضرب الأمثال هنالك دهرا (112).

وقد توفيت إحدى الأميرتين المغربيتين بمكة، ورجعت الأخرى إلى المغرب بعد وفاة زوجها -مع أخيها اليزيد سنة 1202هـ (113)-.

ومن منطلق التعاون والتبادل الفكري والعملي والديني وغيره، بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم الإسلامي، حرص سيدي محمد بن عبد الله باستمرار على ربط أمتن الصلات مع الدولة العثمانية بصفة عامة، وعلمائها وكتابها بصفة خاصة. فكان يكاتبهم ويراسلهم ويهاديهم....

وكان العثمانيون يخاطبونه في مراسلاته، مخاطبة السادة الأنداد الأكفاء(114).

ومما يؤكد الأواصر العلمية لهذه الروابط، هدية السلطان عبد الحميد إلى سيدي محمد بن عبد الله، التي كانت عبارة عن سفر كبير، يجمع بين الموطا للإمام مالك، وصحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، والمسانيد الستة، والشمائل، وعمل اليوم والليلة.

وقد سر بها -رحمه الله- أيما سرور (115).

ومما وطد دعائم هذه العلاقات العلمية السامية مع الدولة العثمانية، سفارات العلامة المؤرخ الكبير أبي القاسم الزياني إلى القسطنطينية، وهومن أكبر علماء المغرب وفقهائه، وكتابه، ووزرائه، ومؤرخيه.

وقد أخذ عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي أجازه -كما مر بنا-.

فخلال هذه السفارات، اجتمع العلامة الزياني وبقية أعضاء وفوده من العلماء، بعلماء القسطنطينية (116). وفي مسجدها العتيق، اجتمع بإمامه

(112) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 34.

(113) تاريخ الضعيف، ص: 193.

(114) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 163-171، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 68.

(115) دعوة الحق، ع: 1و2، س: 19، ص: 131-132، 1398هـ-1978م.

(116) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 153-154.

وخطيبه الولي الصالح مبارك بن عمر الصائفي، وبالعلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الوسيني، الذي ذاكره وحاضره كثيرا، وبالفقيه القاضي أبي عبد الله سيدي الحفصي العلمي، الذي استضافه. وبالغ في إكرامه، وبالعلامة، أبي القاسم المحتالي، الذي أضافه وأكرمه، وبالمفتي العلامة أحمد بن مبارك العلمي، والعلامة محمد المجاري الخوجة، الذي آنسه وأكرمه وأخذ عنه أورادا، والكاتب محمد بن كشك، الذي كان مقربا من الباي، لكنه نكبه فيما بعد.

وقد عقد باي القسطنطينية مجلسا علميا لعلماء بلاده، واستدعى له أبا القاسم الزياني ووفده، وقال له حين استقباله : "أردت أن تشرفنا بحضورك (117)".

وظل يستدعيه كل جمعة لحضور مجالسه المختلفة، مع علمائه، وأدبائه وندمائه، لإيناسه ومسامرته.

وكان الباي يؤاكله في مقصورة محفوفة بمظاهر الثراء، وعلى أنغام الموسيقى، معظما مبجلا، حيث يقوم للقائه (118)، ويجلسه بجانبه، ويأمر الجميع بالقيام للقائه.

ومن مواقفه الخالدة التي تشهد بصدق مشاعره الإسلامية السامية، وبروحه المثقفة الواعية، ونبل مقاصده وأهدافه الإسلامية البعيدة، وعمله على تحقيق الجماعة والوحدة الإسلامية، أنه في إحدى حركاته التفقدية بتافيلالت سنة 1199هـ، سقط عليه الثلج في الطريق، فتبعثر موكبه، وتفرق جنده، وكان ذلك صبيحة عيد الأضحى.

وفي الغد أصبح عيد الأضحى، فخطب في الناس بنفسه، ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثماني (119).

وهذا لعمري منتهى التواضع والنبل، والتسامي والترفع....

ومن مآثره التي تستحق الذكر في سجله الإسلامي الحافل، أنه مر سنة 1198هـ، برباط شاكر -من أصحاب عقبة بن نافع -رضي الله عنه-

(117) المصدر السابق، ص: 153.

(118) المصدر السابق، و ص.

(119) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 53-54، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 143.

الـذي كان مجمــعا للمجاهديــن المرابطيــن الصـالحيـن، فـأمر بتجديـد مسجده (120).

ومن أهم أعماله -في إطار مجالسه العمليـة- التي تعتبر سابقة إيجابية على الصعيد الـديني وبالتالي الإنساني والـدولي، اتفاقه مع لـويس السادس عشر (121) على إلغـاء الـرق بين المسلمين والمسيحيين، كخطـوة أولى نحـو العمـل علـى إلغائـه نهائـيا، وذلـك سنـة 1777م. "حـتى صار يـضـرب بـه المثل لسمـــو أخلاقـــه، وثقافتـــه، وكرمــه.... عنــد ملــوك الإســلام والـروم".

مؤلفاته في إطـار مجالســه العلميـة :

كان لسيدي محمـد بن عبد الله الفضل في نشاط حـركة التأليف في هذا العصر، انطلاقا من مجالسه العلمية الخاصة، وكنتائج حتمية لها.

وتمثل حركة التــأليف، مرحلة متطورة ومتأخـرة لأعمال هذه المجالس، على عهده (122).

ويصف لنـا الزيـاني (123) كيفيـة تطـور حركـة التأليف ومـراحلهـا باختصــار جامع مــانع في قولــه :"كان علماء مجالســه الخاصة يحضرون مجلسه بعد صلاة الجمعة. للمذاكرة في الحديث، إلى أن صار يؤلف فيه على مقتضى غرضه، وعين لذلك من يستخرج له ما يريد".

وكــان يـرأس مجالس التأليف شخصيـا وعمليـا، ويشــارك في أعمالها مشاركة فعالة، ويوجهها حسب نظريـاته، ويوظفها لخدمة أهداف برنامجه الإصلاحي العام، وسائر مشاريعه، ومخططاته....

كما عمل على تطويرها، وطبعها بطـابعه الخاص، سواء من حيث شكلها وآدابها وعـاداتها، وتقاليـدهــا، أو من حيث إدارتها وسيرهــا، أو من حيث إنتاجها وإبداعها وتصانيفها (124)....

(120) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 53-54، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة 143.

(121) المصدر السابق، م ج، ص: 197.

(122) نشر المثاني، للقادري، ج: 4، ص: 130-131.

(123) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلالي

(124) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

ولم يلبث -بمواظبته على عقد هذه المجالس واحتكاكه الدائم بأئمة وشيوخ علمائها، وإكبابه على الدراسة المعمقة لكتب الحديث والسيرة وغيرها في أحضانها، ومشاركته الفعالة في الدراسة والبحث، والمناظرة والجدال داخلها- لم يلبث بكل ذلك أن "أدرك ملكة التأليف، وحل الأمر العسير، وتمنى أن يكون سائر عمره أمضاه في هذا الأخير (125)".

والواقع أنه حصل له تكامل في الملكة العلمية عموما، باعتبار الملكة اللغوية والأدبية التي اكتسبها في شبابه بمجالسه الأدبية الأميرية بمراكش(126).

و هذا لا يمنع من استعانته بخبرة ورأي جهابذة علماء مجالسه العلمية، في تأليفه و تصنيفه، رغم انفراده بالتنظير و التخطيط، و التأطير، والرئاسة العملية المباشرة في التطبيق و التنفيذ." و كثيرا ما كان يفاوض هؤلاء الأعلام في تأليفه، و يأخذ رأيهم، و يستفتيهم في ذلك" (127).

و الذي ساعده على التأليف، أنه كان يسجل أهم مايروج في مجالسه العلمية المختلفة، من مذاكرات، و مباحثات، و مناظرات و غيرها في محاضر خاصة، أصبحت بمرور الأيام نواة وروافد غنية غزيرة لما نشره من مؤلفات، كانت لها أصداء طيبة داخل البلاد و خارجها.(128)

و يظهر انه كان يعمل داخل مجالسه العلمية الخاصة بطريقة اللجينات والخلايا، المختصة، أوبطريقة المعامل -بلغة العصر-.

و هكذا سارت أعمال مجالسه العلمية الخاصة سيرا طبيعيا منطقيا على طريق التجديد و التطوير المرحلي التدريجي، حتى نضجت تجربتها، وكثرت مادتها، و تضخم رصيدها، فأفضت بتلقائية عفوية الى مرحلة التأليف الناضج المتكامل،المنطقي الموضوعي، و المسؤول.

---

(125) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189، م.خ.م، رقم : 1920.

(126) أيام خلافته عن والده بمراكش.

(127) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، ومساند الأئمة، تحقيق، الفريد البستاني، ص: 12، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية -سلسلة: 1- رقم:3، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.

(128) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين،

وفي إطار هذه المجالس، وعلى المستوى الرفيع للتأليف والتصنيف، ألف عدة كتب (129) زاوج فيها بين الأصول والفروع، رالنصوص الفقهية والحديثية، انطلاقا من مذهبه وعقيدته، وبالتالي تنفيذا لبرنامجه وأهدافه الإصلاحية السامية.

وأهم كتبه المؤلفة كانت في الحديث النبوي الشريف، بإعانة كبار العلماء الملازمين لمجالسه العلمية الخاصة وغيرها. وفي ذلك يقول المشرفي (130): "ألف كتبا في الحديث، قَلَّ أمثالها في القديم والحديث، وذلك بإعانة بعض العلماء الملازمين لمجلسه للمذاكرة فيه.... ولم يسبق بمثل هذا "(131) أي بمنهجيته.

وأهم هذه الكتب وأشهرها على الإطلاق :

- مساند الأئمة الأربعة، وهو كتاب قيم، التزم ألا يخرج فيه من الحديث إلا ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة، أو ثلاثة منهم، أو اثنان. فإذا انفرد به إمام واحد، أو رواه غيرهم لم يخرجه، وهذا ما لم يسبق إليه في هذا الباب(132).

- الفتوحات الإلهية - الصغرى والكبرى - الذي انتهى منه سنة 1198هـ (133)، وحبس أوقافا على تدريسه (134).

- الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، أتمه سنة 1200هـ، وقرظه علماء مصر، وعلى رأسهم الشيخان: محمد بن عبد المعطي الحريري الحنبلي، ومحمد بن محمد الأمير المالكي (135).

---

(129) اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار، لعبد السلام ولده.

(130) الحلل البهية للمشرفي، ص: 158-159و162، والاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

(131) الحلل البهية، ص: 162.

(132) الحلل البهية للمشرفي، ص: 162، والاستقصا للناصري ج: 8، ص: 66.

(133) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166-167، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(134) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط رقم 3177، ص: 41، ونسخة خزانة القرويين، قسم الذخائر م، رقم : 745.

(135) نسخة خزانة القرويين م، رقم : 146.

– مــواهب المنان. ممــا يتأكد على المعلمين تعليمــه للصبيان، أنهاه سنــة 1203هـ(136).

– الفتح الرباني، أخرج فيه ألفي حديث، سنة 1204هـ (137).

ومؤلفــات سيدي محمد بن عبــد الله بمستواهــا العلمي الرفيع، إن دلت على شيء فإنما تدل على ازدهار الحركة الفكرية والعلمية بالمغرب، وتطورها، وخروجها من طور التقليد إلى طور الإبداع والتجديد (138) .

ولم يكتف سيدي محمد بــن عبد الله بالتأليف من خــلال خلايا ولجان مجالســه العلمية، ورئاستهــا، والمشاركــة الفعالــة الرائدة في ســائر أعمالها ومــؤلفاتها، بل شجع على التأليف بــإصداره الأوامــر لكبار علماء مجالســه العلمية بتأليف كتب معينــة –كل في مجال اختصاصــه– وحفزهم على ذلك بــالجوائز السنيــة، وبإذكــاء روح المنافســة بينهم في ذلك بشتى الــوســائل الترغيبيــة الماديــة والمعنويــة، حتى ألفت كتــب عديــدة في مختلف أنــواع العلــوم.

وهذه أسماء أهم الكتــب التي أمــر بتأليفهــا :

– كلف الشيخ التهامي بن عمر، بشرح الأربعين النووية.

– أمر الأديب أحمد الغزال بتدوين رحلته (139) عن سفارتــه بالأندلس.

– أمر الفقيه العلامة سيــدي عبد الله فنيش السلاوي بوضع شرح على مقدمــة ابن آجــروم في النحــو. وقد ذكــر في مقدمته سبــب تأليفه (140)، وهو أنــه أراده لتدريس ولده المولى هشام بن سيدي محمد بن عبد الله.

– أمــر ثلاثــة من كبار العلماء بشرح مشــارق الأنوار للصغــاني (141) وهم: الشيــخ التــاودي بنسودة، والعلامــة عبد القادر بــوخريص، والحافظ إدريــس العراقي.

---

(136) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 13، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(137) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ص–م.

(138) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 42.

(139) دعوة الحق، ع: 1و2، س: 19، ص: 131–132، 1398هـ–1978م.

(140) الإتحاف الوجيز للدكالي، ص: 126–127.

(141) الإمام المحدث الحافظ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن، المولود سنة 555هـ،م.650هـ.

فشرح الشيخ التاودي بنسودة الثلث الأول منه، وشرح الشيخ عبد القادر بوخريص الثلث الثاني، وشرح الثلث الأخير الحافظ إدريس العراقي، لكن وافته منيته قبل إتمامه، فأمر سيدي محمد بن عبد الله ولده عبد الله العراقي بإتمامه، فأتمه (142). وجاء الشرح في عدة أسفار.

- أمر ابن عمه محمد (فتحا) بشرح قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم...**﴾ الآية، فشرحها (143).

- وكلف كاتبه ابن عثمان بكتابة رحلته الحجازية، فكتبها، وسماها "أحراز المعلى، أو الرقيب".

- كلف آخرين غير هؤلاء بتأليف كتب أخرى عديدة (144) .

وكانت مجالسه العلمية الخاصة لا تتوقف، حتى أيام سفره وترحاله وظعنه في النزهة والحركات الأخرى، في السراء والضراء. وبالتالي كانت حركة التأليف تواكب هذه المجالس العلمية المتحركة المتنقلة (145).

ففي رحلته الربيعية للاستجمام، سنة 1198هـ، أخذ معه العلماء أعضاء مجالسه العلمية الخاصة -المذكورين- فكان يعقد لهم جلسات عمل طيلة الرحلة، حسب النظام المتبع في إقامته، ودونما أي تأخير (146).

وهذا ما يؤكد لنا أنه كرس أوقاته لخدمة الشريعة الإسلامية، ولا سيما الحديث النبوي الشريف، حتى في أوقات راحته واستجمامه (147).

ولم يكتف بمجال التأليف، بل شجع استنساخ الكتب، فأمر عددا من علماء مجالسه العلمية باستنساخ عدد من الكتب المهمة، ومن ذلك :

---

(142) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 59-60، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 42-43.

(143) المصدر السابق، و ص، وفهرسة الشريف العلمي بن محمد الصادق بن ريسون، سورة الأنفال، الأية: 60.

(144) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: س-ط : 2.

(145) الاستقصا للناصري، ج: 8- ص: 54.

(146) الروضة السليمانية للزياني، ورقة: 121-126، والاستقصا، ج: 8، ص: 54، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة :135، والبستان الظريف، للزياني، ص: 116، م.خ.م، بالرباط، رقم: 1577.

(147) البستان الظريف، للزياني، م.خ.ع، بالرباط، رقم : 1577، ص: 177.

- كون لجينة من أربعة علماء كبار -من علماء مجالسه العلمية- وكلفهم باستنساخ نسخة ممتازة من كتاب البيان والتحصيل، لابن رشد.

وأمر كاتبه وسفيره محمد الغزال، بالاشراف على توثيقها وتحقيقها(148).

ومن اهتمام سيدي محمد بن عبد الله بالتأليف ومساهمته فيه، وعن مؤلفاته يقول معاصره أبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري : "....وكان إماما من علماء الإسلام، له تصانيف تقرأ بالمشرق والمغرب(149) ".

علماء المجالس العلمية الخاصة :

لقد شكل سيدي محمد بن عبد الله مجلسه العلمي الخاص بطريقة انتقائية نخبوية، فكانوا صفوة الصفوة، وأحسن ما في الأحسن.

فقد جمع كبار العلماء من جميع أنحاء المملكة، ثم اصطفى أئمتهم وشيوخهم، واختارهم لمجالسه العلمية الخاصة حتى يجالسهم، ويذاكرهم، ويباحثهم، في دراسة الحديث النبوي الشريف، دراسة علمية استقرائية واستنتاجية، ويعملوا على توظيفه لخدمة برنامجه الإصلاحي الشامل العام.

وكان يتولى اختيار هؤلاء العلماء بنفسه، بعد أن يختبرهم واحدا واحدا شخصيا.

أما الأئمة والشيوخ الكبار، فكان يكتفي باستدعائهم إلى عاصمته، ويضمهم إلى مجلسه دون اختبار.

ويصور لنا القادري (150) هذه الطريقة في اختيار علماء مجالسه بقوله: ".... ولم يلبث أن دخل فاسا -على حين غفلة من أهلها-.... ثم استدعى

---

(148) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 32.

(149) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 56.

(150) نشر المثاني، ج: 4، ص: 125.

علماء فاس لحلته فجمعهم قاضي فاس عبد القادر بن العربي بوخريص الكاملي، وعددهم أربعة وعشرون، ومراتبهم على ثلاث طبقات....

فجلسنا معه فذاكرنا في أنواع العلوم، كل واحد في فن مهرفيه ".

وجملة القول أن علماء مجالسه الخاصة كانوا من الحضر والمدر، نقلهم إلى مراكش، وفرقهم على مساجدها للتدريس بها طيلة الأسبوع، حتى إذا كان يوم الجمعة، حضروا معه الصلاة، ثم اجتمعوا به في مجالسه الحديثية الأسبوعية الخاصة (151)، للدراسة والبحث في الحديث. ومن هؤلاء العلماء الذين نقلهم إلى مراكش من جهات أخرى، العلماء السادة: عبد الله المنجرة، ومحمد بن الشاهد من فاس، أحمد بن عثمان من مكناس، محمد بن عبد الرحمن الشريف من تادلة، الطاهر بن عبد السلام من سلا(152)، وغيرهم.

ويفصل لنا الزياني(153) ذلك قائلا : " لما قلده الله أمر المسلمين –بعد موت والده –ترك ذلك – الأدب والتاريخ – وولع بسرد كتب السيرة والحديث، وجلب المحدثين من فاس ومكناس، ونقلهم لمراكش، كالعلامة الشريف مولاي عبد الله المنجرة أخي مولاي عبد الرحمن، والسيد محمد بن عبد الرحمن، والسيد أحمد بن عثمان، والسيد محمد بن الشاهد، والسيد الطاهر السلاوي، والسيد الطاهر بن عبد السلام، وفرقهم على مساجد مراكش لتدريس العلم، ويحضرون مجلسه بعد صلاة الجمعة، للمذاكرة في الحديث".

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام الذين اختارهم لهذا المجلس أيضا : المحدث الكبير إدريس العراقي، والفقيه محمد الغربي، والفقيه محمد بوخريص، والفقيه علي بن إدريس الفيلالي (154)، وغيرهم.

---

(151) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.هـ.

(152) الاستقصا للناصري، ج: 1، ص: 68، ط. دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 164، 1405هـ–1985م، والدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189–190، ومقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: كـ.ن.لا.هـ.

(153) الترجمانة الكبرى، ص: 63، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(154) الاستقصا للناصري، ج: 1، ص: 68، ط. دار الكتاب، ودعوة الحق، ع: 246، ص: 164، 1405هـ–1985م، والدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189–190، ومقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: كـ.ن.لا.هـ.

ومن الأئمة الأعلام الـذين استدعاهم لإغناء مجالسه العلميـة وإثرائها، دونما أي اختبار (155) :

العلامة القاضي محمد بن عبد السلام الغـربي الرباطي، والعلامة القاضي محمد بن المير السلوي، والعـلامة القاضي عبد الرحمن بوخـريص، والعلامة عبد الرحمن المنجرة، وغيرهم . ومن أقطاب هذه المجالس الأعلام (156) :

العلامة أبو عبد الله الـرشيدي، والعلامة الأديب أحمد بن المهدي الغزال، وشاعر البلاط العلوي ابن الونّـان.

ومنهم (157) : محمـد بن قاسـم السجلماسي، وعبد الـرحمن السراري والفقيه محمـد بن الإمام (158)، والفقيه عبـد السلام بن بـوعزة حـركات، والعلماء : محمد بن حجي زنيبر السلاوي، وبناصر معين، ويوسف بوعنان، وعبـد اللـه بناني الـربـاطي، وأحمد بن علي العلـوي، وأحمد زروق، وأبـو القاسـم العميري (159)، والتهـامي بن عمـر الربـاطي، ومحمـد بن عبـد الصادق (160)، وعبد الكـريم بن زاكور، والمهـدي الكحاك (161) المراكشي، وأحمد بن عثمان المكناسي (162)، والطيب بن كيران (163)، والطاهر بناني الـربـاطي، وسعيـد الشليح الجزولي، ومحمـد الحاضي، والطيب الحنـاش، ومحمد بن عبد الله بن إدريس المنجرة (164)، والفقيه عمر الفاسي(165).

---

(155) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمـد بن عبد الله من كتب الفروع، للحسيسن.

(156) مساند الأئمة، تحقيق الفريد البستاني، ص: 12، منشورات فرانكو للأبحاث العربية الاسبانية 1941 السلسلة : 1، رقم : 3.

(157) الدر المنتخب لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 189-190.

(158) البستان الظـريف، للـزياني، ص: 116، والروضـة السليمانية، للـزياني، ص: 125، والجيش لأكنسوس، ورقة : 135.

(159) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18.

(160) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: ف.ن.لا.هـ.

(161) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(162) إتحاف أعلام الناس، ج: 1، ص: 153-163.

(163) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(164) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 9، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(165) الدر المنتخب، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.ع، بالرباط رقم 1920، ص: 67-70.

" وهـؤلاء هم أهل مجلســه الـذين كـانــوا يسردون لـه كتب الحديث، ويخوضون في معانيها (166) ".

وكان يخول لهؤلاء العلماء الأئمـة مكانـة مرمـوقة، فيبـالغ في تعظيمهم وتبجيلهم، ويغدق عليهم الجوائز والصلات، ويقضي أغراضهم، حتى يتفرغوا معـه لما هو بصـدده من الدراسـة والبحث.... ومجازاة لهم على مثابـرتهم، وتشجيعا لهم على الاستمـرارية والابداع والعطاء بتفـان، وحثا لهمم غيرهم من العلماء المبتدئين، وبعثا لروح المنافسة العلمية بصفة عامة.

ويؤكد لنا الزياني أن هؤلاء جميعا كان سيدي محمد بن عبد الله "يعلي مجالسهم، ويستخرج نفائسهم، ويكثر جوائزهم، ويقضي حوائجهم.... ممن صهرهـم بمدرسته، ورفـع بعضهم إلى درجة الـوزارة، والسفارة، والكتـابة الخاصة. وجلهم امتـاز بالعلم والكفـاءة والاقتدار، كما تدل آثـارهم العلمية والسياسية الباقية (167) ".

وهكذا نـرى أن من أنواع النعم التي بـالغ سيدي محمد بن عبـد الله في إغداقها على علماء مجالسه العلمية، تعيين أئمتهم في المنـاصب العليا للدولة، ومواقع اتخاذ القرار، مما أكده لنا الزياني فيما سلف.

ومن هـؤلاء العلماء العمال السـادة : محمـد المكي الشـاوي، وأحمد بن عثمان، وأبو القاسم الزيـاني، والطيب بن كيران، وأحمد الغزال، والطاهر بن عبد السـلام السلاوي، وإبراهيم الميل السوسي، ومحمـد الموزيري المراكشي، وعبد الكريم بن زاكـور، والمهدي الكحاك المراكشي، والطاهر بنـاني الرباطي، وسعيـد الشليح الجزولي، ومحمـد بـن عثمان المكنـاسي، ومحمـد الحاضي، والطيب الحناش وغيرهم(168). وعين في تطاون الفقيه عبد الكريم بن زاكور كاتبه (169) وواليه على العرائش من قبل، "لأنه حضري مثل أهل تطاون".

وقد تضمنت مخططاته الاصلاحية الشاملة في مجالسه العلمية الخاصة، برنـامجا لتكوين العلماء بجميع أنحـاء البلاد. وفي هـذا الصدد كـان يوزع

---

(166) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

(167) الترجمانة الكبرى للزياني، ص: 18، تحقيق الفيلالي.

(168) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 66.

(169) تاريخ الضعيف الرباطي، ص: 197.

العلماء الأكفاء على جميع أقاليم البلاد بعدالة (170)، حتى يعم نفعهم من جهة، وحتى يعملوا على تكوين علماء آخرين من بين طلبتهم من جهة أخرى، وهي بمثابة عملية لزرع العلماء في جميع أنحاء البلاد.

ومن أمثلة ذلك نجد العالم الكبير محمد بن الحسين الكنوني (171)، الذي استقدمه من وزان للتدريس بمكناس، بتزكية من الشيخ التاودي بنسودة، ولما تحقق من كفاءته واقتداره، صار ينقله بين الأقاليم لفترات بالتناوب، فقد نقله من مكناس إلى طنجة، ومنها إلى تطوان، وهذا كان دأبه مع كافة العلماء الذين كان يتم اختيارهم وتوزيعهم (172) ونقلهم بواسطة لجنة من كبار علماء مجالسه العلمية الخاصة، كالشيخ التاودي بنسودة المذكور في هذا المثال.

وكان لمخططاته الرشيدة المذكورة على جميع المستويات والأصعدة -وبالتالي لبرنامجه الإصلاحي الشامل- أثر كبير في إنعاش الحركة العلمية بالمغرب على عهده، حيث نبغ جهابذة العلماء والمؤلفين في جميع المجالات العلمية، ولا سيما الدينية والشرعية منها، ممن لا زالت خزاناتنا تزخر بآثارهم، وكانوا نجوم مجالسه العلمية الزاهرة.

المجالس العلمية السلطانية العامة :

إلى جانب المجالس العلمية السلطانية التشريعية الخاصة لسيدي محمد ابن عبد الله -التي تقدم الكلام عنها- كانت له مجالس علمية عامة موازية لها، يعقدها في أوقات فراغه مع مختلف طبقات علماء عصره، في مختلف العلوم والآداب والفنون، للترفيه عن نفسه، والترويح عن الأئمة والشيوخ الكبار، أعضاء مجالسه العلمية الخاصة السامية، عما يلحقهم من عناء وتعب ونصب، في جلساتها الطويلة المتواصلة، ومن ثقل المهام الجسيمة

---

(170) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم :3177، ص: 37.

(171) المصدر السابق، و ص.

(172) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 31، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية على عهد العلويين، لمحمد العلمي.

التي يحملون أعباءها، ويتحملون مسؤولياتها -إلى جانبه- على الصعيدين : الوطني، والعربي الاسلامي.

والواقع أن المجالس العلمية العامة أو الأدبية وغيرها، مهما سمت وجلت، فإنها تبقى دون المجالس العلمية الخاصة بكثير.

ذلك أن الإقبال والتنافس كان منصبا ومنصرفا إلى المجالات العلمية والفقهية، بل إنهم كانوا يجدون غضاضة في ممارسة الأدب عموما والفن خصوصا، وحتى من مارسه منهم في -هذا العهد- فعن استحياء، أو في الخفاء، حفاظا على هالة الإجلال والوقار التي تحيط كل من ينسب إلى المجالات العلمية المختلفة، مع تفاوت طفيف بينها أيضا.

وكان رواد هذه المجالس، هم في الغالب رواد المجالس العلمية الخاصة أنفسهم، مع إضافة عناصر جديدة من الأدباء والشعراء الصرحاء الخلص -إن صح التعبير-.

ويرجع ذلك إلى أن المواد العلمية والأدبية، كانت لازالت تشكل كتلة واحدة متراصة، ولم تستقل بعد عن بعضها، وبالتالي فقد كان جل العلماء والفقهاء أدباء وشعراء وفلاسفة وأطباء وفلكيين، لأنهم كانوا يدرسون جميع هذه المواد، وكل منهم يبرع وينبغ في الاتجاه الذي شغف به، وينسجم مع ميوله ونزعاته، واستعداداته الفطرية، أكثر من غيره من الاتجاهات الأخرى.

وجرت العادة في هذا العهد وغيره، أن تختم المناسبات العلمية والدينية وغيرها بحفلات أدبية شعرية، مما يؤكد أن الأدب والفن وبالتالي الشعر، كان لازال لم يفرض وجوده أمام صولة العلوم الدينية والفقهية -إذ ذاك-، لذلك نجد أن أدب تلك العهود كلها، مهما تألق واستلهم وحلق، فإنه يبقى باهتا ركيكا متكلفا، حتى لدى أبرع الشعراء وأفصحهم.

ولم يكن الشاعر يجد أية غضاضة في ذلك، لأنه دائما تكون له اختصاصات أخرى عديدة، قد يتقن إحداها أو بعضها، لكنه قطعا لا يتقنها كلها.

وكانت هذه المجالس العلمية الموازية أو الترفيهية العامة، لا تنقطع في حله وترحاله، حيثما حل وارتحل، في حربه وسلمه، لأن تعاطي العلم مع العلماء، كان هوايته المفضلة، يجد فيها نفسه، ويحقق من خلالها ذاته.

حتى إنه كان يتحسر على ما ضاع من وقته قبل أن يتذوق لذة العلم، ويتعرف، على فوائده ومنافعه قائلا (173) :" والله إننا ضيعنا أعمارنا في البطالة واللهو أيام الشباب، ويتأسف على مافاته من قراءة العلم في صغره".

وكان شغوفا بهذه المجالس العلمية العامة الموازية الترفيهية، إذ ينطلق فيها على سجيته في مباسطة العلماء ومداعبتهم، ويتعمد فيها خلق أجواء المفاجأة والمنافسة بينهم، بأن يطرح عليهم المسائل الغريبة والعجيبة البعيدة عن المألوف، حتى يفحمهم ويستثير ذاكرتهم وقرائحهم ويستنزل مواهبهم وحفظهم، ويبعث فيهم روح المنافسة العلمية السمحة، وحتى يأتوا هم بمثل ذلك، عن طريق تداعي المعاني والأفكار.

ويوضح لنا ذلك ولده عبد السلام بقوله :"…. وكان له ولوع بمجالسة الفقهاء، واعتناء عظيم بهم وبمذاكرتهم، وإلقاء المسائل الغريبة عليهم، وتعجيزهم بها. يريد بذلك مباسطتهم، واستخراج ما عندهم من ذلك.

وله أخبار في ذلك يطول ذكرها (174) ".

ويقول أكنسوس (175) :" كانت عادة السلطان - رحمه الله - مع كتابه وجلسائه، يمتحنهم بغرائب العلوم، كما حدثنا بذلك شيخنا العلامة الحافظ أبو عبد الله سيدي محمد بن عامر التادلي، وكان من جلسائه ".

أما شكل هذه المجالس العلمية العامة، فكان مقتبسا عن مجالس أحمد المنصور الذهبي السعدي، شأنها شأن المجالس العلمية الخاصة.

والواقع أن هذا التقسيم لمجالسه العلمية إلى : مجالس علمية خاصة للتشريع والتخطيط والتقنين….، ومجالس علمية عامة موازية للترفيه والمتعة والفائدة….، أو مجالس أدبية للسمر والمؤانسة والرحلة والسفر….،

هذا التقسيم لم يكن قاعدة عامة، بل نجد له استثناءات وخروقات، لكنها قليلة نادرة "والنادر لا حكم له".

---

(173) الروضة السليمانية، للزياني، ورقة: 25، ودعوة الحق، ع: 2و3، س: 19، ص: 131-132، 1398هـ-1978م.

(174) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 113.

(175) الجيش العرمرم، ورقة : 113-145.

ومـــن هــذه الاستثنــاءات عن القــاعدة العــامــة للتقسيم المذكور، نجـد مجلــسا عـقــده سيــدي محـــمـد بـــن عبــد اللــه خلال رحلتـــه إلى الصـــويرة (176)، سنة 1198هـ.

فرغم أن الرحلــة كانت للنزهة والمتعة والراحــة والاستجمام، فإنه خلال هذه الــرحلة عقــد مجالسه العلميــة الخاصة، للــدراسة والبحــث، والاجتهاد والاستنباط، وبالتالي للتأليف في الحديث، حسب مذهبه المذكور.

وهــذا يؤكــد لنــا أن العلماء أعضاء مجالســه العلميــة الخاصــة، كانــوا يرافقونه حيثما حل، وأينما سار، لأنهم هم الــذين كانوا يسردون الأحاديث بين يديه، وهم الذين كانوا يناقشونه في آرائه ومخططاته، حتى لا يجمح به طموحه وتطلعه الكبير، ورغبته العارمــة في الاصلاح بعيدا، ويحيدان به عن الجادة، وبــالتــالي هم الذين كــانــوا يــؤلفــون له الكتب بنــاء على اجتهــاده، ومنهجيتــه، وبرنــامجه الإصــلاحي المتكامــل، على ضوء المصــادر والمراجع الكبرى التي جلبها من الشرق كما سيأتي.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أنه كـرس حياته للعلم -ولا سيما للسنة النبوية الشريفة- سواء في ظعنه أو إقامته.

ويصف لنا الزياني (177) هذه الرحلة وصفا وافيا فيقول : "ففي حركته إلى الصويــرة، ربيع سنة 1198هـ.... كــان معه جماعــة من علماء الوقت.... كان يملي عليهم الحديث النبوي، ويؤلفونــه له على مقتضى إشارته، وهـم : الفقيه المشارك السيد محمد بن الإمــام، والسيد عبد السلام الغربي، والفقيه العلامة السيــد محمد بن المير السلوي، والفقيه الدراكة السيــد محمد الكامل الرشيدي، والفقيه السيد عبد الرحمن بوخريص.

"هؤلاء أهل مجلسه الذين يــؤلفون له ويسردون، ويخوضون معه فيما يستخــرجه من كتب الحديث، التي جلبهــا من المشرق: كمسند الإمــام أحمد رضي الله عنــه، ومسند أبي حنيفــة النعمان، والصحيحين، والشفا، وغيرهــا من كتب الحديث وشروحها.

---

(176) الصويرة: مدينة شيدها سيدي محمد بن عبد الله ليبطل بها ميناء أكادير الذي كان بيد الثوار سنة 1178هـ، وكان مولعــا بزيارتها والإقامة بها في أوقات راحتــه واستجمامه، التي قد تمتد إلى شهرين.

(177) البستــان الظــريف، ص: 116-117، والروضــة السليمانية، للــزياني، ورقــة : 125، والجيش لأكنسوس، ورقة : 135.

فكان رحمه الله مستغرق الأوقات في الحديث حضرا وسفرا".

أما بقية المجالس العلمية العامة، فكان يعقدها لكافة المثقفين والمفكرين في عصره. من علماء وفقهاء وكتاب وشعراء وغيرهم، حيث تتنوع المواضيع والمحاور وتتشكل.

فقد كان "لا شغل له في أوقات فراغه إلا المطالعة مع العلماء.... لكتب الحديث والسيرة....والتاريخ والأدب، والسياسة (178)".

ويقول ولده عبد السلام (179) في ذلك :".... وكان له مع الفقهاء مذاكرات ومحادثات في سائر الأيام، ومر الدهور والأعوام، فيلقي عليهم من المسائل والمشكلات في الحديث، والسير والأخبار، ومن ضروب الفنون العربية ونكت من المقطعات الأدبية، ما لا يهتدون إليها إلا بعد الإطلاع والبيان، وسواء في ذلك ذو العارض أو قصير الباع".

ويقول الزياني في نفس المعني :

"وكثيرا ما كان يجالس العلماء ويذاكرهم في الحديث، والفقه، والأدب، وأيام العرب، وينوه بهم، مع ما كان يحصل له من النشاط بتبادل الآراء معهم، حيث يبين عن باع في العلوم طويل (180) ".

ويقول الزياني (181) أيضا عن مجالسه العلمية العامة : «وكان إذا تذكر مسألة غريبة قيدها خوفا من نسيانها، فإذا خرج للمشور وتكلم مع الفقهاء، يلقيها لهم كالمستفهم عنها، فإذا لم يجيبوه عنها، بينها. ويقول لي : -للزياني- زد هذه في جرابك، ويضحك.

المجالس العلمية وكتبها المدروسة :

كان اهتمام المولى محمد بن عبد الله بالكتب، ولا سيما أمهات المصادر والمراجع لا يقل عن اهتمامه بالعلماء، باعتبارها المواد الأولية الخاصة لأعمال مجالسه العلمية، والنبع الذي يستقي منه العلماء، ويرجعون إليه

(178) دعوة الحق، ع: 246، ص: 166، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(179) اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار، لولده عبد السلام، وأورده في الاعلام.

(180) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 64-65، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

(181) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 64-65، تحقيق عبد الكريم الفيلالي.

للنهل والعلل من حوضه الفياض الصافي، وبالتالي للاستئناس بما فيها من آراء واستشهادات..

وفي هذا الصدد، وتدعيما وتعزيزا وتعميقا للنهضة العلمية التي بعثها في البلاد، وبالتالي لأعمال مجالسه العلمية قام بتأميم خزانات الكتب القيمة الخاصة، وحبسها، ووزعها على المساجد، بجميع أنحاء المملكة بالمدن والقرى.

وابتدأ في ذلك بنفسه، حيث أمم حوالي اثني عشر ألف مجلد كانت بالخزانة الإسماعيلية، وحبسها ووزعها على المساجد بجميع النواحي بدورها.

كما حبس الكتب القيمة منها على كبار أئمة العلماء، كتحبيسه كتاب المعيار(182) بجميع أجزائه وأسفاره الستة على قاضي دمنات، العلامة أحمد ابن عبد الرحمن الدمناتي اليحياوي، سنة 1202هـ.

وأجمع المؤرخون على أن الكتب التي كانت تسرد بالمجالس العلمية لسيدي محمد بن عبد الله الخاصة، هي كتب الحديث، والسيرة النبوية العطرة.

وأول الكتب التي كانت مادة للسرد والدرس بهذه المجالس، في أول عهدها : كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وصحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم.

ولم يكتف بهذه الكتب التي كانت الكتب الحديثية الوحيدة الموجودة بالمغرب -إذ ذاك-، بل عمل على استجلاب ما لم يكن متداولا منها بالمغرب(183)، ككتاب مسند الإمام أبي حنيفة النعمان، من المشرق.

فكان له أثر كبير على جلسات مجالسه العلمية الخاصة، إذ اطلع علماء هذه المجالس، وبالتالي علماء المغرب جميعا على مجموعة لا يستهان بها من

(182) ونص في عقد التحبيس أنه يحبسه عليه وعلى عقبه، فإذا انقرض عقبه يحول الحبس إلى قصبة دمنات بصفة مؤبدة دائمة. النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 37-38، والمعيار، ج: 6، الورقة: 1، والجيش العرمرم لأكنسوس، ورقة : 122.

(183) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 126-127، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177، ص: 32.

الأحــاديث الصحيحة، وعلى روايــات وطرق جـديدة، فـانكبوا على دراستهـا ورواياتها....

ولم يلبث أن استورد مسندين لم يدخـلا المغرب من قبل، وهما : مسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند الإمام الشــافعي.واتسع أفق المجالس العلمية السلطانيــة الخاصة لسيدي محمد بن عبـد الله، وتدفقت على بســاط بحثها كنوز السنة النبوية الشريفة، وروافدها الصافية العذبة المدرارة.

فشمر مع علمائها لاستيعابها، والاجتهاد والاستنباط على ضوئها، حتى استوفاها،وأوسعها بحثا ودراسة، وتحقيقا وتمحيصا....

وإذا علمنــا بأن مسنــد الإمــام أحمد وحــده، يحتــوي على ثــلاثين ألف حديث(184)، أدركنا سعة هذه الدراســة، وأهمية ذلك المجهود العلمي الجبار للسلطان، وأعضاء مجلسه العلمي الخاص، من جهابذة العلماء وفحولهم.

وسجل لنا المؤرخــون عملية استجلاب واستيراد سيـدنا محمـد بن عبد اللــه لأمهات كتب السنــة، والسـيرة النبــوية القيمــة، وغيرهــا، ولا بأس من الاستئناس بسرد بعضها.

يقول المشرفي (185) في ذلك :".... ومن ذلك جلبه من بــلاد المشرق كتبا نفيســة من كتب الحديث، لم تكن بــالمغرب مثــل، مسند الإمــام أحمد، وأبي حنيفة رضي الله عنهما، وغيرهما ".

ويقول الناصري (186) متحدثا عنها :".... كتب الحديث التي جلبها من المشرق، كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة، وغيرهما ".

ويقول الزياني (187) في نفس المعنى :".... من كتب الحديث التي جلبها من المشرق : مسند الإمام أحمد رضي اللــه عنه، ومسند أبي حنيفة النعمان، والصحيحين، والشفا، وغيرها من كتب الحديث وشروحها ".

---

(184) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: و.ز.

(185) الحلل البهية، ص: 158–162.

(186) الاستقصا، ج: 8، ص: 54.

(187) البستان الظريف، ص: 116–117، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 135.

ويقول أيضا (188) : "..... وأولع بسرد كتب الحديث، والسيرة، ولم يكفه ما يوجد من ذلك بالمغرب، فاستجلب من الشرق ما لم يكن متداولا منها، كمسانيد : أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد ".

وفي إطار اهتمامه بالكتب عموما، ونهمه لكتب الحديث خصوصا، بعث سيدي محمد بن عبد الله وزيره وسفيره أبا القاسم الزياني إلى الخارج، لشراء هذه الكتب الحيوية بالنسبة لأعمال مجالسه العلمية، وخاصة من الدولة العثمانية.

ولنستمع إلى قول الزياني (189) في الموضوع، وهو شهادة من أكبر شاهد : "... واشتريت الكتب التي أوصاني أمير المؤمنين بشرائها وهي : مسند أبي حنيفة النعمان، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والطريقة المحمدية -المختصرة من الإحياء -اقتصر فيها على ما هو مشهور بين أعلام الأمة يدور.

وأعطاني الوزير الأعظم -العثماني- اختصار المواهب الأربع في سفر، وتأليف الدرر المتداول عندهم -العثمانيين- في الفقه الحنفي، كخليل عند المالكية، وشرحه المسمى بالغرر على الدرر في سفرين، كالزرقاني".

المجالس الأدبية :

من أنواع المجالس التي كان يعقدها سيدي محمد بن عبد الله مع قادة الفكر من العلماء والمثقفين في عصره، المجالس الأدبية التي تعتبر ندوات أدبية ترفيهية، ومجالس موازية للمجالس العلمية بنوعيها : الخاصة والعامة.

فقد كان يعقد مجالس أدبية رائعة، سجلت بها المذاكرات والمناظرات الثقافية(190) المختلفة، التي يسودها المرح والحبور والفكاهة، وتحفها أجواء مفعمة بالمشاعر الإنسانية السامية، حيث يحلق خيال الأدباء والشعراء والكتاب والمبدعين، مستلهما جلائل أعمال هذا السلطان العظيم في سائر

(188) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 126–127، تحقيق الفيلالي.

(189) الترجمانة الكبرى، ص: 126–127، بتحقيق الفيلالي، والنهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 32.

(190) مساند الأئمة، تحقيق الفريد البستاني، ص: 13، منشورات مؤسسة فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، السلسلة : 1، رقم: 3–1941.

مجالات الحياة، فيصوغ دررها، وينظمها في عقد فريد يحلي جيد عهده الزاهر، ويرصع تاجه المجيد.

وكان يعقد هذه المجالس الأدبية مع العلماء والأدباء والشعراء بالمشور، أو في غيره من القاعات والقبب، حيث يلقي عليهم المسائل الغريبة في الأدب والأخبار، أو مشاكل علمية حديثية أو فقهية، أو من السيرة النبوية العطرة، التي لا يهتدون إلى حلها إلا بالرجوع إلى المصادر والمراجع في شأنها.

وأحيانا كان يعقد مجالس أدبية صرفة، بحيث لا يحضرها إلا الأدباء والشعراء والكتاب المرموقون في بلاطه بصفة خاصة، وفي مملكته بصفة عامة.

وكان يقربهم، ويذاكرهم (191)، ويناقشهم في القضايا الأدبية واللغوية والشعرية المعاصرة، وكذا في الأحداث التاريخية، وأخبار العرب، وأيامها، وأنسابها....

وفي هذه المجالس كان ينطلق على سجيته، فيصول ويجول، مسترجعا ذكرى أيام تفرغه لتلك العلوم والفنون، التي لم يكن أبرع منه فيها، وبالتالي كان يبرز في جميعها، وينال فيها قصب السبق، والقدح المعلى. مما كان يدخل الفرح والبهجة إلى قلبه، فتنطلق أساريره، وينعكس ذلك على الحاضرين جميعا سرورا وانشراحا، مما يعمل على إنجاح تلك المجالس، فيبدع فيها الأدباء، ويأتي كل منهم بأحسن ما لديه.

وفي هذه المجالس كان السلطان يتواضع لجلسائه، فيداعبهم، ويلاطفهم، ويمازحهم، كأنه واحد منهم (192).

وأشهر (193) أعضاء هذه المجالس الأدبية الصرفة : أحمد بن الونان، صاحب الشمقمقية الشهيرة، وأبو عبد الله محمد بن الطيب سكيرج، وأحمد ابن المهدي الغزال، والكاتب الإسحاقي الذي دون رحلة السلطان مع جدته خناثة بنت بكار –في صغره–.

---

(191) دعوة الحق، ع: 2و3، س: 19، ص: 131–132، 1388هـ–1978م، ومقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص:أ.

(192) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 59–60.

(193) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: أ، ودعوة الحق، ع: 2و3، س: 19، ص: 131–132، 1388هـ–1978م.

ويقول ابن زيدان (194) عنهم :" وكان بأبوابه وخـدمة أعتابه كثير من الأدبـاء والشعراء، أشهـرهم : أحمد بن الونـان صاحب القـافية المشهـورة والمحفوظة، ومحمد الطيب السكيرج، وأحمد بن المهدي الغزال السفير، وأحمد بن عثمان وغيرهم".

وأخبار بعض مجالسـه الأدبية، تحلق بنا، وتعود بنا إلى أجـواء المجالس الأدبية الرائعـة لعهود ازدهار الأدب العربي، مما سجلتـه لنا كتب الأغاني، والعقد الفريد، ونفح الطيب، وغيرها.

ومن نماذج مجالسه هذه وأمثالها :

أنه كـان يومـا بأحد هـذه المجالس، مع نخبـة من كبار أدبـاء وشعراء وكتاب بلاطه "الملازمين لحضرته (195) ". ومجالسه، وعلى رأسهم الشيخ حمدون بن الحاج(196)، فجاء وصيف اسمه ميمون بكؤوس الشاي، وناول الكأس الأولى للسلطان، وكان السلطان يجلس على اليسار(197).

فقال السلطان : إذن يقول الشيخ حمدون :

صـددت الكأس يا ميمون عنا وكـان الكـأس مجراها اليمين

فأجاب الشيخ حمدون وقال (198) : نعم، وأزيد :

ولـــم تعمـــل بحكـم الـــشرع فينـــا
كـــما جـلاه خـــيـــر الـــمـــرسليـــن
رســـول اللـــه فيـــمـــا صـــح عنـــه
من أنـــه قـــال نـــاولهـــا يمينـــا

إلى أن قال :

بـــه طلعـت شمـــوس لأهـل فـــاس
بأقـصى مـــغـــرب للنـــاظـريـــن
ولم يعـــرف لهـــا من قبـل ذكـــر
ولا طـرقت بـأذن الســامـــعـيـــن

(194) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص: س-ط : 2.
(195) مما يؤكد أن هذه المجالس كانت تعقد رسميا وبانتظام.
(196) م. 1132.
(197) مقدمة الفتوحات الإلهية لرشيد ملين، ص : هـ- ب.
(198) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 62-63.

وجامعـــــة تضمـــن مـــاحوتـــه

وجمعـــه فيـه ســـؤل الـــراغبين (199)

وقـد مدحـه شعراء مجالســه الأدبيـة، وعـددوا مزايـــاه العديـدة، التي ماكـانوا يستوفونهـــا حقها ولا حقـه.ولعل أشهر الشعـراء الذين مـدحوه، وأشهـر القصـائد التي مـدح بها على الإطلاق، الشـاعـر أحمد بن الـونـان بقصيـدته وأرجـوزته الشمقمقيـة (200)، التي طبقت شهـــرتها الافـــاق ومطلعها :

مهـــلا على رسلك حـــادي الأنيـــق

ولا تكلفهـا بـــمـــــا لـــــــم تطق

وقد أجازه عنها بألف دينار (201)

وتناول هذه القصيدة بالشرح كثير من العلماء الأدبـاء : الذين أوسعوها شرحـا وتحليلا وتعليـلا.... وعلى رأسهم العـلامة والمؤرخ أحمد النـاصري، مؤلف كتاب الإستقصا.

وبلغ من ثقافة السلطان اللغوية والأدبية الواسعة الشاملة، أنه كان ينظم الشعر، ومن شعره يخاطب أحد شعراء مجالسه الأدبية :

جسمي معـي غير أن القلب عنـــــدكم

يـــا عجبـــا لافتراق القلب والبــــدن

وقـد اقترح على الشيخ التاودي بنسـودة إجازة هـذا البيت في أحد هـذه المجالس فقال :

نفسي وأهلي ومــــا جمعـت من نشـب

معي الفـــداء لـــذاك القلب مـن شجن

وقد تناوبـا النظم والإجازة والمعارضة حتى بلغـا بهذه القطعة أحد عشر بيتا(202).

---

(199) مقدمة الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص : ص – ب. ط : 2.

(200) دعوة الحق، ع : 234، ص : 37، 1404هـ 1984م، سيدي محمد بن عبد اللـه ومآثره الخالدة، لمحمد بن شقرون.

(201) دعوة الحق، ع : 234، ص : 37، 1404هـ 1984م، سيدي محمد بن عبد اللـه ومآثره الخالدة، لمحمد بن شقرون.

(202) النهضة العلمية، لابن زيدان م.خ.م. بالرباط، رقم : 3177، ص : 43.

ويحدثنا ولد ه المولى عبد السلام عن أمداح الشعراء في والده فيقول : "... ولأدباء المغرب أمداح في أموره المتجددة، من الأعياد والحركات شيء كثير (203) ".

وكما كان يأمر علماء مجالسه العلمية بالتأليف، كان يأمر أدباء وشعراء مجالسه الأدبية بالتأليف في الأدب وإعداد دراسات أدبية أو شروح لنصوص أدبية قيمة.

من ذلك أمره للشيخ التاودي بنسودة المري بشرح هذين البيتين :

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه
صنيعة تقوى أو حبيب تذاوقه
منعت وبعض المنع حزم وقوة
فلم يفتلتك المال إلا حقائقه

وهكذا فقد كان للنهضة الفكرية والثقافية الشاملة التي بعثتها المجالس العلمية والأدبية المختلفة لسيدي محمد بن عبد الله في ربوع البلاد، أثر وأي أثر في إنعاش الحركة الأدبية، ونبوغ عدد من الشعراء الفحول، والأدباء المفلقين، كابن الونان - (204)، صاحب الشمقمقية، وعمر الفاسي، وأحمد الغزال، وابن عثمان الوزير، وأخيه أحمد وغيرهم (205).

وكانت أغلب المجالس التي يعقدها سيدي محمد بن عبد الله في سفره وتحركاته المختلفة مجالس أدبية عامة لطبيعة الظروف والمواقف ومقتضياتها ومتطلباتها.

أما المجالس العلمية الخاصة فلم تكن تعقد في هذه الرحلات إلا لماما ومتى دعت الضرورة ومست الحاجة، وفي حدود ظهر يوم الجمعة المخصص لها، وبالتالي فقد كانت تشكل استثناء بالنسبة للمجالس الأدبية التي كانت هي القاعدة العامة في رحلاته وتنقلاته المختلفة.

---

(203) الجيش العرمرم، لأكنسوس، 113–145.

(204) ابن الونان، لعبد الله كَنون رقم 15، ص : 7–15 دار الكتاب بيروت

(205) دعوة الحق، ع: 4، س : 10، ص: 31، 1386 – 1987 النهضة العلمية على عهد العلويين لمحمد العلمي.

وكان كثيرا ما يخرج بحاشيته وبطانته وأعضاء مجالسه المختلفة للنزهة والترفيه من عنـاء الأعمال الجليلة والمسؤوليات الجسيمـة وروتين الطقوس الرسمية والبروتوكولات الرتيبة المملة.

وكان معجبـا بالمنصـور الذهبـي السعدي -كما مـر بنا- ويحرص على تقليده في أموره الخاصـة والعامة، وخاصـة في رحلاتـه المخصصة للصيد أو للراحة والنزهة.

فقد كان في رحلاته وأسفاره المختلفـة يتوخى النزول بالمنازل التي كان ينزل بها المنصور في رحلاته أيام ملكه سواء في ذهابه أو إيابه.

وكان يجاهر بهذا الإعجاب وبهذا التقليـد، ولا يجد في ذلك أية غضاضة، وكثيرا ماكـان يقول : " هذه منازل المنصـور رحمه الله، وهو أستـاذنا في هذه الأمور "

وهذا إن دل على شيء فإنما يـدل على مدى شهامته وثقتـه بنفسه ونبله وأريحيته.....

ويصف لنا الزياني (206) إحدى هذه الرحلات قائلا : " لما خرج رحمه الله -سيدي محمد بن عبد اللـه- للحركة إلى الصويرة، عام 1198 هـ خرج مع الخاصة، والقواد، والكتاب لمضاربهم."

وكان معه جملة وافرة من الكتاب المعتبرين في الإنشاء والترسل، كالمهدي الكحاك المراكشي، وعبـد العزيز الكـامل المراكشي، وأحمد بن عثمان المكناسي، وأحمد الغـزال الفاسي، ومحمـد سكيرج الفاسي، والطـاهر بنـاني الربـاطي، والطاهر بن عبد السلام السلاوي، وسعيد الشليح الجزولي، وابراهيم أقبيل السوسي وغيرهم.

وتوجـه في موكب عجيـب يرتاد النـزهة، وأقـام شهرين، يجنـي اللذات والمناظر (207).

وبلغ أغمات فجاءه فجأة أهلها بكبش جيد، وبآنية من الشهد،...فبعثه إلى خباء القـاضي عبد الـرحمن بن الكامل -الـذي عينه على السـوس- بكبشه وشهده.

---

(206) البستـان الظـريف، ص : 117، والـروضة السليمانيـة، للـزياني ورقـة : 126، والإستقصا للناصري، ج : 8 ص : 54-55 والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 136 .

(207) المصادر السابقة وص.

وعاد إلى مراكش، وفي وادي نفيس -في طريق عودته إلى مراكش - ضرب صيوانا على النهر، واستدعى جلساءه (208) -المذكورين -... والقاضي أبا زيد، وسأل القاضي....: بماذا اجزت ضيفك على كبشه وعسله، فاحتار، وتفطن إلى أنه لم يعمل شيئا، فقال : لعلك لم تجزه، فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود، وما بعثته إليكم الا لهذا الكبش والعسل، لأني تذكرت ما اتفق للمنصور السعدي مع كتابه في مثل هذه القضية، وعلمت أنه لم يبق في وقتنا كتاب، ولا أدباء ولا أمراء...

وأمر كاتبه ابن المبارك، أن يقرأ عليهم ماحكاه الفشتالي في مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدي إلى أغمات بقصد الزيارة والنزهة، وما اتفق لابن مالك عبد الواحد الحميدي مع من أهدى له الكبش والعسل من الشعر، والذي تابعه عليه جماعة من كتاب الدولة، فقرأ الكتاب.

وعاب السلطان عليهم تقصيرهم في قضيتهم الموافقة لها. ويظن أن السلطان أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته، تحريكا لهممهم(209) وسخرية بهم".

ويمكن أن نضيف إلى مجالسه الأدبية -بتجاوز- مجالس احتفاله بليلة عيد المولد النبوي الشريف، التي كانت أجواء تقاليدها وعوائدها أدبية وفنية وتاريخية، لما كان ينشد فيها من قصائد شعرّية، وأمداح نبوية، وما يسرد فيها من كتب السيرة، وقصة المولد النبوي، وما يقدم من عروض حولها.....(210).

وهذا وصف حي وموجز لإحدى هذه الحفلات للضعيف في تاريخه : " وفي ليلة المولد، ورد عليه أهل فاس مع الحاج عبد الرحمن بن زكري، لقراءة الأمداح، والهمزية، والبردة، وكذلك طلبة تطوان. فأكرمهم، وفرش الجامع من داره، وجلس بين أهل فاس وتطوان، وتناوبوا على الإنشاد بين يديه.

وأمرهم بقراءة "بانت سعاد "، لكعب بن زهير.

---

(208) الروضة السليمانية للزياني، ورقة : 126، والإستقصا للناصري ج : 8، ص : 55-56، والجيش لأكنسوس، ورقة : 136-137، والبستان الظريف، للزياني، ص : 117.

(209) الإستقصا للناصري، ج: 8، ص : 56، والجيش، لأكنسوس، ورقة : 136-137، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة : 126، والبستان الظريف للزياني، ص : 117.

(210) تاريخ الضعيف، ص : 187 - 188.

وصباح العيد خرج بهما -بأهل فاس وأهل تطوان- خارج المدينة، وهم راكبون يذكرون الأمداح. ولعب السلطان بالمزراق، ثم فرق عليهم الأموال، وعلى الطلبة، والفقهاء، والمجاهدين ".

ومن تكامل شخصية هذا الملك العظيم، وسمو ذوقه الفني والأدبي، أنه كان مولعا بالسماع للألحان الموسقية الأصيلة (211).

ذلك أن الفنون هي مقياس ومعيار حضارة الشعوب، وبالتالي هي معيار وعنوان سمو الفرد ووعيه ونضجه، وعزة نفسه ونبل مشاعره، وسلامة ذوقه، وبالتالي عظمته وأريحيته.....

المجالس العلمية والأدبية للأمراء :

كان الأمراء والعلماء وأعيان موظفي الدولة يقيمون -بدورهم- مجالس علمية وأدبية رائجة، سيرا على سنة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، واقتداء به، وتعبيرا صادقا عن مدى ازدهار الحياة الفكرية والثقافية بالديار المغربية، في عهده وبفضله.

وكان في طليعة الأمراء الرواد الذين اهتموا بإقامة هذه المجالس العلمية والأدبية الزاهرة، ولده وولي عهده وخليفته على فاس، الأمير المولى علي.

وكان من كبار العلماء والأدباء والشعراء، متضلعا في جميع العلوم والفنون السائدة في عصره، ولاسيما الأدب شعرا ونثرا.

كما كان راجح العقل كريم النفس، ذا همة عالية تطمح للمعالي والمفاخر والأمجاد.

ويصور لنا أحمد بن حمدون بن الحاج (212) شخصيته الفذة قائلا :

"..... مولاي علي الخليفة الأمجد، الطالع سماء المعالى، طلوع البدر الأوحد، المخصوص بالمآثر العامة، واتباع وصايا والده في السر والعلانية، نجل أمير المؤمنين.

---

(211) المعرب عبر التاريخ، لحركات، ص : 87.

(212) الدرر، لأحمد بن حمدون بن الحاج، ص: 360، م.خ.م. بالرباط رقم : 1920.

كان -رحمه الله- ذا باع في كل فن من فنون العلوم، له اليد الطولى في النظم والنثر، والإنشاء، والطي، والنشر".

وكان يعقد مجالس علمية وأدبية باستمرار، ويحرص على أن يجمع بها عددا كبيرا من العلماء والأدباء، والنبلاء والفضلاء، لإعجابه واقتدائه بكل من والده، وعم أبيه المولى محمد العالم، وخاصة في أدبهما وكرمهما وسائر خصالهما، سواء الشخصية الذاتية، أو العلمية والأدبية.

وقد ازدهرت مجالسه العلمية والأدبية، فقصده كبار العلماء والأدباء والشعراء، الذين كان يجزل عطاءهم، ويكثر جوائزهم السنية.

يقول عنه الناصري (213) : "... وكان من سادة العلويين ونجبائهم، ومن أهل المروءة، عقلا وعلما ، وأدبا، وكرما وهمة ".

وكان لا يجالس إلا العلماء الأخيار، ويعطي عطاء الكرام الأبرار (214).

وكان من أقرب جلسائه إليه، وأكثرهم علما وأدبا وجاها وثروة، العلامة الشريف سيدي زيان العراقي، والعلامة سيدي محمد بن الطاهر الهواري(215).

ولم يكتف المولى علي بعلماء مجالسه العلمية والأدبية، حيث كان يمارس هوايته المتوارثة على أوسع نطاق، وفي أعلي المستويات، ومع فطاحل البلاغة والفصاحة، وفحول الأدباء والشعراء، وجهابذة العلماء، بل كان مولعا بمراسلة العلماء والأدباء والشعراء، شعرا ونثرا، توسيعا لدائرة مجالسه ونشاطها، وبالتالي توسيعا لمداركه، وتنويعا لتجاربه ومعلوماته.

يقول الناصري في ذلك : "... وكان كثيرا ما يبعث بأشعاره ومخاطباته لأهل عصره، وأدباء وقته، من الفاسيين والبكريين، والقادريين (216) ".

وتوطيدا لدعائم مجالسه العلمية والأدبية، وتعزيزا لدورها الإشعاعي، وتكريسا لوجودها، وتطورها وازدهارها، اهتم بنسخ الكتب العلمية والأدبية، وخاصة الغريبة والنادرة منها (217).

---

(213) الإستقصا، ج : 8، ص : 52.

(214) الدر المنتخب المستحسن، لأحمد بن حمدون بن الحاج م.خ.ع، بالرباط رقم : 1920، ص: 360.

(215) المصدر السابق، وص : 191.

(216) الإستقصا للناصري، ج : 8، ص : 52، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 137 - 138، والروضة السليمانية، للزياني، ورقة 125 - 126.

(217) الإستقصا، ج : 8، ص : 52.

لكن اهتمامـه بالأدب والشعر والتـاريخ والأخبار وميلـه لذلك أكثـر من غيره، أزعج والـده السلطان سيـدي محمد بن عبـد الله، وخـاف أن تشغله مجالســه الأدبية عن التضلع في العلم، ولاسيما العلـوم الشرعيـة والدينيـة وغيرها (218).

فأمره أن يجمع كل الكتب الأدبية والشعرية وما إليها بخزانته، ويرسلها إليه إلى مراكش على جناح السرعة، ودونـما أي تأخير ولا مماطلة.

وكتــب إليـه (219) ينهـاه عنهـا، ويوصيـــه، ويـوجهه في هذا الشأن : " إن كتب التاريخ آخر ما يقرأ، فإن اشتغلت بكتب التاريخ أولا أتلفت دينك وقراءتك، ووقع لك مثل ما وقع لي.

فقـد شــغـلـت بها نفـسي أيـام الشـباب، و تركـت القرآن و التفـسير والحديث، حتى حصلت لي النـدامة، فإيـاك ثم إياك أن تعمل عملي، فتكـون مثلي.

فتشبـه بمن هو أعلى منك، ولا تتشبـه بمن يماثلك أو أدنى منك، فتعلـو همتك، كما قيل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشـبـه بالـكـرام ربـاح

وامتثل المولى علي لتعليمات والـده، وأرسل لـه الكتب المذكورة، فضمهـا سيـدي محمـد بن عبد الله إلى ما كـان عنـده هو منها بمراكـش، ووجهها إلى مصر، مع كـاتبـه الصنهـاجي، ليحبـسها بالقاهـرة و الإسكندرية(220) كما سبق القول.

ومما يؤكـد لنا اهتمام هذا الامير الجليل بـالعلوم الدينية، خـاصة –بعد وصية والـده و موعظتـه إياه– ومـدى امتثالـه لتعليمات والده، و بـره به، وبـروره بــوعـده لـــه في الانصراف عن كتب الأدب، الى العلـوم الـــدينيـة والشرعية– قيامه بنسخ المصحف الشريف سنة : 1182 هـ – 1768 م.

---

(218) الدر المنتخب المستحسن، لأحمد بن حمدون بن الحاج، م.خ.ع بالرباط رقم : 1920، ص : 189 – 190.

(219) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص : 190، و الترجمانة الكبرى للزياني، ص : 64. و بها النص الكامل لهذه الرسالة.

(220) المصدر السابق، و ص.

وذلك في مستوى رفيع جدا، فهو محلى بالذهب و الألوان، و مرصع بالياقوت....

و لعله أهداه لأحد الحرمين الشريفين : المسجد الحرام بمكة، أو المسجد النبوي بالمدينة المنورة، أو لثالث هذين الحرمين الشريفين المسجد الأقصى بالقدس الشريف، لكنه لأمرٍ مَّا صار في حوزة محمد أبو الذهب، حاكم مصر سنة 1188هـ-1773م في الفترة التي كان يجمع فيها الكتب، لخزانة الجامع الذي بناه.

و بعد غزو نابليون لمصر، نقل هذا المصحف إلى متحف اللوفر سنة 1868م، ثم أعيد الى القاهرة .

و يوجد الآن ببناية الهيئة المصرية العامة للكتاب. (221)

المجالس العلمية لكبار العلماء

اقتداء بسيدي محمد بن عبد الله، كان كبار علماء عصره، وأعيان مجالسه العلمية، يقيمون مجالس علمية خاصة بهم، بعيدا عن طقوس المجالس الرسمية، وما يحيطها من هيبة السلطان، ورهبة الموقف.

وغالبا ما كانت تعقد للإحتفال بختم أمهات المصادر الدينية، التي كانوا يقومون بتدريسها، أو لدراسة ظاهرة أو قضية، أو مشكلة طارئة، تهز الأوساط العلمية، أو تشغل بال الرأي العام المغربي، أو العربي والإسلامي أيضا، وبالتالي للتناظر والتحاور حول الكتب الجديدة التي كانت تصدر -إذ ذاك، - سواء الرسمية منها أو الشخصية - وما كان أكثرها -، مواكبة للنهضة العلمية التي بعثها سيدي محمد بن عبد الله.

وهذه أسماء أئمة العلماء (222) الذين كانوا يقيمون أمثال هذه المجالس، مع ذكر نماذج لبعضها :

- العلامة التاودي بن الطالب بنسودة المري الفاسي.
- العلامة محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الفاسي.

---

(221) دعوة الحق، ع : 234، ص : 48 - 1404هـ 1984م مصحف الأمير مولاي علي بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لعبد الهادي التازي

(222) تراجمهم بالنبوغ المغربي لكنون، ج : 1.

- العلامة إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون الحسني العراقي الفاسي.

- العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي.

- العلامة أبو العباس أحمد بن الرضى بن عثمان المكناسي.(223)

- العلامة محمد الطاهر بناني (224)، وغيرهم كثير.

وكانوا، زيادة على هذه المجالس، يتبادلون رسائل إخوانية ومراسلات علمية، كالمراسلات المتبادلة بين أحمد بن عبد العزيز الهلالي (225)، وبين القادري صاحب نشر المثاني (226).

(223) اتحاف أعلام الناس، ج 1، ص 353 – 361.

(224) نشر المثاني للقادري، ج : 4 ص : 209.

(225) المصدر السابق، ج : 4، ص : 143.

(226) المصدر السابق، و ج، و ص.

الفصل الثاني

المجالس العلمية
على عهد المولى سليمان :
تطورها وتنوعها بتطور
وتنوع أعمالها على الصعيدين
الداخلي والخارجي
كتبها - علماؤها - مذهبها



الفصل الثاني

المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى سليمان

(1206- 1238هـ ــ 1792- 1822م)

تابعت الحياة الفكرية ازدهارها وتألقها على عهد المولى سليمان، لأنه سار على نهج والده في إقامة المجالس العلمية، والاهتمام بالحديث النبوي الشريف، واتخاذ هذه المجالس قمة هرم هياكل الدولة ومؤسساتها، ومركزا ومجمعا علميا للتنظير والتشريع والتخطيط، ومرجعا في كل ما يواجه الدولة من مشاكل وقضايا، ومصاعب وأخطار. سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

ولعل أصدق وصف للمولى سليمان نجده عند الزياني (1) -الذي عايشه عن كثب منذ صغره إلى ملكه- إذ يقول: "…. وكان المولى سليمان ذا أخلاق فاضلة، واشتهر بالحلم والدين، والصبر، والعفو والعدل، وحسن السيرة، وجميل السياسة، والسخاء والشجاعة…. ".

لذلك كان والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحبه ويثيبه على ذلك، وينوه به في المحافل الخاصة والعامة (2).

وقد نوه به المؤرخون المغاربة والأجانب، من ذلك قول الناصري (3): " كان موصوفا بالعدل، محترما محبوبا، لحسن سيرته وسريرته، واتفق له -أواسط دولته- من السعادة والأمن، والعافية والرخاء، ما جعل تاريخا، وبويع مطلوبا لا طالبا. "

وقال عنه "هوفير" (4) من المؤرخين الأجانب: " كان من أحسن ملوك دولة الأشراف".

---

(1) الروضة السليمانية، للزياني م.خ.م، رقم ؟؟؟ ص: 205.

(2) المصدر السابق، و ص، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 181، والجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة: 150.

(3) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 112.

(4) المغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 173.

وفي الاستقصا (5) عن ثقافته :" كان متضلعا في جميع العلوم، وخاصة في الفقه، والفتوى، وعلوم القرآن، حاملا لواء الشريعة، وارثا للأنبياء.

ولا يعرف مقدار هذا السلطان، إلا من تغرب عن الأوطان، وشاهد سير الملوك في العباد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلا بعد غيبته وفقده ".

ويقول الزياني (6) في شهادته "...... وإذا نظرت بعين الإنصاف، ونطقت بلسان الحق، فهو -المولى سليمان- عمر بن عبد العزيز في وقته، ولم يكن في دولة بني إسماعيل -بعد والده- رحمه الله - أفضل منه علما وعقلا، ودينا وحولا، وحلما وصبرا، وكرما ومروءة، وحسن خلق، ولين جانب وتواضع، وهو الواسطة، لولا أنه يستبد برأيه، ويعتمد على من لا خبرة له بالحروب".

هذه الأوصاف جعلت المولى سليمان مهتما بمجالسه العلمية، حريصا على تهيئ المناخ الثقافي المناسب لأعمالها، والتربة الخصبة التي تساعد على تنميتها وازدهارها.

فقد عمل على نشر العلم بالحواضر والبوادي، والاهتمام بطلبته، وتقريب العلماء، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم السامية إلى جانبه في مركز اتخاذ القرار، وتحمل المسؤولية الكبرى، وبالتالي على القيام برسالتهم التربوية التعليمية المقدسة بالمساجد والمدارس، حيث يتحملون مسؤولية لا تقل عن الأولى أهمية، ألا وهي تربية وتعليم الأجيال الصاعدة، وتربية المواطنين وتوجيههم وإرشادهم، إلى غير ذلك من إنشاء المكتبات بالمدارس والمعاهد، وتشجيع التعاون والتبادل الثقافي والفكري، سواء بين علماء المغرب فيما بينهم، أوبينهم وبين علماء العالم العربي والإسلامي.

غير أن هذه المجالس عرفت في عهد المولى سليمان تطورا جذريا من حيث المذهب والعقيدة، وبالتالي من حيث أنواعها، وأشكالها....

ذلك أن المولى سليمان نهج منهجاً وتوجهاً مخالفاً لمنهج والده سيدي محمد بن عبد الله، ولمذهبه فيما يتعلق بالأخذ بالفروع الفقهية وعلم الكلام.

---

(5) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 169–170.

(6) الروضة السليمانية، للزياني، م.خ.م، ص: 187.

فقد عمل على بعث مذاهب المتكلمين، وإحياء العمل بكتب الفروع، وشجع على تداولها وتدريسها، دون أن يمس مذهب أهل السنة والجماعة، أو يمس اعتماد أمهات المصادر والمراجع والأصول.

لكن هذا الاختلاف، وهذا التناقض، لم يتناول أسس هذه المجالس، وجوهرها، وأبعادها، وأهدافها التي ظلت كما كانت، ألا وهي خدمة الشريعة الإسلامية، وتوطيد صرحها الشامخ، وتعميق أسس الإسلام، ورفع رايته عاليا، خفاقة في العالمين.

كما كانت مجالسه العلمية دائبة النشاط والانتاج، والإبداع والعطاء، في سائر المجالات والقطاعات، ولا سيما في المجال الديني، والفكري، والثقافي، للمستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه رئيسها ورائدها المولى سليمان، وكذا الذي كانت عليه النخبة من أعيان العلماء، التي اختارها لعضوية مجالسه العلمية الاجتهادية العليا، وارتضاها للعمل بين يديه، وتحت إمرته، من جهابذة علماء عصره، في سائر العلوم،ولا سيما العقلية منها، كالبيان، والأصول، والمنطق، والكلام، والتفسير، والحديث....

والذي ساعده على هذه التطورات الجذرية، وعلى تنفيذ برنامجه الإصلاحي، -الذي أعده داخل مجالسه العلمية، وبمعية علمائها- المناخ العالمي العام، الذي كانت رياحه تجري بما تشتهيه سفن المولى سليمان.

فقد واكب عهده الثورة الفرنسية، وحملة نابليون بونابارت على مصر، وظهور الحركات السلفية بالعالم العربي : الوهابية بالحجاز، والمهدوية بالسودان، والسنوسية بليبيا.

ولا بأس من استعراض بعض أعماله الجليلة في مجال تدعيم مجالسه العلمية، وتعزيز دورها، وتعميق أسسها، وتمهيد ميدانها.

فقد كان يقرب العلماء، ويعلي مكانتهم، ويشجعهم حتى إنه كان يزور أئمة أعلامهم، ويلبي دعواتهم، ويعود مرضاهم، ويحضر جنائزهم (7)، كما كان يؤثرهم بالعطاء مرتين في السنة (8).

---

(7) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم: 3177، ص: 49، والدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(8) الابتسام، تحقيق مخطوطة، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 4، لعبد الهادي التازي.

فقد زار الشيخ التاودي بنسودة، ويحيى بن المهدي الشفشاوني، ومحمد عبدلي، وعاد عبد القادر بنشقرون، وأحمد بن التاودي بنسودة، ولبى دعوة حمدون بن الحاج، وحضر جنازة عبد القادر بن شقرون -حتى حشره في قبره - وكان يتردد خفية على شيخه ابن عبد السلام الفاسي، وربما بات عنده (9).

قال المشرفي في ذلك : "كان صاحب علم وعدل، وحكمة وهدي، وسيرة حميدة، سعى في تقريب كل ماهر وقطب (10) ".

وكان يستدعي النبغاء، ويختبرهم، ثم يكرمهم وينعم عليهم بثا لعنصر المنافسة بين العلماء، ولاختيار أعضاء مجالسه العلمية (11)، وتجديد عناصرها.

كما كان يحسن إلى المدرسين والطلبة، ويضاعف الأجر والإحسان للمجدين منهم. فقد أعطى مرة لصبي -ظهرت نجابته- ألف مثقال(12) "حتى تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم، وانتحال صناعتها، لاعتزاز العلم وأهله في دولته، وسعة أرزاقهم (13) ".

وفي إطار حرصه على نشر العلم بين الصغار، كان يبدأ بنفسه فيحض أولاده عليه، وخاصة على حفظ القرآن الكريم (14) .

المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان :

كان المولى سليمان عالما جليلا كوالده سيدي محمد بن عبد الله، فلا غرابة إذا اقتفى أثره في عقد المجالس العلمية الاجتهادية، لمدارسة الحديث النبوي الشريف، تلك المجالس التي خلدت جلساتها قصائد رائعة طنانة،

---

(9) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم :3177، ص: 49-50.

(10) الحلل البهية، ص: 178.

(11) الابتسام تحقيق مخطوطه، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

(12) المصدر السابق، ص: 4.

(13) الحلل البهية للمشرفي، ص: 179، والروضة السليمانية، للزياني، ص: 205.

(14) المصدر الأول، ص: 6.

نظمت في حفلات ختم هذه الدروس الحديثيـة، وهي مسجلة بديوان كل من سليمان الحوات(15)، وحمدون بن الحاج السُّـلَـمي (16) .

وهذه المجـالس رغم تعـددها وتنـوعها –حسب الملابسـات والظروف– فإنها تـرجع في أصلهـا إلى نوع رئيسي أسـاسي، ألا وهـو المجالس العلميـة السلطانية التقليدية، مع إضافة المجالس الأدبية.

ولم يطـرأ عليهـا تغيير جـذري من حيث شكلهـا، بينما عـرفت تطـورا وتعديلا جذريا من حيث مضمونها، واتجاهها، وخطابها....

ويمكن القول أنـه كانت للمولى سليمان مجالـس جد خاصـة مع نفسه، يعقدها بمفرده، ويحرص على عقدها في أوقاتها المحددة المعلومة، مما يجعلنا –ولو من نـافلة القول –نرى أن نبـدأ بها، وهي تؤكد مدى ورعـه وتقواه، وتصوفه الصادق.

فقد كان يختـم القرآن في كل شـهر ثلاث مرات، ويـوزع ذلك على الأيام في حصص معلومة محدودة "يعد ذلك عدا، ولا يشغله عنه شاغل (17) ".

كما كـان يختم دلائل الخيرات في كل جمعـة، ولا يطلع عليـه الفجـر إلا متوضئـا، مستقبل القبلة، مصليا أو تـاليا (18). وكان يلتـزم بذلـك في حله وتـرحـالـه. يقـول أكنسوس في ذلك : ".... وكـان يـوصينـا في السفـر أن نوقظه.... فإذا جئنـا نوقظه وجدناه قد سبقنـا، وجلس في مصلاه، وكان لا يتلو إلا إذا حضر من يسمعه، وإن كان حفظه غاية، إلا أنه يفعل ذلك حزما. وإن بقي عليـه شيء من ورده من التـلاوة، تلا وهـو راكب في الطـريق، بحضور من يسمعه (19) ".

كما كانت له مجالس ثنائية يخص بها بعض أعلام علماء مجالسه، حيث يحاورهم، ويـنـاقشهم، ويستشيرهم في قضـايـا ومسـائل علميـة هـامـة، كجلساته من هذا النوع مع أكنسوس (20).

---

(15) م.خ.م، رقم : 101، ص: 72،74،79–86، ودعوة الحق، ع: 1، س: 8، ص: 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، لحسن السائح.

(16) م.خ.م، رقم : 225، ص: 31، 177، 46،158، 84، 165، 193، 196 و202، ودعوة الحق ع: 1، س: 8، ص: 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، للسائح حسن.

(17) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ص: 246.

(18) المصدر السابق، و ص.

(19) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 246.

(20) المصدر السابق ورقة : 244.

أما مجالسه العلمية السلطانية الاجتهادية والتشريعية الخاصة، فكان حريصا على عقدها باستمرار، وفي أوقاتها المحددة، دونما أي توقف، ولا تأخر. ومهما كانت الظروف. كما كان يرأسها بنفسه، ويشارك في أعمالها وأبحاثها، مشاركة عملية فعالة، وبالتالي يساهم في عروضها، ومحاضراتها، ومناظراتها بحصة الأسد.

كما كان يسهر على تسجيل محاضرها، والاحتفاظ بها، للاستعانة بها، وتوظيفها فى أعمال الخلايا المكلفة بالتأليف والتصنيف.

يقول المشرفي في ذلك :".... ولا شيئ يشغله عن كسب المحامد والمفاخر الدينية، كطلب العلم، وتحقيق مسائله، وأصول مذاهبه، ومعرفة آراء المجتهدين، ومن أين أخذهم الأحكام...... وبها صار من ذوي العلوم والعدة(21) ".

ولم تكن هذه المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان تعقد في العاصمة فقط، بل كان يعقدها –حسب أوقاتها– حيثما حل وارتحل. وفي ذلك يقول الضعيف الرباطي (22) :" ففي 20 محرم، 1212هـ، جمع علماء هذا المجلس بدار المرايا، من فاس البالي، حيث عقد جلسة عمل معهم، شارك فيها في البحث والدراسة، وفي الحوار والنقاش والمذاكرة (23) ".

ويصف لنا صاحب الابتسام نشاطه في مجالسه بأنه كان :" يكثر من المذاكرة مع العلماء، والبحث معهم (24).... وكانت له مشاركة حسنة في العلم، وخصوصا الحديث، فإنه كان يأخذ فيه بالحظ الأوفر، فيتناول منه في رسائله ما شاء (25) ".

ويؤكد الزياني عقده لمجالسه العلمية حتى في أسفاره وتنقلاته، واصفا لنا معاملته لعلمائها قائلا : إنه كان: ".... محبا للعلماء، موقرا لهم، يعطيهم العطاء الجزيل، ويكرمهم. ومجلسه لا يخلو منهم، حضرا أو سفرا....(26) ".

---

(21) الحلل البهية، ص: 175.

(22) بتصرف.

(23) تاريخ الضعيف، ص: 307.

(24) الابتسام، تحقيق مخطوطه، مجلة المناهل، ع: 36، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

(25) عقد الجمان، للزياني، م.خ.ع، بالرباط رقم : 40، ص: 16.

(26) المصدر السابق، و ص.

أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان :

المجالس العلمية السلطانية الخاصة :

لقد عرفت المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان أهم تطور جذري، إذ يعتبر أول من كرس عادة عقدها طيلة شهر رمضان، وبلور معالم تقاليد ومظاهر هذه المجالس الرمضانية، شكلا ومضمونا.

فقد كان يقيم ليالي شهر رمضان الأبرك التي كان يبتدئها بالإشفاع والذكر، ثم يعقد جلسات مجالسه العلمية السلطانية التقليدية الرسمية، التي يحضرها أعضاء هذه المجالس، من أعيان العلماء، وأئمة التفسير والحديث. حيث تسرد الأحاديث النبوية الشريفة، وتتلى الآيات القرآنية الكريمة، مما هو مقرر في كل يوم، بين يديه، فيتولى العلماء -تحت رئاسته وتسييره- تفسير النصوص الحديثية والآيات القرآنية وتقريرها، من حيث المعنى والمبنى، وتفهم أبعادها وأهدافها القريبة والبعيدة، والمناقشة والجدال في كل ذلك، بروح البحث العلمي النزيه المجرد، مستهدفين استنباط أحكامها، وتوظيفها لخدمة القضية المطروحة على بساط البحث، والتي هم بصدد دراستها، أو الجواب على الأسئلة المطروحة حولها، وذلك على أساس المنهج الرائد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاجتهاد المنتج، الذي يقوم على فهم النصوص الشرعية في إطارها الصحيح، خدمة للمقاصد والأهداف الشرعية والدينية، وتحقيقا للمصالح الاجتماعية، ومراعاة للتطورات الزمانية والمكانية. يقول الزياني (27) عن هذه المجالس العلمية السلطانية الرمضانية للمولى سليمان : ".... وأما الدين والتقوى فذاك شعاره... من أداء الفريضة المكتوبة عليه لوقتها المختار، -حضرا وسفرا،...- وقيام رمضان، وإحياء لياليه بالإشفاع، يستنفر لذلك مشايخ القرآن والأسانيد، ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف، وتفهمه، والمذاكرة فيه، على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك في رمضان،... ويشاركهم بغزارة علمه، وحسن ملكته، ويتناول راية السبق في قمم المسائل التي يعجز عنها غيره، فيصيب المفصل".

---

(27) الروضة السليمانية، للزياني، م.خ.م. بالرباط، ص : 205.

ويقول المشرفي (28) مبهورا بغـزارة علمه : "...وبالجملة فقـد ألقت إليه العلوم زمامها، وأصبح لائمة الأنام حجتها و إمامها".

وعن مجالســه العلمية الـرمضانيـة يقول المشرفي (29) "... وكان دأبه جمع أعيان العلماء لسرد الحديث، على مـر الليالي والأيـام، ولاسيما في شهر رمضان، ويشاركهم بغزارة علمه، وحسن ملكته".

وكان يجمع العلماء لهذه المجالس من كل أنحاء البلاد -بانتقاء واختيار- ويطرح على بساط البحث فيها المشاكل العويصة، والقضايا الجليلة والمسائل الغامضة التي تعترض الدولـة من خلال تلك النصوص. حيث يجمع آراءهم ومـلاحظـاتهم، ثم يقـودهم في استنتاج واستنبـاط الأحكـام، والاهتـداء إلى الحلـول الناجعـة، وغالبـا ما كـان يهتدي قبلهم إلى الحل الحاسم، والـدواء الناجع ".

ويوضح لنا ذلك المشرفي (30) بقوله "... كـان وحيد عصره في الإعتناء باقتناء العلـوم في المغرب، وسعى في تقريب كل ماهـر، وجمع أئمة الحديث من كل أعجمي ومعـرب، للمـذاكـرة والتفهم، إلى أن بلغ الغايـة في التقـدم، وتضلع في المعقـول والمنقـول، والمعلــوم والمجهـول. كما تضلع في التفسير والحديث... حتى صار علما يهتدى به، وإمـاما يقتدى به، وسار من يحضر مجلســه من الفقهـاء لسرد كتب الحديث والتفسير، والمذاكـرة في حل الخطير العسير، يكسبون مـن وفره، ويغترفون مـن بحره. ويتناول رايـة السبق في فهم المشكـلات، وحل المعضلات التي يعجـز عن فهمها وإدراكهـا جهابـذة النقاد ".

ومن المظـاهـر الجوهـريـة لتطور هـذه المجـالس في عهـده، اهتمامهـا بالتفسير، وبالتالي بعلوم القرآن كلها، وكذا بالفقه. إلى جانب الحديث وعلومه الذي ظلت له الصدارة، والمكانة المرموقة والأولى في مجالسه طيلة حياته.

كما ازدهـر الفقه في عهـده، وأخذ مكـانـه المرموق في حصص مجالســه العلمية السلطانية، التقليدية الرسمية الخاصة، الرمضانية وغيرها.

---

(28) الحلل البهية للمشرفي، ص : 176.

(29) المصدر السابق، وص.

(30) المصدر السابق، وص : 175 – 180.

ولا غرابة في هـذا التطور، فهو نتيجة حتميـة للتطور الجذري في مذهب وعقيدة المولى سليمان، وبالتـالي في التوجه والمعتقد الذي تقوم عليـه الدولة، ابتـداء بهيـاكلها ومـؤسسـاتها، وفي طليعتهـا هـذه المجالس الاجتهـاديـة التشريعية.

كما أننا نلاحظ من جهة أخرى ميل المولى سليمان بفطـرته وجِـبِلَّـتـه الصوفية إلى القرآن وعلومه، تأثـرا بشيوخه الذين كان جلهم من المفسرين الكبار، مما تجلى بوضوح في إنتاجـه الشخصي، وإبداعه الخاص، من تآليفه وتصانيفه، وتقـاييده، وحتى هوامشه وتـوقيعاته.ولعل أصـدق برهان علي هذا التطـور يتجلى في عقده مجالس علميـة خاصـة بالتفسير، ويقـول عنها العلامة أحمد العبدلاوي (31): " إن مولاي سليمان- قـدس الله روحـه في الجِـنان - كان يجمع في حضرته العلماء، والجلة من فحول عصره، للمذاكرة في العلوم، وتدارسـها، وقراءة التفسير، وكـان من جملة من يحضر معه لذلك - من الشيـوخ الكبار الـذين أخذ عنهم- الشيخ الطيب بن كيران، م. فـاتح عام 1227هـ، والشيـخ سيدي عبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون، م 15 شعبان 1219هـ، والشيخ سيدي حمدون بن الحاج ".

وكـان من نتيجـة ازدهـار التفسير والفقه، واهتمامـه بهما في مجالسـه العلميـة وغيرهـا، الإقبـال على دراستهما، ونبـوغ عـدد كبير من المفسرين والفقهاء في عهده، وانتعاش حركة التأليف فيهما، وذلك في أحضان التسامح، والتفتح لمذهبه الأثير، وعقيدته المفضلة.

ويـوضح لنا الشيخ أحمد العبـدلاوي (32) ذلك بقـولـه : "... كان لـه اهتمام بالتفسير، وفي أيـامه نبغ الشيخ الطيب بـن كيران في التفسير. وتأثر الفقه أيضا فـانتعش، ولم يبق قاصرا على نصوص الفقهـاء المجردة وأقوال الخلافيين غير المسندة ".

وإذا كان والده السلطـان سيدي محمد بن عبد اللـه معجبا بجده المولى إسماعيل، فاتخذه مثلـه الأعلى ونموذجه المحتذى، وسـار على نهجه في كثير من شؤون ملكه وغيرها، فإن المولى سليمان كان -في المجال العلمي خاصة

(31) دعوة الحق ع : 1، س : 8، ص : 31، خصائص المدرسة الحديثية بالمغرب، لحسن السائح.
(32) المصدر السابق، وص.

- يقتدي بـالمولى الرشيد. فقد ظـل مثله متعلقا بحلقات الـدروس، متصلا بشيوخ العلماء، مبالغا في تعظيمهم وتكريمهم - كما مر بنا - .

المجالس الفرعية الخاصة :

لذلك نجد من أنواع مجالـسه العلمية الفـرعية نوعا سنه المولى الرشيـد في مرحلة نشـأة المجالس العلمية السلطانية للدولة العلوية، وكان قد انقرض بعده في مـرحلة استقرار هـذه المجالس، وتقعيـدها، واتباعهـا منهجا محددا متبعا.

حضوره مجالس الشيوخ الكبار :

ذلك أنه كان يدخل على شيوخ العلم في حلقات مجالسـهم الدراسية بغتة، حيث يحضر الدروس، ثم يصل الطلبة، ويشـجعهم، وخاصة دروس الشيخ الطيب بن كيران.

وذلك لتفقد أحوال الطلبة، ومراقبـة عمل الشيوخ، وسير الدراسة بصفة عامة. وكذا إرضاء لرغبته، وحنينه الدفين إلى تلك الحلقات.

فهو -كـالمولى الرشيد- اعتلى العـرش فجأة، وانتقل من حلبة الـدراسة وحلقاتها، إلى سدة الملك وتاجه وصولجانه.

وفي ذلك يقـول صاحب الابتسـام (33) : "…. وكم مـرة ينـزل من دار المخزن، ويغشاهم -العلماء- في مجالس التدريس بغتة ".

ونجد في الابتسام أيضا وصفا حيا لأحد هذه المجالس، على لسان الأديب الكاتب العربي الدمناتي، الذي -يحـكي للمؤلـف شخصيا (34) : "…. إنه كان يحضر على شيخه الطيب بن كيران -رحمه الله- شرح "مغني اللبيب" لابن هشام، هو وجماعـة من الطلبة، في مسجد زقاق الحجـر بفاس، فدخل عليهم مولاي سليمان، فـوجد الشيخ يقرر في ختم الكتـاب المذكور، فجلس

(33) مجلة المناهل ع: 36، ص: 5، تحقيق مخطوط الابتسـام، مقالة لعبد الهادي التـازي، والنهضة العلمية، لابن زيدان،م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 49.

(34) المصدر السابق، ص: 4-5.

حتى ختم الدرس، ثم أمر لكل من حضر منهم بدبلون من الذهب. وهكذا كان دأبهم معه (35) ".

وفي هذه الزيارات المفاجئة كان لا يكتفي بالزيارة والمراقبة، بل يتدخل في المناقشات، والمباحثات، ويطرح الأسئلة على الشيوخ، ويتولى الجواب على الأسئلة المطروحة سواء من طرف الشيخ، أو من قبل الطلبة، حتى يصل بهم إلى حل المشاكل المطروحة من خلال تلك الدروس، ببراعته العلمية.

ويؤكد لنا ذلك ابن زيدان (36) بقوله :"..... كان يزور جامع القرويين في كل حين، ويتردد على مجالس دروس الصدور، ويباحث، ويبدي أراءه -أخذا وردا-، ويحل عويص المشكلات المطروحة ".

ويؤكد لنا ذلك صاحب الابتسام (37) :"..... دشن أعماله بعد توليته بالتيمن ببناء المساجد، وتشجيع العلماء والطلبة، حيث كان يحضر مجالسهم بين الفينة والأخرى".

2 - مجالس الاستفتاء :

وكانت المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان تتخذ شكل استفتاء، أو التحكيم الشرعي للعلماء، امتثالا لتعاليم الشريعة الإسلامية، التي كان يقدسها بانضباط، ومصداقية، والتزام منقطع النظير.

وذلك في القضايا الدينية والشرعية، التي تعترض دولته، ويتورع عن الانفراد برأيه فيها، حتى لا يتحمل تبعة نتائجها وحده، أمام الله، وأمام أمته، وبالتالي أمام العلماء أعضاء مجالسه العلمية، حملة الشريعة وورثة الأنبياء، وظل الله في أرضه....

وهذه نماذج لأهم المجالس العلمية السلطانية الخاصة، التي عقدها المولى سليمان للاستفتاء :

أ - لما خرج على المولى سليمان أخوه سلامة، راسله شخصيا، وأرسل الأمراء، داعيا الجميع إلى التحكيم أمام العلماء، في مجلس علمي خاص،

---

(35) المصدر السابق، و ص.

(36) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 72.

(37) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 95-96، تحقيق مخطوطة كتاب الابتسام، مقالة لعبد الهادي التازي.

على أن ينـزل الجميع عنـد حكم الفتـوى التي يصـدرهـا المجلس المذكـور، ويبايعوا من يرى العلماء أحقيته، وذلك حقنا لدماء المسلمين (38) التي كان متوقفـا فيها، حتى إنـه لما عرضت عليـه البيعة، اشترط لقبـولها ألا يقاتل، خوفا من تورطه في سفكها.

ووقع التحكيم في مجلس علمي خـاص، بـاستفتاء علمائه في الموضـوع، والاحتكام إلى الشريعة الإسـلامية بواسطتهم. وكان يمثـل الأمير سلامة علي ابن أحمد الـوزاني، الـذي ادعى أن المولى سـلامـة أشجع، وسبقت بيعتـه، وكانت الرعية تتطلع إليه (39) .

وأصدر المجلس الفتـوى المطلوبـة، وكانت لصـالح المولى سليمان، وقال العلماء في حيثيـاتها : لأن المولى سليمان أفقـه، والعـالم يقـدم على غيره في الصـلاة، وأيضـا في الخلافـة، واستظهـروا بنسخـة ممـا وقع في مثل هـذا الموضوع بين مولاي عبد الله وأخيه المستضـيء، على سبيل القياس (40).

ب – وهناك مجلس للاستفتاء من نوع خاص، عقد بكيفية غير مباشرة، واستجاب المولى سليمان لحكمـه وفتواه، امتثالا لـروح الشريعة الإسـلامية، ورجوعا إلى الحق، وتواضعا لله تعالى....

ذلك أنه أصـدر سنة 1212هـ، قـرارا يمنع حمل السـلاح على غير خدام الدولة، المسموح لهم به.

فكتب علماء تطـوان وطنجة والعـرائش، إلى علماء فاس، يستفتـونهم في القضيـة، وطرحـوا عليهم سـؤالا هو : "هل يحق للسلطـان أن يمنع حمل السلاح إلا للمخزن ؟ مع أن النصارى يحاصرون البلاد بحرا بسفنهم و هم عُـزَّلٌ".

فسكت علماء فاس، وتجاهلوا الموضوع، ولم يصدروا فيه أية فتوى.

لكن العالم شـاذان الفاسي اللمطى أصـدر فتوى بأنـه لا يحق للسلطان ذلك، وأضـاف إلى الفتـوى عـبارة :؛ "دون علمـاء فاس، الذيـن سكـتـوا عن الحق".

---

(38) تاريخ الضعيف، ص: 251–252.

(39) تاريخ الضعيف، ص: 251–252.

(40) المصدر السابق، و ص.

ورفع نسخة من الفتوى التي أصدرها إلى أخي السلطان، المولى عبد السلام، حتى يرفعها إلى أخيه، السلطان المولى سليمان.

ولم يلبث المولى سليمان أن أصدر أمره بالإذن في بيع السلاح للعموم(41).

جـ - قضية وقع الاستفتاء حولها، والتحكيم في شأنها، خلال انعقاد مجلس علمي خاص لسرد أحاديث صحيح البخاري. وبث في شأنها المولى سليمان، على رأس ذلك المجلس.

ذلك أنه حدثت فتنة في فاس، بسبب خلاف بين قاضيها العلامة العباس ابن أحمد بن التاودي بنسودة، ومفتيها محمد بن إبراهيم الدكالي حول قضية الشريفين: الشفشاوني، والعراقي، من أهل فاس.

فعزل السلطان المفتي المذكور، وتعصب العلماء للمفتي المعزول، ورفعوا للسلطان شهادة بجور القاضي المذكور، وجهله، مرفوقة بقصيدة في هجو القاضي بنسودة المذكور، ومطلعها :

يا يها الملك الذي عدالته   أحيت مآثرها الصديق أو عمرا

ثم هجموا على القاضي، ويأرادوا قتله. فقد رماه العالم محمد الطاهر الكتاني بالرصاص، لكنه أخطاه، فلزم القاضي داره، ونصب العلماء مكانه الفقيه محمد بن عبد الرحمن الدلائي، ثم القاضي محمد العربي الزرهوني(42).

وفي هذه الأثناء انعقد المجلس العلمي السلطاني بالعاصمة، وكان يسرد فيه صحيح البخاري بين يدى السلطان المولى سليمان، الفقيه العلامة الشريف سيدي محمد بن الطاهر، وكانت بينه وبين القاضي العباس بن أحمد بن التاودي بنسودة إحن وضغائن ومنافسة، فاستشهد في معرض تقريره بالقضية، وبالغ في التهويل والتشنيع على القاضي المذكور، مما كان

(41) المصدر السابق، و ص : 112-113.

(42) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 146-148.

لـه تأثير على السلطـان، الـذي أصـدر أمره بتـوجيـه إنـذار إلى أهل فـاس جميعا(43)، مع لجنـة خاصــة من العلماء أعضــاء المجلس المنعقد، وبـاسم المجلس المذكـور.

د – ومن أهم القضايا وأخطـرها التي واجهت المولى سليمان، وعقد لها سلسلـة من المجـالس العلميـة السلطانيـة الخاصـة، واستفتى علماءهـا في شأنها(44)، وخـاض معهم غمار المناظـرات العديـدة والمتشعبة، وسـاهم في النقاش والجدال حولها بآرائه النيرة، وبت فيها بقراراته الحاسمة، وإجراءاته الحازمة، قضيـة التبغ، وهل هو حـلال أم حرام ؟ وهل يبـاح أو يمنع (45) بالبلاد ؟.

وكان بتـه فيها طبعا على ضوء الفتـوى التي أصدرها مجلســه المذكور بتحريمه ومنعه.

ومشكل التبغ شغل بال المفكـرين والأوساط العلميـة والدينية بـالمغرب، منذ أن دخل البـلاد سنة 1007هـ–1599م، باعتباره آفـة اجتماعية، ومشكلا دينيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيـا. وألف حوله منذ ذلك العهد أكثر من ثلاثين كتابا(46) ، وصدرت حوله عشرات الفتـاوى، وطرحت مئات الأسئلة والأجوبة الكتابية وغيرها. كما عقدت حوله محاضرات ومناظرات متسلسلة، في المحافل والأندية الخاصة والعامة، الدينية وغيرها.

لكن لم يكن لها إلا تـأثير بسيط ومحدود في الحد من انتشــار هــذه الظاهرة الخبيثة، دون القضاء عليها.

واجتاح وباء التبغ المغرب وبلغ سيله الزبى، وطرح المشكل بحدة في عهد المولى سليمان، فعـرض قضيتـه على علماء مجالســه العلميـة، وعقـد لهم مجالس خاصة لذلك، في إطار برنامجه الإصلاحي العام، ذي الطابع السلفي الديني الإسلامي....

حيث دارت في شأنـه وتحت رئاسة المولى سليمان منـاظرات مسترسلـة حادة، بين علماء المجلس المذكور.

(43) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة 214، والاستقصا للناصري ج: 8، ص: 146–148.

(44) تاريخ الضعيف، ص: 318.

(45) تاريخ الضعيف، ص: 318.

(46) الحركة الفكرية لمحمد حجي، ص: 246–266.

وأخيرا أصدر المجلس الفتوى بتحريمه، وبوجوب منعه، فبادر المولى سليمان لتنفيذ بنود الفتوى وتعليماتها، وأمر بإحراق طابة والكيف في جميع أرجاء البلاد بالمدن والقرى، وذلك في 13 شوال 1214هـ.

ويعتبر مجلسه هذا من أحسن حسناته، ويدا من جملة أياديه البيضاء في مجال الإصلاح الديني والإجتماعي، الذي كان رائده دون منازع(47).

3 – مجالس علمية بالمراسلة :

أ – من الآداب العلمية التي كانت متبعة بين العلماء داخل المجالس العلمية وخارجها، إهداء الكتب التي ينتهون من تأليفها إلى المولى سليمان، لما يعلمونه من شغفه بالعلم، وغبطته بذلك، وبالتالي رغبة في كرمه وجوائزه السنية، خاصة وأن هذه الكتب غالبا ما كانت تؤلف بأمره، أو على هامش القضايا المطروحة بمجالسه العلمية. كما جرت العادة أن يجيبهم السلطان برسائل تشريعية نقدية تشجيعية وتوجيهية صريحة، حسب القيمة العلمية لكل منهم، ومؤلفه، ومدى جودة تأليفه، وتوفيقه فيه، وسداد منهجيته....

ويمكن اعتبار هذا النوع من المراسلة العلمية، التي كانت تتم حتى بين العلماء فيما بينهم، من تقريظ المؤلفات، والتنويه بمؤلفيها، أو نقدها، وشجب موضوعاتها، والنعي على مؤلفيها.... يمكن اعتبار كل ذلك نوعا من أنواع المجالس العلمية للسلطان المولى سليمان، مع شيء من التجاوز.

– فقد أهدى أبو القاسم الزياني المؤرخ والكاتب والسفير المشهور إلى المولى سليمان كتابه «الترجمانة الكبرى»، فأجابه السلطان بكتاب بليغ يقرظه، وينوه به وبمؤلفه ويشجعه (48)....

– كما أهدى إليه أبو عبد الله الجريري القاضي الأديب، شرحه على منظومة ابن الونان –الشهيرة بالشمقمقية–، التي مدح بها سيدي محمد بن عبد الله، وخص به الخزانة السليمانية.

---

(47) الحركة الفكرية، لمحمد حجي، ص: 246–266.

(48) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 3، وبها نص رسالة المولى سليمان المذكورة، للزياني.

وقد أجابه المولى سليمان على عادته، مرحبا بكتابه، مقرظا له، ومشجعا إياه على الاستزادة، كما كتب بخط يده على هذا الشرح المهدى إليه: "من منن الله على عبده سليمان (49) " .

وكان عبد الله الجريري هذا، من أبرز علماء المجالس العلمية للمولى سليمان، وقد مهر في البحث العلمي بجميع العلوم، وخاصة في البلاغة، والفقه، والحديث، والتفسير. فكان المولى سليمان يعتمد عليه في خلايا التأليف، والتصنيف لمجالسه العلمية، وبالتالي يقربه ويقدمه.

– وقد قرظ كتب الزياني التي ألفها في تاريخ الدولة العلوية –والتي بلغت عشر كراريس (50)– بالمراسلة المذكورة، نخبة من خيرة علماء المجالس العلمية للمولى سليمان وغيرهم، وهم العلماء السادة : سليمان الحوات، حمدون بن الحاج، محمد بن عامر المعداني التادلي، محمد اليازغي، أبو بكر ابن إدريس المنجرة، أحمد زروق، عبد الودود الأندلسي، أحمد بن نافع، العربي الدمناتي، عبد الواحد بن أحمد التاودي بنسودة، العباس بن أحمد ابن التاودي بنسودة، إدريس بن عبد الله الودغيري، العربي بن الهاشمي الزرهوني، محمد بن أحمد بناني، محمد الشفشاوني، عبد القادر السلاوي، سعيد السوسي، محمد الصادق شقور (51) .

ب – ويمكن اعتبار الرسالة التي وجهها المولى سليمان إلى أهل فاس سنة 1235هـ، مجلسا علميا من نوع خاص –بالمراسلة–.

وذلك لأن الكتاب وما تضمنه –في حد ذاته– يعتبر وثيقة هامة من وثائق مجالسه الخاصة، التي رفع علماءها إلى جانبه في موقع صنع القرار والمسؤولية، ثم للمجلس العلمي الرسمي الذي عين في الرسالة أفراده، وعقد –بأمره في هذه الرسالة– لقراءتها أمامه.

هذا زيادة على المجلس العلمي الذي عقده علماء فاس للاستفتاء في أمر هذه الرسالة، بطلب من أهل العدوتين. أضف إلى ذلك أهمية الفتوى التي أصدرها ذلك المجلس، والنتائج الوخيمة التي ترتبت عن تلك الفتوى.

---

(49) الإتحاف الوجيز، للدكالي، م.خ.ع، رقم : 1320، ص: 130–131

(50) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 547–581.

(51) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 547–581، حيث يعرف بهم جميعا.

والأهــم من هـــذا وذاك قــراره التــاريخي الــذي أنـــهى بــه الموضــوع، ألا وهو الحلم والعفو عند المقدرة، وموقفــه النبيل الرشيد المتوارث عن جده رسول الله ﷺ، الذي يكرس نبل وحلم الأسرة النبوية الشريفة الكريمة.

وكانت رسالــة السلطان إلى أهل فاس المذكورة، نسخة من خطبــة ألقاها المولى سليمان في أعيــان أهل مــراكش والرحــامنــة يوم الجمعــة، يــوجههم، ويرشدهم، ويدعوهم لمساعدته على محاربة الفساد.

ولاحظ السلطان وقعها الحسن عليهم، ونتائجها الإيجابية معهم، فأرسل نسخة منها مع ولده المولى علي، وأمره أن يجمــع أعيان أهل فاس بالمسجد، ويقرأهــا عليهم بحضــور لجنه من أئمــة العلماء -أعضاء مجالســه العلمية بفاس- والوجهــاء والأعيان وهم : العلامة المفتي السيــد محمد بن إبراهيم، والفقيه الشريــف سيدي محمــد بن الطاهــر الفيلالي، والتــاجر الأمين الحاج الطالب بنجلون وغيرهم....

فنفــذ المولى علي تعليمات والــده في شأن تلك الرســالــة. لكن أهل فــاس وجدوهــا فرصة لتفجير الفتنــة -التي بيتوهــا من قبل-. فاغتنموا فــرصة اختلاف الخاصــة والعامــة حول مضمــون الرســالة، والمراد منهــا، فأعلنوا للناس أن السلطان خلع نفسه عن الملك، وتــرك الحرية للناس في أن يقدموا على أنفسهم من يرتضونه للحكم (52).

وأشاعــوا خــرافــات، مفــادها : أن تنازلـــه كان، لأنــه الخليفة السادس في الــدولــة، شأنه شأن الحسن بــن علي، ومن بعده من الخلفــاء الأمــويين والعباسيين الذين جاؤوا في ذلك الترتيب، ثم لأنه أوصى بعده لعبد الرحمن ابن أخيه هشام (53)، ولما جاء في وصيته لابن أخيــه المذكور، ثم لأنه كثيرا ما تمنى ذلك جهارة....

واجتمع أهل العــدوتين : الأندلسيــون، والقــرويون اللمطيــون، وطالبــوا علماء العدوتين بعقد مجلس علمي، واستفتوهم حول مضمون الرسالة، وما يجب عمله.

---

(52) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 188-189.

(53) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 195.

فاجتمع المجلس العلمي المذكور، وبعد مداولات، ومناقشات حول كل ما سمعه كل منهم من الرسالة، التي قرأها عليهم المولى علي، استخلصوا منه ما أراده أهل فاس، وهو :" أن السلطان عجز، وعزل نفسه، وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم من يصلح بهم ".(54)

وفي صبيحة اليوم التالي أجمعوا على بيعة مولاي إبراهيم بن اليزيد صهر المولى سليمان على ابنته -الذي كانوا يهابونه، لانزوائه عنهم، إذ كان لا يخرج إلا لصلاة الجمعة (55).

فقامت فتنة كبرى، وحروب طاحنة، انتهت بانتصار المولى سليمان على أهل فاس، ودخولها مظفرا. لكنه بعد أن ظفر بهم صفح، وعفا عنهم قائلا:" لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (56) ". اقتداء بجده رسول الله ﷺ في قوله لما ظفر بأهل مكة يوم فتحها :" اذهبوا فأنتم الطلقاء".

جـ - وضمن المجالس العلمية بالمراسلة للمولى سليمان يمكننا إدراج موقفه مع الشيخ التيجاني، ذلك الموقف الذي يعتبر نموذجا حيا للديموقراطية والشورى الإسلامية.

فقد كتب الشيخ المذكور للمولى سليمان رسالتين مطولتين يعظه وينصحه(57) فيهما، فتقبل ذلك منه بامتنان ورحابة صدر، مكرسا الأمجاد الديمقراطية لجده المولى إسماعيل مع الشيخ أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي(58).

---

(54) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة :191.
(55) المصدر السابق، و ص.
(56) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة :191-192.
(57) كشف الحجاب للسكيرج، ص: 496-498.
(58) نصها برسائل اليوسي، تحقيق فاطمة القبلي، ص: 73-74، وبالدر المنضد، ورقة : 218، وبالمنزع اللطيف، لابن زيدان، ص: 83، والجيش، لأكنسوس، ص: 78، والاستقصا، للناصري، ج: 7، ص: 82، والتيارات السياسية، لحركات، ص: 115-117.

4 – مجالس علمية على شكل محفل :

يمكن أن نضيف إلى المجالس العلمية الخاصة للمولى سليمان مجلسا عقده على شكل محفل علمي ومهرجان ثقافي، إحياء للإحتفال بسلطان الطلبة –الذي سنه المولى الرشيد– وتخليدا لذكرى قضاء المولى الرشيد على الإقطاعي الصهيوني الطاغية هارون بن مشعل.

وفي هذا الحفل الذي ترأسه المولى سليمان، خرج جميع الطلبة للنزهة المذكورة بوادي فاس، وجاء طلبة الجبل بسلطانهم من مدرسة الشراطين على هيئة الموكب السلطاني من مظلة وغيرها، وفي ركابه وركاب سلطان طلبة فاس، الطلبة محزمين وحاملين للبنادق وقد تقلدوا السيوف (59).

وهذا يؤكد لنا مدى إعجاب المولى سليمان بشخصية المولى الرشيد الفذة، واقتدائه به في كثير من أعماله، ومنطلقاته....

ومما يؤكد اعتناءه بالطلبة، وحدبه على مصالحهم، وتمتعهم بقدر من الحرية في القول والعمل، ودالتهم عليه، قيامهم بإضراب سنة 1211هـ، وخروجهم في مظاهرة صاخبة، واعتصامهم بجامع السلطان يقرأون القرآن جهارة، حتى ختموا إحدى عشرة سلكة من المصحف الكريم، وحتى سمعهم السلطان، وعرف قضيتهم التي تتلخص في احتجاجهم على هدم القائد اليموري للطابق العلوي من سكناهم، بالقسم الداخلي لمدرسة سيدي مصباح.

ويوم الجمعة رفعوا أصواتهم بالشكوى جماعة، وطالبوا بالاحتكام إلى الشرع (60).

فرد السلطان المولى سليمان مظلمتهم، وأمر الناظر أحمد بن إبراهيم أن يعوضهم عن خسائرهم، وبناء القسم الداخلي لهم من جديد، من مال القرويين، كما وبخ القائد اليموري على فعلته.

وأرسل إليهم الفقيه العلامة أحمد بن علي التنقراسي الذي طيب خاطرهم، وفرق عليهم ألف ريال.

---

(59) تاريخ الضعيف، ص: 284.

(60) تاريخ الضعيف، ص: 296–297.

ويمكن اعتبار هـذه القضية مجلسا من نـوع خاص، باعتبـار أن الطلبة -هم علماء متدربـون- وما دامـوا قد اعتصموا بجـامع السلطان، وطـالبوا بتحكيم الشريعة الإسلامية.

5 - المجالس العلمية الاختتامية للشيوخ الكبار.

في إطار هذا النوع من المجالس العلمية، كان يحضر اختتام الأئمة الكبار من شيوخه، لأمهـات المصادر الدينية الكبرى في جملـة طلبتهم، وكأنه واحد منهم، تعظيما للعلم، وإجلالا للعلماء حملته.

فقـد حضر ختم (61) شيخــه الطيب بن عبــد المجيـد بن كيران تفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون الشهيرة بفاس.

المجالس العلمية للختم :

لم تكن المجالس العلمية السلطـانية الخاصة للمولى سليمان تقتصر على ختـم صحيح البخـاري، بـل كانت تشمـل سرد الكتـــب الدينيـة الأخـرى، ولا سيما الحديثية، كالصحاح، والمسانـد، والكتب الستة.

ففي "يوم الأربعاء 18صفر 1212هـ، ختم السلطـان مسند الإمام أحمد ابن حنبل (62)، فأحضر العلماء، وأكرمهم، وأعطى لكل منهم ثلاثين ريالا".

وقد خلـد المجالس العلمية الخاصــة للمولى سليمان -ولا سيما مجالس الختم- شاعره سليمان الحوات في ديوانه (63).

ويمكننـــا أن نستشف من هـــذا الـــديـــوان، الكثير عن أعمال، وأسرار، وأهداف، وأهميـة هذه المجـالس العلمية العتيدة، وذلـك من كل قصيدة على حدة، وبـالتالي من قصـائد الديـوان ككل، التي أنشدت في المجـالس العلمية -للمـولى سليمان- الخاصــة بهذه المناسبـة، ألا وهي حفـلات الختم لسرد

---

(61) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(62) تاريخ الضعيف، ص: 308.

(63) توجد نسختان مخطوطتان بالخزانة الملكية، إحداهما جيدة ورقمها : 101، ولها مقدمة عامة ثم مقدمـة لكل قصيدة، و نسخة أخرى رديئـة رقمها : 294، دون مقدمات لا عـامة ولا للقصائد والديوان من جمع أحمد بن محمد الطيب شقور العلمي الموسوي كما في آخر الديوان.

أمهات الكتب الدينية، ولا سيما الإمام البخاري، وخاصة في شهر رمضان المعظم، مع الاكتفاء بالمطلع، والأبيات المقصودة.

1 – ومن ذلك، الأبيات التالية من قصيدة (64) في الديوان المذكور، أنشدت بهذه المناسبة، وجاء في التقديم لها :" ولـه يوم ختم أمير المؤمنين رضي الله عنه –المولى سليمان– صحيح البخاري على عادته كل رمضان، ومطلعها :

سبحان من عمنا فضلا وإحسانا
سبحان من خصنا علما وعرفانا
شرفنا برواية الصحيح على
خير السلاطين مولانا سليمان
فكان كالبحر تقرير لمشكلة
يقذف بالدر تحقيقا وإتقانا
أكرم بها منة مننتها عظمت
فلا نطيق عليها قط شكرانا
ما أحسن العلم –والحديث أشرفه–
يزيد بالله والرسول إيمانا
ويمنع النفس والشيطان حظهما
من ابن آدم لا يخاف خذلانا
ويحفظ الملك في الناس إذ كثرت
به العناية أحيانا فأحيانا
فدونكم أبدا علم الحديث فلا
تبقوا به سرا وإعلانا
فهو الدليل على حكم الشريعة إن
كنت تقيم على الأحكام برهانا
ومنه يخبر سر الوحي عن عجب
تعلم منه الذي يكون أو كان

---

(64) ديوان سليمان الحوات، ص: 72–74، م.خ.م، بالرباط، رقم : 101.

وتجتلـي مـن دلائـل النبـوة مـا
يكـون منـك على اليقين عنوانـا
بشـرى لنـا اتصلت بنـا روايتـه
عن خير فـرع زكـا علما وسلطـانـا
من أجلـه أكـرم الـرسل الـذي تليت
آيـات إعجـازه في الخلق قرآنـا
يارب هـب للجمـيع بالصلاة لـه
وءاته أبـدا عفوا وغفـرانـا
وأبق فينا أمـير الـمـؤمنـين ـ علـى
قدم صدق ـ نعـم الخلق إحسانـا

وهذه القصيـدة تؤكد لنا أن المولى سليمان كـان من عاداته المعـروفة، إقامـة هذه المجالس العلميـة النيرة في شهر رمضان من كل عـام، وأن هذه المجالس كـانت تختـم بحفـل علمي أدبي، تلقى فيه قصـائد لأكبر الشعراء في وصـف هذه المجالس، وتعداد أهدافها، وما يدرس فيها شكلا ومضمونا.

كما تؤكد لنا أن هذه المجالس كانت خاصة بعلم الحديث الصحيح. وأن المولى سليمان كان يتصـدى فيها لحل المشاكل المستعصيـة. كما تستعرض أهداف دراسـة الحديث النبوي الشريـف، وبالتـالي أهداف المجالـس العلمية السلطانية، -ولا سيما الرمضانية منها- من تقـوية الإيمان بالله وبرسوله والبعـد عن حبائل الشيطـان وهمزاته، واستنبـاط الـدليل والبرهان لأحكـام الشريعة السمحـة، وشرح الآيـات القرآنيـة المحكمة، والمتشـابهة، واستخراج الحجة القـاطعة على صدق النبـوة، وصحة الروايـات للحديث، خاصـة وقد اتصلت روايته بسلطان عالم، سبط لرسول الله ﷺ.

وأخيرا يطلب من اللـه تعـالى العفـو والغفـران لمن صلى على النبي ﷺ، وأن يطيل عمر السلطان، ليعم إحسانه الخلق جميعا.

2 – وهذه قصيدة (65) أخرى في نفس المنـاسبة يشكر فيها اللـه تعالى على اتفاق، وصدفة عجيبة :

(65) ديوان سليمان الحوات، ص : 74، م، خ، م بالرباط، رقم : 101.

تعـالى الـذي أبـدى عجائب صنعـــــه
بحسن اتفـاق كـاد عنهـا يترجـــــم
لنـــا مجلس التفسير في كـل غـــدوة
وإدراكنـا - لأفخـــر - فيـه المقـــدم
فـــوافى البشير بالغنيمـــة معلـــمــا
وكنـا أخـذنـا في قـــراءة "واعلمـــوا"
فشكـــرا لمن أولـــى الجليـــل تكرمـــا
فكـــان لنـــا في الـــروم سبـي ومغنم
ويـــوشك أن ينـــال منهـــا سمينـــا
سليمان سهما وافـــرا حين تقســم

ونستنتج من هـــذه القصيـدة، أنـــه إلى جـــانب مجالس سرد الحديث وتقريره، كانت تقام مجالس لتفسير القرآن الكريم - كما ذكرنا - وأن هذه المجالس الرمضـانية، سواء للحديث أو للتفسير، كانت تقـام غداة كل يوم، وأن التفسير كان بالمأثور، وبالرأي معـا، مما كان - يجسده مذهب وعقيدة المولى سليمان = عكس والده المولى محمد الثالث - الذي كان يكتفي بالماثور والمنقول.

وأنه اتفق أن جاءهم - وهم بذلك المجلس - الخبر بالنصر عِلى النصارى في معركة، وكانوا بصدد تفسير قوله تعـالى : " وَاعْـلَـموا أنَّ ما غَـنِـمْـتُـم مِـنْ شَـيْء فأن لله خُـمُـسَـهُ (66).... " الآيـة.

وأخيرا يشكر اللـه على النصر المبين على الروم، وعلى مـا أفاءه عليـه من سبي وغنائـم. ويستـدر الشـاعـر عطـاء السلطـان، إذ يقـول على لســان السلطان: بـأن شاعـره وسَـمِـيَّـهُ -سليمان الحوات- سينـال سهما وافرا منها، حين يقسمها السلطان القسمة الشرعية -لأنه نظم القصيدة على لسان السلطان.

3 - وقصيدة أخرى، نستعـرضـها مع مقدمتها : " ولـه يوم ختم أمير المؤمنين - المولى سليمان - صحيح البخـاري، في سنة أخـرى، عم الله بـه النفع في المسلمين (67) ". وهي طويلـة، ونكتفي منها بمطلعها، وبـالأبيات

(66) سورة. الأنفال، الآية : 41.

(67) ديوان سليمان الحوات، ص : 74 - 75، م.خ.م، بالرباط، رقم : 101 .

التي تخص الموضوع الذي نحن بصدده، ألا وهو ختم صحيح البخاري - كما قلنا من قبل - ومطلعها :

ما صلاح الزمان إلا بملك
حكمه في القريب بالعدل جار
فاعتبر ما مضى بما أنت فيه
والعيان يغني عن الأخبار

إلى أن يقول عن المجلس :

خصنا الله بالهناء ففقنا
بسليمان سائر الأقطار
لا ترى في الملوك غيره يقفو
سنن التابعين للآثار(68)
أيها المالك الذي عم حلما
وأناة عن سطوة واقتدار
لست أحصي جميل وصفك مدحا
كيف تحصى المياه في الأنهار
أنت في مظهر الشريعة شمس
نورها أخفى أوضح الأنوار
وسرت منك في الوجود علوم
كشفت للنهى عن الأسرار
حكمت فيك بالتقدم فردا
في مجال الأبحاث والأنظار
كل حبر من روض فهمك يجني
ما تجلى به من الأزهار
أيهم في التفسير غيرك يبدي
ما توارى في الوحي من أسرار
كاد علم الحديث لولاك فينا
يضمحل في هذه الأعصار

(68) المصدر السابق، ص : 76 - 78، م.خ.م، بالرباط، رقم : 101 .

أنت أحييتــــه رواة ومــتنـــــــــــا

باتصـــــال بحـــرك المخـــتـــــار

مــالك اليــوم فيــه حفظـــا وضبطــــــا

من مشارك ولا من مـــــجــــــــار

وتخلقت من هداه بخلـــــــــــــــق

كان للاصفياء خير الشعـــــــــــــار

ونشرت من مشكـلاتــه فينا طيّــاً

فكشفت التحقيق للنظـــــــــــــــار

يـــوم صرت في مجلس الــدرس بحـــرا

تقـــذف الــدر مــن صحيح البخــاري

واتخـــــذت إقـــــراءه طـــــاعة فـــي

رمضان للمـــالك القـــهــــــــــار

من أتى منشداك في يــوم خـــــــــتم

لَـــرَأى كالشيخـــين فـــــي الأبصـــار

وحواليك للـــــرواية قـــــــــــوم

عالمون بل واسعو الأفـــكـــــــــار

توجوا من جلال مـــلك وعلـــــــــم

كل تاج من العلا والــــوقـــــــــار

وبـــــدت للقبـــــول آيــــة صـــــدق

من محياك الســاطع الأنـــــــــوار(69)

وهذه القصيدة – كسابقاتها تؤكد أن المجالس العلمية للمولى سليمان، كانت تختم بحفل، تلقى فيه القصائد في مدح الملك، واستعراض أياديه البيضاء على أمته، ومنها عقد هذه المجالس، وآثارها.

فهو يمدحه بأنه خير الأئمة، لتقواه، وسيره بهدي السلف، مما انعكس على أمته. لأنه هو الملك الوحيد الذي يتبع سنن الأولين، من الأسلاف الصالحين، والتابعين، ولحلمه وعفوه عند المقدرة.

(69) ديوان سليمان الحوات، ص : 76 – 78، م، خ، م بالرباط، رقم : 101 .

وإنه يعجز عن مـدحه، ويشبهه بالشمس التي إذا طلعـت حجب نورها كل نور مهما كان وهجه، وكذلك هـو بالنسبة لغيره من الملوك الأخيار، لأنه عالم، ويعمل على نشر علمه بواسطة مجالسه العلمية، التي هي مجال للبحث والمناظرة، وتطوير العلوم لمصالح الأمة الإسلامية.

وكل علماء مجالسه العلميـة يجنون من علـومه الغزيـرة، ويتحلون بما يأخـذونه عنـه، ويتيهـون به أمـام غـيره، في المحـافل والأنـدية العلميـة الأخرى.

فهو الـوحيد الـذي يدرك أسرار القـرآن، ويبرزها في التفسـير، الـذي نبغ فيه، ولاغرو، فهو فرع الدوحة النبوية، وحبرها، ولذلك فاق المفسرين جميعا في تلك المجالس، وعلم الحديـث لولا وجود السلطـان العالم المولى سليمان على رأس تلك المجالس، وبالتالي على رأس الدولة، لضعف شأنه والاعتناء به بهذه البلاد وبين علمائها. ذلك لأنه أحياه بســائر علومه من : رواية، ومتن، ورجال في اتصال إلى رســول الله ﷺ، لاهتمامه بسائر هـذه العلوم في هذه المجالس العلميـة الخالدة، إذ لا يجاريه أحـد من العلماء، لا في حفظه، ولا في ضبطه، ولا يشاركه في ذلك أحد، فهـو وحده الذي يتصدى لكل ذلك، ويقوم بـه خير قيام، ومـا ذلك إلا لأنه تخلق بتعـاليمه وبهديـه ككبار الأصفيـاء المقربين من الله ورسوله، من أولياء الله الصالحين.

ولأنه طــرح جميـع مشكــلاتـه على بســاط الــدرس والبحـــــث، في مجالســـه العلميـــة هذه، فجلى غـوامضهـا لـلأنظار، وأوجـد لها الحلـول الناجعة.

وشبه عملـه داخل هذه المجـالس، واستنبـاطه أحكام صحيـح البخاري وغيره، وتقديمها للعلماء، وبالتالي للأمـة، شبهه في ذلك بالبحر الذي يقذف الدر من أغواره للقريب والبعيد.

كما أنه اتخذ سرد صحيح البخـاري ودراسته في شـهـر رمضان، تقـربا وطاعة لله تعالى، في هذا الشهر المبارك، وهو خير قربان يقدم في هذا الشـهر العظيم، شـهر التوبة والغفران.

أما علماء مجالسه فهو الذي جللهم وتوجهم بالعلا والوقار، بما اقتبسوه منه من العلم، واستمدوه من السلطان.

وأنه ينشده كل ذلك في هذا الحفل لختم البخاري، لأنه يستشف كل ذلك أكثر من غيره لمكانته القريبة منه، والعالية لديه، التي هي بمثابة مكانة الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- من النبي ﷺ.

4 – وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وله أيضا في ختمة أخرى، خلد الله ملكه(70) :

بشرى لمن طلب الحديث واتصلـت
بـه روايتـه متنـا وتعليـلا

هـو الـدليل لمن يبغي الـوصـول إلـى
حكـم الشريعـة تحريما وتحليـلا

وهـو البيان لمجمل الكتـاب فلـم
تترك صراحتـه في الآي تأويـلا

وفيـه معـرفـة لما مضـى ولـما
يأتي من الأمـر جملـة وتفصيـلا

يـزيـد في العمـر والـرزق لصاحبـه
ومـن يكن سـائلا أصبـح مسـؤولا

ويحفـظ السمع والأبصـار بـل وكـذا
كل الجوارح علـة وتعليـلا

ويمنع النفس والشيطـان حظهـمـا
من التظـاهـر تكثيرا وتقليـلا

ويعصم الـدهـر في أصـل عقيدتـه
من الضـلالـة تجسيما وتعطيـلا

ويحمل النفس دائمـا علـى ورع
ويحرس الملك تغييرا وتبديـلا

فـاشتغل بـه وتثبـت فـي مسانـده
حفظـا وفهما وتجريحا وتعديـلا

وفي صحيح البخـاري منـهمـاانتصبت
لـه المشـايخ إمـلاء وتحصيـلا

(70) ديوان سليمان الحوات، ص : 79 – 81، م، خ، م. بالرباط، رقم : 101 .

وللإمام أمير المؤمنين به
عناية حبلها لازال موصولا

فلم يدعه وشهر الصوم يقرؤه
إقراء مجتهد بدءا وتكميلا

فبحث بحث الأكابر الألى سلفوا
بنظر يبدل التصعيب تسهيلا

يبني الفروع على أصولها فترى
قياس معقولها ينتج منقولا

يا نور من أبصروا أنوار مجلسه
والتمسوا من ندى الحقيقة السؤلا

فلتقتدوا أبدا به فلن تجدوا
لسنة الله عنكم قط تحويلا

قد جمع الله فيه الملك عن ورع
والعلم عن نظر فحاز تفضيلا

أحيت معالم هذا الدين نضرته
فصار في حجرها بالحفظ مكبولا (71)

وطلعت للهدى شمس بغرته
فنسخت في الورى ما كان تضليلا (72)

وفي هذه القصيدة يعدد الشاعر فضائل علم الحديث، والتفسير، وبالتالي أهداف هذه المجالس العلمية الحديثية وغيرها، وإبعادها، وخلفياتها.....

ذلك أن أفضل العلوم بعد العلوم المتعلقة بكتاب الله العزيز هو علم الحديث بسائر علومه وفروعه، ولاسيما المتن والشرح، لأنه الدليل الوحيد لمن يريد الوصول إلى معرفة أحكام الشريعة الإسلامية، من تحليل وتحريم....

وهو أصدق وسيلة لشرح كتاب الله الكريم، فما من آية قرآنية إلا وهنالك أحاديث عديدة في شرحها، كما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم وتأكيده.

(71) ديوان سليمان الحوات، ص : 79–81، م.خ.م. بالرباط، رقم : 101.

(72) المصدر السابق، ص : 81 – 82.

وفي الحديث الشريف نجد الأحكام لما مضى، ويمكننا القياس عليها واستنباط أحكام للحاضر والمستقبل، بإيجاز أو بإطناب.

ثم إن الذي يتعاطى لعلم الحديث، ويكرس له وقته، يبارك الله في عمره، وفي رزقه، ويزيده علما ومالا، حتى يصبح عالما كبيرا، مسؤولا ومقصودا، بعد أن كان جاهلا يتلمسه.

كما أن ذلك يحفظ على الإنسان صحته، وسلامة جميع أعضائه وحواسه، ماديا ومعنويا، ويكبح جماح النفس عن الشهوات والمعاصي، كثيرها و قليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يرتكب منها شيئا.

أضف إلى ذلك أن معرفة الحديث، تحفظ على الإنسان سلامة عقله ودينه، فلا يقع في الشبهات، من تجسيم وتعطيل وغير ذلك، من معتقدات الطوائف الضالة المضلة.

ذلك أن المحدث دائما ورع تقي، وإذا كان ملكا، فإن الله يحرس ملكه من عوادي الدهر، وظروفه....

فالعاقل هو من يشتغل بعلوم الحديث كلها - وهو يدعو إلى ذلك - ويحقق إسناده بالحفظ والفهم، والتمكن والتضلع في علم الجرح والتعديل.

ويدعو إلى الاكتفاء منه بما في صحيح البخاري الذي يدرس في هذه المجالس - لأن شيوخ العلماء، أوسعوه إملاء وحفظا وشرحا...

وإقبال العلماء على صحيح البخاري دون غيره يدل على أنه أحسن ما يوجد، وشبهه بالمزرعة، والأرض المسقية، والطيور لا تجتمع لتلتقط الحب إلا في مزرعة، أو في أرض ندية مبللة، حيث تلتقط، دودها، وكذلك العلماء في إقبالهم على صحيح البخاري، وعلى رأس هؤلاء العلماء أمير المؤمنين المولى سليمان، الذي يعتصم به اعتصامه بالعروة الوثقى، فهو يبدئ ويعيد فيه خلال شهر رمضان، ويوسعه اجتهادا واستنباطا للأحكام، والفتاوى وغيرها.

وإن اجتهاده في هذا الصدد، ليمتد إلى علاج معضلاته وحلها، ووصل موقوفه بدهاء، لأنه يعتمد في تفسيره وتقديره على المعقول والمنقول المأثور معا.

ذلك لأنـه يبني بحثه في مجالســه العلمية على بحوث العلماء المجتهـدين الأوائل، ثم يأتي بأراء ونظريات جديدة، تجعل كل صعب سهلا.

كما أنه يقيس الفـروع على الأصول، ويعتمد القياس كمصـدر للشريعة الإسلامية، فيقيس المعقـول على المنقول، مما ينتج اجتهادا صحيحـا، جامعا بين الحسنيين، اجتهادا نموذجيا متوسطـا بين المعقول والمنقول، دون إفراط ولا تفريط.

أمـا علماء مجالسه العلميـة فيستمـدون نورهم وعلمهـم من سنا نـور مجالسه، الذي يغمـرهم، وهديها الذي يهديهم سواء السبيل. هـذه المجالس التي تجمع في منهجيتها وعملها -خلال الدراسـة والبحث- بين مزايا القديم والحديث الجديـد، وبين الطريف والتليـد- من المعقول والمنقـول، والأصول والفـروع، لاشك أن نـورهـا يكون أسطع من كـل الأنوار، وهـديها أهـدى الهدى.

5 - وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وله أيضا في ختم أمير المؤمنين رضي الله عنه - صحيح البخاري في رمضان (73) آخر، من سنة أخرى"، ومطلعها :

حـــديث هـــــوايـــــا صـح فما أداري
وعن إسنــــاده عـــز اصطبـــــــــاري
فهل وعـــد يبـــوح بسر وصـــــــل
أواصـل فيــــه ليلي بــــــالنهـــــار

إلى أن يقول :

تجلـت كــــــالعـــــــرائس يـــــوم تجلى
بـأبهى مجلـس تحت المنــــــــــار
تصـــدر فيـــه لــــلإقــــراء شيخــــــا
أمير المؤمنين على اقتــــــــــــدار
فأبـــرزهــا ولا كيـــوم يقـــــــــوى
صحيح محدث الــــدنيـــا البخـــاري

(73) ديوان سليمان الحوات، ص : 86- 88، م.خ.م. بالرباط رقم : 101.

وأجـــراهـــــا على قـــــوم ظمـــــاء
كمنسجـم بـــأوسـع المجـــــــــــاري
وكم مـن مشكل أبـــداه فـــــــــيه
ولما يبـد قبل إلى الكبـــــــــــار
وذلك دأبـــه في كل عـــــــــــام
بشهـــر الصـوم حتى في أسفـــــــار
ويختمـــــــــــه وأهـل العلـم تجنـي
من التقـريـر أنـواع الثمـــــــــــار
ويكـــرمهم بما فيـــه غناهـــــــــم
فــلا يخشون بعـد من افتقـــــــار
ولا سيما الحديث ففـي شبـــــــــاب
قــد البس منـــه أشرف الشعـــــــار
وســـار على طـــريقتـــه احتـــذاء
ليـأمـن في المسير مـن العثـــــــار(74)
فكـــان مـؤمنـــا لكل خيـــــــــــر
بحــــال السر أو حـــال الجهـــــار

باستقـرائنا لهذه الأبيـات من هذه القصيـدة المطولـة، نستنتج أن المولى سليمان كان يحتفل بختم صحيح البخاري، في شهر رمضان من كل عام- كما مر بنا -

والشاعر يؤكد حبه وهيامـه بمجالس العلم، وشغله جميع أوقاته - ليلا ونهارا - لتحصيله وجني ثماره وغرره، وأنـه يجد في ذلك من المتعة واللذة، أحلى وأعذب وألذ مما يجده مدمن الخمر في معاقرتها.

هذه العلـوم تجلت في هذا المجلس، مجلس ختـم صحيح البخاري وغيره من المجالس العلمية القيمة، طيلة شهـر رمضان، الذي تتجلي فيه، فإذا هي أجمل وأبهى من العروس يوم زفافها، تحت الأضواء الباهرة.

ذلك أن هـذه العلوم لا تحصل إلا بعـد عناء وتعب، فهي أسمى العلـوم، وأكثرها صعوبة في التحصيل، لأنها تستعصي على العالم والدارس لها.

(74) ديوان سليمان الحوات، ص : 88 – 90. م.خ.م. بالرباط، رقم : 101.

وقد تـرأس هذا المجلس عن جدارة وقمانـة واقتدار، أمير المؤمنين المولى سليمان، لأنـه أعلـم العلمـاء، وأفقـه الفقهـاء، فأوضـح تلـك العلـوم الصعبـة، المستعصيـة على التحصيل والفهـم وأبـرز مكنونهـا في سـائر مجالسه العلمية، ولا سيـما يـوم ختم صحيح البخاري فانتفع بذلك علماء مجالسه المتعطشـون لها، لأنهم أخذوها من أعلم العالمين بها، ومن منـابعها الأصليـة، فكـان أصـدق معبر عنها، وأقـدر على التصـدي لحل مشـاكلها المطروحة.

وقـد واظب باستمـراريـة على إقامـة هـذه المجالس، وهـذا الختم في كل رمضان من كل عـام، حتى في أسفاره، لأن هذه المجالس لا تتـوقف في حله وترحاله، في ظعنه وإقامته.

وما إن يختم صحيح البخـاري في آخر رمضـان، حتى يكـون العلماء قد جنوا من معلـومات السلطان، العالم الكبير، فـوائد عديدة متنـوعة، في شتى العلوم، وسرعان ما يصبحون بدورهم علماء كبار، بفضل ما أخذوه عنه من العلم والمعرفة.

ويرجـع ما لتلك المجـالس من جلال ومهـابة، لـوجود السلطـان، الذي يجعلها محفوفـة بهالة من السكينة والوقار، ويضفي عليهـا القبول والبهاء والجلال.

ذلك أن السلطان قد تبحر في سائر أنواع العلوم وفنونها، فلا يخشى أن يدركه غيره من السفسطائيين المجارين له، والمرائين.

وتبحره أكيد، ولاسيما في علم الحديث، وذلك منذ شبـابه. فقد سار على هديه منـذ صغره، واحتذى تعاليمه خطوة خطـوة حتى يأمن العثار بعد أن سلك الجدد.

وبذلـك ضمـن المـولى سليمان الخيـر لنفســه ولأمته، في السر والعلانية في السراء والضراء.

وهكذا تكون هذه القصائد من ديوان سليمان الحوات – مع مقدماتها – قد أعطتنـا صورة حيـة متكاملة للمجـالس العلمية السلطانيـة الرمضـانية للمولى سليمان ســواء من حيث شكلها، أومن حيث مضمونها، وبـالتالي من حيث أبعادها، وأهدافها، القريبة منها والبعيدة.

وإلى جانب شاعر البلاط سليمان الحوات، الذي خلد المجالس العلمية الرمضانية للمولى سليمان، وأعطانا صورة حية لها في جميع خصائصها – كما قلنا – نجد شاعرا آخر من شعراء هذا البلاط ومن علماء المجالس العلمية الأبرار، خلد في ديوانه هذه المجالس، وسجل أوصافها شكلا ومضمونا،مستعرضا أعمالها، وأبعادها، وأهدافها، ألا وهو شاعر المولى سليمان وشاعر قصره، العلامة الأديب، حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج السلمي المرداسي، في ديوانه (75) :

" أنجز المدائح الغالية في الأمداح السليمانية "

وسأكتفي بإيراد قصائده دون تحليلها للتشابه التام بينهما والتلازم.

ومن قصائد هذا الديوان، التي نظمها في المجالس العلمية السلطانية للمولى سليمان، بمناسبة ختم صحيح البخاري :

1 – قصيدة جاء في تقديمها بالديوان : " وقال شبه ارتجال (76)، وقد وقعت غريبة : وهو أنّا كنا بمجلس البخاري، فعطس – المولى سليمان – فقرأ القارئ "يرحمك الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله على كل حال، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له ذلك، فليقل : يهديكم الله، ويصلح بالكم "، وذلك بالصدفة المحضة، والأبيات هي :

عطست وراوي الحديث يقو
ل : " يرحمك الله " قول الرسول
فكان الرسول المشمت إذ
عطست وذلك أعظم سؤل
سيعطيك ربي فتحا مبينا
بدعوة أحمد وذلك القبول
وينصرك الله نصرا عزيزا
وتقفل بالغنم أي قفول

(75) الديوان يوجد بالخزانة الملكية في نسختين إحداهما أجود من الأخرى ورقمها : 225 وذكر في مقدمتها أنه جمعه للإستفادة من ثماره، وأنه رتبه حسب الوقائع والأزمات تكميلا لخدمة السلطان.

(76) ديوان حمدون بن الحاج السلمي المرداسي ص : 37، م.خ.م، بالرباط، رقم : 225.

2 – وهذه قصيدة أخرى، وجاء في تقديمها "وقال عند الختم، وكان متوجها لحرب" : ومطلعها :

حدثتنا ورق سماعا عن الأو
راق في منير من الأشجار
رياح الصبا مشافهة عن
طيب عرف الرياض في الأسحار

إلى أن يقول عن المجلس :

هو رشح من بحر كفك في كف
حضور في يوم ختم البخارى
دمت فينا مخلد الملك مادا
م حديث يروى عن المختار (77)

3 – وهذه قصيدة أخرى وتقديمها : " وقال يوم ختمه صحيح البخاري (78) " في عام " ومطلعها : "

سبحان من علم القرآن معجزة
دامت، وبحرا مفيضا دائما مددا
سبحان من خلق الإنسان علَّمه
البيان، ينبي به عن كل ما قصدا

إلى أن يقول في المجلس :

سبحان من خص أمة الرسول بما
قد خصها به معطيا لها سندا
حتى كأن رسول الله شافهنا
بما أتى به من حديثه وهدى
لاسيما الجامع الصحيح أعذب ما
يروى وأقرب ماأدنى الذي بعدا

4 – وهذه قصيدة جاء في تقديمها:" وقال (79) وقد أتى برجال من الدجاجلة... ونحن نقرأ في كتاب السماع، من الإحياء للغزالي، رحمه الله" :

(77) ديوان حمدون بن الحاج السلمي، ص: 31–33، م.خ.م، بالرباط، رقم : 225 .
(78) المصدر السابق، ص: 158–160 .
(79) ديوان حمدون بن الحاج السلمي ص : 46، م.خ.م.، بالرباط رقم : 225.

كنـا بمجلس إحيـاء يذكـــــرنـــــــا
مـــا في السماع لصـــوت منبـــــر وأرب
ونحن في حضرة المليك يرفعـــــــنا
زهـــو عن كل كـــوكب سما وغــــــرب
هــذا السماع الملوكي الـذي خشـــــعت
لـــه الصنـــاديـــد من أعـــاجم وعــــرب
هــــــذا السماع المقيـم كـل ذي عــــوج
ولـــلأمـــاني والأمـــان أي سبـــــب
والجديد الذي نستشفه من هذه القصيدة، هو أن السرد والختم لم يكونا لصحيح البخاري، وإنما لكتاب الإحياء، للإمام الغزالي.

5 – وقصيـدة أخـرى، وتقديمهـا : "وقـال (80) يـوم ختمنـا صحيح البخاري بضريح أبيه –سقاه الله شآبيب رحماته "–، ومطلعها :

بـــاتت تحـــدثـــني والنجـــم ذا شرر
والبـــدر ذا كلـف من شـــدة الغيـــر
تبث مـا جرى بعـدي وفما لفـــــــم
يـــاطيبـــه من نسيم فـــاح مـن زهـــر
إلي أن يقول عن المجلس :
لم تسلني عـن أحـــاديث لها عذبــــت
إلا أحـــاديث رســول اللـــه مــــن مضر
ومـا مسلسلـــه إلا المسلســـل مـــن
عـذب فرات جـــرى بمبســـم عطـــــر
لاسيما جـامع الصحـاح أعـــذب مـــا
جـــاءت رواة بـــه مـــن وارد الأثـــــر
ما فيـه إلا أسانيـــد محـــــــررة
جـــاءت بها زمـــر من العشـــاق عن زمـــر
غنــــت لنـا بـــالحجـاز وبـــالعـراق وبـــا
صبهان مـا فيه غنيـة عن الوتـــــر

(80) المصدر السابق و ص :84 – 86.

كأنما هي أزهـــار مفتـــــقـــــة

في الغصن أو عقد ما غـلا من الــــــدرر

للـه يوم فتحنـاه بمـــــجلـــــس من

زان المجـالـس زين الطـرف بـــالحور(81)

6 – وهذه قصيدة وتقـديمها: "وقال يوم ختم كتـاب مسند الإمام أحمد ابن حنبل(82)" ومنها في ذلك المجلس :

فشممت منهـــا نسمـــة نجديـــــة

مكية مـدنية لـــم تعـهـــــد

وتنفست أكمام أنوارسهـــــــــا

فحسبتهـا مـن مسنـد لأحمـــــد

تـــرنـو معـــانيـــه إليك كمارنـــــا

طــــرف تنـــزه عـن سحيق الإثمــــد

وتـــذوق مـن ألفـــاظــه مـــا ذ قتــه

من مبسم عـــذب شـهي مـــــــورد(83)

ومشنف بحــــديـث جــــده يسمعـــه

ومـردد لـــه رائحـا أو مغتــــــــد

بحــــر رمـت أمـــــواجــــه بنفائـــس

ويفيض عـــذب فـراتـه للـــــــورد

والجديد الوحيد الذي نجده في هـذه القصيدة، هو أن السرد والختم كانا في هذا المجلس لكتاب آخر، وهو مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وليس لصحيح البخاري، كما جرت بذلك العادة غالبا.

7 – وقصيـدة أخـرى جـاء في تقـديمهـا : " وقـال يـوم ختم تفسير الكشاف(84) طالبـا منه نصره الله أن يرد لأهل العلم، مـا كان منحهم قبل من الأوقاف" . ومنها عن هذا المجلس :

---

(81) ديوان حمدون بن الحاج، م خ، م، رقم 225، ص : 86 – 87

(82) المصدر السابق، ص : 165.

(83) المصدر السابق، ص : 165 – 166

(84) المصدر السابق، ص : 193.

لـه خيول يـوم الروع سابقـــــــــة
كسبـق فهمـك في تفسير كشــــــــــــاف
كشـاف أسرار الكتاب وقـــــــــــــد
أجـــاد صـــانعـــه في قـولـــه الشافـــــــي
إن التفـــاسير في الـــدنيـــا بـــلا عـــدد
لكن لعمـــري ليس قبل كشـــــــــــاف

ونستنتج من هذه القصيدة، أن الدروس في المجـالس العلمية السلطانية للمولى سليمان، كانت تعقد للتفسير وشرح القرآن الكريم، إلى جانب الحديث النبوي الشريف، وأن الكتـاب الذي كان يعتمـد لذلك من بين كتب التفسير، هو تفسير الكشاف.

8 – وقصيدة أخرى تقديمها : «وقـال يوم ختمه للبخاري (85) في عام، وينعى على البرابر الذين فـروا لرؤوس الجبال، وخافوا منـه الدوائر» ومنها عن هذا المجلس :

كل عـــــام تشنف السمع منـــــــــا
بـــالبخـــاري أو مسلـم أو موطـــــــــــا
وما تنثـر المجـالـــس مـــــــن عـــا
لي لآلي الفهـــــوم تلقط لقطـــــــــــــا

والجديد الـذي نأخذه من هـذين البيتين هو أن الكتب التي كـانت تسرد وتختم في هـذه المجالس هي : البخـاري، ومسلم، والموطا، وذلك إلى جـانب الكتب الأخرى المذكورة في مقدمـات القصائد، أو خلال أبياتها، وعلى رأسـها صحيح البخاري، الذي يعتبر الكتاب الـرسمي والرئيسي للدرس والبحث، في هـذه المجـــالس العلميـة السلطـانيـة الخاصـــة للمـولى سليمان، ولا سيما الرمضانية منها.

والواقع أن قصائد هذا الديـوان، المتعلقة بمجالس الختم للمولى سليمان، جاءت مغرقة في الخيال، كما أن الشاعر يـركز على هدفه الرئيسي، الذي هو مدح السلطان، بينما يمر مر الكرام على ذكر مجالس الختم باعتبارها عنصرا للقصيـدة ليس إلا، ومن مناقب السلطـان، وفيض حسناتـه....، كما اكتفى

(85) ديوان حمدون بن الحاج، م، خ، م، رقم : 225، ص : 196

بوصفها من حيث الشكل، دون أن يتعمق في تحليل مضمونها، وتعداد أبعادها وأهدافها، وفضائلها، وهو ما اهتم به سليمان الحوات وأعطاه حقه، والحق يقال.

وهذا ما جعلني أكتفي باستعراض أهم ما جاء أوجد في قصائد ديوان حمدون بن الحاج بالنسبة لمجالس الختم، دون تحليلها.

المجالس العلمية وكتبها المدروسة :

إذا تتبعنا ديوان كل من الشاعر سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات الحسني العلمي، والشاعر حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج السلمي المرداسي «المدائح العالية في الأمداح السليمانية»، واستقصينا فيهما القصائد التي أنشدها كل منهما في حفلات الختم للكتب التي كانت تسرد بين يدي السلطان مولاي سليمان في مجالسه العلمية السلطانية الخاصة، ولاسيما الرمضانية منها، يمكننا -بعد جردها- أن نخرج بلائحة لهذه الكتب التي كانت تسرد في مجالسه الغراء ضمن برامجه البناءة الهادفة التي كانت تستهدف الإصلاح العام الشامل عن طريق دراسة القضايا الحيوية الهامة، في حصص معينة ومحددة دورية ثابتة.

وهذه لائحة للكتب المذكورة في الديوانين :

صحيح الإمام البخاري (86).

كتاب الإحياء للإمام الغزالي (87).

مسند الإمام أحمد بن حنبل (88).

تفسير الكشاف (89).

---

(86) ديوان سليمان الحوات م، خ، م رقم 101 ص : 72 – 74 و75 و76 و78 و79 و81 و82 و86 و88 و90 و ديوان حمدون بن الحاج السلمي، ص : 37و31 – 33 و 158 – 160 و 84 – 86 و196 م، خ، م بالرباط، ص : 225.

(87) ديوان حمدون بن الحاج السلمي ص 46 م، خ، م بالرباط رقم 2.

(88) المصدر السابق ص : 165 – 166.

(89) المصدر السابق ص : 193.

صحيح الإمام مسلم(90).
الموطـأ للإمـام مالك(91).

ويؤكد لنـا الضعيـف الرباطي، أن المولى سليـمان كـان يسـرد ويختم في مجالسه العلمية الخاصة مسنـد الإمام أحمد بن حنبل، فيقول "....ويوم الأربعاء صفر 1212هـ، ختم السلطان مسنـد الإمام أحمد بن حنبل فأحضر العلماء، وأكرمهم، وأعطى لكل منهم ثلاثين ريالا (92) ".

كما ثبت أن المولى سليمان "أمـــر العـلامـــة الشيخ الطيب بن كيران... بتدريس كتاب الإحياء للغزالي، وأمر جميع العلماء أن يحضروا عليه(93) ".

ويمكننـــا أن نتعـرف على نـــوع الكتب التي كـــان المولى سليمان يهتم بـدراستها، وسردهـا و استخراج كنـوزها من الأحكـام والقوانين والأنظمـة لاعتمادهـا في ظهـائره ومـراسيمـه ومنشـوراتـه وغيرهـا، وذلك من قـول الزياني(94) " وكان معتنيا بقـراءة العلم، وكتب الحديث، والتفسير، والنحو، واللغة، والبيان... وحاز أوفر نصيب".

وتعدد وتنوع الكتب التي كانت تدرس في هذه المجالس، إن دل على شيء، فإنما يـدل على تفتح هذه المجـالس، ونضجها، وانطـلاقها في آفـاق واسعة رحبة، أغنى وأثرى، وأنفع وأجدى....

أعمال المجالس العلمية للمولى سليمان :

كـان المولى سليمان عالما قبل أن يكـون ملكا، وكـان متضلعا في العلـوم الدينية، واللغوية، والأدبية، والعقلية، وغيرها.

كما كان زاهدا متصـوفا ملتزما، فعمل – من خـلال مجالسه العلمية – على إلباس السلفية بالمغرب حللا قشيبة من العز والسؤدد.

فقـد أحيى سنن الديـن بالعلم والعـرفـان، وأخمد وأبطل البدع المنكـرة، المخـالفة للســـنة النبـــوية بصرامـة، ودون هـــوادة، فانتعـش الفـــكر،

---

(90) المصدر السابق ص : 196.
(91) المصدر السابق، وص .
(92) تاريخ الضعيف، ص: 308.
(93) مجلة المناهل، عدد : 36، ص : 6 تحقيق مخطوطة كتاب الابتسام مقالة لعبد الهادي التازي.
(94) عقد الجمان للزياني، م، خ، ع، رقم 40، ص : 16.

وازدهر العلم، وعمت النهضة سائر مجالات الحياة المغربية. وفي ذلك يقول المشرفي (95) "... وأما جمعه لأشتات العلوم، فلقد كان وارثا من ورثة الأنبياء، حاملا للواء الشريعة، جامعا مانعا ".

لذلك شهد عصر المولى سليمان ظهور مدرسة حديثية سلفية في المغرب احتذت حذو الحركة السلفية في المشرق، التي أوقد جذوتها فيما بعد، قادة النهضة الحديثة بالشرق العربي، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ثم بقية تلامذتهما ومريديهما.

وقد اهتم المولى سليمان بهذه المدرسة الحديثية السلفية، وآزر حركتها الإصلاحية، فأصدر منشورا رسميا مؤيدا لاتجاهها ونهجها، مستهدفا توطيد دعائمها، والدعوة إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وذلك من خلال جلسات مجالسه العلمية الخاصة التي كانت مصدر ظهائره وقراراته ومنشوراته، ومن خلال خطبته التي ألفها، وأمر الخطباء بإلقائها على المنابر دائما(96)، وهي النصيحة السليمانية للشعب المغربي(97)، فكان المولى سليمان بذلك رائد للحركة السلفية المغربية على عهده.

وقد انطلق المولى سليمان في مجالسه العلمية التقليدية الخاصة، -على رأس أعيان مملكته- من منطلقات مخالفة لمنطلقات والده سيدي محمد ابن عبد الله في مجالسه العلمية، وذلك مراعاة للتطورات الزمانية والمكانية(98).

فقد كان والده سيدي محمد بن عبد الله - كما مر بنا - يحض على مذهب السلف في الاكتفاء بالإعتقاد المأخوذ من ظواهر الآيات والأحاديث الصحيحة -دونما أي تأويل- على مذهب أهل السنة والجماعة من الأئمة المجتهدين، كالإمام أحمد بن حنبل، وابن حزم الظاهري، وأتباعهما، وكان يقول عن نفسه ويؤكد في كل مناسبة، أنه مالكي مذهبا، حنبلي اعتقادا.

---

(95) الحلل البهية للمشرفي، ص : 176 – 177

(96) دعوة الحق ع : 2 س :1، ص : 22، 1376 هـ – 1957م مهمة الحركة السلفية في المغرب للحسن السائح.

(97) إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج، : 5، ص : 464.

(98) الجيش العرمرم لأكنسوس،ورقة 243،والفكر السامي للفقيه الحجوي،ج: 4، ص: 126 – 224.

ففي مجال العقيدة كان يحض الناس على قراءة عقائد الإمام السنوسي وأمثالها، كما كان معجبا بعلم الكلام، وبكل من يحسن التكلم على مذاهب المتكلمين، ولا يعترف بالعالم ويزكيه إلا إذا كان متضلعا في علم الكلام، وغيره من علوم الرأي والمعقولات، ولا سيما علم البيان (99).

ومن إصلاحاته القضائية الميدانية – على هذا الأساس – التي تعتبر جزءا من برنامجه الإصلاحي العام الشامل، والذي أعده داخل مجالسه العلمية الخاصة، بمعية أئمة العلماء وأشياخهم من أعضائها، على أساس مذهبه وعقيدته المتفتحة، تعيينه لجنة مزدوجة من أهل الرباط وسلا، وعلمائهما، تضم عشرة أفراد من كل مدينة منهما تحت رئاسة قائدي المدينتين ، وكلف اللجنة المذكورة أن ترفع إلى عامل المدينتين تقريرا شهريا، بكل ما يحصل في المدينتين طيلة الشهر.

وفي مجال إصلاح القضاء، منع القواد من إصدار أحكامهم، إلا بعد توقيعها من طرف القاضي، وحذف مهمة خليفة القاضي نهائيا (100).

وهذا إصلاح جذري للقضاء باعتباره يمنع تداخل السلط. كما نظم إدارته.

واهتم في مجالسه الخاصة بالتفسير، ولكنه احتفظ للحديث النبوي الشريف بالمكانة الأولى فيها، وفي ذلك يقول المشرفي : " وإذا تكلم في علوم القرآن أنهل بما يغمر مورده الظمآن " (101).

كما انتعش الفقه في عهده، ولم يبق مقتصرا على نصوص الفقهاء المجردة، وأقوال الخلافيين غير المسندة، وذلك لاعتنائه البالغ بعلم الفروع، وكتبها...

أما في مجال التعليم فقد أبطل المولى سليمان العمل بالمنشور الذي أصدره والده – سيدي محمد بن عبد الله – المتعلق ببرنامجه لإصلاح التعليم، وألزم الناس بالرجوع إلى المختصرات، ولا سيما مختصر الشيخ

---

(99) الجيش العرمرم لأكنسوس و رقة 244.

(100) تاريخ الضعيف، ص : 378.

(101) الحلل البهية للمشرفي، ص : 178.

خليل. وفي هـذا الموضوع يقـول الناصري (102) : " لما أفضى الأمـــر إلى السلطان العادل المولى سليمان صــار يحض الناس على التمسك بالمختصر، ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل ما جور على نيته وقصده، غير أننا نقول : الرأي ما رأى سيدي محمد رحمه الله ".

ويقـول المشرفي في نفس الصـــدد : " إلى أن أحيى اللـه قـراءة المختصر بالمتولي بعده – بعد سيدي محمد بن عبد الله– المولى سليمان (103) "

وفي هــذا الصدد أعطى لصبي من حفظـة مختصر خليل – بعد اختبـار حفظه – ألف مثقـال، وغلاما يحملهـا له، وكساه هـو ووالده. ولما أخبر أن جل الطلبة يحفظونه، رتب لهم حزبا في جامع القرويين، يقرأون منه كل يوم جزءا – كما يقرأون القرآن – وحبس على ذلك أوقافا هامة.

وكــان جل أبنائه وبنــاتــه يحفظونـــه، ويحكى أنــه سجن بعض أولاده بفاس، حتى يحفظه (104).

والواقــع أنه كان يحض على حفظه حضــا، ويعتبر حفظه شرطا أساسيا في تزكيـة العلماء، والاعتراف بمكانتهم العلمية، ممــا شجع العلماء والطلبة على حفظه، بل إنه رصد جـوائز سنية لحفظته منهما معا – كما كان الحال في العصر المريني – (105).

ومن أبــرز الجوانب الإيجابيـة لبرنـــامجه الإصــلاحي في مجال التعليم تنظيمه تكوينا مستمرا للعلماء، كما نظمه للقضـاة.

فقد أصــدر أمره لأعيان علماء مجالسه العلميــة الخاصة بأن يجمع كل منهم العلماء الصغـار، ويـراجع معهم كتـابا مـن أمهات المصـادر العلميـة والدينية الهامة. كالعـلامة الطيب بن كيران، الذي أمره بجمعهم، وتدريسهم

(102) الإستقصا، ج : 8، ص : 67

(103) مجلة المناهل، عدد، 36، ص : 4 – 6، تحقيق مخطوطة كتـاب الابتسام، لعبد الهادي التازي، والحلل البهية للمشرفي، ص : 178.

(104) الجيش العرمرم، لأكنسوس ، ورقة : 244.

(105) دعوة الحق، ع : 246، ص : 167، 1405 هـ 1985 م موقف سيدي محمد بن عبد الله من كتب الفروع لعبد الهادي الحسيسن.

كتاب الإحياء للإمام الغزالي، وأصدر أمره لجميع العلماء بأن يحضروا مجالسه هذه (106).

وعن اهتمامه بحفظ المختصر الخليلي يقول أكنسوس : "..... فلما تولى السلطان العادل سليمان، لم يكن عنده أهم من إبطال ما ذهب إليه والده الناصر - سيدي محمد بن عبد الله - مما ذكرناه.... لا من قراءة المختصر، ولا من مسألة الإعتقاد.

فلم يكن عنده أعز ممن يحفظ مختصر خليل، بل من لم يحفظه من الفقهاء عنده ناقص، لا يعول على فهمه. فتنافس الطلبة في حفظه، فكان يعطي على ذلك العطاء الكثير " (107).

ويقول عن العلماء الذين كان يختارهم المولى سليمان لمجالسه العلمية، والصفات التي كان يتوخاها فيهم : " العلماء أرباب الأنظار الأوسع... فإن هؤلاء لا يكتبون بتلك الظواهر التي تنفر العقول من قبولها دون تأويل، لاسيما إذا ألقيت إليهم بما أضاف إليها غلاة أهل الظاهر.... في مسألة الإسراء، مما هو معلوم من أقوالهم (108) ".

ومن القضايا الجوهرية التي خالف فيها المولى سليمان والده سيدي محمد بن عبد الله قضية المكس، التي كان يستنكرها ويعجبه في شأنها قول أبي البراء. ومعلوم أن والده كان قد استفتى العلماء، واعتمد فتواهم، فكان يأخذ المكس على الأبواب والأسواق، وجميع السلع (109)

وفي هذا الصدد اتخذ المولى سليمان أمينا خاصا بسوق الرقيق(110)، حتى لا يباع من الرقيق إلا من صحت رقيته، وثبتت عبوديته على الوجه الشرعي المعروف، الذي لا تشوبه شائبة، وذلك ورعاً منه وتقوى.

---

(106) مجلة المناهل، ع : 36، ص : 64 تحقيق مخطوطة الابتسام لعبد الهادي التازي.

(107) الجيش العرمرم، ورقة : 244.

(108) المصدر السابق، وص .

(109) الجيش لأكنسوس، ص : 244،

(110) نشر المثاني للقادري، ج : 3، ص : 166 - 172

وفي إطـار هذا التفتح العلمي والعقـلاني والفكـري للمولى سليمان كـان يناصر التجديـد، ويحارب التزمت والبدع المنكرة المخالفـة للشريعة السمحة، ويقاوم الأهواء، وكافة مظاهر الشعوذة بجميع أشكالها ومظاهرها، ومن أي جهة كـان مصدرها، ويصدر أوامـر بمناهضتها والقضاء عليهـا من خلال مجالسه العلمية وعلمائها الأعلام، كما هو شأن سائر أسلافه الكرام.

ففي إطار مجالسه وبمعية علمائه حرر خطبته (111) البليغة في محاربة البدع -المذكورة- التـي ضمنها آراءه الإصلاحية، ومبـادئ وأهداف الحركة السلفية التي التزمهـا، وحث فيها على التمسك بتعاليم الشريعـة الإسلامية، والتـزام حـدودهـا، وترك الشبهـات المفضيـة إلى الحرام. وحـذر فيهـا من الانسياق وراء الطـوائف الضالة من أهل البـدع، الذين بالغ في التنـديد بهم، والتنكير عليهم، بالوعد والوعيد.

وقد عقـد أبو القـاسم الزيـاني مقارنة بين هـذه الخطبة البليغـة للمولى سليمان، وبين خطبـة على غـرارهـا، للقاضي عيـاض، مفضـلا خطبـة المولى سليمان قائلا (112) : "…. فإن قارنتها بخطبة مولانا أمير المؤمنين، ألفيتها كالعقيـم مـع ذات البنات والبنيـن…، فهي سادسـة خـطـب الخلـفـاء الأربع، اللواتي انتفع النـاس بها أجمع، مع خطبة الإبرين، التي ألقـاها عمر ابن عبد العزيز ".

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي :

تابع المولى سليمان سياسة والده سيدي محمد بن عبد الله على الصعيد الخارجي، فحـاول توسيع دائرة التعـاون والتبـادل الثقافي مع دول العـالم العـربي والإسـلامي، عن طـريق التواصـل والتوادد، والمواسـاة، والمنـاصرة والمؤازرة وشـد العضـد. وأيضا بتقـريب كبـار علمائه، واستـدعـاء أئمتهم وأعيانهم، وإشراكهم في أعمال مجالسه العلمية والأدبية، وقضاياها المطروحة على بسـاط البحث والدراسـة، بكيفية مبـاشرة أوغير مباشرة، بعقـد مجالس

---

(111) النبوغ المغربي، لعبد الله كنون، ج: 2، ص: 40–47، وبه نصها، والترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 466–470.

(112) الترجمانـة الكبرى، للزيـاني، ص: 471، ونصها الكـامل بـالترجمانة الكبرى، للـزياني، ص: 466–470، والنبوغ المغربي، لكنون، ج: 2، ص: 40–47.

علمية معهم بالداخل والخارج، ولا سيما حول القضايا الدينية الموحدة المشتركة والعامة، المتعلقة بمصالح وخير المسلمين قاطبة، في مشارق الأرض ومغاربها، توطيدا لدعائم المجمع العلمي العربي الإسلامي، وكلبنة الأساس، والنواة الأولى للمؤتمر الإسلامي المنشود -الذي لم يكن ميلاده بالمغرب من باب الصدفة- والبذرة الطيبة للمجالس العلمية الحسنية الرمضانية، وللأكاديمية المغربية، اللتين تكرسان هذه المجالس العلمية المتوارثة لملوك الدولة العلوية الشريفة، وتشكلان امتدادا لها، واستمرارا لرسالتها الخالدة.

وساعد المولى سليمان على ذلك مواكبة عهده لأحداث عالمية بارزة، هزت المجتمع العالمي بعنف، وفتحت الأعين على حقائق سرمدية أزلية فطرية بسيطة في الوجود، فانتشر الوعي، وعم التفتح الأجواء الدولية، كالثورة الفرنسية، وحملة نابليون على مصر، والتحركات الاستعمارية في إفريقيا السوداء. كما ظهرت في الشرق العربي الحركات السلفية، المتمثلة في الوهابية بالحجاز، والمهدوية في السودان، والسنوسية في ليبيا (113) .

فقد تبادل الرسائل، والأطروحات العلمية، والمكاتبات الإخوانية مع ملوك ورؤساء وعلماء وقضاة العالم العربي والإسلامي (114)، ولاسيما بالحجاز وتركيا ودول المغرب العربي.

وفي إطار هذه السياسة الثقافية الرشيدة، استدعى العلامة ابن الشاهد الجزائري، واستقبله معززا مكرما، مع صفوة من مشايخ أئمة العلم العظام، بالقطر الجزائري الشقيق (115) .

وتكريسا لسنة والده سيدي محمد بن عبد الله، كان يرسل باستمرار أموالا طائلة إلى علماء وأشراف مصر، والحرمين الشريفين بواسطة شيخه ابن عبد السلام الفاسي، الذي كان أثيرا وموثقا لديه، وذلك مع ركب الحجاج(116) .

---

(113) الأعلام، للقاضي أحمد بن إبراهيم التعارجي المراكشي، ج: 5، ص: 167.

(114) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 53.

(115) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 177.

(116) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 51، وطلعة المشتري، ج: 2، ص: 162.

فقد كانت رحلة الحج صلة الوصل، والخط الرابط لأواصر هذه العلاقات الأخوية، والضامن لاستمرار وسلامة دورتها الدموية، وبالتالي لنبضاتها وحياتها وعطائها....

وفي هذا الصدد، أكرم وفادة الشيخ أحمد التيجاني المتصوف، الذي جاءه وافدا من الجزائر سنة 1211هـ، ومستجيرا بأهل البيت، من ظلم الأتراك وعسفهم، بعد أن كاتبه مستأذنا في الإقامة بالمغرب.

ولم يكتف باستضافته وإيوائه، بل أجاره وقربه، حتى صار من رواد مجالسه العلمية السلطانية، لمكانته العلمية العالية (117).

ولعل أهم مجالس المولى سليمان العلمية، التي عقدها بالخارج، ذلك المجلس التاريخي، الذي عقده بالحجاز سنة 1227هـ، في إطار الصلات العلمية والثقافية بين البلدين (118)، ولمحاورة علماء الحجاز، تحت الرئاسة الفعلية لكل من السلطان سعود، والأمير المولى إبراهيم بن السلطان المولى سليمان، حول المذهب الوهابي، ومبادئه، وأبعاده وأهدافه....

وقد ضم هذا المجلس -الذي انعقد في العاصمة السعودية- أعيان علماء الحجاز، وجهابذة علماء المغرب الشيوخ السادة : الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد بن إبراهيم الزداغي، والفقيه العلامة القاضي سيدي العباس بن كيران الفاسي، والفقيه الشريف سيدي الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه المؤقت السيد عبد الخالق الوديي (119).

وقد بدأ المجلس أعماله بقراءة جواب السلطان المولى سليمان على الرسالة التي وجهها محمد بن عبد الوهاب إلى الآفاق، داعيا لمذهبه الوهابي، والتي وصلت إلى المغرب بواسطة مفتي الديار التونسية (120)، الذي بعثها إلى علماء فاس أعضاء المجالس العلمية السلطانية، وكان لها صدى وأثر طيب لدى المولى سليمان(121).

---

(117) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 105.

(118) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 179، 1386هـ-1967م، النهضة العلمية قبل الحماية، لمحمد العلمي.

(119) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 118-120.

(120) المصدر السابق، و ج، ص: 119-120.

(121) دعوة الحق، ع: 4، س: 10، ص: 220، 1394هـ-1974م، المولى سليمان، لأحمد معنينو.

وفي هـذه الجلسـات أظهـر السلطـان السعـودي لـلأمير المولى إبـراهيم التعظيم الــواجب لأهل البيت النبــوي الشريف (122)، وجلس معـه رفقـة أعضاء وفـده من العلماء المغـاربة بتواضـع، -كأحد أصحـابه وحـاشيته- وبالغ في الاحتفاء بالوفد، وتكريم كل من تعلق به من الحجاج "حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، وغاية البر والإحسان (123) ".

ورجع الـوفد إلى المولى سليمان، فأطلعـه على نتائج المجلس وجلسـاته، الـذي عقدوه هنـاك مع علماء الحركة الـوهـابية، ورؤسـائها، وسلطـانها، وسلمـوا لـه وثـائق ومحاضر كل ذلـك، من قـرارات، وتـوصيـات، وبيـان ختامـي.....، وأكد له أعضـاء الوفـد -وعلى رأسـهم ولده إبـراهيم- أنهم لم يجدوا لدى السلطان سعود إلا الاهتمام بالشريعة الإسلامية، ولم يلمسوا في بـلاده إلا الاستقامـة والقيـام بشعائر الإسـلام، ومحاربـة البدع والآثـام، وتواضع سلطانهم لله تعالى، بعيدا عن أبهة الملك ومظاهره الرسمية.

وانطلاقا من سياسة المولى سليمان الراميـة لتحقيق الوحدة الإسلامية : وآسى تونس، وآزر أمـيرها أيام الجفـاف والمسغبـة التي اجتاحـت تـونس في سنوات عجاف، سنة 1218هـ.

فقـد أرسل إليه الأمير المذكـور وفدا يطلب منـه مساعـدته، وتزويـده بالميرة، فأكرم المولى سليمان الوفد، وواساه، وأنعم على أعضائه، ولبى طلب أمـيره.

وبذلك توطـدت العلاقة الأخوية بين البلدين، وصـار الأمير يلهج بالثناء على السلطان المولى سليمان.

فقد مدحه رئيس الوفد إبراهيـم الرياحي بقصائد عديدة، عقد لها المولى سليمان مجالس أدبية رائعة، كما سيأتي.

كما وفـد على المولى سليمان العـالم الأديب احميـدو اليحمـدي، فأكـرم وفادته، وأعانه على العودة إلى بلاده (124) .

---

(122) الجيش، لأكنسوس، ورقة : 172-173.

(123) المصدر السابق، ص: 172.

(124) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 97، تحقيق مخطوط الابتسام، لعبد الهادي التازي.

مؤلفاته في إطار مجالسه العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية النشيطة التي بعثها المولى سليمان في جميع أنحاء البلاد، على جميع المستوايات والأصعدة، انطلاقا من مجالسه العلمية السلطانية الخاصة، التي كانت تمثل قمة الهرم بالنسبة لسائر مؤسسات وهياكل الدولة، ولا سيما الفكرية، والثقافية، والعلمية منها.

وشكلت الدراسات والأبحاث والمحاضرات والمناظرات التي دارت داخل هذه المجالس أو خارجها -بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، سواء بالداخل أو الخارج- شكل كل ذلك مع محاضره، رصيدا هائلا لحركة تأليف وتصنيف الكتب، -في جميع العلوم والفنون-، االتي قادها المولى سليمان، وكانت له فيها حصة الأسد، سواء الكتب التي ألفها هو شخصيا، أو تلك التي أصدر أوامره لذوي الاختصاصات المختلفة بتأليفها، وأعانهم على ذلك بالإمكانيات المادية والمعنوية.

وكان اختيار موضوعات هذه المؤلفات -على ضوء أعمال المجالس العلمية- حول القضايا والمسائل المطروحة على بساط البحث فيها.

هذا، زيادة على حركة التأليف التلقائية العفوية، الموازية لأعمال هذه المجالس، والتي تتمثل في الكتب التي ألفها أصحابها من العلماء تأييدا لآرائهم، أو ردا على بعضهم البعض في القضايا التي تضاربت حولها آراؤهم، وطال النقاش حولها في جلسات عديدة من مجالسهم....

ومن الإنصاف للسلطان العالم المؤلف المولى سليمان، أن نذكر هنا أهم مؤلفاته القيمة، التي صنفها شخصيا أو على ضوء مجالسه العلمية وقضاياها المختلفة، المثارة في جلساتها المتوالية وهي :

- حاشيته على الإمام الخرشي.
- شرح مختصر خليل في الفقه.
- كتاب في الرد على منكر التجمير زمن الصوم، بمجلس رسول الله ﷺ، وهو مرتب على ثلاثة فصول وخاتمة :
- الفصل الأول: في جواز ذلك بالأدلة السنية.

- الفصل الثاني : في الآثار الواردة في ذلك.
- الفصل الثالث : في الأدلة الفقهية.
- الخاتمة، في التأكيد على اتباع السنة النبوية (125) .

ومطلعه : "..... يقول أفقر الورى لرحمة مولاه، الغني به عما سواه، سليمان بن محمد بن عبد الله، خوله الله كل خير وأولاه، قد رأيت بعض من تسنم أسنمة الرتب (126)، وترنم بمنة الطلب، إلا أنه ليس له اطلاع، ولا اتساع في رواية ولا سماع، أنكر التجمير بالقسط زمن الصوم، بمجلس حديث رسول الله ﷺ.....فدعاني الأنف لشبهته وإفادته، وأن أدرأ عنه الشبهة، وأبين ما التبس عليه(127)».

- حاشية على الزرقاني.
- حاشية على الموطأ.
- كتاب في أحكام الجن، والتفريق بينها وبين أحكام الإنس.
- تقييد على الآية الكريمة : ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم...**﴾ الآية.(128)
- تقاييد في شرح مختصر خليل.
- كتاب في الرضاع.

كتاب في حكم السماع الموسوم "امتناع الأسماع، بتحرير ما التبس من حكم الأسماع".

- تقييده على الآية : ﴿ **رب أرني كيف تحيي الموتى** ﴾ (129).
- تقييد في مرابطي الوقت، وشيوخ المتصوفة الناجين :
" حبالة الأطماع بالزوايا ".

---

(125) الحلل البهية للمشرفي، ص: 178، وبها ذكر هذه المؤلفات كلها.

(126) المصدر السابق، ص: 181–182.

(127) المصدر السابق، و ص.

(128) سورة : الحج، الآية : 52.

(129) سورة : البقرة، الآية : 259.

ووافقه على ذلك كبار علماء عصره ومجالسه العلمية، وعلى رأسهم الطيب بن كيران، وابن إبراهيم الدكالي، ومحمد عمر الزروالي وغيرهم.

- تقييد في مسألة تتعلق بالطلاق، ووافقه في ذلك كبار علماء مجالسه العلمية، كالقاضي أحمد بن التاودي بنسودة، وشيخه الطيب بن كيران، وغيرهما.

- رسالة إلى القضاة بردع الأزواج عن أموال زوجاتهم بافتداء أنفسهن منهم. وبذلك يعتبر في طليعة المصلحين، المدافعين عن حقوق المرأة عمليا وشرعيا.

- تقييد على الآية الكريمة : ﴿**ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون**﴾.(130)

- تقييد على قوله تعالى : ﴿**وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه**﴾(131).

- تقييد في الإصلاح الديني.

- رسالة في الكسب (132) .

- خطبة بليغة، في التحذير من بدع المواسم والطوائف الضالة (133) .

- رسالة في بدع العوام من الطرقيين، في إطار محاربته للشعوذة، مما قلص الصوفية وتآليفها في عهده، وعلى امتداد القرن الثالث عشر.

وألف هذه الرسالة (134) في نطاق حملة من التآليف والمناظرات والمجادلات بين العلماء، سواء داخل مجالسه العلمية أو خارجها، إثر ورود رسالة السلطان السعودي، بواسطة مفتي الديار التونسية، يدعو فيها لمذهبه الوهابي، والتي ذكرناها آنفا.

---

(130) سورة : الزخرف، الآية : 60.

(131) سورة : النساء، الآية : 157.

(132) شرحها شيخه الطيب بن كيران في السلوة.

(133) نصها بالترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 466-470.

(134) دعوة الحق، ع: 5، س: 10، ص: 36، 1386هـ-1967م، الثقافة والعلم في العصور الحديثة، لعبد العزيز بن عبد الله.

- "عنايـة أولي المجد بـذكرى آل الفـاسي ابن الجد " (135) ألفه إكراما لشيخه محمد بن عبد السلام الفاسي، الذي كان يناديه: «شيخنا».

- فهارس وأسانيد حديثية، كتبها سنة 1238هـ، وهي مشهورة (136).

كما شجع المولى سليمان التأليف والتصنيف، وأذكى جـذوتـه، بتشجيع العلماء عليه، وبث روح المنافسة بينهم فيه.

وأهم الكتب التي أمر بعض الشيوخ والأئمـة من علماء مجالسه العلمية بتأليفهـا حول المواضيع التي رأى هـو شخصيا، أو ارتأى علماء مجالسـه العلمية وجوب تمحيصها، وإغنائها، وإثـرائها بالدراسة والبحث -ولا سيما في الحديث والقراءات- هي :

- أمـر إدريس بن عبد اللـه البـدراوي بالتـأليف في مقرأ نـافع المدني، فألف كتابه "التوضيح والبيان (137) ".

- أمر أبا عبـد الله اليازغي بشرح الشامل لبرهـام، فشرحه، لكن أدركته المنيـة قبل إتمامه فأكملـه أبو الحسن علي التسـولي بأمر خـاص من المولى سليمان الذي مات بدوره قبل أن يتمه التسولي.

- أمـر شيـوخ مجالسـه العلمية : التـاودي بنسـودة، وعبـد القـاد بن شقـرون، ومحمد بن أحمد بنيس، والطيب بن كيران، بأن يشرح كل واحـد منهم عشرة أحـاديث من الأربعين النوويـة في مـدة لا تتجاوز عشرة أيـام، فنفذوا أمره وشرحوها (138).

- أمر قاضي فاس عباس بن أحمد بن التاودي بنسودة بالتأليف في حكم من يموت في اللعب بالبارود في المهرجانات (139) .

---

(135) دعوة الحق، ع: 4، س: 11، ص: 21، 1387هـ-1968م، اهتمام الأسرة العلويـة بحفظ القرآن، لعلال الفاسي.

(136) دعـوة الحق، ع: 2، س: 8، ص: 75، 1384هـ-1964م، خصائص المدرسـة الحديثية، لحسن السائح.

(137) مطبوع المطبعة الحجرية بفاس.

(138) تاريخ الضعيف، ص: 266.

(139) نص الحكم الذي أصدره القاضي المذكور بالمكتبة الكتانية.

- أمـر شيخه الطيب بن كيران بتأليف نصيحـة لـولده المولى إبـراهيم، فألف له : " عقد نفائس اللَّـئَـالِ في تحريك الهمم العوال (140) " .

- أمـر العلامـة إدريس البـدراوي بالتأليف في همزة الـوصل وفي الألف التي تزاد في الخط فامتثل وألف فيهما. ويقـول في ذلك : " وبعد، فقد أمرني سيدنا الإمام العالم العلامة الهمام أبو المكارم مولانا سليمان أيد الله نصره، وخلد فيما يرضيه ملكه أن أقيد في هذه الأوراق ما يتعلق، بمسألتين :

الأولى : همزة الوصل : فإنها كثيرا مـا تشكل على المعلمين وتلتبس على المتعلمين....

والثانية : الألف التي تزاد في الخط، مثل : قالوا، وآمنوا (141).

- ونظم إدريس البدراوي هذا في القراءات : "حقيقة الـرَّوم والإشمام" في ثلاثة أبيـات، فأجازه وأثابه عليها بمائة مثقـال عن كل بيت، وكان يقدره ويجله (142).

- أمر العلامة أبا عبد الله محمد اليازغي بشرح الشامل لبهرام، فشرحه وسماه "الفتح الكامل في توضيح الشـامل". ووصل في شرحه إلى المرابحة، وتوفي المولى سليمان، فـأمره المولى عبد الـرحمن بن هشام بإتمامـه، فأتمه (143).

والواقع أنه أمـر بـمصنفات عديدة من نفائس الدرر العلميـة وفوائدها، مما لا يدخل تحت عد، ولا يشمله حصر.

كما كان يأمر بعض كتابه المقَّربين بنسخ الكتب المهمة تعميما لفائدتها.

- فقد أمر كاتبه وسفيره العلامة المؤرخ أبا القاسم الزياني بنسخ كتابه «الترجمان المعرب في دول المشرق والمغـرب»، فجند الـزياني لذلـك لجنة من العلماء والنسـاخ، ورفعـه إلى المولى سليمان، بعـد أن قـرَّظـه علماء عصره بقصائد وأشجاع، فوصلهم المولى سليمان جميعا، كل بما يستحقه (144).

---

(140) مطبوع بالمطبعة الحجرية بفاس.

(141) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 75.

(142) الدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 73.

(143) المصدر السابق، ص: 76.

(144) الروضة السليمانية، للزياني، ورقة 189–190.

المجالس الأدبية للمولى سليمان :

كـان المولى سليمان من فطـاحـل علماء عصره ورعـاً تقيـاً، لين الجانب يتصف بالحلم والصبر والأناة، مما رقق مشـاعره وأرهف حسه، وجعله ذا أريحية أدبية شاملة للشعر والنثر الفني الأصيل.

ويؤكد لنـا ذلك المشرفي قائلا (145) : "..... انتشر في أيـامه العلم واعتـز طلبته، ونفذت حذاقتهم وفصاحتهم في الرسائل والأشعار، وأعجب هو بذلك أيما إعجاب".

وقد انعكس ذلك على سائر مجالسـه، ولا سيما الأدبية منها، لأن النبوغ في الأدب لا يشيد إلا على أرضية صلبة من الثقافة العامة الشاملة، ولا سيما اللغوية منها.

وعن ثقافتـه الواسعة الشاملـة يقول المشرفي (146) : "....وبالجملة فقد ألقت إليه العلوم زمامها، وأصبح لأئمة الأنام حجتها وإمامها".

ولا غرابة في انعكاس ثقافته على علماء مجالسـه العلمية وغيرها وبالتالي على كـافـة أهل عصره بجميع أنحـاء البـلاد، مـا دام "النـاس على دين ملوكهـم".

فقد نفخ من روحـه في الحركة العلميـة والأدبية التي ازدهـرت في عهده أيما ازدهار، إذ كـان المثل الأعلى والنموذج المحتـذى للعالم، الإمـام والأديب اللبيب المفلق. كما عمل على خلق الأجواء العلمية والأدبيـة الـملائمة لازدهار تلك الحركة وتطـورها إلى نهضة علمية وأدبيـة شاملة. وبالتـالي فقد شجع العباقرة والنبغاء في جميع العلوم والفنون بالجوائز، والعطاء المادي والمعنوي، ولا سيما الأدبـاء من الكتـاب والشعـراء، فـازدهـر الشعـر وارتقى النثـر -وخاصة النثـر االفني-، وذلك على يد الوزير محمـد بن إدريس ومن جاء بعـده من بلغاء الكتـاب (147)، كالصـديق الريسـوني واليمني بوعشريـن

(145) الحلل البهية للمشرفي، ص: 176-177.

(146) المصدر السابق، ص: 176-177.

(147) دعوة الحق، ع: 246، ص: 167، 1405هـ-1985م، موقف سيدي محمـد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

المكناسي، وبناني(148) . وفي ذلك يقـول المشرفي (149) : " مع اعتنائه بطلبة العلم غاية، وجلب النفع لهم، والاحسان معهم فوق النهاية، فانتشر في أيامه العلم، واعتز طلبته " .

وكان للمولى سليمان بـراعة خاصة في رئاسـة مجالسه الأدبية، وتسيير جلساتها، سلاسة ومرانة المثقف اللبيب، ذي الذوق الأدبي الرفيع، والشعور الإسلامي النبيل الفاضل، والنقد العلمي والأدبي المجرد النزيه الفاصل.

– ممـا تجلى في تقييده المتعلق بمصـادرة بيتين مشهورين من الشعـر، منسوبين لحسان بن ثابت، في وصـف النبي ﷺ، ومنع إنشادهما بين يديه في مجالسه الأدبية وهما (150) :

لـه همـم لا منتهى لكبـارهـا
وهمتـه الصغـرى أجـل مـن الدهـر
لـه راحـة لـو أن معشـار جـودها
على البركـان البر أنـدى مـن البحـر

وقد صدق حدسه وفراسته المؤمنة، وحسه الأدبي الرهيف، فشتان بين هذا التكلف والـركاكـة، وبين سلاسـة وعفويـة وجرس أشعـار حسان بن ثابت، وصدق عاطفته، وخاصة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام.

– أما براعة المولى سليمان في النثر فتشهد بها رسائله الديوانية المختلفة، التي يصوغها بنفسـه، ويحبرها بيراعه شخصيا (151) . فقد "كـان يسود رسـائلـه بيـده ثم يدفعهـا للكتـاب، فيعيـدونها بخطهم.... وتـارة يطيل في رسـائله، وتـارة يقصرها ويختصر، وذلك بحسب حـاله ونشـاطه. وخطـه صعب لا يكاد يقرأه غيره " .

– كما تتجلى بـراعته العلميـة، وملكته الأدبيـة في تـوقيعاتـه ورسائلـه الديوانيـة الرسمية : " وأما توقيعـاته ورسائله لـلأمراء والقضاة والعلماء،

---

(148) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 419.

(149) الحلل البهية للمشرفي، ص: 176–177.

(150) دعوة الحق، ع: 246، ص: 167، 1405هـ–1985م، موقف سيدي محمـد بن عبد الله من كتب الفروع، لعبد الهادي الحسيسن.

(151) مجلة المناهل، ع: 36، تحقيق مخطوط الابتسام، ص: 5، لعبد الهادي التازي.

فيما يرد على بـابه من القضايـا والشكاوى، وزجره لهم فيما يرتكبـونه.... فشيء لا يسبح في بحره سابح(152) ".

– وقد دخلت خطبة المولى سليمان –التي أنشأها في محاربة البدع (153) والفساد، ووزعها على المساجد بســائر أنحاء مملكته، وأمر أن تلقى كل يوم جمعة على منابـرها– دخلت هذه الخطبة مجالسه الأدبيـة من بابها الواسـع، رغم مـوضـوعهـا الـديني، وطـابعهـا الاجتماعي الإصـلاحي، وأهـدافهـا السياسية، والدينية، والشرعية...

فقد مدحها وقرظها شعرا، الفقيه الأديب أحمد الحبيب الرشيدي، ومدح من خلالها المولى سليمان بقصيـدة أنشدها في مجلس من المجـالس الأدبية للمولى سليمان، قال في مطلعها :

الخير كلـــه في محبــة أحمـــــــــــــد
غـــــوث العـــــوالم ذي المقـــــام الأحمد
وسلـــوك سيرتـــه لنيل مقامهـــــــــا
سبـــب يحـــــــن إليـــه كـــــل مســـدد

وكان نشاط مجالسه الأدبية لا يقل عن نشاط مجالسه العلمية، إذ كانت موازية لها، تعقد بتلازم وتـراوح معها، باعتبار أن جل العلماء –إن لم يكن كلهم– كانوا أدباء وشعراء، لعدم استقلال العلوم عن بعضـها –كما أوضـحنا ذلك من قبل– للترفيـه والترويح عن نفســه وعن جلسائه من أجلـة العلماء والشيوخ، أعضاء مجالسه العلمية المختلفة.

– ومن القصـائد التي رفعت إليه في مجالســه الأدبية المذكـورة، قصيدة نظمها كاتبـه ووزيـــره ومؤرخــه وسفــيره، خديم أعتـاب الدولـة العلوية، أبو القاسم الزياني :

---

(152) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم : 3177، ص: 53، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 176–177.

(153) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 466–470، وبها نصها الكامل، والنبـوغ المغربي، لكنون، ج: 2، ص: 40–47.

وفي هذه القصيدة نظم أسماء الدوحة العلوية المنيعة الوارفة، من الحسن الداخل والمولى علي الشريف، إلى المولى سليمان، وهي تصل مجدهم الطريف بأمجادهم التليدة، ومطلعها (154) :

الشمس من مشرق تسعى لمغربنا

والبدر يتبعها بالغرب يكتمل

– وفي أحد هذه المجالس الأدبية الزاهرة –الذي عقده بعد انتصاره على صهره وابن عمه عبد الملك بن إدريس، الذي ثار عليه بأنفا –أنشده الفقيه الشاعر محمد بن شقرون قصيدة بالمناسبة، قال في مطلعها (155) :

هذي البشائر وافت وهي قائلة   أعوذ بالله من شر الذي حسدك

وكانت هذه المجالس الأدبية للمولى سليمان، والقصائد التي تنشد فيها بين يديه، تواكب الأحداث الجسيمة التي عرفتها البلاد في عهده، وكأنه كان يعقدها للترويح عن نفسه من عناء تلك الأحداث، وآلامها وأحزانها....

– فبعد أحداث فاس، التي أعقبت رسالته التي بعثها إليهم مع ولده علي، الذي قرأها عليهم بالمسجد، بحضور لجنة من العلماء، والأعيان، عينهم السلطان لذلك بأسمائهم، –كما مر بنا– نظم الشعراء في تلك الخطوب والكوارث المفجعة، فعقد لذلك مجلسا أدبيا، ألقيت فيه تلك القصائد بين يديه، ومن أهمها : قصيدة أنشدها الوزير الشاعر محمد بن إدريس، في تلك المناسبة(156).

– وفي أحد هذه المجالس الأدبية الرائعة، أنشده الشاعر أبو القاسم الزياني قصيدة يمدحه فيها، وهي القصيدة التي ذيل بها كتابه الترجمان، الذي أهداه إلى السلطان المولى سليمان –كما مر بنا– في هذا المجلس الأدبي، والذي أعجب به السلطان، فأمره بنسخه، ومطلعها(157) :

أتى سليمان يوم العرض هدهده   بخبر من سبا أرضى به سيده

– وفي مجلس أدبي آخر قدم له الزياني كتابه "البستان الظريف" –

---

(154) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 419، وبها نصها الكامل، والنبوغ المغربي، لكنون، ج: 2، ص: 40–47.

(155) الاستقصا للناصري، ج: 8، ص: 99.

(156) نص القصيدة بالاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 139–141.

(157) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 570.

على عـادة العلماء -إذ ذاك- في إهـداء إبـداعاتهم لملكهم العـالم الـذي كـان يقدرها حق قدرها فيجزل جوائزهم، ويعلي قدرهم ومكانتهم لديه- وأنشده قصيدة يمدحه فيها ومطلعها (158) :

عـرج على روضنـا واقطف حدائقـــــه
واقطف جنـا زهـره واشرب تجد طـربـا
فـــاجن الثمار التي ليست تقـــاس بها
مــا كــرسـه بنــو الـدنيـا ونـل أربـا

- وفي إطار هذه السنة المتبعة أهدى إليـه الزياني -في أحد هذه المجالس الأدبية الرائقة- كتابه "ألفية السلوك في وفيات الملوك" مع شرحها، ومدحه بقصيدة قال في مطلعها (159) :

يـــــــــــا سليمان فقــت كـل أمير
ووسعـت علما وزدت اهتـــــــــــداء
ظهـــر الحق مـــا عليـــه غطـــاء
بك، وازداد نــــائـــل وعطــــاء

- كما أنشـده قصيدة أخـرى في أحد هـذه المجـالس الأدبية يستعطفـه ويستجديه ويمدحه، ومطلعها (160) :

لم يبق مـن ســـالك يـــرجـى ولا ملك
إلا الإمـــام الـذي طـــابت مكاسبـــــه
أقـــام الملك حكـــم العمـــريـــن ومـــا
أبـــاحـــه الشرع فـــابيضت مـــذاهبـــه

- وأنشـده في مجلس أخـر قصيدة ذيـل بها كتابـه الترجمانـة الكبرى، ومطلعها(161):

أتت إليـك أمير المؤمنين جـــــاريــــــة
مصحـــوبـــة بســـلام عـــاطـــر السنم

(158) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 570.
(159) الترجمانة الكبرى، للزياني، ص: 570.
(160) المصدر السابق، و ص.
(161) المصدر السابق، ص: 570-578.

سميتها ترجمـــانـة الملوك لـمـــا

تحسن من لغـــة العـــرب والعجم

واتسع آفاق مجالســه الأدبية، وشع نـورها فـاخترق الحدود والسدود، وراجت سوقهـا شعرا ونثرا على الصعيد الخارجي، بتعزيـز روابط التعاون والتبادل على جميع المستويات.

– مما تجلى في المجلس الأدبي الذي عقده لاستقبـال الوفد التونسي الذي أرسلـه باي تـونس حمودة بـاشا بن علي في شـأن المسغبة التي اجتـاحت الشقيقة تونس سنة1218هـ، حـاملا رسالـة ودية وهديـة للمولى سليمان، طالبا إمداده، وإسعاف بلاده بالميرة (162).

وكان رئيس الوفد هو الشاعـر الكبير الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي، الذي قدم بين يدي حاجته قصيدة يمدح بها المولى سليمان، ومطلعها:(163)

إن عـز مـن خيـر الأنـــام مـــزار

وسليل من تمتطـى لـــه الأكـــوار

هــذا الحقيقــة وابن أكـــرم مــرسل

بيت البتـــول وحبـذا الأطهـــار

وقد أنشـده إياهـا في المجلس الأدبي الحافل، الذي عقـده المولى سليمان خصيصا لهذه المناسبة –كما قلنا– وحضر هذا المجلس أعيان العلماء، وعلية القـوم، وأعضــاء الديـوان، والحاشيــة، زيـادة على أعضـاء الوفـد التـونسي المحتفى به.

وأعجب المولى سليمان وجميع الحاضرين بهذه القصيدة، وبادر السلطان لتلبية مطلبه، وقضاء حاجته بسخاء وكرم، كما زوده بهدايا سنية (164).

– ومما يؤكد لنا ازدهار هذه المجالس الأدبية للمولى سليمان، وتطورها –شكـلا ومضمـونا– لمرتبـة أدبيـة مشرفـة، تطور جلسـاتها إلى جلسـات

(162) الاستقصا، للناصري، ج: 89، ص: 118.

(163) المصدر السابق، و ج، و ص.

(164) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 118.

للمعارضة والمناجزة بين الشعراء.كمعارضة الشاعر الفقيه حمدون بن الحاج السلمي، للقصيدة التي ألقاها الزائر التونسي، العلامة الشاعر أبو إسحاق إبراهيم الرياحي المذكور، بقصيدة من بحرها وقافيتها، ومطلعها (165) :

بشراك إبراهيم بالإقبال إقبال عز لم يكن بالبال

- واستمرت هذه العلاقة الأدبية، التي كرسها المولى سليمان بكرمه وحدبه، فتوالت قصائد هذا الشاعر الكبير في مدحه، سواء بمجالسه الأدبية أو بالمراسلة. فقد أرسل إليه الشاعر التونسي المذكور قصيدة أخرى، كان أعدها لينشدها بين يدي ولد السلطان المولى إبراهيم، لما مر بتونس في طريقه إلى الديار المقدسة، على رأس الوفد الذي أرسله المولى سليمان لمحاورة الحركة الوهابية، واستطلاع أمرها، في شخص السلطان السعودي سنة 1227هـ، ولما فاته ذلك، أرسلها إليه.

وقد أنشدت أمام المولى سليمان، في مجلس حافل أعده لذلك ومطلعها(166) :

هدئ المشي فأنعم بطيب وصال

فلطالما أضناك طول مطال

بشرتني بابن الرسول لو أنها

روحي ملكتها بدلت في الحال

وقد أخذت هذه القصيدة بمجامع قلب المولى سليمان، فاهتز طربا، وأمر أن يأخذ منها نسخة كل من كان صادقا الحب والإخلاص له.

كما أجاب الشاعر إبراهيم الرياحي برسالة (167) شكر وتنويه ببلاغته وفصاحته، وتقريظ ومدح لعبقريته وشاعريته، واتساع أفق خياله الخصب المعطاء....

- وفي هذا الإطار الأدبي على الصعيد الخارجي، مدحه الشاعر الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن الشاهد الجزائري (168)،

---

(165) المصدر السابق، و ج، ص: 126.

(166) الروضة السليمانية، م.خ.م، بالرباط، للزياني، ورقة: 187، والاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 125-127، وكشف الحجاب، للسكيرج، ص: 145.

(167) الروضة السليمانية، م.خ.م، بالرباط، للزياني، ورقة: 187، والاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 125-127، وكشف الحجاب، للسكيرج، ص: 145، وبها نص رسالة المولى سليمان.

(168) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 178-180.

الـذي استقـدمه المولى سليمان، فأنعـم عليه بجائـزة سنيـة، ظلت مضرب الأمثـال :

وقد أجابه وعارضه أحد علماء فاس، ويرجح أنه العلامة محمد بن عبد القادر الفاسي (169).

– ويمكن اعتبار نص عهده بالملك بعده لولد أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، أحسـن نموذج لنثـره، لأنه خطـه بيمينه، وصـاغه بنفسـه، بجلال الموقف وطابعه الديني والشرعي الذي ضمنه بيعته له.

وهذا نص هذا العهـد التاريخي، والبيعة الفريدة من نوعهـا، الذي يخلد عظمة المولى سليمان الدينية، والإنسانية، والتاريخية.

"الحمد لله وحـده، وصلى الله على سيدنا محمـد وآله وصحبه أجمعين. أما بعـد، فإن الإمام الذي يصلح أن يكون ملكـا للمسلمين، وخليفة عن رب العالمين، من شروطه : المحافظة على الصلوات في أوقاتها، في الجماعة.

ومن شروطه أن يحمي حرمات الله، وحرمات المسلمين، ويعظم ما عظم اللـه، ويرحم الضعفـاء، ويصل ما أمـر الله بـوصله، ويقطع مـا أمر اللـه بقطعه.

ومن شروطه ألا يتعامى عن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، باليد إن قدر عليه، ثم باللسان، ثم بالقلب –وذلك أضعف الإيمان–.

وهذه الشروط كلها قد اجتمعت –والحمد للـه– في ولد أخينا مولاي عبد الرحمن بن هشـام، فأشهد الله أنه أهل لها، وهي أهل له.

أقول الحق ولا أبالي.

كتبه عبد ربه سليمان بن محمد غفر الله له، والسلام (170) .

– ويـمكن أن نضيـف إلى المجـالس الأدبيـة للمـولى سليمان، مجالس احتفاله بعيد المولد النبوي، التي كانت لا تختلف في شيء عن مجالس احتفال والده بهذا العيد.

ذلك أن أجواءها وتقـاليدها الأدبية، مفعمة بالنفحـات القدسية، والإلهام الشعري الرفيع، الذي يحلق في سمائها الصافية.

---

(169) المصدر السابق، ص: 180.

(170) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 197–198، وبها نص هذا العهد.

ويصف لنا الضعيف الرباطي مجلسا أدبيا وفنيا وموسيقيا رائعا، أقامه المولى سليمان، احتفالا واحتفاء وتخليدا لذكرى ميلاد خير البرية، جده رسول الله ﷺ، سنة 1227هـ، حيث أحضر له المنشدين من فاس وتطوان(171) .

مجالس الأمراء العلمية والأدبية :

اهتمت الأسرة العلوية بتعليم أبنائها الأمراء، فكانوا دائما في طليعة المفكرين من العلماء والأدباء والشعراء، وخاصة منهم الملوك، الذين اعتادوا على عقد مجالس علمية خاصة، يجتمعون فيها بثلة من شيوخهم، وكبار العلماء، ومتخذين منها مدرسة لتخريج نبغاء العلماء، وفطاحل الأدباء، وفحول الشعراء، لتطوير مجالسهم، وتجديد مناهجها وبرامجها، وضمان استمراريتها، سواء أيام إمارتهم، أو بعد بيعتهم.

وكانت هذه المجالس الأميرية صورة مصغرة للمجالس العلمية السلطانية الرسمية، كما كانت منها وإليها، بحيث تنبثق عنها، وتصب فيها.

- وكانت للمولى إبراهيم (172) بن السلطان المولى سليمان مجالس من هذا النوع، علمية وأدبية في آن واحد.

كما ساهم في نشاط المجالس العلمية السلطانية الرسمية لوالده على الصعيد الخارجي -حيث ترأس وفد أعيان العلماء- الذي أرسله والده لمحاورة أقطاب الحركة الوهابية ودعاتها في بلدهم، وحاملا جوابه إلى السلطان ابن سعود، صاحب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي ترأس إلى جانبه ذلك المجلس، وأظهر للمولى إبراهيم الإجلال والتعظيم، باعتباره من آل البيت النبوي الكريم.

ولم ير منه المولى إبراهيم -والوفد المرافق له- ومن أتباعه إلا الاستقامة، واتباع قواعد الإسلام (173)، ونقل ذلك إلى والده المولى سليمان، فطمأنه وأراح ضميره.

كما ساهم في المجالس الأدبية لوالده على الصعيد الوطني المحلي.

---

(171) تاريخ الضعيف، ص: 375-381.

(172) أعلام المغرب العربي، لعبد الوهاب بن منصور، ج: 1، ص: 160.

(173) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 134، والمصدر السابق، و ج، و ص.

فقد كان يوم دخوله من الحج، على رأس الوفد المذكور من العلماء يوما مشهودا، تهيأ له والده المولى سليمان فعقد مجلسا أدبيا، أنشد فيه الشعراء غرر القصائد في مدحه ومدح ولده (174)، الذي لهجت ألسنة الحجاج والعلماء -أعضاء الوفد- بفضائله وشمائله، وكرمه الحاتمي وصدقاته المتواصلة.

ومن القصائد التي تليت : قصيدة (175) بعث بها العلامة الشاعر إبراهيم الرياحي التونسي، يمدح فيها المولى إبراهيم والمولى سليمان، ويهنئه بعودة ولده.

وقد أعجب المولى سليمان بهذه القصيدة أيما إعجاب، وهزت مشاعره، حتى إنه أمر باستنساخها وفرقها على كتابه وحاشيته، وحتى شرحها بعض الأدباء إرضاء له.

وعارض هذه القصيدة بقصيدة من وزنها وقافيتها الأديب الشاعر حمدون (176) بن الحاج -كما مر بنا-.

وفي إطار مثل هذه المجالس، أقام المولى سليمان حفل ختمة (177) ولده إبراهيم، في قبة جده سيدي محمد بن عبد الله بأكدال، حضرها العامل محمد السلاوي، وعلماء العدوتين : الرباط -سلا، وسائر أعضاء مجالسه العلمية الخاصة والأدبية من أئمة العلماء، وأعيان الأدباء والشعراء بمجلسيهما وغيرهم.

وكان الأمير المولى إبراهيم ينوب عن والده في ترأس مجالس حفلات ختم كبار العلماء لأمهات المصادر من الكتب العلمية الدينية وغيرها، كحضوره ورئاسته(178) حفل ختم العلامة محمد بنجلون لكتاب صحيح الإمام البخاري سنة 1225هـ.

---

(174) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 124.
(175) نصها بالاستقصا، ج: 8، ص: 125-127.
(176) المصدر السابق، و ج، ص: 126.
(177) تاريخ الضعيف، ص: 335.
(178) المصدر السابق، و ص.

وقد أسند إليه والده قيادة الجيش، فمات رحمه الله في إحدى المعارك التي انهزم فيها والده، وكان في ركابه (179).

– وكان الأمير الحسين بن سيدي محمد بن عبد الله، أخو المولى سليمان، أديبا شاعرا (180)، وألف كتابا في التاريخ، ذكر فيه كثيرا من الحقائق التاريخية للدولة(181).

– كما كان أخوه الطيب بن سيدي محمد بن عبد الله يدرس التفسير في مجلس العلامة الطيب بن كيران شيخ المولى سليمان، وأحد أقطاب مجالسه العلمية (182).

– وكان السلطان المولى سليمان يختار كبار علماء مجالسه العلمية لتدريس أولاده، كالفقيهين العالمين اليزمي الفاسي، ومحمد بنمنصور، اللذين اختارهما لتدريس ولده المولى عبد السلام، ونقلهما لذلك من فاس إلى مراكش (183).

المجالس العلمية لكبار العلماء :

كان بعض أئمة وشيوخ العلماء أقطاب المجالس العلمية للمولى سليمان يعقدون مجالس علمية خاصة بهم، اقتداء بالمولى سليمان.

وفي هذه المجالس كانوا يتناظرون، ويتجادلون في القضايا التي تشغل الرأي العام المغربي أوالعربي والإسلامي الدينية وغيرها، أو يواصلون الحوار حول القضايا المطروحة بالمجالس العلمية السلطانية الرسمية، في جو حر، بعيد عن تقاليد المجالس السلطانية وهيبتها ووقارها.... أو حول الكتب الجديدة التي تعرفها السوق العلمية والأدبية، حيث يحاولون تقييمها

---

(179) الاستقصا، للناصري، ج: 8، ص: 134، وأعلام المغرب العربي، لابن منصور، ج: 61، ص: 116.

(180) تاريخ الضعيف، ص: 283.

(181) المصدر السابق، و ص.

(182) تاريخ الضعيف، ص: 311.

(183) المصدر السابق، ص: 367.

وتصنيفها، ونقدها، شكلا ومنهجا ومضمونا، خاصة تلك التي تتضارب حولها آراء العلماء، بالداخل والخارج....

ومن العلماء الذين كانوا يعقدون أمثال هذه المجالس :

– العلامة سيدي عبد القادر بنشقرون –الذي حضر أحد مجالسه المؤرخ الضعيف الرباطي، ووصفه لنا (184)–.

– وبعض هذه المجالس كان يعقد احتفالا بختم أمهات المصادر والمراجع الدينية وغيرها، كمجلس (185) ختم القاضي أحمد بنسودة لمختصر الشيخ خليل، الذي وصفه لنا الضعيف الرباطي، ذاكرا أنه خلال هذا المجلس، مدح صاحب المجلس والختم كل من : العلامة السيد محمد بن كيران، أخي العلامة الطيب بن كيران، والعلامة السيد الطاهر بن جلون الشرقاوي. كما قرَّظا درسه ومجلسه وحفله.

– كما يصف لنا الفقيه المؤرخ الضعيف الرباطي مجلسا علميا آخر للعلامة الطيب (186) بن كيران، شيخ المولى سليمان، وأحد أقطاب مجالسه العلمية.

– وهنالك مجلس أخر عقده العلامة الطيب (187) بن كيران احتفالا بختم تفسيره للقرآن الكريم، في زاوية ابن رحمون، ويحدثنا الضعيف الرباطي عن هذا المجلس وحفله، ذاكرا أن السلطان المولى سليمان توج هذا المجلس بحضوره، إكراما وتشريفا لشيخه الطيب بن كيران.

– كما يحدثنا المؤرخ الضعيف عن مجلس علمي عقده العلامة عبد القادر بنشقرون، احتفالا بختمه لكتاب الشفا للقاضي عياض، وقال عنه : " إنه لم يؤلف أحسن منه في الإسلام (188) ".

---

(184) تاريخ الضعيف، ص: 269–283.

(185) المصدر السابق، و ص.

(186) المصدر السابق، و ص.

(187) تاريخ الضعيف، ص: 269–283.

(188) تاريخ الضعيف، ص: 112–113.

وكان كل واحد من هؤلاء العلماء -وبالتالي من علماء مجالسه العلمية- " حجة في البيان، والأصول، والمنطق، والكلام، والتفسير، والحديث، وكلهم عنده غاية في القبول والمكانة العالية (189)".

وجلهم أخذ عنه، واستقى من بحره الزاخر. فقد كانت مجالسه العلمية مدرسة قائمة بذاتها، حيث يتخرج عليه العلماء في العلوم الدينية والعقلية وغيرها، التي تسرد كتبها بها، على أساس عقيدته ومذهبه. وفي ذلك يقول الزياني (190) : ".... اعترفوا بالأخذ من فيض بحره، والزيادة في علمهم من وفره.... وكان لهم باعترافهم درجة عالية....".

---

(189) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 244.

(190) جمهرة التيجان، للزياني، ص: 61.



الفصل الثالث

المجالس العلمية
على عهد المولى عبد الرحمن
وتعدد أنواعها وأعمالها
بالداخل والخارج :
كتبها - علماؤها - مذهبها



الفصل الثالث

المجالس العلمية السلطانية
على عهد المولى عبد الرحمن
(1238- 1276هـ ـ 1822-1859)

تمهيد :

سار المولى عبد الرحمن على سنن أسلافه الكرام، في الحفاظ على الشعائر الدينية والمقدسات الإسلامية، والامتثال لتعاليم الإسلام، والتفاني في العمل لما فيه مصلحة البلاد وخير وصلاح العباد، في توازن واتزان بين الأمور الدينية والدنيوية، دون إفراط ولا تفريط.

فقد "كان المولى عبد الرحمن بن هشام من العقلاء الثابتين، والأتقياء العارفين، والعلماء الراسخين، بانيا أمره على الشريعة، لا يحيد عنها طرفة عين(1) ".

ولا غرو فهو خريج مدرسة عمه المولى سليمان، الذي كان مثله الأعلى في الحياة، فسار على نهجه في سائر أحواله وأفعاله (2). قال عنه عمه سليمان لأكنسوس (3) :".... هو أفضل بيتنا أولاد مولاي عبد الله.... يصوم الخميس والإثنين، ويلبس الخشن من الثياب ولا يبالي". كما كان يكثر من قراءة القرآن، وإحياء ليلة المولد وليلة القدر (4)، والاهتمام بتقريب العلماء، وإكرامهم وإجلالهم، وصلتهم، واستشارة أئمتهم، والنزول عند رأيهم، سواء في القضايا المصيرية للبلاد، أو فيما يتعلق بمصالح وشؤون الرعية.

وفي هذا الصدد عمل على تطوير المجالس العلمية السلطانية لخدمة برنامجه الإصلاحي، الذي يقوم على التجديد والتفتح الواعي الحذر، والخطوات المتزنة على درب الأخذ بأسباب الحضارة الغربية الحديثة،

---

(1) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 221.

(2) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 3-4، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 246

(3) الجيش، لأكنسوس، ورقة : 197.

(4) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 108، تحقيق مخطوط الابتسام لعبد الهادي التازي.

والاقتباس منها. مع الاكتفاء من ذلك بـالضروري والحيوي والنافع، حفاظا على استقلال البلاد وحريتها.

ويؤكـد لنا المشرفي هـذا التوازن، وهذه الإزدواجيـة التي تجلت في أعمال مجالسه العلمية بقـوله (5) :" كـان..... معنيـا بسرد البخـاري كل سنـة، متشوفا لعلم الهندسـة والتنجيم والهيئة.... مكرما للعلماء، معظما لجانبهم، رادا مهمات الـرعيـة إليهم، لا يقطع دونهم أمـرا مهما، عـالي الهمـة، مهتما بالجهاد ".

فقد وافق عهده طلائع الحركة التجديدية للقرن التاسع عشر، فاستشعر حاجة المغرب الملحـة لمواكبة العصر، وبالتالي لإدخال إصلاحـات جذرية على أوضاع المغرب، عن طريق الأخذ بأسبـاب النهضة الحديثة، على غرار تركيا والبلاد العربيـة، وخاصة في المجالات الحيوية لكيـان الدولة (6)، ولا سيما التعليم، باعتباره أساسا لكل إصلاح وتقدم ورقي....

لـذلك أعطى الأولويـة في برنـامجه الإصـلاحي لقطاع التعليم، فأصـدر أوامـره بتعميم التعليم الإبتـدائي في الحواضر والبـوادي، وجنـد الـوسـائل والإمكانيـات لتحقيق ذلك، وأنفق أموالا طـائلة في بناء المدارس وتجهيـزها، وإعداد أطرها (7).

وبدأ بنفسه وأسرتـه في ذلك، فجعل من أبنائه وبناته -ذكـورا وإناثا-: مثلا أعلى وقدوة تحتذى، إذ أنشأ مسجـدا ومدرسة للأميرات داخل القصر، وبعث بالأمراء إلى النواحي لدى أعيان الفقهاء والمعلمين، وأوصاهم بتعويدهم على خشن العيش، شأنه مع قـاضي سلا العـلامة محمد عـواد، الذي أرسل إليه ولده عبد القادر سنة 1260هـ في صغره (8) .

كما اهتـم بالكتـب، فكانت خزانتـه تضم خمسين وثمانمائة مجلـدا، وكان بخزانة مكناس أكثر من ألف مجلد (9).

---

(5) الحلل البهية، ص: 221.

(6) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ص: 3، الشرق الإسـلامي والعصر الحديث لحسن مـؤنس، ص: 114-115، ط: 1.

(7) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 68.

(8) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم 3177. ص: 55-62.

(9) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 113، تحقيق مخطوط الابتسام لعبد الهادي التازي.

وفي هذا الصـدد حاول المولى عبـد الرحمن مـن خلال مجالسـه العلمية التشريعية تفكيك قيود العزلة عن المغرب، بتؤدة وتبصر وتأن.

فقد قاد حـركته الإصلاحية على رأس هـذه المجالس بالتنظير والتشريع، ثم على رأس السلطة التنفيـذية والإدارية، خـارج مجالسه، بعد أن تأكـد له خلال الدراسة والبحث مع أعيان وأئمة علمائها من قادة الفكر، والرأي العام المغربي، أن عزلـة المغرب هي السبب الرئيسي لكل ما تتخبـط فيه البلاد من مشاكل، وما يتهددها من مخاطر، وخاصة بعد احتلال الجزائر.

وكان انعـزال المغرب قد استحكم في عهد المولى سليمان، للبعـد الجغرافي وانعدام المواصلات، والدسائس الاستعمارية الغربية بالنسبة للشرق العربي، وخوفا وحذرا من الأطماع الأجنبية بالنسبة للمغرب.

فقد حرص المولى سليمان (10) على الابتعاد عن الغرب، وتفكيك أسطوله البحري، وعاش في عزلة تامة عن الشرق والغرب، يقتصر على الثقافة القديمة الأصيلة، ويتمثل مبـادئها وأهدافهـا، بعيدا عن التيـارات الجديدة في الشرق -الذي كـان يدور في فلك الـدولة العثمانيـة، وينصـهر في بـوتقتها الثقـافية والحضاريـة وغيرها - والغـرب الذي كان يعيش عنفـوان نهضته وتقـدمه وتفوقه.

وهذا ما أخر نهضة المغرب بالنسبة للمشرق العربي بنصف قرن، إذ أن عزلته حرمته الاستفادة من علـوم العصر ومعارفه وتقنياته، ولم تحمه من مطامع الغـرب ومؤامراتـه، في حين كان المفروض أن يـواكب ركب النهضة الأوربيـة والأمريكيـة، ويلقح بهما ثقـافتـه، وحضارتـه الأصيلـة، وتسبق نهضتـه نهضة الشرق العـربي، وحتى نهضة اليـابان التي كـانت موازيـة للنهضة المغربية، في محاولاتها الأولى، والتي تألقت وازدهرت، بينما تراجعت وتأخـرت في المغرب، رغم بعـده الجغـرافي، ومتاخمتـه هو لأوربـا، وحتى لأمريكا نسبيا (11).

أما النهضة الأوربية، فانطلقت على أسـاس الثورة الصناعية، التي قامت على أنقاض عهد الإقطاع، بعد أن طبق الأوربيون النظريات العلمية والتقنية،

---

(10) أحاديث عن الأدب المغربي، لعبد الله كنون، ص: 8.

(11) المصدر السابق، و ص.

وخرجوا بها إلى حيز التجربة العملية والتطبيق الميداني، معتمدين على الطاقة البخارية ثم الكهربائية، فنجحوا نجاحا باهرا، وقاموا باختراعات واكتشافات هائلة، دفعت بعجلة الحضارة الإنسانية قدما إلى الأمام. لكن ذلك كان سببا لقلب التوازنات والموازين العالمية الدولية ؛ إذ ارتقى الغرب أعلى درجات الحضارة والقوة فتبوأ قمة هرم السيادة في العالم، مما كان سببا لسيادة المادة وتراجع القيم والمثل الروحية والإنسانية.

ومست حاجة الصناعة إلى المواد الأولية واليد العاملة الرخيصة والأسواق الرائجة لتسويق منتجاتها على أوسع نطاق، فتطلع الغرب بشراهة إلى خيرات الدول المتخلفة عن ركبه، التي لازالت تعيش في أحضان حضارتها الروحية العريقة الأصيلة، وفي طليعتها دول العالم العربي والإسلامي لتأمين وتوفير حاجيات صناعته المذكورة.

وهكذا أعد الغرب مشاريعه ومخططاته الاستعمارية -في إطار برنامج استعماري متكامل- وشرع في حبك المؤامرات السياسية والعسكرية لتنفيذها مشبعا في نفس الوقت رغبته الدفينة المترسبة في الانتقام من العالم العربي والإسلامي الذي طال تربعه على عرش الحضارة الإنسانية، والسيادة العالمية.

وهذا ما جعل المولى سليمان يقاطع الدول الغربية وحضارتها وينطوي على نفسه في عزلة تامة بالنسبة للعلاقات الخارجية، وبالتالي جعل المولى عبد الرحمن يتعامل معها بخوف وحذر شديد (12).

فقد قام على رأس مجالسه العلمية وبمعية أقطاب علمائها بحركة إصلاحية شاملة لجميع قطاعات الحياة ومجالاتها -في أحضان الحركة السلفية التي مهد لها ووطد دعائمها بالمغرب المولى سليمان -رحمه الله-، ولا سيما في مجال التربية والتعليم.

فقد حافظ -في مجالسه- على التوازن المطلوب والمنشود، لإنجاح برنامجه الإصلاحي، فاهتم بالمواد العلمية الحديثة، من هندسة، وفلك، واقتصاد ،وإدارة في خط متوازٍ، لاهتمامه بالعلوم الدينية والشرعية، من قرآن وحديث وفقه وغير ذلك، مستهدفا تكوين علماء أكفاء، قادرين على مواكبة

---

(12) مظاهر يقظة المغرب للمنوني، ص: 10، والاستقصا، للناصري، ج: 4، ص: 151، ط: المصرية.

العصر، وبالتالي جعل مجالسه العلمية في مستوى تحديات هذا العصر، باعتبارها أعلى سلطة تشريعية في البلاد، تشاطره موقع القرار، وتجمع في يدها زمام السلطات الثلاث : التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، تحت رئاسته وريادته، باعتبار أن العلماء أعضاء هذه المجالس كان جلهم -إن لم نقل كلهم- من الوزراء والعمال والقضاة والكتاب، وباقي كبار موظفي الدولة.

وبذلك يعتبر المولى عبد الرحمن أول من أخذ بأسباب النهضة الحديثة، وأسسها، وقعد عوامها (13) المختلفة.

المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن :

لقد تطورت المجالس العلمية السلطانية وتنوعت منذ نشأتها -مع قيام الدولة العلوية- إلى عهد المولى عبد الرحمن.

كما بلغت أوج ازدهارها وتألقها وعطائها في عهد كل من سيدي محمد ابن عبد الله، والمولى سليمان، حيث تشعبت إلى لجان وخلايا للدراسة المعمقة المختصة، والبحث العلمي المنهجي، والتأليف والتصنيف الموجه المبرمج. كما انتظمت إدارتها، فصار لها كتاب ونساخ للسكرتارية، وكتاب للضبط، يسجلون محاضر الجلسات، وموثقون إداريون، وربائد للأرشيف(14)....

كما قامت بأعمال جليلة في المجالات التشريعية والتنفيذية، والقضائية وفي جميع قطاعات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

لكن المؤرخين والباحثين المغاربة، كادوا يجمعون على أن المولى عبد الرحمن -بعد المولى سليمان- هو الذي أعطى لهذه المجالس طابعها النهائي التقليدي المتبع وأنه "....في عهده أصبحت المجالس العلمية من العادات والتقاليد الثابتة المتبعة (15) ".

(13) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 221.

(14) جمهرة التيجان، للزياني، ص: 61-67.

(15) مقدمة تحقيق الفتوحات الإلهية، لرشيد ملين، ص: هـ.

ويؤكد لنا أكنسوس ذلك بقـوله :" ثم جاء بعد المولى سليمان ابن أخيه وولي عهده السلطـان المولى عبد الرحمن بن هشـام بن محمد بن عبـد الله، فأصبح مجلس الحديث من العوائد المرعية للدولة، واستمرت على ذلك الملوك من بعده (16) ".

والواقـع أنهـم يقصـدون بذلـك إقامتهـا طيلـة الأشـهـر الثلاثـة: رجـب وشعبـان ورمضـان علـى التوالـي، فهـذه السـنة لم تستقـر وتصبح عادة متوارثة معمولا بها كتقليد متبع للدولة، إلا في عهد المولى عبد الرحمن.

وكان مهتما في مجالسه العلمية هذه بعلم الحديث أيما اهتمام، على سنة جده سيدي محمد بن عبد الله، ولا سيما بصحيح الإمـام البخاري، الذي، كان منكبا على دراسته شخصيا، مولعـا بمناقشة شيوخ مجالسه العلمية في أحكامه وأبعاده وأهدافه، محتكما إلى نصوصـه، متوقفا عند حدوده، ملتزما بإقاماتها وتنفيذها.

فقـد "كان.... –المولى عبـد الـرحمن– مولعـا بعلم الحديث، منكبـا على صحيح البخاري، ملازمـا له، حريصا على مـذاكرة العلماء.... والاحتكام إلى نصوص الشريعة النبوية، وإقامة الحدود (17) ".

وذلك في نطـاق المجالس العلميـة، التي لم يكن يستغني عنها حتى أيـام أسفاره(18) ".

وكان علماء مجالسه العلميـة من أعلام الفكـر المغربي، وشيوخ المعرفة في سائر العلـوم والفنون، سواء العلمية منهـا أو العقلية، الدينيـة والشرعية، حتى يكفل لبرنامجه الإصـلاحي، ذلك التكامل المتوازي المنشـود –المذكور– بين الاتجاهين السائدين في عهده، السلفية والتحديث.

ورغم ميوله الحديثيـة، ورجوعه لمذهب وعقيدة جـده سيدي محمد بن عبد اللـه، وانطلاقه في أعمال سائر مجالسـه العلمية من مبادئهـا، وتحقيقا لأهدافها، فإنـــه كان يحـرص على تواجـد جميـع الاتجاهــات فيها، ممثلة

---

(16) الجيش لأكنسوس، ورقة 244، والحلل البهية، للمشرفي، ص: 294–202.

(17) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 194–202.

(18) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 108، تحقيق مخطوط الابتسام، لعبد الهادي التازي.

في العلـماء المختصيـــن في جميـع العلـوم، سواء الـدينية منهـــا أو العقلية، "من بيـــان، وأصـــول، ومنطـق، وكـــلام، وتفـــسير، وحـــديـث، وفقـــه وغـيرها (19) ".

" وكان يعاملهم جميعـا معاملة تقـوم على أســاس المساواة المطلقة بينهم في الحقوق والواجبـات "معتن بتعظيم جانبهم، وطلب الموعظة منهم (20) "، دونما أي تمييـز ولا محاباة، مهما اختلفت مـذاهبهم وميـولهم ونزعـاتهم، بـاختلاف اختصـاصاتهم التي كـان في أمس الحاجـة إليها كلهـا، في أعمال مجالسه العلمية المزدهرة.

وكـان يعقد هـذه المجالس دائما، دوريـا وباستمـرار، ثم طيلة الأشهـر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان.

أمـا دروس هذه المجـالس في عهده، فكـان يغلب عليها دراســة الحديث النبوي الشريف، ولا سيما صحيح الإمام البخاري، الذي كان ملازما له، إن بـمفرده، أو بـمعية علماء مجالسه (21) .

ويعرف لنـا ابن زيدان شيخ شيوخـه المهدي بنسودة قـائلا : " القاضي المهدي بن الطالب محمد (فتحا) بـن محمد الرضي بنسودة، شيخ الإسلام، وحجة الأيام.... إمام الفقه، والحديـــث، والسيـر، والأصول والفروع متفرد في المعقول والمنقول (22) ".

وقـد توالى على مشيخـــة هـذه المجالـس العلمية السلطـانيـة التقليديـة الرسمية، التـي كان يعقدها المولى عبـد الرحمن طيلة أيام الأشهـر الثلاثة : رجب وشعبـان ورمضـان، وفي غيرهـا –سفـرا وحضرا– عـدد من الأئمـة وأعيان العلماء وهم :

– العلامـة "سيدي محمد التهـامي بن سيدي الحمادي المكنـاسي الولي الصالح، قارئُ البخاري بحضرته (23) ".

---

(19) الجيش، لأكنسوس، ورقة : 244.

(20) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 194–209.

(21) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 182.

(22) المصدر السابق، و ج، و ص.

(23) مجلة المنـاهل ع: 36، ص: 374، صفحات من مخطـوط المفاخر العليه لعبـد السلام اللجائي، تقديم، محمد المنوني.

ولما توفي، عين السلطان المولى عبد الرحمن مكانه قاضي مكناس سيدي العباس بن كيران (24).

وبعد موته عين السلطان مكانه العلامة سيدي محمد المهدي بنسودة(25).

كما كان الفقيه المحقق المحدث أبو العباس سيدي أحمد بن الطالب بن سودة، يقرئ صحيح البخاري في حضرته (26) .

وعين في نفس المنصب الفقيه العلامة عبد السلام بوغالب، الذي أسند إليه منصب القضاء في صفرو، فامتنع عن القضاء -ورعا وتقوى- لكن السلطان لم يعذره حتى رآه بعد أن قام من مجلس البخاري بحضرته -حيث كان يقرأ بين يديه- وأخذ يلتقط النوار على مرأى منه، فتأكد من أنه تجاذب، فعذره وأعفاه من القضاء(27).

ويعرف لنا ابن زيدان العلامة، العباس بن محمد بن كيران من هؤلاء الشيوخ، ورؤساء المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن قائلا: "... عالم زمانه، وفريد عصره وأوانه، حامل لواء التحقيق، المشار له في الإتقان والتدقيق، مشارك نفاع، غزير المعارف، كثير الاطلاع، له اليد الطولى في سائر العلوم، والاقتدار الكامل على الخوض في منظومها والمفهوم(28) ".

ومن تعريف ابن زيدان بكل من العلامة المهدي بنسودة، والعلامة العباس بن كيران، يمكننا أن نستشف الشروط التي كان يتوخاها المولى عبد الرحمن في أشياخ ورؤساء هذه المجالس من أئمة العلماء وجهابذتهم.

أما مكانة العلامة العباس بن كيران لدى السلطان، وبالتالي مكانة العلماء الذين عينهم لمشيخة ورئاسة مجالسه العلمية، فتتجلى لنا في بقية كلام ابن زيدان عن العلامة المذكور : "انتقاه سيدي الجد المولى عبد الرحمن لقضاء عاصمته المكناسية واتخذه شيخ مجالسه الحديثية، ينوه بقدره،

---

(24) المصدر السابق، ص: 379-380.

(25) المصدر السابق، ص: 379.

(26) المصدر السابق، ص: 396.

(27) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 374، مخطوط المفاخر العلية للجائي، تقديم المنوني.

(28) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 182.

ويستمع لنهيه وأمره،... ولم يزل محمود السيرة على تلك الحال، إلى أن لقي الكبير المتعال (29) ".

كما تصدر هذه المجالس العلمية السلطانية على عهد المولى عبد الرحمن، كل من العلامة السيد التهامي بن حماد بن عبد الرحمن المطيري المكناسي سنة 1242هـ، والعلامة السيد عبد القادر بن أحمد الكوهن سنة 1254هـ، على التوالي (30).

أنواع المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن :

إن أهم المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن من حيث موضوعاتها، مجالس الاستفتاء.

المجلس الأول للاستفتاء :

ولعل أهم القضايا التي طرحها السلطان على علماء مجالسه العلمية السلطانية للاستفتاء حولها -استطلاعا لرأيهم واستنباطا لأحكام الشريعة الإسلامية، والسنة النبوية فيها،- قضية بيعة أهل تلمسان للمولى عبد الرحمن.

- فقد راسله أهل تلمسان ووهران (31) في شأن بيعته، والدخول في طاعته، ولم يلبث أن جاءه وفدهم للبيعة.

فعقد المولى عبد الرحمن مجلسا علميا خاصا على أعلى مستوى، جمع فيه أئمة العلماء وشيوخهم، واستفتاهم في الموضوع.

وفي نفس الوقت استشار أعيانهم على حدة، خارج ذلك المجلس، وعلى رأسهم قاضي الجماعة، صهره، وابن عمه، وأحد أقطاب مجالسه العلمية

---

(29) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ج: 1، ص: 209.

(30) المصدر السابق، و ص.

(31) دعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 190، 1393هـ-1973م، والاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 42، والتحفة، ج: 1، ص: 98-99، وفيها نص البيعة، والمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 3، ص: 196-204، ونصها بنفس المصدر، ص: 204-207، وترجمة، نص اتفاقية طنجة من النص الفرنسي بالمغرب عبر التاريخ، لحركات، ج: 2، ص: 222، والاستقصا، ج: 9، ص: 41-44.

المولى عبد الهادي، الذي عرف برجاحة العقل وحصافة الرأي وسداده، والتضلع في علوم الشريعة الإسلامية وغيرها.

وأشار عليه المولى عبد الهادي برفض بيعتهم، والسكوت عنهم، ونبهه إلى أنهم مطوقون ببيعة الخليفة العثماني، ومن الأولى والأحرى أن يتوجهوا إليه، ونصحه محذرا إياه من المشاكل التي قد تجرها عليه هذه البيعة اللامشروعة.

أما بقية العلماء أعضاء مجالسه العلمية فتضاربت آراؤهم حول هذه القضية الشائكة، وبعد مناقشات ومباحثات جادة، وإثر مناظرات ومجادلات حامية الوطيس، انقسموا حولها إلى طائفتين :

أ – طائفة متشددة : أخذت برأي المولى عبد الهادي، فأفتت بالمنع والإنكار والكراهة، سدا للذرائع كلها.

ب – وطائفة مرنة : رخصت في ذلك وحبذته، وشجعت السلطان عليه، وأفتت بجوازه، ولم تذهب أية طائفة منهما مذهب التحريم.

وبينما كان المولى عبد الرحمن مترددا بين الإقدام والإحجام، والقبول والرفض، اجتمع علماء تلمسان، وتدارسوا أمرهم بينهم على ضوء فتوى المولى عبد الهادي ومن ذهب مذهبه من علماء المجلس العلمي للمولى عبد الرحمن وارتأى رأيه، وأصدروا بدورهم فتوى صريحة في وجوب قبول السلطان المولى عبد الرحمن بيعتهم، متذرعين بحيثيات وملابسات، أهمها :

أن بعد (32)، الخليفة العثماني عنهم يحول دون الاتصال المطلوب به باستمرار، في حين أن قرب المولى عبد الرحمن منهم -برا وبحرا-، يسهل عليهم ذلك، زيادة على كون السلطان سليل الدوحة النبوية، التي من حق الأمة الإسلامية كلها تفيؤ ظلالها الوارفة.

وأرسل علماء تلمسان هذه الفتوى إلى المولى عبد الرحمن، وبالتالي للعلماء أعضاء مجالسه العلمية الذين أفتوا برفض بيعتهم.

ولما توصل المولى عبد الرحمن بفتوى علماء تلمسان، زال عنه التردد، ومال إلى رأي العلماء الذين رخصوا له في ذلك، فتقبل بيعة أهل تلمسان

---

(32) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 207–209، وبها نص هذه الفتوى لعلماء تلمسان وجوابهم.

وعلمائها، ووجه معهم ابن عمه المولى علي بن سليمان خليفة له عليهم، رفقة فرق عديدة من جيشه (33).

- المجلس الثاني للاستفتاء :

ومن قضايا مجالس الاستفتاء التي عقدها المولى عبد الرحمن، في إطار جدول أعمال مجالسه العلمية السلطانية، وطرحها على بساط البحث فيها، قضية أصحاب الشيخ المهدي، شيخ الزاوية الشرادية، الذي انتحل البدع، وادعى المهدوية، فاستفحل أمره، وطغى وتجبر، وكثر أتباعه، وعاثوا الفساد في الأرض....

فحاربه المولى عبد الرحمن وهزمه، ففر أمامه، وبقي أنصاره وأتباعه، الذين أطلقوا أخا السلطان المولى المامون -الذي كان رهينة لدى المهدي- وتشفعوا به للسلطان.

وفي شأن أتباع المهدي هؤلاء، استفتى (34) السلطان علماء مجالسه العلمية، فأفتوه بالعفو عنهم، باعتبار "أنهم تابوا قبل القدرة عليهم".

فاستجاب السلطان لهذه الفتوى، وعفا عنهم، وأطلق سبيلهم، ولم يلبث المهدي المذكور أن جاءه تائبا، بعد ثلاث سنوات قضاها في التشرد والضياع، فعفا عنه، وولاه على إخوانه وأتباعه، لكنهم ضجوا بالشكوى منه، فعزله، إلى أن توفي سنة 1293هـ.

- المجلس الثالث للاستفتاء :

ومن أهم القضايا التي عقد المولى عبد الرحمن، مجلسا علميا للاستفتاء حولها، قضية أرسلها إليه من الجزائر، الحاج عبد القادر بن محيي الدين سنة 1252هـ، يستفتي علماء المغرب فيها، وسؤاله : " ما حكم الله تعالى في المتعاونين من الجزائريين مع الفرنسيين في أنفسهم وأموالهم، سواء من يخدمهم أو من يدلهم على عورات المسلمين، فهل يعاقبون ؟ وكيف ذلك ؟

---

(33) المصدر السابق، ص: 208-209، ودعوة الحق، ع: 8، س: 15، 1393هـ1975م، ص: 190-191، اتجلترا والدولة العلوية، مقالة لمحمد بن تاويت التطواني.

(34) الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 17-21.

وكذلك من يمتنع عن مساعدة المجاهدين. هل يعاقب ؟ وكيف ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وما حكم مانعي الزكاة ؟ ومن أين يرزق الجيش المجاهد من المسلمين ؟ وإذا كان جمع المال، فهل من العموم، أو من الأغنياء فقط ؟ وهل يعد الممتنع باغيا ؟ وما حكم أموال البغاة ؟

وتصدت للفتوى في هذه القضية الهامة، لجنة من كبار علماء المجالس العلمية السلطانية، شكلها المولى عبد الرحمن، تحت رئاسة الفقيه العلامة السيد عبد السلام قديدش التسولي (35)، وهو من أقطاب المجالس العلمية السلطانية للمولى عبد الرحمن.

وكانت الفتوى والأجوبة مطولة، بحيث تطلبت أكثر من خمس كراريس.

وهذه القضية تدخل في إطار التعاون والتبادل الثقافي والفكري والديني بين أقطار المغرب العربي، وبالتالي بين أقطار العالم العربي والإسلامي، الذي كان المولى عبد الرحمن من أحرص الناس على تنميته واستمراريته وتطويره وتقويته

وفي هذا الصدد أذن المولى عبد الرحمن للعلامة أبي عبد الله الشيخ محمد صالح البخاري -أحد العلماء الوافدين عليه من أنحاء العالم العربي والإسلامي- في الدخول عليه، وهو يرأس أحد مجالسه العلمية المنعقدة، فدخل وجلس لسماع الحديث الصحيح، وحضر الجلسة كلها.

ولما رفعت الجلسة العامة عقد معه السلطان المولى عبد الرحمن جلسة علمية خاصة (36)، سأله خلالها عن حاجته، كما اختبره ووعظه، شأنه مع العلماء أمثاله دائما.

أعمال المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن :

كان المولى عبد الرحمن كجده المولى محمد بن عبد الله يأخذ بمذهب السلف، ويعتقده، ويقتصر على العقيدة المأخوذة من

---

(35) م. 1258هـ الاستقصا، للناصري، ج: 9، ص: 45-46، وهذا العلامة النحرير هو صاحب الشرح على تحفة ابن عاصم في الأحكام، وشرح الشامل وحاشيته الزقاقية وغيرها.

(36) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 375. صفحات من مخطوط المفاخر العلية للجائي، تقديم : محمد المنوني.

ظاهر الكتاب والسنة، تلك العقيدة البسيطة التي تنسجم مع الفطرة، بعيدا عن التأويل والتعقيد.

وقد جعل ذلك أساسا ومنطلقا لأعمال مجالسه العلمية، سواء في التنظير والتخطيط، أو في التشريع والتقنين، أو في الدراسة والبحث، أو في الحوار والمناظرة، أو التأليف والتصنيف. تلك المجالس التي أصبحت في عهده من الثوابت التقليدية طيلة الأشهر : رجب و شعبان ورمضان.

لذلك أصدر أمره -انطلاقا من هذه المجالس، -وباتفاق مع أئمة علمائها، وتمشيا مع روحها السلفية الأصيلة - بتجديد المنشور(37) الذي أصدره جده سيدي محمد بن عبد الله، المتعلق بالعودة إلى أحضان الكتاب والسنة، كمصدرين للتشريع والقضاء والفتوى والتعليم، وغير ذلك.

كما أصدر أمره بإحياء وتطبيق المنشور الذي أصدره جده المذكور، المتعلق بإصلاح التعليم، على أساس ترك المختصرات الفقهية، وما فيها من تضارب أقوال الفقهاء وخلافاتهم.

وفي هذا الصدد أصدر المولى عبد الرحمن منشورا آخر، يجدد منشور جده، ويكرس تعليماته وبنوده، لكنه لم يكن له تأثير على الاتجاه السائد، الذي وطد دعائمه المولى سليمان، ولم يظهر له أي مفعول -على الساحة العلمية- في صرف العلماء، ومن ورائهم عامة الناس، عن طريقتهم المثلى المفضلة.

لكن هذا المنشور كان له تأثير إيجابي فعال ظاهر وواضح في إحياء علوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، وازدهار وانتشار كل من التفسير والحديث، وإذكاء الرغبة فيهما، فأقبل عليهما العامة والطلبة، والعلماء والخاصة أيما إقبال "بفضل انتشار كتب السلف، والاطلاع على آثار الأقدمين، مع حسن النظر في الكتاب والسنة (38) ".

وذلك اقتداء بالمجالس العلمية السلطانية، التي اهتمت بهذه العلوم وكتبها، حتى كادت تقتصر عليها، وحتى أصبحت تسمى

(37) نصه في النبوغ المغربي، لكنون، ج: 1، ص: 276

(38) النبوغ المغربي، لكنون، ج: 1، ص: 276 .

بالدروس الحديثية، باعتبارها القاعدة، أما غيرها فنادر، والنادر لاحكم له.

كما أصدر المولى عبد الرحمن ظهيرا (39) بإصلاح نظام التعليم في جامعة القرويين، في إطار برنامجه الإصلاحي، وانطلاقا من مجالسه العلمية الرسمية، واقتداء بجده سيدي محمد بن عبد الله (40).

وقد اهتم علماء مجالسه العلمية بالعلوم العقلية، والرياضية، والحساب، والهيئة، والطب -إلى جانب ما تقدم- فألفت على هامش هذه المجالس، ومن طرف علمائها، كتب في هذه العلوم المختلفة، وإن كان ذلك بنسبة ضئيلة، إذا قيس بالتأليف في العلوم الدينية والشرعية، لكن ذلك كان بداية طيبة لتطور هذه العلوم وازدهارها، على عهد ولده محمد الرابع -كما سيأتي-.

ومن إصلاحاته في المجال التربوي والتعليمي -المنبثقة عن مجالسه العلمية الخاصة- تعليماته إلى العلماء المدرسين بالاختصار، وعدم التطويل على الطلبة، في سائر العلوم حتى يجنب الطلبة الصعوبات، التي واجهته، وعانى منها أيام الطلب والدراسة.

وهكذا نلاحظ أن المولى عبد الرحمن خالف عمه المولى سليمان خلافا جذريا، وتناقض معه في مذهبه وعقيدته، وبالتالي في أبعاد وأهداف برنامجه الإصلاحي، تناقضا تاما، "وذلك فيما رآه من المصلحة اعتبارا (41) ".

وهكذا كانت مجالسه العلمية تعمل في إطار عقيدة ومذهب أهل السنة والجماعة وفي أحضان السلفية الأصيلة العريقة التي تناولت بالاصلاح جميع مجالات الحياة وقطاعاتها.

لذلك تضمن برنامج مجالسه العلمية الإصلاحي، بنودا هامة، تتعلق بمحاربة البدع المتفشية في عهده، وخاصة الخمر وآفاتها، والشعوذة، والدجل، والخرافات، والضلالات، والزوايا.

---

(39) نص هذا الظهير الكامل بالدرر الفاخرة، لابن زيدان، ص: 79-81 ، وهو مؤرخ في 12 محرم سنة 1261هـ .

(40) النهضة العلمية ، لابن زيدان، م.خ.م، بالرباط، رقم :3177، ص: 56-57 .

(41) الجيش العرمرم، لأكنسوس، ورقة : 243-244 .

فقد كان المولى عبد الرحمن -كسائر أجداده وأسلافه الملوك العلويين- يحذر شيوخ الزوايا، ويراقب نشاطهم عن كثب. وكل من حاد منهم عن الجادة، وحاول الخروج عن دوره الديني والاجتماعي، وتطلع إلى السلطة والمجد السياسي قضى عليه، (42) -كما مر بنا- سنة 1244 ـ 1828م.(43)

المجالس العلمية وكتبها المدروسة :

كانت الكتب التي تسرد في المجالس العلمية للمولى عبد الرحمن طيلة الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان، تقتصر على صحيح الإمام البخاري غالبا، -الذي كان السلطان المذكور ولوعا به، لا يكاد يفارقه-، وعلى أمهات كتب الأصول، وبالتالي التفسير والحديث عموما.

وفي الأيام الأخرى -خارج الأشهر الثلاثة المذكورة- كانت هذه الكتب تتنوع، لكنها في الغالب كانت دينية وشرعية، ونادرا ما كانت علمية أو عقلية....

أما خارج المجالس العلمية السلطانية فكان الإقبال على سائر الكتب: العلمية، والعقلية، والفكرية، والرياضية، والهندسية، والطبية، وغيرها.

وألفت في عهده، وعلى هامش أعمال مجالسه العلمية، واعتمادا على محاضرها ووثائقها عدة كتب، على أساس مذهبه وعقيدته السلفية الأصيلة، وذلك في مختلف العلوم : الدينية والعلمية، والعقلية وغيرها.

كما ألفت كتب في تاريخ الدولة العلوية، وتراجم العلماء والأدباء وغيرهم، والرحلات، والأنساب ككتب الأفراني، وابن الطيب القادري، وأبي القاسم

---

(42) دعوة الحق، ع: 6، س: 7، ص: 17، 1385هـ-1964م، الصوفية وطرقها في الإسلام، لعبد الله الجراري .

(43) دعوة الحق، ع: 8، س: 15، ص: 74، 1398هـ-1973م، بين انجلترا والدولة العلوية، لمحمد بن تاويت التطواني .

الزياني، وأكنسوس، وذلك في نفس الإطار وعلى نفس المنوال، وضمن برامج مجالســه العلميــة ولجانها وخلاياها، بكيفية مباشرة أو غير مباشرة.

ولعل أهم هــذه المؤلفــات -الخاصــة بعهــده الــزاهــر- : مخطـوطـة الإبتسام(44) عن دولة ابن هشام، لوزير المولى عبد الرحمن، العلامة الأديب محمد بن إدريس العمراوي.

ويحدثنا العلامة الوزير العمراوي(45) هذا عن خزانة المولى عبد الرحمن، -التي شــارك في تنظيمهــا، وجــدد كتبها على أيــامــه،- فكــان بها ثمانمائة وخمسون مجلدا، في جميع العلوم والفنون. كما كان بخزانته في مكناس أكثر من ألف مجلد، أما خزانته بفاس، فكانت تزيد على كل ذلك (46).

نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي :

وطد المولى عبــد الرحمن عــلاقات التعــاون والتبادل الثقــافي بين المغرب والبــلاد الشقيقة والصــديقة، على الصعيــدين : الإقليمي والــدولي، بواسطـة مجالسه العلمية االعتيدة وعلمائها الأفذاذ، حسب القضايا المشتركة الموحدة الثنائية أو الجماعية من دينية وثقافية وغيرها.

وتنوعت هذه القضايا وتشعبت، لكنها كلها كانت تصب في مجال خدمة الفكر الاسلامي، والثقافة العربية الإسلامية والحضارة الإنسانية.

فعلى الصعيــد المغاربي، كــانت هناك قضــايا تعتبر مظهــرا من مظاهــر التعــاون والتبــادل المذكــور، والــوحــدة الــروحيــة للمقــومــات والأهــداف، كالاستفتاء(47) الذي أرسله لعلماء المجــالس العلمية السلطانيــة للمولى عبد الــرحمن، الحــاج عبــد القادر بن محيي الديــن الجــزائري، سنــة 1252هـ -كما سبق-.

(44) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 91، مخطوطـة الابتسام عن دولة ابن هشــام، لأبي العلاء إدريس العمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(45) المصدر السابق، و ص . وذكره ابن عبد السلام بن سودة بالجزء الأول من كتابه «دليل مؤرخ المغرب الأقصى، وهو يقف عند وفاة المولى عبد الرحمن سنة 1276هـ .

(46) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 113، مخطوطة الابتسام عن دولة ابــن هشام للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(47) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 45-46 .

وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين الجزائري يراسل المولى عبد الرحمن باستمرار مستنجدا به، فكان ينجده، فيمده بالمال والرجال والعتاد....

وفي الرسائل المتبادلة بينهما كان السلطان يخاطبه بالولد البار، وكان عبد القادر الجزائري يخاطب السلطان بالوالد.

ولم يلبث أن كتب بيعته للمولى عبد الرحمن، وخطب به على المنابر. وكان يقول دائما : " إنما أنا نائب عن السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام (48) ".

وفي إحدى رسائل السلطان لعبد القادر الجزائري، يذكره بفضيلة الجهاد ويحفزه، مذكرا إياه بانتصار السعديين في معركة وادي المخازن على الغزاة البرتغاليين، ويستعرض عليه الخسائر التي لحقت المغرب بسبب مؤازرته وإعانته لأشقائه بالجزائر على يده : كقصف الفرنسيين لميناء كل من طنجة والصويرة (49).

وفي إطار النشاط العلمي والثقافي لمجالسه العلمية -على الصعيد الخارجي- وعملها على تمتين التعاون والتبادل الثقافي بين المغرب والعالم الخارجي، على جميع المستويات والأصعدة، كانت الرحلات العلمية المتبادلة مستمرة بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم العربي والإسلامي.

ومما ساعده على تكريس هذه الرحلات، مواكب رحلات الحج إلى الديار المقدسة، التي كانت لا تتوقف، وتخترق العالم سنويا، ذهابا وإيابا.

وفي هذا النطاق، وفد على المولى عبد الرحمن بن هشام الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد صالح البخاري، بعد أن قضى عشر سنوات بالهند يدرس العلم، في إطار الدعوة الإسلامية.

وكان متضلعا في علم الحديث، والأسانيد، والسير والأحكام.فأذن له المولى عبد الرحمن في حضور مجلسه العلمي، ودرس من دروسه الحديثية (50).

---

(48) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 106-107، مخطوطة الابتسام عن تاريخ ابن هشام، للعمراوي، تقديم عبد الهادي التازي .

(49) المصدر السابق، و ص .

(50) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 134، مخطوط الابتسام، للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

وبعد المجلس العام، عقد معه مجلسا ثنائيا خاصا، لتبادل الرأي والمشورة، والموعظة -كما مر بنا-.

ومن العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق توطيدا لدعائم التعاون والتبادل الثقافي مع بلدانه وعلمائه - عن طريق الرحلات العلمية المتبادلة - العلامة "المهدي بن الطالب بنسودة شيخ المولى عبد الرحمن بن هشام في صحيح البخاري، وشيخ مجالسه العلمية السلطانية الحديثية، طيلة الأشهر الثلاثة : رجب، وشعبان، ورمضان، الذي رحل إلى الحج، ولقي جماعة من العلماء الفضلاء الأخيار، ودرس بالحرمين الشريفين، وأقر له بالفضل والتقديم، ووقع له هنالك ظهور كبير(51) ".

كما أوفده السلطان المولى عبد الرحمن إلى مصر، على رأس وفد يضم الأمين الحاج محمد الرزيني، والحاج بوجنان البارودي.

وأرسل معه صلات إلى مائة وخمسين عالما من علماء الأزهر الشريف، على اختلاف مذاهبهم (52).

وكانت لهذا الوفد العلمي هنالك لقاءات علمية، ومحاضرات ومناظرات مع علماء الأزهر، كما حضروا مجالس علمية عديدة.

وقد شهد علماء الأزهر لرئيس الوفد، ولبقية أعضائه بالمكانة العلمية المرموقة، وسعة الإطلاع....

وفي إطار هذه الرحلات العلمية المتبادلة، أكرم المولى عبد الرحمن وفادة العلامة يوسف بن بدر الدين المدني، وبالغ في إكرامه والإنعام عليه، وعقد له لقاءات مع علماء مجالسه العلمية.

ولما هم بالانصراف، أرسل معه رسالة تعزية وتهنئة للسلطان عبد المجيد خان، يهنئه ببيعته، ويعزيه في السلطان الفقيد محمود خان.

---

(51) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان، ورقة : 182 .

(52) النهضة العلمية، لابن زيدان، م.خ.م بالرباط، رقم 3177، ص: 62، والاتحاف، لابن زيدان، ج: 4، ص: 362، حيث ذكرهم المؤلف بأسمائهم .

وعاد إليه العلامة يوسف المدني المذكور في السنة الموالية، حاملا إليه جواب السلطان عبد المجيد خان على تهنئته، فأنزله السلطان في ضيافة وزيره محمد بن إدريس، الذي بالغ في إكرامه والاحتفاء به (53).

وفي هذا الصدد وفد على المولى عبد الرحمن سادن بيت الله الحرام أبو الربيع سليمان بن عبد الله الشيبي القرشي المكي والأمير الأنصاري المدني، والشيخ محمد صالح البخاري وزوجته، الذي عقد بالمغرب حلقات دراسية تحت رعاية المولى عبد الرحمن، وبإشراف علماء مجالسه العلمية، فانتفع، بعلمه خلق كثير.

كما استقبله المولى عبد الرحمن، وعقد له مع شيوخ وأئمة علماء مجالسه العلمية، لقاءات وجلسات عملية شيقة، حضرها مؤلف مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام، السيد محمد بن إدريس العمراوي (54).

وتوظيفا لرحلات الحج وموكبها في خدمة التعاون والتبادل الثقافي وغيره، وبالتالي في تقوية وتمتين أواصر الأخوة والصداقة بين المغرب وأقطار العالم العربي والإسلامي، أرسل المولى عبد الرحمن ولديه الأميرين : المولى سليمان، والمولى الرشيد للحج، وأرسل معهما هدايا قيمة ثمينة لأمير مصر الخديوي عباس، تحتوي على خيول وسروج مذهبة، وبغال وتحف نادرة، وطرائف عديدة.

كما أرسل مالا كثيرا، ليوزع على العلماء والشرفاء، وكذا على الفقراء والمحتاجين بالحرمين الشريفين (55).

أما علاقات التعاون على الصعيد العالمي والدّولي، فقد كان المولى عبد الرحمن يستهدف منها تخفيف وطأة العزلة التي كان يعيشها المغرب على عهد المولى سليمان، وتجربة الاحتكاك بالغرب لمعرفة مدى إمكانية التعاون معه، وأسس ذلك.

---

(53) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 106–107، مخطوطة الابتسام عن دولة ابن هشام لأبي العلاء إدريس العمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

(54) المصدر السابق، ص: 107 .

(55) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 112، مخطوط الابتسام ، للعمراوي، تقديم، عبد الهادي التازي .

وتحقيقا لهذه الأهداف أرسل هدية قيمة إلى ملك فرنسا، مع وفد هام من أعيان علماء ووجهاء تطوان سنة 1261هـ-1845م، تحت رئاسة عبد القادر أشعاش.

وكانت الهدية عبارة عن : وحوش، وخيول، وطرائف قيمة، وتحف رائعة....

فأكرم الفرنسيون الوفد، وأروه عجائبهم -مما نجده في خطابه- كما أرسلوا إلى المولى عبد الرحمن هديتهم مع وفد خاص وشملت : ستة مدافع جديدة من النحاس على عربات، مع تجهيزاتها الخاصة وأربعة أفراس من إناث الخيل الفارهة الطول، الجيدة النوع (56).

وفي هذا الصدد بعث بعثات من الطلبة إلى أوربا لدراسة الهندسة والفنون العسكرية مستهدفا مغربة إدارة وأطر الجيش للإستغناء بهم عن الخبراء الأجانب واتخاذهم درعا في الجهاد، كما جدد المعاهدة العسكرية القديمة مع فرنسا، وأقام أخرى جديدة.

واشتهر جيش المولى عبد الرحمن، حتى وصلت شهرة نظامه وكفاءته إلى محمد باشا بمصر، ووصف هذا الجيش العلامة يوسف بن بدر الدين المدني المذكور آنفا، ومدح منشئه وقائده الأعلى المولى عبد الرحمن بن هشام (57).

وتتجلى رحلات التعاون الثقافي المتبادل مع الخارج أيضا في استقدامه عددا من البعثات العسكرية، ليكون الأطر المغربية في المغرب، وذلك في إطار مخططه الإصلاحي العسكري، الذي يشكل فصلا من برنامجه الإصلاحي العام.

وقد استقدم هؤلاء الخبراء من تونس والجزائر باعتبار أن استقدام الخبراء الأوربيين واستخدامهم، كان يلقى معارضة شعبية شديدة، وخاصة من طرف العلماء والفقهاء أعضاء المجالس العلمية السلطانية، في حين كانت المساعدة والتعاون مع البلدان الإسلامية، لا تلقى أية معارضة، بل كانت تلقى كل ترحيب (58).

---

(56) المصدر السابق، ص: 111-112 .

(57) مظاهر يقظة المغرب، للمنوني، ج: 1، ص: 76-77، والاتحاف ج: 5، ص: 156 .

(58) مجلة دار النيابة، ع: 17، س: 1988، ص: 14 .

ومن هؤلاء الخبراء المدربين : على التوفيق، والخوجة التونسي، من تونس وحمودة الجزائري من الجزائر.

وتمتينا لعرى الروابط الأخوية والثقافية بين مجالسه العلمية وعلمائها من جهة، وبين علماء العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى، بعث مع أولاده في رحلتهم إلى الحج -وهم الأمراء السادة : علي، وإبراهيم، وعبد الله، وجعفر، وأبو بكر، وابن عمهم عبد الواحد -مالا كثيرا، وصلات جزيلة لعلماء وأشراف الحرمين الشريفين.

كما أرسل في رفقتهم للإشراف عليهم، وفدا هاما من كبار العلماء والتجار العارفين بعادات وتقاليد البلدان المختلفة، وعلى رأسهم : الحاج محمد الرزيني، والحاج بوجنان، والبارودي التلمساني.

وبالغ في تجهيز الوفد وتزويده، وكتب لأفراده وصية (59)، وأوصى رئيس الوفد الحاج محمد الرزيني المذكور بأولاده خيرا، وأكد له "أن المال الذي عينه للنفقة عليهم جمع من أصول بتافيلالت، ومما هو حلال، وقال له : إحتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام (60) ".

وفي إطار الجزء المتعلق بتنظيم الجيش من برنامجه الإصلاحي العام، الذي أعده بمعية الخبراء من العلماء أعضاء مجالسه العلمية، أصدر أوامره إلى العلامة عبد العزيز محبوبة (61) بأن يختار عشرين طالبا من أنجب طلابه، ويحيلهم إلى دراسة المدفعية العسكرية، وأن يختارلهم أساتذة من خيرة ضباط المدفعية بالجيش، وضاعف الراتب للأساتذة، كما رتب للطلبة منحة دراسية.

وقد حدد في مجالسه العلمية -مع خبرائها من العلماء- برامج ومناهج وحصص هذه الدراسة، وكذا إدارتها وتجهيزها وأهدافها....

وقد نظم مباراة بين المراسي في هذا الصدد، ورصد جوائز سنية للفائزين في كل مرسى، ثم في التصفية النهائية على الصعيد الوطني (62).

---

(59) الاستقصا، للناصري، ج: 9 ، ص: 91، ونص الوصية ، ص: 72-74 ، وهي بتاريخ 6 رمضان 1274هـ .

(60) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 71-72 .

(61) المصدر السابق و ج، ص: 70، وهو بتاريخ 20 ذي القعدة 1273هـ .

(62) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 221 .

المجالس الأدبية للمولى عبد الرحمن :

كانت للمولى عبد الرحمن مجالس أدبية ترفيهية موازية لمجالسه العلمية السلطانية.

فقد واكب الشعراء أعماله الجليلة، وأحداث عصره المصيرية الخطيرة، وحرصوا على أن يدلوا بدلوهم فيها، في قصائد مدحهم له، حيث يبدون آراءهم، وملاحظاتهم، وانتقاداتهم في الموضوع، باعتبار أن الشعراء هم صفوة المثقفين ونخبتهم، علما بأن الفن عموما والشعر خصوصا يعتبر مقياس حضارة الشعوب، وبالتالي ثقافة ووعي، ونضج وأريحية الأفراد....

وقد حرص المولى عبد الرحمن في هذه المناسبات المذكورة، أن يعقد على إثرها مجالس أدبية، للاستماع إلى ما قيل فيها، أو كتب حولها، في جميع الفنون الأدبية، ولمجازاة أصحابها وإثابتهم بالجوائز والصلات السنية، وكذا لاستقبال أدباء وشعراء الدول الشقيقة والصديقة، الذين كانوا يقصدونه بإنتاجهم وإبداعهم، سواء بصفة شخصية، أو بصفة رسمية، لما اشتهر عنه من كرم حاتمي في مثل هذه المناسبات الثقافية.

وأهم ما أنشد بين يديه في هذه المجالس الأدبية الموازية :

– بمجرد بيعة المولى عبد الرحمن، استوزر صديقه وزميله في الدراسة، العلامة محمد بن إدريس، واحتفالا بهذه المناسبة عقد مجلسا أدبيا، أنشده فيه الوزير ابن إدريس قصيدة، ومطلعها (63) :

مولاي بشراك بالتأييد بشراك   قد أكمل الله بالتأييد سراكا

– ولما غرس أكدال، عقد لذلك مجلسا أدبيا، وأنشده فيه وزيره محمد ابن إدريس قصيدة بالمناسبة، ومطلعها (64) :

وردت وكان لها السعود مواجها
والحسن مقصور على سراجها

وبدت طلائع بشرها من قبلها
كالشمس طالعة على أبراجها

---

(63) الاستقصا، ج: 9، ص: 13–14 .

(64) نفس المصدر، و ص .

- وذكر أكنسوس أن المولى عبد الرحمن، لما أرسل ولديه الأميرين سليمان والرشيد إلى الحج، سنة 1265هـ-1849م، أراد أن يرسل معهما إلى القبر النبوي بالمدينة المنورة، قصيدة في مدح النبي ﷺ، وكلف بذلك وزيره محمد بن إدريس، الذي استناب عنه في نظمها الفقيه الشاعر المؤرخ أكنسوس (65).

- ومن المساجلات الشعرية والأدبية لهذه المجالس، مانجده في تقييد بخط العلامة المهدي بنسودة (66) "..... كنا ذات يوم..... -بمجلس أدبي- ومرض سيدي التهامي -العلامة الأديب محمد التهامي بن سيدي الحمادي- بمراكش، فأرسله مولاي عبد الرحمن -اعتناء به- لداره بفاس، فلما وصل إلى الرباط، اشتد مرضه عليه، ودخل عليه خادم له وهو يجود بنفسه، فأنشد سيدي محمد التهامي :

" ومـا المال والأهلـون إلا ودائع.......)، ثم تشهد ومات سنة 1251هـ -دون أن يتم عجز البيت- وكان حافظا متقفا ".

- ومن أروع القصائد التي أنشدت، بمجالسه الأدبية، مواكبة لأهم أحداث عصره، قصيدة نظمها الوزير محمد بن إدريس سنة 1264هـ، لما أشهرت فرنسا الحرب على المغرب -متذرعة بمساعدة المولى عبد الرحمن للجزائر- ودعا السلطان الشعب للجهاد في سبيل الله، وفيها يمدح الشاعر السلطان، ويستنفر الشعب للجهاد، ويحضه على الصبر والثبات، ومطلعها (67) :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم
إلى الجهاد دوما في الحق من غلط
فالترك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام أهل الدين بالشطط

---

(65) مؤرخو الشرفاء، لليفي بروفنسال، ص: 138-139 .

(66) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 384، صفحات من مخطوط المفاخر العلية، للجائي تقديم : محمد المنوني .

(67) الاستقصا ، للناصري، ج: 9، ص: 50، والحلل البهية، للمشرفي ، ص: 214 .

– ومن المجالس الأدبية الزاهرة التي عقدها المولى عبد الرحمن، تعزيزا للتعاون والتبادل الثقافي بين المغرب وأشقائه العرب والمسلمين، وبالتالي بين علماء مجالسه العلمية، وعلماء العالم العربي والإسلامي، مجلس أنشده فيه الشيخ يوسف بن بدر الدين المدني، قصيدة يمدحه فيها على إعانته للمجاهد عبد القادر بن محيي الدين، بالمال والعتاد والرجال، ومطلعها (68) :

أمير المؤمنين له مزايا يضيق السر فيها والنظام

وفي هذا الصدد اهتم المولى عبد الرحمن بالمهاجرين الجزائريين –ولا سيما بالأشراف منهم– فكان يصلهم جميعا في الأعياد، وأمر عماله وولاته باحترامهم وإعفائهم من الضرائب، وتحريرهم من الخدمات العامة...

وظل العمل جاريا بذلك حتى أيام المولى الحسن الأول، حيث لم يعد أحد منهم يطلب ذلك العطاء المرتب لهم.

– وفي إطار تعزيز هذه الروابط الثقافية والأخوية بين المغرب وتونس من جهة، وبين العلماء والشعراء المغاربة والتونسيين من جهة أخرى، بالتالي بين الهيئات والمؤسسات العلمية العليا بالبلدين الشقيقين، عقده لذلك المجلس الأدبي الذي أنشده فيه "عالم البلاد الإفريقية وبركتها، أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد القادر الرياحي التونسي" ومطلعها (69) :

نصر من الرحمن جل لعبده أيدوم حفل نقض مبرم عقده

– ومن أبرز شعراء مجالسه الأدبية "سيدي عبد القادر العلامة البركة، أبو عبد الله، صاحب الأزجال البديعة، م. سنة 1266هـ (70) ".

– ولما توفي المولى عبد الرحمن، رثاه الناصري، مؤلف كتاب الاستقصا بقصيدة مطلعها (71) :

من طيف ذات الخال قلبك هائم

ودمعك هام واكتئابك دائم

---

(68) الحلل البهية، للمشرفي، ص: 223 .

(69) الاستقصا للناصري، ج: 9، ص: 4–5 .

(70) المصدر السابق، و ج ، ص: 55 .

(71) المصدر السابق، و ج، ص: 77 .

وهـــــل ذكــرتك النـــائبات عشـــائرا
عفت منهـم بعـــد المعـــالي معـــالم

- ورثاه أكنسوس بقصيدة مؤثرة، ومطلعها (72) :

هـــذي الحيـــاة شبيهـــة الأحـــــلام
مـــا النـــاس، إن حققـت، غير نيـــام

- ويمكن اعتبار الحفـلات التي كان يقيمهـا المولى عبد الـرحمن، إحياء لذكرى المولد النبـوي الشريف -بما ينشـد في مجالسـها من قصائد شعرية في مدح السلطـان، وأمداح نبـوية، وما يحاط بـه المجلس من مظاهـر أدبية وفنية -مجالس أدبية رائعة، فريدة من نوعها.

فقد كان المولى عبد الـرحمن يحتفل بها أيما احتفال، ويعقد لها مجالس علمية وأدبية مشهودة، تلقى فيها عروض ومحاضرات حول السيرة النبوية، وتنشد قصائد رنانة في مدح السلطان، وجده الرسول المصطفى الأمين ﷺ، كما تنشـد الأمـداح النبويـة، وخاصـة الـبردة والهمـزية للإمام البصيري، في مظهر جليل مؤثر، وتقاليد ثابتة مرعية.

ويصف لنا أكنسوس هـذه التقاليد في المجالس الخاصـة بحفلات المولد النبوي، العابقة بالنفحات القدسية النبوية نقتطف من ذلك هذا الملخص :

"كان المولى عبد الرحمن بن هشام -رحمه الله- يحتفل بالأعياد الثلاثة، ولا سيما العيـد الأنور، عيـد المولد النبـوي الشريف - حسب عادة الملـوك العلويين، إلا أنه كان يبالغ في ذلك ويفوقهم -احتفالا عظيما.

وكان يحضر هذه الاحتفالات ممثلوا الدول الرسميون والمدعوون.

ففي صبيحة عيد المولد النبوي الشريف، تنشـد الأمداح النبوية، ثم تقرأ قصيدة شعرية في مدح النبي ﷺ، وفيها يتشفع بـه وبجاهه عند الله تعالى، وتختم بالدعاء للسلطان، وتعداد مناقبه، واستعراض أعماله الجليلة.

وهذه الحفـلات في شكلها ومضمـونها العام تعتبر تقليـدا من السلطان لعظماء الملـوك والسـلاطين في الـدول السـالفـــة، التي حكمت المغـرب قبل العلويـيـــن، كالمـنصـــور الـذهـــبي السعـدي، وأبي الحسـن المـريـــني،

(72) المصدر السابق ، و ص .

ووالده أبي عنان، وملوك بني زيان بتلمسان، وبني مروان بالأندلس، الذين جعلوا هذه الاحتفالات فرضا وسنة متبعة.

– والقصيدة الرسمية التي كانت تنشد في مجلس المولى عبد الرحمن، كانت دائما من إنشاد وزيره وكاتبه العلامة الشاعر محمد بن إدريس، وإذا عاقه عائق، كان يكلف بها أكنسوس، االذي ينظمها على لسانه، كالقصيدة التي مطلعها (73) :

أعد الحديث عن الحمى وظبائه   فاسمع مشتاقا إلى ظبائه

– كما كان الشعراء يبعثون قصائدهم إلى هذه المجالس والمحافل الدينية العلمية والأدبية، كالقصيدة (74) التي بعثت إلى المولى عبد الرحمن، في أحد هذه المجالس العتيدة سنة 1262هـ.

المجالس العلمية لكبار العلماء :

من العلماء الذين كانوا يتبعون سنة ملكهم المولى عبد الرحمن، ويقيمون مجالس علمية خاصة بهم، يحضرها أعيان وأقطاب العلماء رواد المجالس العلمية السلطانية، وغيرهم من المثقفين الأدباء والشعراء والكتاب –العلامة القاضي مولاي عبد الهادي، الذي ولاه السلطان قضاء سجلماسة ونواحيها، ثم قضاء فاس، وزوجه ابنته الأميرة خديجة، وكان شيخ مجالسه العلمية السلطانية، وبمثابة المدير العام لها، وأحد أقطابها الرائدين.

فقد كان يعقد مجالسه العلمية الخاصة بداره، لسرد صحيح الإمام البخاري، حيث تدور خلال تقريرها وشرحها محادثات ومناقشات علمية، وأدبية ولغوية، ونحوية، وشعرية وغيرها، حسب تشعب الحوار وتطوره. مما تمخض مرارا عن مؤلفات، ورسائل، ومساجلات، ومناقضات، ومناجزات شعرية كتابية وشفوية متبادلة بين رواد مجالسه (75).

---

(73) الجيش ، لأكنسوس، ورقة : 231–239 .

(74) الاستقصا ، للناصري، ج: 9، ص: 55 .

(75) مجلة المناهل، ع: 36، ص: 375، صفحات من مخطوط المفاخر العلية للجائي تقديم : محمد المنوني .

- ومن أشهر هذه المجالس العلمية الخاصة للأئمة الكبار من العلماء مجلس الشيخ العلامة المحقق ذي الكرامات أبو محمد صالح البخاري الذي وفد على المولى عبد الرحمن من الشرق، فأكرم وفادته، وأذن له في الإقامة، وأغدق عليه النعم، وأنزله بحديقة السيد محمد بن البدوي برادة، حيث صار كبار العلماء يقصدون مجالسه العلمية للأخذ عنه، والمشاركة في أجوائها الثقافية، والاستفادة من جلساتها الممتعة، وعلى رأسهم العلامة -صاحب الحديقة المذكور- الذي كان من أشهر العلماء والأطباء المهرة في عهده (76).

(76) المصدر السابق، ص: 378 .



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

اهتمام الدولة العلوية بالعلم ومجالسه

الفصل الأول :

تقاليد المجالس العلمية السلطانية في عهد التأسيس

الفصل الثاني

تعدد المجالس العلمية بتعدد موضوعاتها وأهدافها

الفصل الثالث

تطور المجالس العلمية للملوك والأمراء وكبار العلماء بين عهد المولى إسماعيل وعهد الاضطراب

الباب الثاني

المجالس العلمية السلطانية بين

(1171 ـ 1276 هـ / 1757 ـ 1859م)

المجالس العلمية السلطانية على عهد : سيدي محمد بن عبد الله ـ المولى سليمان ـ المولى عبد الرحمن

الفصل الأول

المجالس العلمية على عهد سيدي محمد بن عبد الله

أنواعها مذهبها ـ نشاطها على الصعيدين : الوطني والعربي الإسلامي ـ مؤلفاتها ـ علماؤها

الفصل الثاني

المجالس العلمية على عهد المولى سليمان : تطورها وتنوعها تطور وتنوع أعمالها على الصعيدين الداخلي والخارجي - كتبها - علماؤها

الفصل الثالث

المجالس العلمية على عهد المولى عبد الرحمن
- وتعدد أنواعها وأعمالها بالداخل والخارج
- كتبها - وعلماؤها -



رقم الإيداع القانوني : 126 / 1994

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)

الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)

فاكس : 32.46.44(03)